FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

ألِسَّاندرو باريكّو

مدينة

ترجمها عن الإيطالية: گاصد محمد

المتوسط

ألِسَّاندرو باريكُّو

مدينة

ترجمها عن الإيطالية: گاصد محمد

المتوسط

مدينة

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

City *by* "Alessandro Baricco"
Copyright © RCS Libri S.p.A., Milano, 1999
Arabic translation copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: ألِسَّاندرو باريكّو / المترجم: كاصد محمد / عنوان الكتاب: المدينة
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: دوتشو بوسكولي / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-74-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

تمهيد

- إذنْ، يا سيّد كلاوسر، هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

- ليذهبَ الجميع إلى الجحيم.

- أهذا يعني نعم أم لا؟

- وما رأيكِ أنتِ؟

في شهر تشرين الثاني عام١٩٨٧، بعد اثنَيْن وعشرين عامًا من إصدار مغامرات بالّون ماك الأسطوري، قرّرت دار النشر (CRB) أن تعلنَ إجراء تصويت بين القرّاء، ليقرّروا فيما إذا كان من الضروريّ أن تموتَ مامي جين. وكان بالّون ماك بطلًا خارقًا أعمى، يعمل نهارًا طبيبَ أسنان، ويناضل ليلًا ضدّ الشّرّ، بفضل قوّة لُعابه الخارقة. وكانت مامي جين أمّه. وكان القرّاء عمومًا شديدي التّعلّق بها، وكانت هواياتها هي جمع فروات رؤوس الهنود الحمر، والعزف ليلًا على غيتار البيس في فرقة بلوز، تتألّف من الزنوج فقط، بينما كانت هي البيضاء الوحيدة. خَطَرَتْ فكرة قَتْلها في ذهن المدير المالي لدار النشر، وكان رجلًا وديعًا، هوايته الوحيدة هي القطارات الكهربائية الصغيرة. وادّعى أن قصّة بالّون ماك قد انتهتْ إلى محطّة مغلقة، ولا بد من تحفيز البطل بطريقة ما. وإن موت أمّه التي سيصدمها القطار، بينما يلاحقها عامل تبديل السكك الحديدية المصاب

بجنون الارتياب، سيُحوّله إلى مزيجٍ مدمّر من الغضب والألم، وهذا ما يطمح إليه القارئ المتوسّط. كانت الفكرة حمقاء، ولكن القارئ المتوسّط لبالّون ماك هو الآخر أحمق أيضًا.

وهكذا فقد قامت دار النشر، في تشرين الثاني من العام ١٩٨٧، بإخلاء غرفة في الطابق الثاني، وضعوا فيها ثماني شابّات، واجبهنّ الردّ على اتّصالات القرّاء لجَمْع آرائهم. كان السؤال هو التالي: أضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

أربع من بين الشّابّات كنّ موظّفات لدى دار النشر، اثنتان بَعَثَهُما مركز الرعاية الاجتماعية، وواحدة كانت ابنة مدير دار النشر. وكانت الأخيرة شابّة ثلاثينية، قادمة من مدينة بومونا، وكانت قد حَصَلَتْ على عقد تجريبي بعد أن نَجَحَتْ في الإجابة عن سؤال في مسابقة راديو: "ما هو أكثر شيء يكرهه بالّون ماك؟". "يكره إزالة الجير من بين الأسنان". وكانت الفتاة تتجوّل حاملة معها جهاز تسجيل صغيرًا. تُشغّله بين حين وآخر، وتُسجِّل فيه بعض الأشياء. كان اسمها شيتزي شيل.

في الساعة (١٠:٤٥) من صباح اليوم الثاني عشر من التصويت، كان قد صَوَّتَ ٦٤٪ على موت مامي جين مقابل ٣٠٪ (في حين يعتقد الـ ٦٪ الباقية أن على الجميع أن يذهبوا إلى الجحيم، وكانوا يتّصلون، ليُصرّحوا بذلك). سمعت شيتزي شيل الهاتفَ يرنّ للمرّة الحادية والعشرين، فسجّلت على الاستمارة أنها تجيب على الاتّصال الواحد والعشرين، ثمّ رفعت سمّاعة الهاتف، فَجَرَت المحادثة الآتية:

- مرحبًا بكَ في CRB، تفضَّل.

- صباح الخير، هل وَصَلَ ديزل؟

- مَنْ؟

- أوكي، لا بد أنه لم يصلْ بعد.

- إنها دار النشر CRB، يا سيّدي.

- أجل، أعرف ذلك.

- لابد أنكَ أخطأتَ الرَّقْم.

- لا لا، لم أخطئ في شيء، والآن اسمعيني من فضلكِ ...

- أيّها السّيّد ...

- أجل.

- أنا أحدِّثكَ من دار النشر CRB، ونحن نقوم بالتصويت التالي: "هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟".

- شكرًا، أعرف ذلك.

- إذنْ، هلا أعطيتَني اسمكَ من فضلكَ؟

- ليس لاسمي أهمّيّة في الأمر ...

- ولكنْ، يجب أن تعطني اسمكَ، هذه هي التعليمات.

- أوكي أوكي ... غولد ... اسمي غولد.

- سيّد غولد.

- أجل، سيّد غولد، والآن، اسمحي لي ...

- هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

- عذرًا؟

- عليكَ الإجابة عن السؤال ... هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

- أوه، يا إلهي ...

- أنتَ تعرف مَنْ هي مامي جين، صحيح؟

- بالتأكيد، أعرفها، ولكنْ ...

- انظرْ، يجب أن تخبرَني فقط إذا ما كنتَ تعتقد ...

- هلا أنصتِّ إليَّ لحظةً من فضلكِ؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، هلا أسديتِ لي هذه الخدمة: ألقي نظرة من حولكِ.

- أنا؟ هنا؟

- أجل، هناك، في الغرفة، افعلي ذلك من فضلكِ.

- أوكي، أنا الآن أنظر من حولي.

- جيّد. هل ترين فتىً حليق الرأس يقود فتىً آخر عظيم الهيئة، عظيمًا جدًّا، عملاقًا حقًّا، ينتعل حذاءً كبيرًا وسترة خضراء؟

- كلا، لا أظنّ ذلك.

- أواثقة من ذلك؟

- أجل، أنا متأكّدة.

- جيّد. إذنْ، هما لم يصلا بعد.

- كلا.

- حسنًا، أودّ أن أخبركِ بشيء ما.

- نعم؟

- هذان الاثنان ليسا شرّيرَيْن.

- صحيح؟

- أجل. حينما سيصلان، فإنهما سيُحطّمان كل شيء، ومن المحتمل جدًّا أنهما سيلفّان سلكَ الهاتف حول عنقكِ، سيقومان بأشياء من هذا القبيل، ولكنهما ليسا شرّيرَيْن، صدّقيني، إنهما فقط ...

- سيّد غولد ...

- نعم.

- هلا أخبرتَني كم عمركَ؟

- ثلاث عشرة سنة.

- ثلاث عشرة سنة؟

- اثنا عشرة ... إذا ما أردنا أن نكون دقيقين.

- اسمعْ، يا غولد، هل أمّكَ قريبة منكَ؟

- لقد غادرت أمّي البيتَ منذ أربعة أعوام، إنها تعيش الآن مع أستاذ، يدرسُ الأسماكَ، أقصد سلوكَ الأسماك، إنه باحثٌ في علم سلوك الأسماك، إذا ما أردنا أن نكون دقيقين.

- أنا آسفة.

- لا تأسفي، إن الحياة هكذا، لا يمكننا فِعْل شيء.

- حقًّا؟

- بالتأكيد. ألا تصدّقين؟

- أجل ... أظنّها كذلك ... لا أعرف بالضبط، أتصوّر أنها كذلك.

- بل هي هكذا حدّ اللعنة.

- عمرُكَ اثنتا عشرة سنة، أليس كذلك؟

- غدًا سأبلغ الثلاث عشرة، غدًا.

- رائع.

- رائع.

- عيد ميلاد سعيد، يا غولد.

- شكرًا.

- سترى أنه أمر رائع أن يبلغَ المرء ثلاث عشرة سنة.

- أرجو ذلك.

- أتمنّى لكَ عيد ميلاد سعيدًا حقًّا.

- شكرًا.

- أليس والدكَ قريبًا منكَ، ها؟

- كلا، إنه في العمل.

- أتفهّم ذلك.

- إن أبي يعمل في الجيش.

- رائع.

- هل كل شيء بالنسبة إليكَ رائع دائمًا؟

- عفوًا؟

- هل كل شيء بالنسبة إليكَ رائع دائمًا؟

- أجل ... أظنّ ذلك.

- رائع.

- أقصد ... أنه دائمًا ما يحدث لي ذلك، هكذا هو الأمر.

- هذا من حسن حظّكِ.

- يحدث لي ذلك حتّى في أشدّ اللحظات غرابة.

- أظنّ أن هذا من حسن حظّكِ، حقًّا.

- ذات مرّة كنتُ في مطعم وجبات سريعة، كنتُ حينها على الطريق السريع رَقْم ١٦ خارج المدينة، فتوقّفتُ عند مطعم وجبات سريعة، دخلتُ، ووقفتُ في الطابور، وكان هناك شابٌ فيتنامي على المبيعات، لا يفهم شيئًا، وهكذا فقد كان الطابور بطيئًا جدًّا، كانوا يطلبون منه همبورغر، وهو يجيب "ماذا"؟ ربّما كان يومه الأول في العمل، لا أعرف، وهكذا جعلتُ أتطلّع إلى المكان، في مطعم الوجبات السريعة، كانت هناك خمس طاولات أو ستّ، والجميع يأكلون، الكثير من الوجوه المختلفة، وكل أمامه طبق مختلف، كوتوليتا، ساندويتش، يخنة الكيلي، كان الجميع يأكل، وكلّ منهم يرتدي ملابس كما يرغب، نَهَضَ في الصباح، واختار بعض الثياب، القميص الأحمر، الفستان الضيّق عند الصدر، تمامًا ما يرغب فيه، والآن ها هو هناك، وكلّ منهم لديه حياة سابقة، وأخرى مستقبلية، وكانوا مُجرّد عابرين في ذلك المكان، وفي الغد، كانوا سيقومون بالشيء ذاته من البداية، سيختار هو القميص الأزرق، وهي الفستان الطويل، ولا بد أن أمّ تلك الشقراء البرشاء في المشفى، وكل تحاليل دمها مقلقة، ولكنْ، ها هي الآن هناك، تعزل قِطَعَ البطاطس المحترقة عن الأخريات، وهي تقرأ صحيفة مسندة إلى حُقّة الملح التي تشبه قنّينة بنزين، ثمّ كان هناك رجل يرتدي ملابس البيسبول، ولكنه، بالتأكيد، لم يدخل ملعب البيسبول منذ أعوام، كان بصحبة ابنه، ولد صغير، وكان يستمرّ بضربه على رأسه، على مؤخّرة رأسه، كلّما عدّل الولد قبّعته، قبّعة بيسبول، "تاك" يضربه الأب ضربة أخرى، ذلك كله يجري، بينما هما يأكلان، تحت تلفاز مُعلّق على الجدار، مطفأ، وسط ضجيج الشارع الذي يأتي كالموج، وكان هناك رجلان أنيقان، يرتدي كل منهما بذلة رصاصية، يجلسان في الزاوية،

كان أحدهما يبكي، وقد بدا الأمر غريبًا جدًّا، ولكنه يبكي، وأمامه شريحة لحم وبعض البطاطس، يبكي بصمت، بينما الآخر لا يفعل شيئًا مطلقًا، وأمامه هو أيضًا شريحة لحم وبعض البطاطس، كان يأكل فقط، وحده، وفي لحظة ما، نَهَضَ وتوجّه إلى الطاولة المجاورة، تناول علبة الكتشب، ثمّ عاد إلى مكانه، وبحذر شديد، كيلا يُلطّخ ثيابه، قام بسَكْب بعض الكتشب في طبق الرجل الذي كان يبكي، ثمّ همس في أذنه شيئًا ما، لا أعرف ماذا، أغلق العلبة، وعاد يأكل، كانا في الزاوية، والباقون حولهما، وكانت الأرضية ملطّخة بالآيس كريم، وعلى باب الحمّام لوحة، كُتب عليها المرحاض معطّل، كنتُ أنظر إلى ذلك كله، وكان واضحًا أن الأمر مثير للاشمئزاز، يثير فيكَ رغبة في التّقيّؤ، بقدر ما كان هناك من الحزن، في حين ما حصل لي وأنا في الطابور، بينما الفيتنامي لا يزال لا يفهم شيئًا ممّا يُطلَب منه، هو أن قلتُ في نفسي: يا إلهي! كم هذا جميل! وقد اعترتْني رغبة في الضحك، سحقًا كم كان ذلك كله جميلاً! كل شيء، حتّى الذّرّة الأخيرة من الأشياء الملطّخة على الأرضية، حتّى آخر منديل ملطّخ ببقايا الطعام، دون أن أعرفَ السبب، ولكنْ، كان كل شيء حقيقيًّا، وكان جميلاً حدّ اللعنة. أليس هذا غريبًا؟

- أجل، غريب.

- يجدر بي أن أشعرَ بالعار، بينما أنا أحكي ذلك.

- لماذا؟

- لا أعرف ... الآخرون لا يحكون عادة أشياء كهذه.

- أما أنا، فقد أعجبتْني.

- آه، حقًّا!

- حقًّا، بالذات قصّة الكتشب.

- تناول العلبة، وأفرغ له منها القليل ...

- أجل.

- وكان يرتدي بذلة رصاصية.

- مضحك.

- بلا أيّ سبب.

- هكذا.

- غولد؟

- نعم.

- أنا سعيدة باتّصالكَ.

- لا لا، انتظري ...

- لا أزال معكَ على الخطّ.

- ما اسمكِ؟

- شيتزي.

- شيتزي.

- اسمي شيتزي شيل.

- شيتزي شيل.

- وليس هناك أحد يلفّ سلكَ الهاتف حول عنقكِ، أليس كذلك؟

- كلا.

- ستذكرين، إذا ما أتيا، أنهما ليسا شرّيرَيْن؟

- إنهما لن يأتيا، سترى ذلك.

- لا تكوني واثقة، بل سيأتيان.

- لماذا يجب أن يأتيا؟

- لأن ديزل يُقدِّس مامي جين. وطوله متران وسبعة وأربعون سنتمتر.

- رائع.

- لا أظنّ ذلك. حينما يكون غاضبًا جدًّا، فهذا قطعًا ليس رائعًا.

- وهل هو الآن غاضبٌ جدًّا؟

- قد تكونين أنتِ أيضًا غاضبة جدًّا، لو أنهم قاموا بالتصويت على قَتْل مامي جين، وهي بالنسبة إليكِ الأمّ المثالية.

- إنه مُجرّد تصويت، يا غولد.

- ديزل يقول إنها مُجرّد خدعة، وإن قرار قَتْلها قد اتُّخذ منذ أشهر، وإنهم يقومون بهذا لحِفظ ماء الوجه.

- لعلّه مخطئ في ذلك.

- ديزل لا يخطئ أبدًا . إنه عملاق.

- كم هو عملاق؟

- عملاق جدًّا.

- كنتُ مسبقًا على علاقة بشابّ، وكان بوسعه إدخال الكرة في السلّة دون حتّى أن يقفَ على أطراف أصابع قَدَمَيْه.

- حقًّا؟

- ولكنه كان يعمل قاطعَ تذاكر في السينما.

- وكنتِ تحبّينه؟

- أيّ سؤال هذا، يا غولد؟

- لقد قلتِ إنكِ كنتِ على علاقة به؟

- أجل، كنتُ على علاقة به. دامتْ علاقتُنا اثنَيْن وعشرين يومًا.

- وماذا حَصَلَ بعد ذلك؟

- لا أعرف ... الأمور معقّدة بعض الشيء، أتفهم؟

- أجل، ديزل أيضًا معقّد بعض الشيء.

- هكذا الأمر، إذنْ.

- لقد اضطرّ أبوه أن يصنعَ له مرحاضًا على مقاسه، وقد كلّفه ذلك الكثير.

- لقد قلتُ لكَ إن الأمور معقّدة بعض الشيء.

- صحيح. حينما بدأ ديزل بالذهاب إلى المدرسة، هناك في تاتون، كان يصل صباح اليوم التالي ...

- غولد؟

- نعم.

- اسمحْ لي لحظة من فضلكَ.

- حسنًا.

- ابقَ على الخطّ، اتّفقنا؟

- حسنًا.

تَرَكَتْ شيتزي شيل الخطّ على الانتظار، ثمّ التفتتْ نحو السّيّد الذي كان واقفًا أمام مكتبها، يتطلّع إليها. كان الرجل رئيس قسم التنمية والترويج، واسمه بيلرباومان. وكانت عادته مصّ ضلعِ النّظّارة.

- سيّد بيلرباومان؟

تنحنح السّيّد بيلرباومان.

- أيتها الآنسة، أظنكِ كنتِ تتكلّمين عن عمالقة؟

- بالضبط.

- منذ اثنَتَي عشرة دقيقة وأنت تتكلّمين عن العمالقة.

- اثنَتَي عشرة دقيقة؟

- لقد تحدّثتِ البارحة بانشراح لسبع وعشرين دقيقة مع عميل في البورصة، وفي نهاية المطاف عرضَ عليكِ الزواج.

- كان لا يعرف مَنْ هي مامي جين، وقد كان عليّ أن ...

- وفي اليوم السابق، بقيتِ ملتصقة بالهاتف لساعة وإحدى عشرة دقيقة، وأنتِ تصحّحين الواجباتِ المدرسيةَ لصبيّ لعين، وفي النهاية، أجابكِ قائلًا: لماذا لا تفطّسون بالّون ماك؟

- قد تكون فكرة جيّدة، ألا تظنّ ذلك؟

- أيتها الآنسة، إن هذا الهاتف ملك لدار النشر، وهي تدفع لكِ لقاء طرحِكِ سؤالًا لعينًا واحدًا: هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

- وأنا أحاول جهدي من أجل ذلك.

- وأنا أيضًا. لذلك فأنتَ مطرودةٌ من العمل، يا آنسة شيل.

- عذرًا؟

- أنا مُجبرٌ على طَرْدكِ من العمل، يا آنسة.

- هل أنت جادّ؟

- آسف جدًّا.

- ...

- ...

- ...

- ...

- سيّد بيلرباومان؟

- نعم.

- هل يضايقكَ إن أنا أكملتُ المكالمة؟

- أيّ مكالمة؟

- هذه المكالمة. هناك فتىً ينتظر على الخطّ.

- ...

- ...

- أنهي المكالمة، إذنْ.

- شكرًا.

- عفوًا.

- غولد؟

- هالو؟

- يجب عليّ أن أنهيَ الاتّصال، يا غولد.

- حسنًا.

- لقد طُردتُ توًّا من العمل.

- رائع.

- لا أظنّ ذلك.

- على الأقلّ، لن يخنقاكِ أنتِ.

- مَنْ؟

- ديزل وبوميرنغ.

- العملاق؟

- العملاق هو ديزل، أما بوميرينغ، فهو الآخر، الفتى الأبكم حليق الرأس.

- بوميرينغ.

- أجل، إنه أبكم. لا يتكلّم. يسمع، ولكنه لا يتكلّم.

- سيوقفانهما عند المدخل.

- عادة ليس بوسع أحد إيقافهما، هذَيْن الاثنَيْن.

- غولد، هل من الضروري أن تموتَ مامي جين أم لا؟

- ليذهبَ الجميع إلى الجحيم. لا أعرف، عذرًا. هلا أخبرتِني بشيء، يا شيتزي؟

- يجب أن أذهبَ الآن.

- شيء واحد فقط.

- قل، إذنْ.

- ذلك المكان، مطعم الوجبات السريعة ...

- أجل.

- أظنّ أنه ... مكان لا بأس به ...

- أظنّه كذلك ...

- خَطَرَ بذهني أنه سيكون جميلاً أن أحتفلَ بعيد ميلادي هناك.

- ماذا تقصد؟

- يوم غد ... هو عيد ميلادي ... بوسعنا الذهاب هناك، لعلّ أولئك الاثنَيْن ببذلَتَيْهما الرصاصيَّتَيْن لا يزالان هناك، أصحاب قصّة الكتشب.

- إنها فكرة غريبة، يا غولد.

- أنتِ، أنا، ديزل وبوميرينغ. على حسابي.

- لا أعرف.

- إنها فكرة جيّدة، أُقسمُ لكِ.

- ربّما.

- ٨٥٥٦٧٤١٨.

- ما هذا؟

- رَقْم هاتفي، اتّصلي بي، إذا أحببتِ، أوكي؟

- لا يبدو أن عمركَ ثلاث عشرة سنة.

- غدًا سأبلغ الثالثة عشرة، إذا ما أردنا أن نكون دقيقين.

- صحيح.

- حسنًا، اتّفقنا، إذنْ.

- أجل.

- اتّفقنا.

- غولد؟

- نعم؟

- وداعًا.

- وداعًا، يا شيتزي.

- وداعًا.

ضَغَطَتْ شيتزي شيل على الزرّ الأزرق، وأقفلت الاتّصال. استغرقت بعض الوقت، لتضعَ أغراضها في الحقيبة، كانت حقيبة صفراء اللون، وقد كُتب عليها أنقذ كوكب الأرض من مخالب الأقدام مطلية الأظفار. أخذت معها صور والت ديزني المؤطّرة، وصور أيفا براون أيضًا، وجهاز التسجيل الذي تحمله معها دائمًا. وكانت بين حين وآخر تُشغّله، وتُسجّل فيه بعض الأشياء. كانت الشّابّات الأخريات ينظرنَ إليها دون أن يتفوّهنَ بكلمة، بينما الهواتف ترنّ دون مجيب، وبذلك فقد تجمّدت بعض المؤشّرات المستقبلية لحياة مامي جين. قالت شيتزي شيل ما تودّ أن تقولَه، بينما كانت تخلع حذاء التنس، وتضع الحذاء ذا الكعب العالي:

- للمعلومة فقط، سيدخل من هذا الباب - بعد قليل - شخص عملاق، وآخر حليق الرأس أبكم، سيحطّمان كل شيء، وسيخنقانكنّ بأسلاك الهواتف. العملاق اسمه ديزل والأبكم بوميرينغ. أو ربمّا العكس، لا أذكر جيّدًا، على أي حال، إنهما ليسا شرّيرَيْن.

كان إطار صورة أيفا براون من البلاستك الأحمر، وخلفه مسند مغلّف بالقماش، قابل للطّيّ، يستعمل لإسناد الصورة عند الحاجة. وكانت لصورة أيفا براون وجه يشبه حقيقةً أيفا براون.

"أفهمت؟".

"تقريبًا".

"كان عازف بيانو في مركز تجاري ضخم، تحت السّلّم الكهربائي في الطابق الأرضي، وقد فَرَشَ سجّادة حمراء، ونَصَبَ فوقها بيانو أبيض، وكان يعزف ستّ ساعات في اليوم، وهو يرتدي البذلة الرسمية، يعزف شوبان، كول بورتر، وموسيقى من هذا النوع، كلها عن ظهر قلب. وكان لديه لافتة، خُطَّتْ بشكل أنيق، وقد كُتب عليها: سيعود عازفنا بعد قليل، يضعها فوق البيانو حينما يذهب إلى الحمّام. ثمّ يرجع ويعاود العزف. لم يكن سيّئًا كبقية الآباء، أقصد لم يكن سيّئًا بذلك الشكل ... فهو لا يضرب أحدًا، لا يشرب الخمر، لا يمارس الجنس مع السكرتيرات، لا شيء من هذا النوع، ولا يُبذِّر ماله في شراء السّيّارات، كان لا يحبّ امتلاك سيّارة جديدة ... جدًّا، أو جميلة، وكان بوسعه فِعْل ذلك، لكنه لم يفعلْ، كان حذرًا من ذلك، وكان أمرًا طبيعيًا بالنسبة إليه، لا أظنّه كان يتصنّع ذلك، يفعله وكفى، لا يأتي بشيء من هذه الأشياء كلها، وكانت هذه هي مشكلته

تمامًا، أتفهم؟ المشكلة هنا تمامًا ... أنه لا يقوم بهذه الأشياء، هذه الأشياء، والآلاف مثلها، كان فقط يعمل، هذا ما كان يقوم به، كما لو أن الحياة قد أهانتْه، وقد انطوى هو على مهنته تلك التي كانت بمثابة هزيمة، دون أيّ رغبة في الخروج من ذلك، وكأنه في ثقب أسود، في هاوية التعاسة والتراجيدية. والتراجيدية الحقيقية، قلب تلك التراجيدية أنه جرَّنا معه من ذلك الثقب حتّى الأعماق، أنا وأمّي، ولم يفعل شيئًا آخر سوى جَرِّنا إلى عمق الهاوية، باستمرارية عجيبة، في كل لحظة من حياته، في كل ثانية، وقد كرّس كل حركة في حياته، ليُثبِت بهَوَس نظريته القاتلة، النظرية التالية: إذا كان قد وَصَلَ إلى هذه الحالة، فقد فَعَلَ ذلك كله من أجلنا نحن الاثنَيْن، من أجلي أنا وأمّي، هذه كانت نظريته، من أجلنا نحن الاثنَيْن، لأننا موجودتان، وذلك كله كان ذنبنا، لكي يُنقذنا، لكي لكي لكي، طوال الوقت اللعين كان يُذكّرنا بتلك النظرية الغبية، حياته كلها معنا كانت متمثّلة في هذه الحكاية المتواصلة المتهالكة، وقد قام بذلك بأمكر طريقة ممكنة، وأقساها، أي دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، دون أن يتناول الموضوع، لم يتكلّم عن ذلك قطّ، وكان بوسعه إخبارنا بذلك، بشكل جلي، لكنه لم يفعل ذلك قطّ، ولا حتّى كلمة واحدة، وكان هذا رهيبًا، كان مؤلمًا جدًّا، ألاّ يُخبرنا بشيء، ولكنه كان يُخبرنا به طوال الوقت، بالطريقة التي يجلس بها على الطاولة، بما يشاهده في التلفاز، وحتّى بطريقته في قَصّ شعره ... كان ذلك قاسيًا، إنه شيء يثير الجنون، وكدتُ أصاب بالجنون، كنتُ طفلة، طفلة لا تستطيع حماية نفسها، قد يكون الأطفال شياطين، ولكنهم لا يستطيعون حماية أنفسهم من بعض الأشياء، كان كَمَنْ يضرب طفلاً، وماذا بوسع طفل أن يفعلَ إذا ما ضُرِب؟ لا يستطيع شيئًا، وأنا لم أستطعْ فِعْلَ شيء، كدتُ أُصاب بالجنون، وهكذا قامت أمّي ذات يوم، وحكتْ

لي عن أيفا براون. كانت مثالًا رائعًا. أيفا براون، ابنة هتلر. قالت لي أمّي أني يجب أن أفكّر في أيفا براون. لقد استطاعت هي أن تتجاوز محنتها، وبوسعكِ أنتِ أيضًا أن تفعلي ذلك، قالت لي. كان حوارًا غريبًا، لكنه مجديًا. قالت لي إنه حينما قَتَلَ نفسَه، في نهاية المطاف، قامت هي بِبَلْع كبسولة سيانيد، وقَتَلَتْ نفسها معه، كانت هناك، في الملجأ، وماتت معه. فحتّى أسوء الآباء فيهم بعض الطيبة، قالت لي. ويجب أن نتعلّم حبّ هذه الطيبة. وكنتُ أنا أسأل نفسي، في أي شيء كان هتلر طيّبًا، وكنتُ أحوك الحكايات حول هذا الأمر، مثلًا أن يعودَ هو عند المساء إلى البيت، وقد أعياه التعب، ويتكلّم بصوت خافت، يجلس أمام الموقد، يحدّق في النار، وقد أهلكَهُ التعب، وأنا التي كنتُ أيفا براون، طفلة بضفائر شقراء، وساقَيْن بيضاوَيْن جدًّا تحت التّنّورة، أنظر إليه دون أن أدنوَ منه، من الغرفة المجاورة، بينما هو يتهالك من التعب، والدم يتساقط من كل أنحاء جسده ، وكان غاية في الروعة في بذلته العسكرية، وليس بوسعي فِعْل شيء سوى أن أحدّق فيه، فيختفي الدم، ويبقى التعب، تعب رائع، بينما أنا هناك أشم الروائح، حتّى يلتفتَ نحوي في لحظة ما، يراني ويبتسم لي، ثمّ ينهض رغم كل ما يعتريه من العناء، ويأتي نحوي، يأتي إليّ، ويتمدّد قربي: هتلر. أمر يثير الجنون. يهمس بشيء ما بالألمانية، ثمّ يرفع يده، يده اليمنى، ويمسّد شعري، ورغم أن الأمر يبدو مرعبًا، إلا أن تلك اليد كانت عذبة ودافئة وحلوة، وكأنها تحتوي على الحكمة، يد بوسعها أن تحميكَ، وبقدر ما قد تكون مثيرة للاشمئزاز، يد بوسعكَ أن تحبّها، بل ينتهي بكَ الحال أن تحبّها، وتقول في نفسكَ كم هو جميل أن تكون تلك يد أبيكَ، عذبة، فوقكَ. كانت تراودني أشياء من هذا القبيل. لكي أتمرّسَ، أتفهم؟ كانت أيفا بروان أشبه بقدوة أتدرّب على تقليدها، وأصبحت بمرور الوقت

متمرّسة. أحدّق في أبي مساء، وهو يجلس بالبيجامة أمام التلفاز، حتّى أرى هتلر، بالبيجامة أمام التلفاز. أتمسّك بتلك الصورة لبعض الوقت، يتشرّب ذهني بها، ثمّ تضطرب، ويعود أبي إلى وجهه الحقيقي: يا إلهي، كم كان عذبًا، بذلك الإجهاد كله وتلك التعاسة. ثمّ أعود إلى هتلر، ومرّة أخرى إلى أبي، أتأرجح ما بين هذا وذاك بمُخيّلتي التي كانت وسيلة الهرب من العذاب، من الصمت، ومن ذلك الخراء كله. وكان ذلك مجديًا، إلا ما ندر، كان دومًا مجديًا. ثمّ قرأتُ بعد بضع سنين، في إحدى المجلات، أن أيفا براون لم تكن ابنة هتلر، بل عشيقته، أو امرأته، لا أعرف. على أي حال، كان يضاجعها. وكانت تلك ضربة قاضية. امتلأ رأسي بالفوضى، حاولتُ أن أرتّب الأشياء، بطريقة ما، ولكنْ، دون جدوى. لا تغيب عن بالي صورة هتلر، وهو يقترب من تلك الطفلة، ويبدأ بتقبيلها وممارسة بقية الأشياء معها، كان مثيرًا للغثيان، وكانت الطفلة هي أنا، أيفا براون، وهو يصبح أبي، كان خليطًا من الهلوسة، شيئًا مرعبًا. وهكذا تحطّمت اللعبة، ولم تكنْ هناك من وسيلة لتجميعها، كانت مجديةً في بداية الأمر، ولكنْ، بطل السِّحْر. وانتهى الأمر هناك، لم أستطعْ بعد ذلك أن أحبّ أبي، حتّى غيَّر قطاره، كما قال هو. حكاية مضحكة. غيَّر قطاره ذات أحد، بينما كان يعزف هناك، تحت السّلّم الكهربائي، فَدَنَتْ منه سيّدة نشوى، ترتدي المجوهرات. كان يعزف مقطوعة When We Were a live . فَجَعَلَتْ ترقص أمام الجميع، وهي تحمل بيَدَيْها أكياس التّسوّق. استمرّ الأمر نصف ساعة، ثمّ أخذتْه تلك المرأة معها، ومَضَتْ. كل ما قاله لنا في البيت هو: لقد غيّرت القطار. في تلك اللحظة، صراحة، أحببتُه بعض الشيء، لأنها كانت أشبه بلحظة تحرّر، لا أعرف، سرَّح شَعره وكأنه عاشق، وارتدى قميصًا جديدًا، وقد تملّكتني حينها رغبة في أن أحبّه، على الأقل للحظة، كانت

أشبه بلحظة تحرّر. غيّرت القطار. سنون من التراجيدية المنزلية مسحها بجملة واحدة، لا معنى لها. كم كان مضحكًا. ولكنْ، غالبًا ما تسير الأمور هكذا: تكتشف في النهاية أن الألم، ذلك الألم كله، كان بلا جدوى، وأنكَ عانيت كحيوان، بلا جدوى، لم يكن عادلًا أو غير عادل، لم يكنْ حسنًا أو سيّئًا، كان فقط بلا جدوى، كل ما بوسعكَ قوله في النهاية: كان ألمًا، لا جدوى منه. أمر يثير الجنون، إذا ما تفكّرتَ، ولكنْ، من الأفضل ألا تفكّر في ذلك، كل ما بوسعكَ فِعْله هو أن تتجاهلَه، تتجاهلَه تمامًا، أتفهم؟

"تقريبًا".

"هل الهامبرغر لذيذ؟"

"أجل".

وانتهى الحال أن لم يصلْ ديزل وبوميرينغ إلى دار النشر، لأنهما عند مفترق الطريق بين الشارع السادس وشارع بوليفارد بوردون وَجَدَا أمام أعينهما، فوق الرصيف، كعب حذاء عالٍ أسود، تدحرج هناك من حيث لا يعلم أحد، كأنه صخرة وسط سيل عارم من الناس التي تجري من أجل استراحة الغداء.

- سحقًا - قال ديزل.

- ما هذا؟ - "لم" يقلْ بوميرينغ.

- انظر – قال ديزل.

- اللعنة – "لم" يقل بوميرينغ.

كانا يحدّقان بكعب الحذاء ذلك، وفي لحظة كلمح البصر تخيّلا كعب القَدَم الذي يرتدي جوارب سوداء، تخيّلا خطوة الفتاة وهي تفقد كعب الحذاء، الخطوة تمامًا، والتي تعني الإيقاع والحركة، خطوة رصينة لفتاة ترتدي جوارب سوداء. رأياها أولًا في الخطى الراقصة لساقَيْن رشيقَيْن، ثمّ في انحناءة الصدر الذي احتواه القميص، والذي يحيلكَ إلى الشعر القصير الأسود، تخيّله ديزل شعرًا قصيرًا أشقر، وتخيّله بوميرينغ ناعمًا ومسرّحًا بما فيه الكفاية، ليتراقصَ على ذلك الإيقاع، وقد أصبح في أعينهما جسدًا أنثويًا، وإنسانًا له تاريخ، وإذ بكعب الحذاء يتأرجح في خطوة ما فجأةً، ثمّ ينفصل عن الحذاء في الخطوة التالية، فيجبر الجسد الأنثوي على اتّخاذ إيقاع آخر دون أن يتهاوى، ثمّ يستعيدَ توازنه في لحظة الصمت المطبقة.

كانت حولهما ضوضاء عارمة، ولكنْ، لا شيء بوسعه أن يزيحَهما عن ذلك المكان، وكان ديزل قد انحنى أكثر من المعتاد، وهو يحدّق في الأرض، وبوميرينغ يحكّ جِلْدة رأسه الأملس بيده اليسرى: في حين كانت اليد اليمنى، كالعادة، مُعلّقة بجيب بنطلون ديزل. كانا ينظران لكعب حذاء أسود، ولكنْ، في الحقيقة كانا يريان تلك الأنثى وهي تتعثّر ببطء، يريانها وهي تلتفت للحظة قائلة: اللعنة، دون أن تخالجَها فكرة الوقوف، كما كانت ستفعل أيّ امرأة عادية: تتوقّف، ترجع أدراجها، تلتقط كعب الحذاء، وتحاول إلصاقه وهي ترفع يَدَهَا لإيقاف مرور السّيّارات، ولكنْ، لم يتبادرْ في ذهنها ذلك الأمر المنطقي، بل استمرّت في سيرها وهي تردّد: اللعنة، في اللحظة التي لا يخطر حتّى في بالها أن ذلك سيُشوِّه مظهرها الأنيق وهي تسير كعرجاء، ولكنْ، ها هي تخلع الحذاء التالف، بحركة خفيفة، ودون أن تتوقّف، ثمّ تتحوّل إلى أسطورة في أعينهما حينما تخلع الحذاء الآخر من قَدَمها التي ترتدي جوارب نايلون سوداء، وترميهما

في حاوية النفايات الزرقاء، وبينما هي تنظر حولها للعثور على حلّ سريع، إذ بسيّارة صفراء، تسير ببطء في الشارع: ترفع المرأة ذراعَها، تنزلق على معصمها أساور ذهبية، تشعل السّيّارة الصفراء الإشارات الضوئية، تقف، تصعد المرأة، تطلب من السائق أن يوصلَها إلى مكان ما، بينما هي ترفع قَدَمَيْها الحافيَتَيْن على المقعد، وتسحب تنّورتها، وفي لحظة ما تظهر حافّة جاربَيْها التي تنتهي عند بعض سنتيمترات من الفخذ الأبيض، ثمّ يظهر طرف تبانها، ذلك كله في لحظة خاطفة، تتخلّل عينَي رجل، يرتدي بذلة غامقة اللون دون أن يُشدّد التركيز، ولكنه يختزن في شبكَتَيْه ذلك المشهد الخاطف الذي يؤجّج فؤاده، ويقع على سياج الخدر، هذا ما حدث لرجل مجهَد من زواجه الطويل، وسط الضجيج والتّذمّر.

ما حدث هو أن ديزل وبوميرينغ بقيا معلّقَيْن بالرجل ذي اللباس الغامق، وقد شفطهما اضطرابه الذي أثّر فيهما، إذا صحّ القول، ودفعهما بعيدًا حتّى شاهدا السجّادة البنّيّة تحت سريره، وشمّا الروائح في مطبخه. وقد جلسا على الطاولة معه، ولاحظا أن زوجته تضحك كثيرًا من النكات في التلفاز، في حين هو، الرجل ذو اللباس الغامق، كان يسكب لها البيرة في القدح، وقد اختار لنفسه قنّينة ماء، لا باردة ولا غازية، وقد أُجبر على ذلك بفِعْل ذكرى قديمة لمغص كلوي. ثمّ وجدا في الجارور الثاني من مكتبه اثنَتَيْن وسبعين صفحة من رواية غير مكتملة، وكان عنوانها الرهان الأخير، ووجدا بطاقة للدكتور مورتنسن، وقد ارتسم على قفاها أثر شَفَتَيْن، كان بنفسجيّ اللون. وكان الراديو قد وُضع على الموجة ١٠٢,٤ "نوستالجيا راديو"، ومن أجل تخفيف الضوء، فقد وضع على الأباجورة كرّاس "أطفال الرب" الذي يحوي نظرية خلود الصيد البرّيّ وصيد الأسماك، وقد صُهد العنوان في أكثر من موضع بفِعْل المصباح، وكانت هناك جملة سأجعل

منكم صيّادي بشر. كادا يعبثان بالملابس الداخلية للسّيّدة مورتنسن، وإذا باقتران الأفكار يلهب في دمهما ذكرى قَدَم الأنثى التي ترتدي جواربَ نايلون سوداء، فهزّهما، وعاد بهما إلى التاكسي الصفراء، وأبقاهما هناك، على رصيف الشارع، وقد أذهلَهما الاكتشاف المدمّر حين أدركا أن التاكسي الصفراء توارت في زحام المدينة، حيث كان الشارع مزدحمًا بالسّيّارات، ولكنه يخلو من سيّارات صفراء، ومن امرأة أسطورية جالسة على المقعد الخلفي.

- يا إلهي - قال ديزل.

- لقد اختفتْ - "لم" يقل بوميرينغ.

على سطح كعب الحذاء المنحني كانا يحدّقان في مدينة بأكملها، آلاف الشوارع ومئات السّيّارات الصفراء.

- فقدناها - قال ديزل.

- ربّما - "لم" يقل بوميرينغ.

- إنه كالبحث عن إبرة وسط كومة قشّ.

- ليس كالبحث عن سيّارة.

- هناك الآلاف منها.

- ولكنْ، ليست السّيّارة الصفراء.

- سيّارات كثيرة.

- ليست السّيّارة، ولكنْ، الحذاء.

- أين قد تتّجه سيّارة صفراء؟

- أحذية. محلّ للأحذية.

- حيث أرادت هي أن تتّجهَ.

- محلّ أحذية. المحلّ الأقرب لِبَيْع الأحذية.

- نظرت إلى سائق التاكسي، وقالت ...

- المحلّ الأقرب لِبَيْع الأحذية، حذاء أسود ذو كعب عالٍ.

... المحلّ الأجمل لِبَيْع الأحذية، هنا في الجوار.

- توكسونس، الشارع الرابع، الطابق الثاني، حيث الأحذية النسائية.

- توكسونس، بحقّ الجحيم.

وجداها أمام المرآة، تضع حذاءً أسود ذا كعب عالٍ، وبجانبها البائع يقول لها: رائعة.

عندئذٍ لم يفقداها أبدًا. جعلا يتابعان، ولساعات طويلة، كل حركة تقوم بها، وكل الأشياء من حولها، كما لو كانا يجرّبان بعض العطور. كانا قد تشرّبا بها، وتبعاها بعد عشاء طويل حتّى وَصَلَتْ إلى سرير رجل، تضوع منه الكولونيا، ولا يكفّ عن إعادة تشغيل معزوفة البوليرو لرافيل. وكان أمام السرير حوض أسماك، فيه سمك بنفسجيّ، والكثير من الفقاعات التافهة. كان الرجل يضاجعُها بصمت: وَضَعَ خاتم الزواج الذَّهَبي على الدُّرج، حذوَ علبة، تحتوي على خمس واقيات ذَكَريّة من ماركة جيّدة، وكانت هي تُنبتُ أظفارَها في ظهره، بما فيه الكفاية، لجَعْله يشعر بذلك،

ولكنْ بعذوبة، ودون أن تتركَ آثارًا. وفي الإعادة السابعة لمعزوفة بوليرو، قالت للرجل: أرجو المعذرةَ. نزلتْ من السرير، ارتدتْ ثيابها، ووضعتْ حذاءها الأسود ذا الكعب العالي، وغادرت دون أن تتفوّه بكلمة. وآخر ما رآه منها هو انغلاق الباب خلفها، بكل عذوبة.

ينزل المطر. الإسفلت المبلّل كأنه مرآة حول كعب الحذاء الأسود الذي يبدو كعينٍ صافيةٍ، تنظر إليهما.

- مطر - قال ديزل.

رَفَعَا نظرَهما، كانت السماء رمادية، هناك القليل من المارّة، وضجيج عجلات السّيّارات وبرك الماء. ابتلّ حذاءاهما، جرى الماء على أعناقهما، وعلى الساعة، فأتلفها.

- لنذهب - قال ديزل.

- لنذهب - "لم" يقل بوميرينغ.

يسير ديزل بمشقّة، يجرّ قَدَمَه اليسرى جرًّا، كان حذاؤه مثيرًا للسخرية، ضخم جدًّا، ملتصقًا بتلك الساق التي لا تثبتُ على حال تحت الركبة، وكانت تنثني بصعوبة، تلتوي في كل خطوة كراقصة. كان يتنفّس بصعوبة، كأنه راكب درّاجة هوائية في طريقٍ صاعدةٍ، يتنفّس بإيقاع قبيح ومتعب. وكان بوميرينغ يعرف تلك الخطوة وذلك التّنفّس عن ظهر قلب. كان يتعلّق بديزل، ويرقص على ذلك الإيقاع بأناقة، فيبدو متعبًا، وكأنه شارك في ماراتون تانغو. كانا يسيران معًا في طريق العودة إلى البيت، وحولهما أجزاء المدينة الرّثّة، وأضواء إشارات المرور، والسّيّارات التي تُسبّب ضجيجًا في سَيْرها على مياه المطر، وكعب حذاء على الأرض، وقد نأيا عنه، كأنه عين مبتلّة، فَقَدَتْ جفنَيْها ورمشَيْها، عين فانية.

كانت صورة والت ديزني أكبر بقليل من صورة أيفا براون. يحيطها إطار من الخشب فاتح اللون، وخلفها مسند قابل للطّيّ: يُستعمَل لإسناد الصورة عند الحاجة. كان شَعره أبيض، يقف باسمًا بساقَيْن مفرَّجَتَيْن وقطار صغير بينهما. قطار أطفال، بقاطرة ساحبة، وكثير من العربات. ليس له سكّة حديد، وكانت إطاراته من المطّاط، وكان في ديزني لاند، أناهيم، في كاليفورنيا.

"أفهمتَ؟"

"تقريبًا".

"على أيّ حال، كان هو أعظم الرجال. كان رجعيًّا بغيضًا، بوسعنا قول ذلك، ولكنه يعرف كيف يصنع السعادة، كانت تلك موهبته، يبلغ السعادة مباشرة، دون تعقيدات، وجرّ وراءه الجميع. كان أكبر صانع للسعادة في العالم، يمنح السعادةَ للجميع، بمختلف الأذواق، بحكايات البطّ والأقزام والأطفال، تخيّل كيف صَنَعَ ذلك، ولكنه رغم كل شيء قام باستخلاص السعادة من الفوضى حوله، ولكنْ، قد يسألكَ أحدهم أيّ سعادة تلك، وإن كانت مثيرة للاشمئزاز بعض الشيء؟ علينا الاعتراف، قد لا يكون بوسعكَ القول ما هي السعادة، ولكنْ، بوسعكَ أن تميّز طعمها، أعني كما أنكَ تميّز طعم الفراولة أو التوت، كذلك بوسعكَ أن تفعل مع طعم السعادة، لا شكّ في ذلك، قد تكون مزيّفة إن شئتَ، وليست السعادة المثالية، الأصلية، إن صحّ القول، ولكنْ، لا شك أنها نسخة رائعة، وربّما أفضل من النسخة الأصلية، ثمّ ليس هناك طريقة لـ ....".

"انتهيتُ".

"انتهيتَ؟"

"أجل".

"كيف كانت؟"

"لا بأس".

"أنذهبُ؟"

"هيّا، لنذهب".

"نذهب؟".

"لنذهب".

-١-

- هذا بيت مثير للاشمئزاز – قالت شيتزي.

- أجل - أجاب غولد.

- إنه مثير للاشمئزاز، صدِّقني.

في الحقيقة، لقد كان غولد عبقريًا. وقد أقرّ ذلك فريقٌ من خمسة أساتذة، بعد أن قاموا باختباره وهو بعمر ستّ سنين، وقد خَضَعَ للاختبار مدّة ثلاثة أيّام. نتج عن ذلك أنه ينتمي، حسب مقاييس ستوكن، إلى طبقة دلتا: ويعدّ الذكاء في هذا المستوى أشبه بآلة متطوّرة، يصعب تحديد مداها. أعطوه مؤقّتًا مستوى ذكاء بنسبة ١٠٨، وهو رَقْم هائل. أبعدوه عن المدرسة الابتدائية التي كان يدرس فيها، حيث حاول جهده لستّة أيّام أن يبدو طالبًا عاديًا، وسلّموه إلى فريق من الباحثين الجامعيين. نال شهادة البكالوريوس في الفيزياء النظرية بعُمر أحد عشر عامًا، عن بحث حول حلّ نموذج هوبارد في بُعْدَيْن.

- لماذا وضعتَ الحذاء في الثلاجة؟

- بكتيريا.

- ماذا يعني؟

- أدرس البكتيريا. توجد في الحذاء بكتيريا، لا يتغيّر لونها.

- وهل تحتفظ بهذا الفرّوج المتعفّن لدراسة البكتيريا أيضًا؟

- الفرّوج؟

كان بيت غولد مكوّنًا من طابقَيْن، فيه ثماني غرف وأشياء أخرى، مثل مستودع السّيّارة والمخزن. كان الصالون مفروشًا بسجّاد، يحاكي البلاط التوسكاني، ولكن ارتفاعه أربعة سنتمترات، ممّا أفسدَ الأمر. وفي غرفة في ركن الطابق الأول، كانت هناك طاولة فوسبول. كان الحمّام مَطليًّا باللون الأحمر، حتّى المرحاض. يترك البيت انطباعًا بأنه بيتُ نبلاء، وكأن مكتب التحقيق الفيدرالي قد فتّشه بحثًا عن ميكروفيلم، يحتوي على ممارسات الرئيس للجنس في بيت دعارة في النيفادا.

- كيف لكَ أن تعيش هنا؟

- لا أعيش هنا تمامًا.

- أليس هذا بيتكَ؟

- تقريبًا. ولكنْ، لي غرفتان في سَكَن الكُلّيّة، هناك في الجامعة. وهناك أيضًا مطعم الجامعة.

- لا يجدر بطفل أن يعيشَ في سَكَن الكُلّيّة. لا يجدر بطفل حتّى أن يدرسَ في مكان كهذا.

- وما يجدر بالطفل أن يفعلَ؟

- لا أعرف، أن يلعبَ مع كلبه، أن يُزيّفَ توقيعَ أبوَيْه، أن ينزفَ أنفُه دائمًا، أشياء من هذا القبيل. ولكنْ، لا يجب أن يعيشَ في سَكَن الكُلّيّة.

- أن يُزيّفَ ماذا؟

- دعْ عنكَ هذا.

- تزييف؟

- يجب أن تكونَ له مدبّرة منزل على الأقلّ، يجدر بهم أن يعيّنوا لكَ مدبّرة منزل، ألم يخطرْ هذا على بال والدكَ؟

- لديّ مدبّرة منزل.

- حقًّا؟

- بشكل ما.

- ماذا يعني بشكل ما؟

وكان والده متيقّنًا أن لدى غولد مدبّرة منزل، وأن اسمها لوسي. وكان يتّصل بها كل يوم جمعة، في الساعة السابعة والربع، ليطمئنّ فيما إذا كان كل شيء على ما يرام. وكان غولد يمرّر الهاتف لبوميرينغ. كان بوميرينغ يقلّد تمامًا صوت لوسي.

- ولكن بوميرينغ أبكم؟

- بالضبط. ولوسي بكماء أيضًا .

- لديكَ مدبّرة منزل بكماء؟

- ليس تمامًا. أبي يظنّ أن لديّ مدبّرة منزل، ويدفع لها كل شهر عن طريق البريد، وأنا قلتُ له إنها مدبّرة منزل جيّدة، ولكنها بكماء.

- وهو من أجل أن يطمئنّ عليكَ، كان يتّصل بها؟!

- أجل.

- هذا عبقري.

- وكان الأمر مجديًا. إن بوميرينغ رائعٌ في تقليدها. ثقي أن الأمر يختلف بين أن يصمتَ شخص عاديّ وبين أن يصمتَ الأبكم، ما كان أبي ليقعَ في الحيلة.

- لا بد أن أباكَ رجلٌ ذكيٌّ.

- إنه يعملُ في الجيش.

- صحيح.

في يوم تخرُّج غولد، استقلّ أبوه الطائرة من قاعدة أرياكا العسكرية حتّى هناك، وقد حطّ بالهليكوبتر في الحديقة المقابلة للجامعة. وكان هناك جَمْعٌ غفير، وقد ألقى رئيس الجامعة خطابًا جميلاً. وكان المثال الذي ضَرَبَهُ عن لعبة البلياردو إحدى أهمّ نقط الخطاب. "نحن، يا عزيزي غولد، نراقب مغامرتكَ الإنسانية والعلمية، وكأن يدًا إلهية حكيمة، لامست كرة ذكائكَ، وقد انحنت على القماش الأخضر لبلياردو الحياة. أنتَ الكرةُ، يا عزيزي غولد، التي تجري بين ضفاف المعرفة، وهي ترسم مسارَها التّامّ الذي سيقودُكَ بعذوبة، والفرحة تغمرنا، إلى فجوة الشهرة والنجاح. وأقول لكَ، يا ولدي، بصوت خافت وبفخر كبير: إن لهذه الفجوة اسمًا، هذه الفجوة تُسمّى جائزة نوبل".

ما طُبِعَ في ذاكرة غولد من ذلك الخطاب كله، كانت جملة رئيس الجامعة: أنتَ الكرة، يا عزيزي غولد. ولأنه كان ميّالًا للوثوق بأساتذته، فقد اتّسق مع فكرة أن حياته ستسير حسب نظام أُعِدّ مسبقًا، وبقي يحاول لسنين طويلة أن يتلمّس، تحت وطأة الأيّام، حلاوةَ قماش البلياردو

الأخضر، وأن يرى في تقاطع بعض الآلام المفاجئة صدمة نَفْسية هندسية الشكل بحافّات واضحة، غير قابلة للخطأ علميًا. ولكنْ، ولسوء حظّه، كان الدخول لصالة ألعاب البلياردو ممنوعًا على القاصرين، فَمَنَعَهُ ذلك، لوقت طويل، من أن يتحقّق بنفسه كيف يكون للبيلياردو أن يتحوّل إلى تعبير مجازي، يقبل الخطأ، وأن يكون مكانًا للتعبير عن عدم قدرة الإنسان على بلوغ الصواب. أمسيّة واحدة فقط في صالة ألعاب ميريس كان بوسعها أن تُزوِّد فضولَهُ القاتلَ بتفاصيل عن الشكل الهندسي. وعلى الضوء الخافت المعلّق فوق قماش البلياردو الأخضر، كان بوسعه أن يرى وجوهًا، نُحتت عليها، كحروف مسمارية، هزائم الوَهْم، ذلك الوَهْم الذي ينسج باتّساق تامّ النوايا والحقائق، الخيال والواقع. لم يكنْ من الصعب عليه، على أي حال، أن يكتشف عالمًا غير متكامل، عالما كان من الصعب إيجاد تشابه فيه بين ملامح اللاعبين وملامح الرّبّ الجليلة والمطمْئِنة. ولكنْ، كما قلنا مسبقًا، من أجل دخول صالة ميريس يجب أن تستظهرَ بالهوية للتّأكّد من أنكَ غير قاصر، وقد أدّت هذه المصاعب إلى أن يبقى التعبير المجازي الذي سخّره رئيس الجامعة في حواره، صامدًا في مُخيّلة غولد لسنين طويلة، كأيقونة مقدّسة، نَجَتْ من قصف صاروخي. وهكذا عثر عليها غولد سليمة تمامًا داخله، بعد سنين طويلة، في اليوم الذي قرّر فيه أن يدمّر حياته. وقد تسنّى له أن يتأمّلها، في تلك اللحظة، بعطف ويأس، قبل أن يمنحَها أقسى نهاية، جادت بها مُخيّلته.

- ألديكِ عمل ما، يا شيتزي؟

- كلا، يا غولد.

- أترغبين في أن تكوني مدبّرة منزل عندي؟

-٢-

كان خلف بيت غولد ملعب كرة قَدَم، يلعب فيه الأطفال فقط، في حين يجلس الكبار على المقاعد للتشجيع، أو على مدرج صغير من الخشب، يأكلون ويصرخون. وكان العشب ينتشر في كل مكان، حتّى أمام المرمى، وفي منتصف الملعب. كان ملعبًا جميلًا، وكان غولد، بوميرينغ وديزل يقفون لساعات طويلة وهم ينظرون من شبّاك غرفة النوم، يشاهدون المباريات، التدريبات، وكل ما يحدث هناك. وكان غولد يسجّل الملاحظات، وقد طوّر نظرية خاصة به. كان مقتنعًا تمامًا أن لكل شخص في الفريق هيئة ونَفْسية، يمتاز بهما. وأن بوسعه أن يتعرّف على اللاعب المهاجم قبل أن يجريَ تبديله، ويرتدي القميص رَقْم تسعة. وأكثر ما يجيده كان دراسة صور الفِرَق: كان يتأمّلها قليلًا، بعد ذلك بوسعه أن يُخبرَكَ ما هو دور الشّابّ ذي الشوارب، ومَنْ كان على الجناح الأيمن. وكانت نسبة خطئه تصل إلى ٢٨٪. ولا يزال يعمل على تحسين مهارته، ليصل دون العشرة بالمائة، يتمرّن كلّما تسنّى له ذلك على الأطفال الذين يلعبون في الملعب المجاور لبيته. لا تزال تواجهه مشاكل للتّعرّف على المدافعين، كان من السهل تمييزهم، ولكنْ، يصعب التّعرّف على الأيمن والأيسر منهم. عادة يكون الظهير الأيمن قوي البنية وبدائيًا سيكولوجيًا. يتعامل مع الأمور بنهج عقلاني، ويتصرّف حسب استنتاجات منطقية، تكون، بشكل عام، خالية من المتغيّرات الخيالية. يرفع جاربَيْه حينما تنخفض، ونادرًا ما يبصق على الأرض. في حين أن الظهير الأيسر عادة

ما يتّصف بصفات خصمه في الجناح الأيمن، فهو مبدئيًا لا يُحرز، ولديه ميولات فوضوية وهشاشة عقلانية جلية. يُحوّل الظهير الأيمن مساحة لعبه في الملعب إلى منطقة خالية من القوانين، سوى خطّ التماس، خطّ أبيض يتحاشاه اللاعب بهَوَس. بينما الظهير الأيسر، كونه يتمتّع بحالة سيكولوجية تدفعه للالتزام بالنظام الهندسي، فهو مقيّد بالالتزام بنظام بيئي غير مريح، لذلك فهو، حسب دوره، مغلوب على أمره. ضرورة أن يجدّد ردودَ أفعاله بشكل مستمرّ، حسب مخطّطات غير متوقّعة، تجعله في حالة نَفْسية غير مستقرّة، وبالتالي في حالة جسدية غير مستقرّة أيضًا. وهذا يفسّر ميوله، الذي يسهل الكشف عنه، لإطالة شَعره، وسهولة طَرده بفِعْل اعتراضاته، ورَسْمه علامة الصليب عند صفّارة بدء المباراة. يتّضح بعد هذا كله أن تميّزَه عن الظهير الأيمن في الصورة يبدو أمرًا مستحيلاً. على أن غولد يتمكّن من فِعْل ذلك أحيانًا.

وكان ديزل يشاهد المباريات فقط، لأن ضربات الرأس تُعجبه كثيرًا. كان يشعر ببهجة من نوع خاص، وهو يسمع ارتطامَ الكرة برأس اللاعب، وكلّما حدث ذلك هتف قائلاً: جنونيّ، كلّما حدث ذلك تتفتّح ابتسامة على وجهه، ويهتف: جنوني. وذات مرّة، ضرب صبيٌّ الكرةَ برأسه، فارتطمت بالعارضة، وقفزت إلى الوراء، فضربها الصبيّ مرّة أخرى، اصطدمت بالقائم مرّة أخرى، وقفزت مجدّدًا، فاندفع الصبيّ إلى الأمام، وضربها برأسية، قبل أن تسقط على الأرض، وأدخلَها المرمى. عندها هتف ديزل: جنونيّ فعْلاً. أما في المرّات الأخرى، فكان يهتف فقط: جنونيّ.

وكان بوميرينغ يشاهد المباريات فقط بحثًا عن مشهد رآه ذات مرّة في التلفاز، قبل سنين مَضَتْ. وحسب رأيه، فإن المشهد كان جميلاً للغاية، لذلك فمن المستحيل ألا يتكرّر مرّة أخرى. وكان من المفترَض به أن يجولَ

كل ملاعب العالم، ولكنه كان ينتظرها هناك، في الملعب الذي يلعب فيه الصبية. وقد سأل عن عدد ملاعب كرة القَدَم في العالم، فقيل له إنها مليون وثمانمائة وأربعة، وكان مُدرِكًا أن نسبة تكرارها في ذلك الملعب ضئيلة جدًّا. ولكنْ، استنادًا إلى العملية الحسابية التي أجراها غولد، فإن نسبة تكرارها هناك ليست بأقلّ من نسبة ولادة أشخاص بُكْم في العالم، في ذلك المكان. وهكذا فبوميرينغ لا يزال ينتظرها هناك. وكان المشهد بالضبط هو التالي: يركل حارسُ المرمى الكرةَ، تصلُ إلى المهاجم الذي يضربها برأسية، فيخرج الحارسُ الخصمُ من منطقة المرمى، يركلُها وهي في الهواء، تعود الكرةُ طائرةً، فتتجاوز منتصف الملعب، تتجاوز اللاعبين كلهم، تنطّ عند منطقة المرمى الآخر، تمرّ من فوق الحارس الذي يقف مندهشًا، وتدخل المرمى بجانب القائم تمامًا. من وجهة نظر خبراء كرة القَدَم، لم تكن تلك سوى مصادفة غريبة بائسة. ولكن بوميرينغ يدّعي، من وجهة نَظَر فلسفية جمالية، أنه نادرًا ما شاهد شيئًا بانسجام وأناقة مماثلة. كان كما لو أن كل شيء حدث في حوض ماء، "لم" يقل بوميرينغ بينما كان يشرح ذلك، كما لو أن الجميع كانوا يتحرّكون في الماء، دون زوايا حادّة، وببطء تامّ، والكرة تعوم في الهواء، بلا عجلة، وأن اللاعبين قد تحوّلوا إلى أسماك، وكانوا ينظرون إليها وقد فغروا أفواههم، وهم يديرون رؤوسهم معًا إلى اليمين وإلى الشمال، غافلين وتائهين، والحارس قد تفتّحت خياشيمه، بينما الكرة تمرّ من فوقه، وفي النهاية، تلتقط شبكة صيّاد ماكر الكرة السمكة وأنظار الجميع، صيد معجز في أعماق البحر الصامت الذي تمتدّ فوقه الطحالب الخضراء المخطّطة بالأبيض من قِبَل مهندس غطّاس. كان ذلك في الدقيقة السادسة عشرة من الشوط الثاني. وانتهت المباراة حينها بهَدَفَيْن مقابل لا شيء.

كان غولد يغادر المنزل أحيانًا، ويذهب ليقفَ على أحد أطراف

الملعب، خلف المرمى الأيمن، حذوَ الأستاذ تالتومار. تمرّ عشر دقائق دون أن يتبادلا الكلام، وهما يحدّقان في الملعب. كان الأستاذ تالتومار رجلًا متقدمًا بالسّنّ، وقد شاهد في حياته آلاف الساعات من المباريات. لم تكن المباريات تشغل اهتمامه، كان يحدّق في الحكّام فقط، ويدرسهم. يضع بين شَفَتَيْه دائمًا سيجارة دون فلتر، منطفئة، ويتمتم بين حين وآخر جملًا مثل "كان بعيدًا عن الحدث" أو "حقّ أفضلية اللعب، أيها الأحمق"، وغالبًا ما يهزّ رأسه. وكان هو الوحيد الذي يصفّق في بعض الحالات، مثل الطَّرْد، أو إعادة ركلة الجزاء. كان لديه بعض القناعات القابلة للنقض، عادة ما يختتم بها، منذ سنين، كل نقاش يخوضه: "رفع اليَدَيْن في الهواء أمرٌ طَوْعي، يجب أن لا يكون في التّسلّل أيّ شكّ، النساء كلّهنّ قحاب". وكان يدّعي أن الكون عبارة عن "مباراة بلا حكم"، ولكنه يؤمن بالله على طريقته الخاصة "إنه مراقب خطّ، يُخطئ التّسلّلات كلها". وذات مرّة، بينما كان سكرانًا، ادّعى أمام الجميع أنه عمل حَكَمًا في شبابه. ثمّ انطوى على نفسه في صمت غامض. وكان غولد يعتقد - محقًّا بذلك - أن لديه معرفة لا حدود لها في قوانين كرة القَدَم، وكان يذهب إليه بحثًا عمّا لا يجده عند الأساتذة الجامعيين المميّزين الذين يدرسونه يوميًا، من أجل الحصول على جائزة نوبل: اليقين بأن النظام ينتمي إلى اللا نهاية. وهكذا فإن ما يدور بينهما هو التالي:

١- يصل غولد، يقف بجانب الأستاذ دون حتّى أن يُلقي التحية، وينظر إلى المباراة في الملعب.

٢- تمرّ عشر دقائق دون أن يتبادلا الكلام أو النظرات.

٣- في لحظة ما يتفوّه غولد، وهو يُحدّق في الملعب، بجملة عابرة مثل: "تمريرة من جهة اليمين، يركلها المهاجم قبل أن تلمسَ الأرض،

يصيب العارضة تمامًا، فتنكسر إلى نصفَيْن، تصطدم الكرةُ بالحَكَم، وتصل إلى قَدَم الجناح الأيمن الذي يركلُها بقَدَمه اليمنى نحو المرمى، فيصدّها الدفاع بيده، ثمّ يركلها كيفما شاء.

٤- يأخذ الأستاذ تالتومار وقته، يسحب سيجارته من فمه، وينفض رمادًا خياليًا، ثمّ يبصق بقايا تبغ، ويتمتم: تُعلَّق المباراة حتّى تصليح العارضة، ثمّ تُغرَم الجمعيةُ المستضيفةُ لعدم إدامتها الملعب، وعندما تُستعاد المباراة، تمُنح ركلة جزاء للفريق المستضاف، وبطاقة حمراء للدفاع. وقد يُحرَم الفريقُ من اللعب.

٥- يستمرّان لبعض الوقت دون أيّ تعليق، يحدّقان في الملعب.

٦- وفي لحظة ما، يغادر غولد قائلًا: "شكرًا، يا أستاذ".

٧- دون أن يلتفتَ، يتمتمُ الأستاذ تالتومار "اعتنِ بنفسكَ، يا بني".

كان هذا عادة ما يحدث مرّة في الأسبوع. وكان غولد يحبّ ذلك كثيرًا. الأطفال بحاجة لإجابات يقينية. ثمّ هناك شيء أخير مهمّ يحدث في ذلك الملعب. بين فترة وأخرى، بينما غولد يقف بجانب الأستاذ، يصادف أن تخرجَ الكرةُ من الملعب، وتتدحرجَ على بعد أمتار منهما. عندها يتّجه حارس المرمى بضع خطوات نحوهما، ثمّ يصرخ "الكرة". الأستاذ تالتومار لا يحرّكُ ساكنًا، غولد ينظر إلى الكرة، ثمّ ينظر إلى حارس المرمى، ويبقى واقفًا دون حراك.

- الكرة من فضلكَ!

يحدّق غولد في الفراغ أمامه، دون أن يحرّكَ ساكنًا.

-٣-

يوم الجمعة، الساعة السابعة والربع، اتّصل والد غولد بلوسي، ليطمئنّ إذا ما كان كل شيء على ما يرام. فقال له غولد إن لوسي تركت العمل، ورافقت بائع ساعات معروفًا في ميسا، في الأحد الماضي.

- ساعات؟

- وأشياء أخرى، مثل القلائد والصلبان وأشياء من هذا القبيل.

- يا إلهي، غولد. علينا أن ننشرَ إعلانًا في الصُّحُف، كالمرّة السابقة.

- أجل.

- أسرع في نَشْر الإعلان، ثمّ استخدمَ لائحة الأسئلة، أوكي؟

- حسنًا.

- ولكنْ، ألم تكن بكماء؟

- أجل.

- وهل أخبرتُم بائع الساعات بذلك؟

- لقد أخبرتْهُ هي بذلك.

- هي؟

- أجل، على الهاتف.

- شيء لا يُصدَّق.

- أجل.

- ألا تزال لديكَ نسخ من قائمة الأسئلة؟

- أجل.

- إذا تطلّب الأمر، فانسخْ نسخًا أخرى، أوكي؟

- هالو.

- غولد؟

- هالو.

- أتسمعني، يا غولد؟

- الآن أسمعكَ.

- إذا نفدت النسخُ، فانسخْها من جديد.

- هالو؟

- أتسمعني، يا غولد؟

- ...

- غولد!

- أسمعكَ.

- أسمعتَ ما قلتُه لكَ؟

- هالو؟

- الاتّصال سيّئ.

- الآن أسمعكَ.

- ألا تزال على الخطّ؟

- أجل، أجل ...

- هالو!

- أسمعكَ.

- اللعنة، ماذا يحدث؟ ...

- وداعًا، يا بابا.

- أمن الخراء يصنعون هذه الهواتف؟

- وداعًا.

- لا شك من الخراء، تصنعون هذه الهواتف.

لم يكن بوسع والد غولد المجيء شخصيًا لاختيار مدبّرة منزل لابنه، لذلك فقد وضع لائحة من الأسئلة، ويجب على كل مرشّحة الإجابة عن تلك الأسئلة، ثمّ إرسالها بالبريد، وكان اختيار مدبّرة المنزل حسب إجاباتها

عن تلك الأسئلة. وتتكوّن اللائحة من ٢٧ سؤالًا، ولكنْ، نادرًا ما تُجيب المرشّحات عن تلك الأسئلة كلها. عادة يتوقّفنَ عند السؤال الخامس عشر (١٥- كتشب أم مايونيز؟). وغالبًا ما يغادرنَ حال قراءتهنّ السؤال الأول (١- هلا ذكرت المرشّحة سلسة الخيبات التي حَدَثتْ بها اليوم، وبعمر كهذا، أن تكون عاطلة عن العمل، وأن تنافسَ من أجل مكان عمل سيّئ المردود، لا يخلو من متاعب؟).

نصبت شيتزي شيل صور أيفا براون ووالت ديزني على الطاولة، ثمّ وضعت ورقة في الآلة الكاتبة ورقنت رَقْم ٢٢.

- هلا قرأتَ عليّ السؤال رَقْم ٢٢، يا غولد.

- في الحقيقة، يجب عليكِ أن تبدئي من السؤال الأول.

- مَنْ قال ذلك؟

- إنه رَقْم واحد، ويجب الابتداء دائمًا من الرَّقْم واحد.

- غولد؟

- نعم.

- انظر إليّ جيّدًا.

- نعم.

- أتظنّ حقًّا أن الأشياء حينما تكون مرقّمة، وأن أحدها رَقْم واحد، فعلينا، عليّ وعليك وعلينا جميعًا، أن نبدأ من الرَّقْم واحد؟

- كلا.

- رائع.

- أيّ سؤال تريدين، إذنْ؟

- ٢٢.

- ٢٢: أتستطيع المرشّحة أن تتذكّر أجمل شيء، قامت به في طفولتها؟

سهمت شيتزي لبعض الوقت، ثمّ هزّت رأسها، وتمتمت مستغربة "قامت به في طفولتها". ثمّ جعلت تكتب.

حينما كنتُ طفلة، كان أجمل شيء أقوم به هو الذهاب لرؤية "صالون المنزل المثالي". كان في قاعة الأوليمبيا، قاعة شاسعة تبدو كأنها محطّة قطارات، وكان سقفها على شكل قبّة عظيمة. وبدلًا من أرصفة القطارات، فقد كان في ذلك المكان صالون المنزل المثالي. لا أعرف إن صادفتَ شيئًا كذلك، يا حضرة الكولونيل. كانوا ينظّمونه كل عام، والشيء العجيب هو أنهم كانوا يشيدون بيوتًا حقيقية. وإن أنتَ تجوّلتَ هناك، ستشعر وكأنكَ في مدينة عجيبة، بشوارعها وأعمدة الإنارة عند زوايا الشارع، وكانت البيوت مختلفة عن بعضها، نظيفة للغاية وجديدة. كان كل شيء منتظمًا، الستائر، والأزقة، ثمّ كانت هناك حدائق أيضًا، كان عالم أحلام. قد تظنّ أن كل شيء صُنع من الكرتون، في حين كان مصنوعًا من الطابوق، وحتّى الأزهار كانت حقيقية، كل شيء كان حقيقيًا هناك، وبوسعكَ أن تسكنَ في البيوت، أن تصعدَ السّلّم، وتفتحَ الأبواب، كانت بيوتًا حقيقية. من الصعب شَرْح الأمر، فتشعر، وأنت تسير هناك، بشيء غريب في رأسكَ، كأنها دهشة مؤلمة. أقصد، كانت تلك منازل حقيقية، وكل شيء حقيقي، ولكن المنازل الحقيقية مختلفة عن تلك. عمارتنا مثلًا كانت بستّة طوابق،

وكل شبابيكها متشابهة، وهناك سلّم من الرخام، مع فسحة صغيرة عند كل طابق، وتنتشر رائحة المطهِّر في كل مكان. إنها عمارة جميلة، ولكن تلك المنازل تختلف عنها تمامًا. كانت أسطحها غريبة، بتصاميم أنيقة، ولشبابيكها مشربيات، ولها سلالم ملتوية، وشرفات وأشياء من هذا القبيل. تعتلي المصابيح الأبواب، أو يكون باب موقف السّيّارة ملوّن. كان كل شيء حقيقيًّا وغير حقيقيّ في الوقت ذاته: وكان هذا ما يُذهلكَ تمامًا. إذا ما خَطَرَ في ذهني الأمر، الآن أدركت أن العنوان كان يمثّل ذلك كله: صالون المنزل المثالي. ولكنْ، أنّى لكَ أن تدركَ ذلك حينها، ما هو الشيء المثالي؟ وما هو الشيء غير المثالي؟ ليس لديكَ صورة عن المثالية. وهكذا يفاجئكَ كل شيء، لقد كان شعورًا غريبًا. أظنّ أن بوسعي شرح الأمر لكَ، لو كان بوسعي تفسير سبب بكائي في المرّة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى هناك. صدّقني، شرعتُ في البكاء. كنتُ أرتاد المكان، لأن خالتي كانت تعمل هناك، فكانت تذاكر دخولنا مجانية. كانت خالتي امرأة جميلة، سيّدة فارعة الطول، وشَعرها طاعن في السواد. اختاروها، لتقوم بدور الأمّ، وهي تعمل في المطبخ. وكانوا يغمرون تلك البيوت، بين حين وآخر، بحياة طبيعية، أي أنهم يُسكِنون فيها أناسًا، يتظاهرون بالعيش هناك، كأن تجد رجلًا يجلس في الصالة، وهو يطالع الصحيفة، ويدخّن الغليون، بل وحتّى أطفالًا بالبيجامة، ينامون فوق الأسِرّة، أَسِرّة طبقية، وكان شيئًا رائعًا، فأنا لم أرَ أسِرّة طبقية في حياتي. ذلك كله من أجل خَلْق الجوّ المثالي، أتفهم؟ حتّى هم، أولئك الأشخاص، كانوا مثاليين. وكانت خالتي تقوم بدور المرأة المثالية في المطبخ، بكامل أناقتها وجمالها، ترتدي مئزرًا، تنتشر عليه الرسوم: تنظّم بعض الأشياء، تفتح الدرج في مطبخ أمريكي، تفتحه وتُغلقه باستمرار، ولكنْ، بعذوبة، تتناول منه طوال الوقت الفناجين

والأطباق، وأشياء من هذا النوع. وكانت باسمةً دائمًا. أحيانًا تأتي إلى هناك بعض نجمات السينما، أو مشاهير المطربات، وكنّ يقمنَ بالدور ذاته، والمصوّرون يلتقطون لهنّ الصور، وفي اليوم التالي، تُنشر الصور في الصُّحُف. لا أزال أذكر إحداهنّ، كانت ترتدي الفرو، أظنّها مطربة، تلمع الخواتم في أصابعها، تنظر نحو عدسة التصوير وهي تنظّف بالمكنسة الكهربائية. ونحن لم نكنْ نعرف حتّى ما هي المكنسة الكهربائية. وكان ذلك من جماليات صالون المنزل المثالي: تخرج من هناك ورأسك مليء بأشياء لم ترها من قبل، وما كنتَ لتراها أبدًا. هكذا كان الأمر.

على أي حال، فقد ذهبتُ في المرّة الأولى مع أمّي، وقد شيّدوا بلدة جبلية عند المدخل، تحاكي بلدة حقيقية، بجدرانها وشوارعها الصغيرة، كم كانت رائعة. ثمّ رسموا خلفها جبالًا عملاقة ذات قِمَم شاهقة، وسماء زرقاء صافية. بدأتُ أشعر بأشياء غريبة تدور في رأسي، وكنتُ سأقف هناك، أتأمّل المنظر إلى الأبد، ولكن أمّي جرّتني، وانتهى بنا المطاف في مكان، حيث شيّدت حمّامات فقط، واحد تلو الآخر، وكانت حمّامات بديعة، آخرها كان يسمّى بين الماضي والحاضر، وكان هناك جمع غفير ينظرون، كان أشبه بعرض مسرحي، على اليمين ترى حمّامًا كذلك الذي كانَ يشيّد قبل مائة عام، وعلى اليسار حمّام مشابهٌ تمامًا، ولكنه مُزوّد بكل المعدّات الحديثة. والشيء الأغرب أن كان في الحمّامَيْن عارضتان، ولم يكنْ فيهما ماء، ولكنْ، كانت هناك فتاتان، وكان ذلك عبقريًا، كانتا توءمًا، أتفهم؟ فتاتان توءم بالوضعية ذاتها، لكن إحداهما في حوض من النحاس، والأخرى في حوض أبيض حديث، والشيء الجنوني في الأمر أنهما كانتا عاريتَيْن، أقسم لكَ، عاريتَيْن تمامًا، تبتسمان للمتفرّجين وهما تضعان أذرعتهما بوضعية مقصودة، تجعلكَ ترى الثديَيْن، ولا تراهما، وكان

الجميع يُعلّق على أثاث الحمّام بجدّ، ولكنهم يختلسون النَّظَر بطرف العين، ليروا إذا ما تغيّرت وضعية الأذرع بما يسمح برؤية ثديَي التوءَم اللذَيْن - انظرْ كيف نتذكّر الأشياء الغريبة - كان اسمهما التوءَم دولفن. ولكنْ، على ما أظنّ الآن، كان ذلك اسمًا فنّيًا. لقد حكيتُ لكَ قصّة الحمّام، لأنه يتعلّق بقصّة بكائي، أعني أن تلك الأشياء برمّتها تُحيّرك، منذ البداية، كآلة تشتغل قربكَ، وتُجهّزكَ لشيء مميّز. على أي حال، غادرنا المكان، تركْنا التوءَمَ العاريَتَيْن، وولجنا في الممرّ المركزي. كانت تنتشر تلك المنازل المثالية، واحدًا تلو الآخر، وكل منها له حديقة، بعضها يبدو قديمًا وأخرى حديثة، وقد رُكِنَتْ أمامها سيّارة سبايدر. كم كان رائعًا! كنّا نمشي على مهل، وفي لحظة ما، وقفت أمّي، وقالت: انظري، كم هو جميل هذا البيت! كان بيتًا بطابقَيْن، تتقدّمه شرفة كبيرة، وكان السطح شديد الميلان، تبرز منه مداخن من القرميد الأحمر. ليس هناك ما يميّزه، كان مثاليًا بشكل اعتياديّ، وربّما لهذا السبب يفاجئكَ. بقينا نتأمّله بصمت طويل، وكانت الناس تمرّ بقربنا وهي تتحدّث، ورغم الضجيج كله في صالون المنزل المثالي، إلا أني بدأتُ أغيب عن المكان، كما لو أن كل شيء انطفأ شيئًا فشيئًا في رأسي. وفي لحظة ما، حدث أن رأيتُ من شبّاك المطبخ - شبّاك كبير في الطابق الأرضي أُزيحَتْ ستائره - رأيتُ مصابيح المطبخ تُضاء، ثمّ دخلت سيّدة باسمة، تحمل بين يَدَيْها أزهارًا. دَنَتْ من الطاولة، ووضعت الأزهار عليها، ثمّ تناولت مزهرية، واتّجهت نحو المغسلة، لتملأها بالماء. كانت تقوم بذلك، وكأن لا أحد ينظر إليها، كما لو كانت في زاوية نائية من هذا العالم، ولا يوجد أحد سواها وذلك المطبخ. ثمّ تناولت الأزهار، ووضعتها في المزهرية، ووضعت المزهرية في قلب الطاولة، وهي تعدّل بعض الأزهار التي كانت تميل في زاوية ما. كانت سيّدة شقراء، بربطة، تحزم شَعرها إلى

الوراء. التفتتْ، واتّجهتْ إلى الثلاجة، فتحتْها، وانحنتْ، فالتقطتْ قنّينة حليب، وشيئًا آخر، ثمّ أغلقت باب الثلاجة بحركة خفيفة بمرفقها، وقد كانت يداها مشغولتَيْن. ولم يكن بمقدوري سماع شيء، ولكني سمعتُ صوت انغلاق الباب، صوت معدني وحارّ بعض الشيء. لم أسمع قطّ شيئًا في حياتي بتلك الدقّة والحسم والثقة. فتطلّعتُ إلى المنزل لبعض الوقت، إلى الحديقة، المداخن، الكرسي في الشرفة، وإلى كل شيء. بعدها تفجّرتُ بالبكاء. أصاب أمّي الفزعُ، وظنّتْ أن شيئًا ما أصابَني، والحقيقة فقد أصابَني شيء، لكنها كانت تعتقد أني تبوّلتُ على نفسي، وكنتُ عادة ما أفعل ذلك في صغري، كنتُ أتبوّل على نفسي، وأصرخ باكية، وهكذا ظنّتْ أمّي أن هذا تمامًا ما حصل، وجعلت تجذبني نحو الحمّام. ولكنها لمّا رأت أن أسفل قَدَمَيّ لم يكنْ مبلّلًا، سألتْني عمّا حدث، وألحّتْ في سؤالها، وكان إلحاحها يعذّبني، فأنا لا أعرف بمَ أجيبُها، كل ما كان بوسعي فِعْلُه هو أن أكرّر أن شيئًا لم يصبْني، وأن كل شيء على ما يرام.

- لماذا تبكين، إذنْ؟

- أنا لا أبكي.

- هذا ليس صحيحًا.

وكان قد أصابني شيء كالدهشة المؤلمة، لا أعرف إن صادفكَ ذلك، يا حضرة الكولونيل. كما يحدث حين تنظر إلى لعبة القطارات الكهربائية الصغيرة بمحطّاتها وأنفاقها، والأبقار الصغيرة الاصطناعية في المراعي والمصابيح الاصطناعية المضاءة قرب ممرّات العبور. قد يصيبكَ الشيء ذاته في تلك اللحظة أيضًا، أو حينما ترى الفئران في أفلام الكرتون، حيث

علبة الكبريت سريرهم، وصورة الفأر الجدّ مُعلّقة على الجدار، والمكتبة، وملعقة هي بمثابة كرسي هزّاز. تشعر بشيء من الفرح في أعماقكَ، وكأنها الطمأنينة تحطّ في قلبكَ، إن صحّ القول، ولكنْ، في الوقت ذاته، تشعر بألم حادّ، ألم يشبه الشعور بخسارة حتمية، لا تُعوَّض. إنها أشبه بكارثة عذبة، وأظنّ أن السبب هو لأننا خارج ذلك كله، ففي تلك اللحظات، أنتَ تنظر إلى كل شيء من الخارج. ليس بوسعكَ ركوب القطار، هذا هو السبب، وبيت الفأر يبقى هناك، في التلفاز، وأنتَ جالس أمامه، وكل ما تستطيع فِعْله هو أن تنظرَ فحسب. حتّى تلك المنازل المثالية، في ذلك اليوم، وإن كان بوسعي الدخول، إن أردتُ ذلك، تقف بعض الوقت في الطابور، ثمّ تدخل لزيارتها. ولكنكَ إن دخلتَ، فسيتغيّر الأمر. كان هناك الكثير من الأشياء المهمة والغريبة، وبوسعك أن تلمسَ الأثاث أيضًا، ولكنْ، في تلك اللحظة كان سيختفي السِّحْر الذي يعتريكَ وأنتَ تنظر إليها من الخارج، يختفي هذا الشعور تمامًا. إنه أمر غريب، وأنتَ تنظر إلى المكان وهو يبدو لكَ المكان الذي يغدقكَ بالأمان، ولكنكَ هناك، تنظر إليه من الخارج فحسب. ولا تدخل إليه أبدًا، رغم أنه المكان الذي ترغب فيه، ولكنكَ لستَ فيه. كانت أمّي تسألني باستمرار لماذا أنا حزينة، وكان بودّي أن أقولَ لها إني لستُ حزينة، على العكس، كنتُ أودّ أن أشرحَ لها أني أشعر بشيء من السعادة، كالتجربة المدمّرة بأن أرى السعادة هناك، في ذلك البيت التافه. ولكنْ، كيف بوسعي فِعْل ذلك. حتّى الآن لستُ قادرة على ذلك. لعلّ في الأمر ما يثير العار، لم يكن ذلك سوى منزل مثالي، وُضع هناك ليخدعكَ، كان عبارة عن خطّة عمل، وضعها مهندسون ومعماريون، كانت احتيالًا عظيمًا، إن أردنا أن نكونَ صريحين. حسب ظنّي، فإن المهندس الذي صمّم ذلك البيت كان أحمقًا تمامًا، لا

بد أنه رجل يتردّد على المدارس عند خروج الفتيات، يتحرّش بهنّ، ويهمس لهنّ: ارضعنَ أيري، وأشياءَ من هذا القبيل. لا أعرف. ومن ناحية أخرى، لا أعرف إن لاحظتَ ذلك، إذا ما كان هناك شيء يحطّ في قلبكَ كالطمأنينة، بوسعكَ أن تراه على أنه مزيّف، أعني أنه ليس حقيقيًا. خذ مثالاً على ذلك القطارات الكهربائية الصغيرة. قد تجلس لساعات طويلة وأنتَ تتطلّع إلى محطّة قطار حقيقية، فلا يحدث لكَ شيء، ولكنْ، ما إن تلقي نظرة على قطار كهربائي صغير حتّى تتفجّر في داخلكَ عجائب السماء. قد يكون ذلك لا معنى له، ولكنْ، هو هكذا حدّ اللعنة، وبقدر ما يكون الأمر أحمقًا، فإنكَ تتعلّق به أكثر، كما لو أنه يحتاج إلى تدليس، تدليس مُتعمَّد، كما لو أن كل شيء يجب أن يكون مزيّفًا، على الأقلّ، لبعض الوقت، لكي ينجحَ في أن يكون شيئًا ما كالطمأنينة. حتّى الكُتُب والأفلام كذلك. وإذا ما بحثتَ عمّنْ وراء ذلك، فستجدهم كلهم أولاد قحاب، ولكنكَ ترى أشياء لا تراها مطلقًا في الحياة الحقيقية. فالحياة الحقيقية لا تُفصح عن نفسها، إنها مسألة مهارة، إمّا أن تربحَ أو تخسرَ، وهم يقومون بذلك كله، لكي يصرفوا ذهنكَ عنها، فلا تفكّر بها. أمّي أيضًا مارست هذه الخدعة، في ذلك اليوم. وبما أني لا أكفّ عن البكاء، قامت هي بجَرّي حتّى وصلنا أمام مكنة مليئة بالأضواء والكتابات، آلة جميلة، تبدو وكأنها آلة السلوت، أو شيء مماثل. وضعتْها هناك شركة، تصنع المارغرين، وقد أتقنوا صُنعَ تلك اللعبة تمامًا، لا شك في ذلك. وتتمحور اللعبة حول ستّة بسكويتات في صحن، وكان بعضها مُعدًّا بالزبدة والأخريات بالمارغرين، فتقوم أنتَ بتذوُّقها واحدة تلوَ الأخرى، وفي كل مرّة، تأكل إحداها، يجب أن تقول فيما إذا كانت مصنوعة بالزبدة أم بالمارغرين. وكانت المارغرين حينها شيئًا غريبًا، وليس لدى الناس فكرة عمّا قد تكون، كل ما يدركونه هو أنها أقلّ

ضررًا من الزبدة، وأنها مثيرة للاشمئزاز. وكانت هذه هي المشكلة تمامًا. وهكذا فقد أحسنوا صُنعَ تلك الآلة، واللعبة هو أنكَ تأكل البسكويت، فإذا اكتشفتَ أنه صُنع بالزبدة، تضغط على الزر الأحمر، أما إذا أدركتَ أنه صُنع بالمارغرين، تضغط على الزرّ الأزرق. كان ممتعًا للغاية. فكففتُ عن البكاء، توقّفتُ تمامًا عن البكاء. لم يتغيّر شيء في رأسي، لا أزال أعاني من تلك الدهشة المؤلمة، وفي الحقيقة، لم أتحرّر منها أبدًا، ذلك أن الطفل حينما يكتشف مكانًا ما، يحسبه مكانه المثالي، حينما يرى أمام ناظرَيْه بيته المثالي، ويدرك معنى ذلك البيت، وبالأخصّ حينما يدرك أنه موجود، فقد انتهى الأمر، انتهى أمركَ تمامًا، ليس بوسعكَ التّخلّص من تلك الفكرة. وستستمرّ بالمرور من هناك بالمصادفة، وتعتريكَ تلك الدهشة المؤلمة، وتشعر بالفرح الدائم أكثر من الآخرين، وتشعر بالحزن، لكل ما ترى من الأشياء، بينما أنت تتجوّل، تلك الأشياء المثيرة للضحك وللبكاء. على أي حال، فقد توقّفتُ عن البكاء، لقد لعبت الآلةُ دورَها، كنتُ آكل البسكويت، وأضغط على الزر، فتشتعل الأضواء، فتوقّفتُ عن البكاء. كانت أمّي سعيدة بذلك، وهي تظنّ أني تجاوزتُ الصدمة، وأنّى لها أن تفهم؟! ولكنْ، أنا أدرك ذلك، أدرك كل شيء بالضبط، كنتُ أعرف أني لم أتجاوز الصدمة، وأني ما كنتُ لأتجاوزَها قطّ، رغم أني كففتُ عن البكاء، وكنتُ ألعب بالزبد والمارغرين. أتعرف كم مرّة أحسستُ بهذا الشعور؟ بدا لي أنني لم أفعلْ شيئًا في حياتي سوى إتقان ذلك الشعور. كنتُ أضغط على الزرَّيْن الأحمر والأزرق، وذهني في مكانٍ ناءٍ، أحاول أن أحرزَ الجواب. كانت لعبة مهارة، يجعلونكَ تمارسها، لكي تسهوَ عن أحزانكَ، وبما أنها كانت تؤدّي دورها بشكل تامّ، فلماذا الكَفّ عن ممارستها؟ ولمعلوماتكَ، حينما انقضى صالون المنزل المثالي، في ذلك العام، أعلنت شركة صناعة

المارغرين أن اللعبة مُورسَت من قِبَل مئة وثلاثين ألف شخص، وقد حزر ٨٪ منهم نوع البسكويت. لقد أعلنوا ذلك بشيء من النشوة، وأظنّ أن تلك النسبة كانت ذاتها نسبة نجاحي في الحياة. ما أودّ قوله هو أني، وفي كل مرّة أحاول أن أحزرَ، ضاغطة على الزرّين الأحمر أو الأزرق، في حياتي هذه، كنتُ أصيبُ الاختيار بنسبة ٨٪، أظنّ أنها نسبة معقولة. أقول ذلك دون شعور بالنشوة، أظنّ أن الأمور سارت هكذا، بطريقة أو بأخرى، على الأقلّ، هذا ما أراه.

التفتت شيتزي صوبَ غولد الذي لم يُفوِّتْ، ولا حتّى سطرًا واحدًا.

- كيف تراه؟

- إن أبي ليس كولونيلاً.

- صحيح؟

- هو جنرال.

- حسنًا، جنرال. وماذا عن بقية الجواب؟

- إذا استمررتِ على هذا المنوال، فأظنّكِ ستنتهين حينما لن أعودَ بحاجة إلى مدبّرة منزل.

- أنتَ محقّ في هذا. دعني أرى ...

ناولها غولد لائحةَ الأسئلة، نظرتْ إليها شيتزي، ثمّ توقّفتْ عند سؤال في الورقة الثانية.

- هذا يبدو سهلاً، اقرأه لي ...

- ٣١: هلا تُقدِّم المرشّحة بإيجاز حلمَ حياتها؟

- بوسعي ذلك. حلمي هو أن أكتب رواية ويسترن. بدأتُ بها حينما كنتُ في السادسة من العمر، وأرجو أن أنهيها قبل أن أقضي نحبي.

- يا للروعة!

منذ كان عمرها ستّ سنوات، بدأت شيتزي بالعمل على تأليف رواية ويسترن. وكان الشيء الوحيد الذي توليه اهتمامها في الحياة. كانت تفكّر في الرواية باستمرار، وحينما تراودها أفكار جيّدة، فإنها تُشغّل المسجّل المحمول، وتُسجّل ما يخطر في ذهنها. كان لديها مئات من الأشرطة المسجّلة، وكانت تقول إنها رواية ويسترن جميلة جدًّا.

-٤-

قتلوا مامي جين في عدد كانون الثاني، في قصّة بعنوان *الرصيف القاتل*. هكذا انتهى الأمر.

-٥-

وكانت شيتزي ترغب فِعْلاً في كتابة رواية ويسترن، وهي تعمل عليها منذ سنين طويلة. جمعت في بداية الأمر أفكارَها، ثمّ ملأت الدفاتر بالملاحظات. أما الآن، فهي تستخدم جهاز التسجيل. تُشغّله بين حين وآخر، وتُسجّل فيه بعض الأشياء. لم تكن تتبع طريقة معيّنة، ولكنا كانت دؤوبة في عملها، دون توقّف. وكانت رواية الويسترن تكبرُ. وتبدأ الرواية بسحابة غبار عند الغروب.

سحابة الغبار ذاتها عند الغروب، ككل مساء، تدفعها الرياح على الأرض وفي السماء، بينما ميليسا دولفن تكنسُ بدأب، وبلا فائدة، الشارع أمام البيت، في حين تعصف بها زوابع الريح والغبار. ورغم سنّها، ثلاثة وستّون عامًا، فقد كانت هادئة. وكانت أختها التوءم جولي دولفن تنظر إليها، وهي تتأرجح تحت سقيفة أمام المنزل، تقيها الريح العاصفة: كانت تلوح لها من خلال الغبار، وهي فقط تُدركُ ما تقوم به أختها.

على الجهة اليمنى من منزلهما، تمتدّ البلدة، ببيوتها المصطفّة على جانبَي الطريق الرئيسة، وعلى الجهة اليسرى، تمتدّ صحراء قاحلة. ليس هناك حدودٌ ما وراء سياج بيتهما، كل ما هناك هي أرض قاحلة، لا جدوى منها، خالية من كل شيء سوى الأحجار. حينما يموت أحدٌ ما في تلك الجهة، فإن الجميع يقولون: لا بد أن الأختَيْن دولفن آخر مَنْ رآه، فليس من

منزل هناك وراء منزلهما، وليس من منزل في أيّ جهة أخرى. هكذا يقولون.

وترفع ميليسا دولفن رأسَها فجأةً صوب الأرض القاحلة، فتُدهشها رؤية هيئة رجل غير واضحة الملامح، بفِعْل سحابة الغبار والظلام، وهو يدنو منها. ورغم أنها قد رأت أشياء تنغمس وتختفي في تلك المنطقة القاحلة: كحيوان ما، أو عجوز ما، لكنها لم ترَ من قبل أحدًا يُقبل من هناك.

- جولي ... همست وهي تلتفتُ صوب أختها.

نَهَضَت جولي دولفن، كانت في السقيفة، وكانت تمسك بيدها اليمنى بندقية وينشستر موديل ١٨٧٣، ذات مأسورة ثُمانية الأضلاع، عيار ٤٤- ٤٠. تحدّق في الرجل: كان يسير وقد حجبت القبّعةُ عينَيْه، يرتدي معطفًا طويلاً حتّى قَدَمَيْه، وكان يجرّ شيئًا ما، ربّما حصانًا، وشيئًا آخر. يحمي وجهه من الغبار بمنديل. ترفع جولي البندقية، تسند أخمصها الخشبي إلى كتفها، تميل برأسها لتوحّد خطّ النَّظَر بين المهداف والرجل.

- أجل، يا ميليسا - تجيب بصوت خفيض.

- صوِّبي إلى صدره، وأطلقي النار.

يتوقّف الرجل.

يرفع عينَيْه.

يزيل المنديل الذي يغطّي وجهه. تُحدِّق فيه جولي دولفين، تحشو البندقية، ثمّ تميل برأسها، لتُوحِّد خطّ النَّظَر بين المهداف والرجل.

- صوِّبي إلى وجهه، وأطلقي النار.

تبتلع سحابة الغبار صوت الرصاصة. جولي دولفن تسحب الترباس، فيقفز الظرف الفارغ: مورغان أحمر، عيار ٤٤-٤٠. تبقى واقفة تحدِّق. يستغرق الرجل بعض الوقت حتّى يصل إلى ميليسا دولفن التي كانت لا تزال واقفة وسط الشارع الخالي. يرفع قبّعته.

- كلوسينغ تاون؟

- تقريبًا – تجيب ميليسا دولفن.

هكذا بالضبط تبدأ رواية الوسترن التي تعمل عليها شيتزي شيل.

-٦-

- سأرافقكَ.

- لماذا؟

- أودّ أن أرى مدرستكَ المباركة هذه - قالت شيتزي.

خرج الاثنان، وكان بوسعهما إمّا الذهاب بالحافلة أو سيرًا على الأقدام.

- لنقطعَ بعض الطريق سيرًا، بعد ذلك، نستقلّ الحافلة.

- أوكي، ولكنْ، تغطَّ جيّدًا، كيلا تبردَ.

- ماذا قلتِ؟

- لا أعرف، يا غولد، ماذا قلتُ؟

- تغطَّ كيلا تبردَ.

- ما الذي تقول!

- أقسمُ لكِ.

- لا بد أنكَ تخيّلتَ ذلك.

- لقد قلتِ لي تغطَّ كيلا تبردَ، وكأنكِ أمّي.

- هيّا، ما الذي تقول؟

- لقد قلتِ هذا.

- كُفَّ عن ذلك.

- أقسم لكِ.

- فلتتغطَّ، إذنْ، كيلا تبردَ.

كانت الطريق منحدرة شيئًا ما، وأوراق الأشجار المتساقطة تغطّي الأرض، فكان غولد يجرّ قَدَمَيْه جرًّا، كما لو أن في قَدَمَيْه خلدًا بدل الحذاء، خلدًا يحفر نفقًا بين الأوراق، مُحدِثًا ضجيجًا، يشبه هسهسة السيجار حين يُشعَل، مضاعفًا آلاف المرّات، ضجيجًا أصفر وأحمر.

- أبي يدخّن السيجار.

- صحيح؟

- أظنّكِ تعجبينه.

- أنا أعجبُهُ، وما أدراكَ؟

- أعرف ذلك من صوتكِ.

- حقًّا؟

- بوسعكِ أن تفهمي أشياء كثيرة من الصوت.

- مثلًا؟

- مثلاً، إذا ما سمعتِ أحدًا له صوت جميل، جميل جدًّا، صوت رجل، أفهمتِ؟

- أجل.

- بوسعكِ أن تراهني على أنه قبيح.

- قبيح!

- بل أسوأ من ذلك، قبيح جدًّا، أملس وعال هكذا، أو أن له يَدَيْن ضخمَتَيْن، تتعرّقان طوال الوقت، رطبَتَيْن دائمًا، هل صادف أن رأيتِ شيئًا كهذا؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرفين؟

- لا أعرف، لا أحبّ مصافحة الآخرين، ليست لديّ خبرة بالأيدي.

- لا تحبّين مصافحة الآخرين.

- كلا. إنه لشيء أحمق.

- صحيح؟

- إن لدى البالغين أيادٍ ضخمة، وليس هناك أيّ معنى لأن يصافحوني أنا بالذات، إنه لمن الحماقة التفكير في ذلك، فلن ينتجَ عنه إلا فوضى عارمة.

- شاهدتُ ذات مرّة في التلفاز كيف يمنحون جائزة نوبل. حسنًا، يصعد

أحدُهم إلى المنصّة، بكامل أناقته، ولا يقوم بشيء سوى المصافحة، من البداية حتّى النهاية. ولكنْ، ربمّا هذه حكاية أخرى.

- هذه حكاية تهمّني، احكِهَا لي، يا غولد.

- ماذا تعنين؟

- جائزة نوبل.

- ماذا تقصدين؟

- كيف قرّروا أن يمنحوكَ الجائزة؟

- لم يقرّروا أن يمنحوني الجائزة.

- منحوكَ إيّاها، وكفى؟

- لا يمنحون جائزة نوبل للأطفال.

- بوسعهم أن يستثنوكَ من القاعدة.

- كُفّي عن ذلك.

- أوكي.

- ...

- ...

- ...

- حسنًا، كيف جرت الأمور، إذنْ، يا غولد؟

- لا شيء، إنها حماقات فقط، أظنّها ثرثرة، ليس إلا.

- يا لها من ثرثرة غريبة!

- لا تروق لكِ، ها؟

- ليس الأمر كذلك.

- لا تروق لكِ.

- أراها غريبة بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر. كيف لكَ أن تُخبرَ طفلاً أنه سيحصل على جائزة نوبل؟ قد يكون ذكيًا، بوسعكَ القول ما شئتَ، ولكنْ، ليس بوسعكَ معرفة ذلك، لعلّه ليس ذكيًا إلى هذا الحدّ، لعلّه لا يريد الحصول على الجائزة، على أي حال حتّى وإن كان هكذا، فلماذا تُخبره؟ من الأفضل تَرْكُه يعيش بسلام، سيقوم هو بما عليه فِعْله، وذات صباح، سيستيقظ من النوم، وسيقولون له أسمعتَ الخبرَ؟ لقد فزتَ بجازة نوبل. انتهت الحكاية.

- اعلمي أن أحدًا "لم" يقلْ لي ...

- إنه كإخبار أحد بميعاد موته.

- ...

- ...

- ...

- كان مثالًا فقط، يا غولد.

- ...

- هيّا، غولد، كان مثالًا، ليس إلا ... انظرْ إليّ، يا غولد.

- ماذا تريدين؟

- كان مثالًا فقط.

- حسنًا.

توقّف غولد، والتفتَ إلى الوراء. كان هناك مسار، تركَتْه قَدَمَاه وسط الأوراق، مسار طويل، يمتدّ بعيدًا. قد يخطر في الذهن أن أحدًا ما، ربمّا بعد بضع ساعات، سيسير ببطء متبعًا ذلك المسار، وهو يستمتع بعدم الحياد عنه. قفز غولد جانبًا، ثمّ ابتعد قليلًا، سار دون أن يتركَ أثرًا وراءه. نظر خلفه، فشاهد انقطاع المسار المفاجئ. مغامرات الرجل الخفي، قال في نفسه.

- إنها الحافلة، يا غولد، أنستقلّها؟

- أجل.

كانت الحافلة تقطع الشارع الطويل، ثمّ تستدير حيث الطريق الصاعدة المحاذية للحديقة العامة، مرورًا أمام مشفى الحيوانات. كانت حافلة حمراء. وفي نقطة ما تبلغ الحافلة المدرسة.

- إنها جميلة - قالت شيتزي.

- أجل.

- إنها جميلة حقًّا، ما كنتُ أتوقّعها هكذا.

- لا يمكن رؤيتها من هنا، إنها تمتدّ في الخلف، حيث هناك ملاعب رياضية، ثمّ تمتدّ طويلاً بعدها.

- جميلة.

وقفا جنب بعض هناك، وهما ينظران إلى المدرسة. كان هناك شباب يدخلون ويخرجون، وحديقة كبيرة، قبل السّلّم، تتخلّلها دروب كثيرة، وكانت هناك شجرتان عظيمتان، مائلتان بعض الشيء.

- أرأيتِ الملعب قرب بيتنا، حيث يلعب الأولاد كرة القَدَم؟ - قال غولد.

- أجل.

- يوجد هنا شباب أيضًا، يلعبون كرة القَدَم.

- صحيح؟

- نعم، ولكن الغريب في الأمر أنهم، حتّى وإن لم تكن معهم كرة، فإنهم يستمرّون باللعب. تراهم بين حين وآخر يركلون الهواء، أو يتظاهرون بأنهم يراوغون. أحيانًا يضربون الكرة برؤوسهم، رغم أن ليس هناك أية كرة، إنهم يتراكضون فقط، بانتظار مدرّبهم، أو بانتظار بداية المباراة. أحيانًا يقومون بذلك دون ارتدائهم الملابس الرياضية، وترين الحقيبة لا تزال بأيديهم وهم يلتحفون بالمعاطف، ولكنهم في الأثناء يُمرّرون الكرة، أو يراوغون كرسيًا ما، أشياء من هذا القبيل.

- ...

- ...

- ...

- لا فرقَ لديّ.

- ...

- أعني المدرسة، إنها ذلك الشيء هناك.

- ...

- حتّى وإن لم يكنْ هناك كتاب مفتوح، أو أستاذ، أو مدرسة، أو أي شيء، أنا ... لا فرق لديّ ... لن أكفّ عن ... لن أكفّ أبدًا . أتفهمين؟

- ربّما.

- لطالما أعجبتْني. لا أكفّ عن التفكير فيها.

- أمرٌ مضحكٌ.

- أتفهمينَ؟

- أجل.

- لا دخلَ لنوبل في ذلك، أتفهمين؟

والظريف في الأمر أنهما لا ينظران إلى بعضهما، كانا واقفَيْن هناك، وعيونهما تتفحّص المدرسة، الحديقة، الأشجار وكل ما حولهما.

- لم يكن حديثي جدّيًّا، يا غولد.

- صحيح؟

- بالتأكيد، كان حديثًا عابرًا، ليس إلا، يجب أن لا تستمعَ إليّ، أنا آخر مَنْ يجب أن تستمعَ إليه إذا ما كان الموضوع يتعلّق بالدراسة، صدِّقني.

- حسنًا.

- لستُ بارعة في الدراسة، هذا كل ما في الأمر.

- ...

- عذرًا، يا غولد.

- لا بأس.

- أوكي.

- أنا سعيدٌ أنه يعجبكِ.

- ماذا؟

- هذا المكان.

- أجل.

- يسعدني أن أكونَ هنا.

- أجل. ولكنْ، عدْ إلى البيت حينما تنتهي، أوكي؟

- بالتأكيد، سأعود.

- افعلْ هذا: عُدْ.

- أجل.

- أوكي.

عندئذٍ نظرا إلى بعضهما، ولم يفعلا ذلك قبلاً. نظرا إلى بعضهما قليلاً، وكان غولد يضع قبّعة من الصوف، مائلة بعض الشيء، حتّى إن أحدى أذنَيْه كانت تحت القبّعة، أما الثانية، فلا. كان على وضعه ذاك لا تبدو عليه العبقرية في شيء، قد يستدعي الأمر نظرة خبيرة، لتميّز ذلك فيه. سحبت شيتزي القبّعة، وغطّت الأذنَ البارزة. - وداعًا - قالت.

اجتاز غولد البابَ الحديدي، وسار في الشارع الرئيس، وسط الحديقة الواسعة، دون أن يلتفتَ قطّ. كان يبدو صغيرًا جدًّا بين أقرانه في المدرسة، وفكّرت شيتزي أنها لم ترَ قطّ شيئًا أصغر من هذا الصبي وحافظة الأوراق التي يحملها، وكان يزداد صغرًا كلّما تقدّم في الشارع. وقالت في نفسها إنه لمن المخجل أن يكون هذا الصبيّ وحيدًا هكذا، وإنه على الأقلّ كان يجب أن يضعوا حرّاسًا يسيرون إثره، أو شيئًا من هذا القبيل، لكي يحرسوه على امتداد هذا الشارع، ثمّ داخل القاعة، عشرون حارسًا، أو حتّى أكثر. فمن المرعب أن يبقى هكذا.

- من المرعب أن يبقى هكذا - قالت لشابَّيْن كانا يخرجان من المدرسة وهما يحملان الكُتُب، ويضعان أحذية، كأنها أحذية رسوم الكومكس.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- بل كل شيء ليس على ما يرام.

- آه، صحيح؟

وقهقه الشابّان.

- أتعرفان صبيًا، اسمه غولد؟

- غولد؟

- أجل، غولد.

- الصبيّ الصغير؟

وقَهْقَهَا.

- نعم، الصبيّ الصغير.

- بالتأكيد، نعرفه.

- ولمَ تُقهقهان؟

- السّيّد نوبل، مَنْ لا يعرفه؟!

- ولمَ تُقهقِهان؟

- هيه، اهدئي، يا أختاه.

- إذنْ، هل تعرفانه أم لا؟

- أجل، نعرفه.

- وهل أنتما رفيقاه في الدراسة؟

- مَنْ، نحن؟

- أنتُما.

وقَهقَها.

- ليس لهذا الصبيّ رفيق.

- ماذا تقصد؟

- ليس له رفيق، هذا ما أقصد.

- أولا يأتي إلى المدرسة معكم؟

- إنه يعيش في المدرسة.

- إذنْ؟

- إذنْ، لا شيء.

- إنه يحضر الدروس ككل الآخرين، أليس كذلك؟

- وما شأنكِ أنتِ؟ مَنْ أنتِ، صُحُفية؟

- أنا لستُ صُحُفية.

- لا بد أنها أمّه.

وقَهقَهَا.

- لستُ أمّه، فهو لديه أمّ.

- مَنْ أنتِ، إذنْ، ماري كوري؟

- اذهبْ إلى الجحيم.

- هيه، أختاه، اهدئي.

- اهدأ أنتَ.

- لا شك أنكِ مجنونة.

- اذهبْ إلى الجحيم.

- هيه.

- اتركْها وشأنها، إنها مجنونة.

- وماذا تريد منّي؟ ...

- هيا، اتركْها وشأنها ...

- إنها مجنونة.

- هيّا، لنغادر، هيّا.

ولم يُقَهْقِهَا بعد.

- لا شك أنكما لن تمزحا هكذا حينما سيأتي الحرّاس. صرخت بهما شيتزي.

- اسمعْ ما تقولُ هذه المجنونة.

- اتركْها وشأنها، هيّا.

- سيعلّقان أمثالكما من خصاهم، وسيتمرّسون فيهم على الرماية.

- إنها مجنونة.

- شيء لا يُعقَل.

والتفتت شيتزي صوب المدرسة - سيُعلّقونكم من خصاكم بلا شك - همست. كان البرد قارسًا، نظرت إلى الحديقة الكبيرة، وإلى الأشجار المائلة. لقد رأت أشجارًا مماثلة لتلك في مكان ما، ولكنها لا تذكر أين. ربّما أمام متحف ما. كان البرد شديدًا، فأخرجت قفّازَيْها من الحقيبة، ولبستْهما. يا للدنيا اللعينة! قالت في نفسها. نظرت إلى الساعة. كان هناك شباب يدخلون المدرسة، وآخرون يخرجون منها، وكانت المدرسة مَطليّة بالأبيض. وكان عشب الحديقة قد اصفرّ. يا للدنيا اللعينة! قالت في نفسها. ثمّ جعلت تركض. سلكت الشارع الرئيس راكضة حتّى السّلّم، صعدتْه، ودخلت المدرسة. سارت في ممرّ طويل، ثمّ صعدت إلى الطابق الثاني، فتحت الأبواب كلها التي صادفتْها، وانتهى بها المطاف خارج المدرسة، ثمّ اجتازت ملعبًا رياضيًا وحديقة، ودخلت في بناية صفراء بثلاثة طوابق، صعدت السّلّم، بحثت في المكتبات والحمّامات، صعدت بالمصعد، ثمّ تبعت سهمًا، كُتب عليه مؤسّسة غرابنهاور، عادت أدراجها، سلكت ممرًا مطليًا بالأخضر، فتحت الباب الأول، نظرت داخل القاعة، فرأت رجلًا واقفًا خلف مكتب الأستاذ، ولم يكنْ هناك أحد على المقاعد الدراسية سوى صبيّ جالس في الصّفّ الثالث، وبيده قنّينة كوكا كولا.

- شيتزي.

- مرحبًا، غولد.

- ماذا تفعلين هنا؟

- لا شيء، أردتُ أن أطمئنّ عليكَ.

- كل شيء على ما يرام، يا شيتزي.

- هل أنتَ بخير؟

- أجل.

- حسنًا. كيف لي أن أخرجَ من هنا؟

- انزلي، واتبعي السهم.

- السهم؟

- أجل.

- أوكي.

- أراكَ لاحقًا.

- أراكِ لاحقًا.

وبقي غولد والأستاذ في القاعة.

- إنها مدبّرة المنزل الجديدة - قال غولد - اسمها شيتزي شيل.

- لطيفة - قال الأستاذ، والذي على ما يبدو كان اسمه مارتنس.

ثمّ أكملَ الدرسَ، والذي كان على ما يبدو الدرس رَقْم ١٤.

- ويبدو في الحقيقة أن هذا هو صميم تجربة فريدة كتلك، رغم أنها قابلة للاستقراء نسبيًا، ومجهولة - أوضح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤ – خذ مثالًا على ذلك شخصًا ما وهو يقصد ناحية معيّنة خطّط لها منذ الصباح، كان يسير في الشارع نحو هدف معيّن تبعًا لمسار محدّد، لا لبس فيه. ولنفترض أنه يجد نفسه فجأةً بمواجهة شيء، لا يسعه أن يغضّ

النَّظَر عنه، كعب حذاء على الإسفلت، وكان شيئًا غير متوقّع، وغير قابل للتّوقّع. فيسحره ذلك الحضور. سَحَرَهُ هو فقط، انتبه جيّدًا، وليس آلاف الآخرين مثله، والذين كان لهم المزاج ذاته والتّصرّف ذاته، وشاهدوا كعب الحذاء،ولكنهم وبتلقائية ميكانيكية صنّفوه في زاوية الأشياء الثانوية في أدمغتهم، الأشياء المثيرة للفضول، ولكنْ، دون أن تنفذَ إلى نظام الاهتمام، والذي بُرمِجَ خصيصًا على هذا الأساس. في حين كان صاحبنا قد خضع لذلك التّجلّي السِّحْرِي المفاجئ، فقطع مسيره، الروحي وغير الروحي، لأنه تاه بلا رجعة بِفِعْل تلك الصورة التي تمثّلت أمامه كنداء، يستحيل تفاديه، وبدت ظاهريًا كأنها موسيقى قابلة للتردّد إلى ما لا نهاية.

هذا أمرٌ غريب - أوضح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤- إذ إن في مَعْمَعَة الأشياء التي يقوم إدراكنا بنقلها من الخارج إلينا، يَبرز تفصيل ما، فقط ذلك التفصيل، ويخرج من فوضى الأشياء تلك، يفلت من قدرتنا على السيطرة، ويخدش سطحَ غفلتنا التلقائية. عادة ليس هناك سبب ما لنمرَّ بلحظات مماثلة، ونحن نمرّ بها على أي حال، فتوقد فينا فجأةً إحساسًا غير معتاد. إنها أشبه بالتلميح. كأنها ومضات تلميح، تفتح أمامكَ عوالم. قد يقول أحدهم - أوضح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤ - أن بعض تجلّيات تلك الأشياء التي تنفذ عبر الحقيقة الخالية من المعنى، ربمّا هي مسامات ضئيلة، ينفذ من خلالها التخمين، وربمّا تبلغ من خلالها عوالم أخرى. ففي لاشيئية كعب الحذاء المفقود في الشارع، ينفذ ضوء امرأة، ضوء امرأة، عالم متكامل - شرح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤ - حتّى إن أحدًا قد يتساءل، في النهاية، إذا ما كان ذلك تمامًا / ربمّا ذلك هو الباب لحقيقية العوالم الوحيدُ غيرُ المتوفّر في أي امرأة تتجلّى بكُلّيّتها في كعب حذاء مفقود في الشارع / بل هناك شيء ما مشابه / شيء ما

هو نواة تجارب وحكايات تقبع تحت اسم امرأة / لنقل إنها حقيقتها المتغيّرة / وبدقّة أكبر هي ذلك الشيء الذي في واقع الحياة يتناسب مع ما يجول في أفق إدراكنا من مشاعر وعواطف، تقود إلى التعبير اللغوي امرأة، وليس هناك امرأة بكُلّيّتها تتجلّى في كعب حذاء مفقود في الشارع: وإذا كان هذا صحيحًا، فإن الحقيقة، إذنْ، هي عالم يقبع تحت الأرض، يمكن لمحه عبر ومضات الفتحات الصغيرة التي تُفصح عنه، أشياء - ومضات منحوتة على سطح الحقيقة المتألّقة، والتي هي إيماءات ومختصرات، إشارات وأبواب - شرح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤، ثمّ أضاف - ولا تذكر لي متلازمة بروست. لقد وَطَّنّا أنفسنا على تلك الصورة البشعة المنزلية، البرجوازية/ وقد حيَّدنا فيها حرقة تلك الفتحات الحقيقية، والتي آلت إلى ذكريات لا إرادية، ولا معنى لها في حدّ ذاتها، ومَنْ يدري لمَ، كونها لا إرادية؟ فهي إيحائية/ وبينما نحن مُمدّدون على سرير الطبيب، نجدنا نُسرف بومضات التّجلّي التحت أرضية، وكأنها إيحاءات مختزنة في اللاوعي الشخصي والجماعي/ وقد سلّمنا ذلك إلى علاج لمواساتنا، كما لو كانت حصى كلوية، يجب تبوّلها مع شظايا الذكريات، الذكريات/ الذاكرة/ إدرار بول الروح/ جُبن لا يغتفر/ كما لو أن - شرح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤ وهو ينزل من المنصّة مقتربًا من غولد - كما لو أن الرجل الذي سَحَرَهُ كعب الحذاء الأسود، أصبح في تلك اللحظة نفسه تمامًا: وكأن له سيرة حياة خاصة به، وذكرى خاصة أيضًا. وهذه هي الكذبة بالضبط. إن الأعين التي ترى تلك الومضات ما هي إلا محطّات في عالم ما، غير قابلة للتكرار. إنها تركيبة أحداث قد وقعت، خليط من الأحداث الموضوعية صُبَّتْ كلها في الزمان والمكان ذاتهما. ليس هناك من شيء لا موضوعي. كل ومضة هي حدث موضوعي. إنها الحقيقة التي تُشوّه الواقع، والأعين غير القادرة

على ألا تكون سوى واقعية، فهي أعين بلا تاريخ، فقط بعد ذلك سيكون لها تاريخ، انتبه جيّدًا، فقط بعد ذلك سيكون لها تاريخ، وذلك رغبة في تحويل تلك الومضة إلى ماضٍ أبدي قدر المستطاع، فكِّرْ في العقل الذي بوسعه فِعْل ذلك، أي خفّة تلك وأيّ قوّة! وهو يُوقف تلك الومضة طوال الوقت الكافي حتّى يراها تتحوّل إلى تاريخ! هذا يعني صياغة التاريخ، هذا ما يجدر بالإنسان أن يجيدَه، أن يبقى في إصغاء طوال الوقت، وهو ينتظر الفوهة المختبئة في شفرة الومضة، يستقبل منها الخطوة والمقياس، النَّفَس والمشية، وهو يخطو على إثرها، يستنشق وقتها، حتّى ينال، بيَدَيْه وصوته، تلك اللحظة التي تنفتح على مكان ما، والتي تزداد حلاوة في إنحاء التاريخ، في إنحاء الخطّ المستقيم لتاريخ حادّ، هل لكَ أن تتخيّل شيئًا أجمل من هذا؟ - شرح الأستاذ مارتنس في الدرس رَقْم ١٤.

كان الأستاذ مارتنس هو أستاذ غولد في مادّة الميكانيكية الكمّيّة. وكان لديه هَوَس بالدرّاجات الهوائية، والتي يقع منها باستمرار بسبب التهاب أذنه الداخلية التي لم يعالجها جيّدًا. وكان أحد أسلافه قد قاتلَ في معركة شارلتنبيرغ، وهو لديه دليل على ذلك، حسب قوله.

-٧-

المشهد الجميل الآخر كان مشهد قائمة الطعام داخل الصالون. ليست قائمة الطعام هي الجميلة، بل المشهد داخل الصالون. حيث كان كل شيء في هيجان: أصوات، ضوضاء، ألوان، ولكنْ، لا تنسَ، تقول شيتزي، الرائحة الكريهة، فهي مهمّة للغاية. يجب أن تحفظَها في ذهنكَ. العَرَق، الكحول، الخيل، الأسنان المصابة بالتّسوّس، البول وكريم ما بعد الحلاقة. أتتخيّل ذلك؟ لن أكملَ حتّى تُقسمَ أن بوسعكَ تخيُّل ذلك.

كان الحوار في بداية الأمر بين كارفر، صاحب الصالون، والرجل الغريب، ذلك الذي أطلقتا عليه النار الأختان دولفن. كان كارفر يتحدّث، بينما هو يشطف الأقداح. ولم يرَهُ أحدٌ وهو يغسلها فِعْلاً.

- هل أنتَ الغريب؟

- ما هذه؟ أهي ماركة ويسكي جديدة؟

- إنه سؤال.

- لقد سمعتُ ما هو أفضل.

- نحتفظ بجميل الأحاديث للزبائن الذين يدفعون المال.

يضع الرجل الغريب عملة ذهبية على الطاولة، ويقول:

- لنسمع، إذنْ.

- ويسكي، يا سيّدي؟

- قدح كبير.

تقول شيتزي إن عليها تسجيل أشياء أخرى، ولكنه تامٌّ على أية حال، تقصد المشهد.

- أعادةً ما تُطلقون النار على القادمين إلى بلدتكم؟

- الأختان دولفن، هيه؟

- سيّدتان، توءم.

- هما إذنْ.

- زوج جميل.

- لم أرَ أحدًا يجيد استخدام البندقية مثلهما - يقول كارفر، ويقوم بشطف قدح آخر.

- ماذا تقصد؟

- ألم تسمعْ عن قصّة ورقة جاك الكوبة؟

- كلا.

- إنهما شهيرتان بهذه الحكاية: تقفان على مسافة أربعين خطوة منكَ،

ترمي أنتَ حزمة ورق في الهواء، وهما تُطلقان النار، وحين تقوم بجَمْع الورق من الأرض، تجد في النهاية خمسين ورقة طبيعية بين يديكَ، وواحدة بثقبَيْن في وسطها.

- جاك الكوبة.

- بالضبط.

- ويصبنَ ورقة جاك الكوبة في كل مرّة؟

- تعجبهما تلك الورقة. لا بد أن هناك حكاية ما وراءها.

- متى يمكن حضور هذا المشهد؟

- ليس بوسعكَ حضوره بعد. المرّة الأخيرة كان قبل سَنَتَيْن، وقد سَقَطَ قتيلٌ حينها، ولم يُعَدِ المشهد قطّ.

- وهل هما مَنْ قتلاه؟

- كان رجلاً أحمقًا، قد جاء من مدينة أخرى، وسمع عن حكاية ورقة جاك الكوبة، فلم يُصدّق ذلك، وكان يقول إن العجوزَيْن العانسَيْن ما كانتا لتُصيبا ولا حتّى ورقة واحدة، وإن لُفَّتْ ووُضِعَتْ في فوهة البندقية. واستمرّ يُكرّر الحكاية لعدّة أيّام، وكان يتفجّر ضاحكًا من حكاية وَضْع الورقة ملفوفة في فوهة البندقية. فأصاب الأختَيْن الحنقُ من حكاياته، ولم تكن قصّة وَضْع الورقة في فوهة البندقية ما أثارت حنقهما، بل كانت مسألة تسميتهما بالعانسَيْن، وقد استشاطَتَا غضبًا بسببها. وكان الجميع هنا يُفضِّل تلافي الموضوع، ولكن الأحمق ذاك لم يكفّ عن الأمر، وكان يُكرّر: قالت العجوزان العانسان، فعلت العجوزان العانسان. فجُنّ جنونهما. قدح ويسكي آخر؟

- الحكاية أولًا.

- وانتهى الأمر أن راهن هو بألف دولار على أن العجوزَيْن العانسَيْن لن تُصيبا الورقة. كان يبدو واثقًا من نفسه. جاءَتَا - هما - ببندقيَّتَيْهما، وحضر أهل البلدة كلها، فرمى هو حزمة الورق في الهواء. ولكنْ، سَقَطَ الرجل، وكانت الأوراق لا تزال في الهواء، تتساقط كأنها أوراق الأشجار: أُصيبَ الرجل برصاصَتَيْن في قلبه.

مات الرجل، فاستدارت الأختان، وعادتا إلى بيتهما.

- عظيم.

- كنّا هناك جميعًا، ولا نعرف أين نُوجّه أنظارنا. ساد صمت وكأن على رؤوسنا الطير. الشريف فقط هو مَنْ تحرّك: دنا من الجثّة، قَلَبَهَا على الظهر، ثمّ وقف يحدّق فيها قليلًا، وكأنه يبحث عن شيء ما. التفت إلينا، وهزّ رأسه مبتسمًا. توقّف كارتر عن شطف القدح، وكان هو الآخر مبتسمًا.

- لقد حاول ذلك الأحمق أن يكون حذقًا، فأخرج ورقة جاك الكوبة من حزمة الورق، وخبّأها. احزرْ، أين؟

- في جيب الجيليه.

- فوق القلب تمامًا. لا أزال أذكر تلك الورقة، كانت مُلطّخة بالدم، وفي وسطها ثقبان كبيران، وكأنه خَتْم.

- قدح ويسكي آخر، يا كارفر.

- حسنًا، يا سيّدي.

خلال المحاكمة - تقول شيتزي - بحث القاضي في مجلّداته عن مادّة ما تسمح بقَتْل محتال غير مسلّح، دون أن ينتهي الأمر بالقاتل إلى حبل المشنقة، ولكنه لم يعثرْ عليها. حينها قال: فليذهب إلى الجحيم، أطلقوا سراحَهُما. ثمّ انفرد بالشريف، وقال له شيئًا ما، له فقط، بعدها راح يسكر بطريقة حيوانية.

- كارفر؟

- أجل، يا سيّدي.

- لماذا أنا لا أزال على قيد الحياة، إذنْ؟

- لا تسألني أنا، هذا صالون، يا سيّدي، الكنيسة هناك، في الجانب الآخر من الشارع.

- لماذا أطلقت الأختان دولفن عليّ النار وأنا لا أزال هنا، أشرب الويسكي؟

- ذخيرة وَهْمية. الأختان لا تعلمان بذلك، وقد صَنَعَهَا لهما ترومان، رصاص مورغان أحمر عيار ٤٠ – ٤٤، لقد صَنَعَهَا بمهارة بعد أن أفرغَ الرصاص الحيّ. كانت تلك أوامر الشريف.

- وهما لا تعلمان بذلك؟

رَفَعَ كارفر كتفَه. أفرغ الغريبُ قدحَهُ. كانت تنتشر في المكان رائحة العَرَق، الكحول، الخيل، الأسنان المصابة بالتّسوّس، البول وكريم ما بعد الحلاقة. وإذا ما سألتَ شيتزي ما دخل قائمة الطعام في هذا كله، فإنها ستقول لكَ إن لها دخلاً بالتأكيد. تريّثْ، هذه البداية فقط.

-٨-

ولمّا كان الحمّام عند نهاية السّلّم، فإن شيتزي حينما تصعد إلى الطابق الثاني للنوم في غرفتها، كانت تمرّ أمامه. وكان غولد في الحمّام، وشيتزي تسمع صوته يأتيها من الداخل. صوته الذي يُقلِّد أصواتًا أخرى.

- لسنا في كليتك اللعينة الآن، أتعلم ذلك، يا ليري؟ ... انظرْ إليّ، تنفَّسْ ... هيّا، تنفَّسْ ... وأنتَ، لا تبالغْ باستخدام هذه المادّة، يا إلهي.

- ولكن حاجبه مفلوق، أيها المدرّب.

- لا تبالغْ، اللعنة ... اسمعْ، يا ليري، أتسمعني؟

- أجل.

- أتودّ فِعْلًا أن تتغيّر تقاسيم وجهكَ؟

- كلا.

- تنفَّسْ ... هكذا، أيّها الولد المدلّل ...

- أنا لستُ ...

- بل أنتَ هكذا، أيّها الولد المدلّل اللعين، تنفَّسْ ... أعطِهِ ماء ... الماء ... اسمعْ، أتسمعني؟ لن تتمكّنَ من الفوز عليه، إذا ما بقيتَ تنتظره، أتفهم؟

- ....

- اقتربْ منه، يا ليري، يجب أن تكونَ في مدى لَكَمَاته، عليكَ تقصير المسافة، كُفَّ عن التّهرّب، لستَ هنا لكي تستعرضَ أمام المصوِّرين، يجب أن تكونَ في مرمى لَكَمَاته، كُفَّ عن شرب الماء، إذا ما أحسستَ بلَكَمَاته، فستكون قريبًا منه بما فيه الكفاية، عندها عليكَ أن تستغلّ الفرصة، لكمة جانبية يُسرى في خاصرته، ثمّ لكمة مستقيمة، إن وضعيّته الدفاعية تسِمح لكَ بذلك، ليري!

- أجل.

- اقتربْ منه، وسَدِّدْ له اللَّكَمَات، كرِّرْ ما قلتُه لكَ.

- يدي ... يدي تؤلمني.

- كرِّرْ ما قلتُهُ لكَ، بالله عليكَ.

- اقتربْ منه، وسَدِّدْ له اللَّكَمَات، يا ليري.

(يرنّ الجرس)

- اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري.

- وأنتَ كذلك.

تبدأ الجولة الثالثة هنا في تويوتا ماستر بولدينغ، بين ليري غورمان وليون سوبيلو، لا تزال أمامهما عدّة جولات حتّى يبلغا الجولة الثامنة، ولكنْ، يبدو أن غورمان قد أُصيب في وجهه، سوبيلو وسط الحلبة ... في وضعيّته المعتادة، ليست أنيقة جدًّا، ولكنها فعّالة ... إنه ملاكم عظيم، لا نزال نذكر

لقاءه مع هيردر ... اثنتا عشرة جولة قاسية ... لكمة يسرى من سوبيلو، تلحقها أخرى ... يتقهقر غورمان، يلوذ بالحبال، ثمّ يتزحلق عليها ...

ما هذا، يا ليري؟ يا إلهي، لا أحسبكَ ترقص التانغو! يهجم عليه سوبيلو، يلكمه، يكرّر اللكمة ... ثمّ لكمة يمنى ولكمة يسرى تتبعها أخرى، ترنّح غورمان ... صار يبحث عن الركن، نَهَضَ المتفرّجون جميعًا ... سوبيلو يضغط، يتكوّر غورمان في ركن الحلبة ...

الآن، يا ليري!

ضربة مستقيمة من غورمان، ولكمة أخرى، يبدو أن الضربتَيْن كانتا قاسيتَيْن على سوبليو الذي بدأ يتراجع نحو مركز الحلبة.

أكملْ، يا ليري، أكمل الآن، اللعنة ...

غورمان يهجم ... إنه يمدّ ذراعَيْه على طول جسده، يا له من مشهد غريب، يا أعزائي المستمعين ... يقف سوبيلو ... يتراقص النصف الأعلى من جسد غورمان، دون تغطية دفاعية ... يلكمه سوبيلو، يتجنّب غورمان اللكمة، ثمّ يخترق دفاعات سوبيلو، لكمة يمنى، يمنى مستقيمة، لكمة يسرى، ويسرى جانبية، لكمة يمنى، يسرى جانبية، سَقَطَ سوبيلو أرضًا، سَقَطَ أرضًا، سَقَطَ سوبيلو أرضًا، يا لها من هجمات قاتلة! سَقَطَ سوبيلو أرضًا، ليس لديه القدرة على النهوض ... يمنى يسرى يمنى بسرعة مذهلة ... سوبيلو يحاول النهوض ... ينهض، نَهَضَ سوبيلو، انتهى العَدّ التنازلي، نَهَضَ سوبيلو، ولكن اللعبة انتهتْ، أنهى الحَكَمُ اللقاءَ، لقد انتهت اللعبة، في دقيقة وستّ عشرة ثانية من الجولة الثالثة، هُزم سوبيلو، أصدقائي المستمعين، لقد استطاع غورمان أن يخطفَ الفوز من خصمه، هنا في تويوتا ماستر بولدنغ ...

- أين تعلّمتَ خطوات التانغو اللعينة تلكَ؟

- في الكُلّيّة، يا معلّمي.

- لا تتفوّه بهذه الحماقات.

- بوسعي أن أعلّمكَ إيّاها، إن أحببتَ.

- ضَعْ هذه على كتفَيْكَ، هيّا.

- كيف هو وجهي؟

- كما هو.

- أوكي.

جلبة استخدام الماء، ثمّ ضوضاء الصنبور، ثمّ خشخشة استخدام فرشة الأسنان. بعدها ران الصمت. فُتح باب الحمّام، كان غولد يرتدي البيجامة. وشيتزي واقفة بلا حراك تنظر إليه.

- ما الذي كنتَ تقوم به؟

- قُمتُ بماذا؟

- هذا التلفاز.

- إنه راديو، وليس تلفازًا.

- آه.

- إن سوبليو هذا عظيم فِعْلاً.

- أهو إيطالي؟

- بل أرجنتيني. إنه ملاكم. لعلّه قبيح المظهر، لكنه عظيم. لم يخسرْ لقاءً قطّ من قبل.

- غولد؟

- أجل.

- لماذا لا تمارس العادة السّرّيّة في الحمّام، ككل الأولاد، بدلًا من هذا كله؟

- لأني أمارسها في السرير، وهو أكثر يسرًا.

- معكَ حقّ.

- تصبحين على خير.

- تصبح على خير.

-٩-

دعت شيتزي الجميع إلى العشاء يوم السبت. لهذا ذَهَبَ الأولاد إلى محل حلاقة ويزوند، ليحلقوا رؤوسهم. وكان محلّ الحلاقة مليئًا بالناس، وبعضهم يقف في الطابور خارج الباب. عادة ما يذهب الجميع يوم السبت لحلاقة رؤوسهم.

- يوم السبت، في بيتنا، الكلّ يسبح - قال ديزل.

كان هناك شخص متّكئ على كرسي الحلاق، يملأ الصابون وجهه حتّى منخرَيْه، وكان يسعل كثيرًا، ولكنْ، - بوضعيّته تلك - لم يكن بوسعه أن يبصقَ، لذلك كان يجمع البلغم في فمه. وكان من القبيح جدًّا التفكير بما قد يخرج من فمه في اللحظة المؤاتية. تدور أجنحة مروحة السقيفة، وتلفّ معها الزغب والشعر وأوراق إعلانات بالية عن زيت الشَّعر ورائحة عطر الكولونيا. جدرانٌ صفراء، مرايا بصور بريجيت باردو التي لم تبلغ الكبرَ مطلقًا في قلب ويزوند. قيل إن ويزوند كان راهبًا، في بيته، ثمّ انتشرت أخبار عن علاقاته المشبوهة بفتياتٍ صغار، أو شيء من هذا القبيل، فأصبح بعد ذلك الحلاق ويزوند. وكان يقصّ الشَّعر مجانًا يوم الخميس "أنا أعرف لماذا، لكنني لن أخبرَكم أبدًا". وكان بوميرينغ يحلقُ شَعره تمامًا، بينما غولد يقول "قُصَّ شعري أقصر ما يمكن، من فضلكَ". ولم يكنْ هناك من كرسي يتّسع لديزل، فكان عادة ما يقف، متّكئًا على المغسلة، وكان

ويزوند يصعد على طاولة صغيرة، كان يصعد وينزل، ويقصّ شَعر ديزل. ولكنهم الآن لا يزالون ينتظرون في الخارج، في الطابور، تحت حَرّ الشمس.

- لقد طَرَحَهُ أرضًا في الجولة الثالثة - قال غولد.

- سحقًا - قال ديزل، ثمّ أخرج من جيبه ورقة نقدية متهالكة ووسخة، وناولها إلى بوميرينغ. - هلا قلتَ لي كيف صَمَدَ أمامه ذلك الوقت كله؟

- لقد قلت لكَ إن سوبيلو عظيم.

- يجب أن لا نستعجلَ الفنّانين في أدائهم، وغورمان فنّان – "لم" يقل بوميرينغ وهو يدسّ النقود في جيبه.

- وماذا قال مونديني؟ سأل ديزل.

- كان مونديني واجمًا، ولم ينبس ببنت شفة. كان يظنّ أن ليري يقوم بدور الماكر، يصعد على الحلبة، ويرقص التانغو.

- ارقصْ، ارقصْ.

التالي، صاح ويزوند.

وكان مونديني مدرّب ليري، المعلّم كما يسمّونه هم. كان هو مَن اكتشف ليري. شَعره مجعّد وخشن، كأنه ليفة تنظيف الأطباق. وكان رجلًا له تاريخه.

بومَرينغ: كان مونديني يعمل في تصليح الأغراض المعدنية، وما كان يعرف عنها شيئًا، لكنه كان يعمل بها. وذات مرّة أصلح أشياءَ في مرحاض صالة الألعاب الرياضية، ومن يومها، أُغرم بالملاكمة. وفي نزاله الأول، ألقوه

صريعًا ستّ مرّات. عاد إلى غرف تغيير الملابس، لبس ثيابه، وخرج، بقي ينتظر الملاكم الذي هزمه. وكان للملاكم اسم روسي، كوزالكيف. ولم يكن بمقدور مونديني أن يقفَ على قَدَمَيْه، من شدّة الضرب الذي تلقّاه، إلا أنه تبعه دون أن يلمَحَهُ الآخر، حتّى دخل أحد البارات، فدخل مونديني خلفه. طلب بيرة، ثمّ جلس جنب الروسي. انتظرَ قليلاً من الوقت، ثمّ قال له: علِّمْني. وكان كوزالكيف قد شارك في ثلاثة وخمسين لقاء، وبين الحين والآخر كان يرتّب نزالات مع بعض الشباب عديمي الخبرة، وهكذا يحسّن من سُمعته.

- اذهبْ إلى الجحيم، أجابه الروسي. قام مونديني، بكل هدوء، وأفرغ البيرة على بنطلونه. تشاجر الاثنان، وتبادلا الركلات، وتراشقا بالأقداح حتّى جاءت الشرطة، وأخذتْهما بالقوّة، ورمتْهما في السجن، في مركز الشرطة. بقيا صامتَيْن وحدهما في الظلام، لساعة كاملة، حتّى قال الروسي: أولًا، مارس الملاكمة فقط إذا كنتَ تقاسي الجوع. لا يهمّ أيّ نوع من الجوع.

حين بلغا الصباح، كانا قد وَصَلاَ إلى الخدع التي تُسدَّد من خلالها لكمات إلى الكليَتَيْن، دون أن يراكَ الحَكَم، أو بحجّة أن الخصم هو مَن استدار. لكمة في الكلية تُصيبكَ بألم، ينعكس حتّى في عينَيْكَ.

ديزل: مونديني يقول إن ليلة واحدة كافية لتتعلّم اللَّكْم. ولكنْ، تحتاج إلى عمرٍ بأكمله لتتعلّم الملاكمة. انسحبَ من الملاكمة بعمر أربع وثلاثين سنة. وكانت سيرته ككل الأخريات، سوى لقاء واحد لا يُنسى. استمرّ اثنَتَي عشرة جولة، في أتلانتك سيتي، ضدّ بيري كينغ مووسه. سَقَطَ كل منهما أرضًا أربع مرّات، كانا ينازلان بشراسة. قضيا الجولة الأخيرة، يستند كل منهما على الآخر، وقد أتى عليهما التعب، أسندا رأسًا على رأس، وكانت أذرعهما

متدلّية كأنها مضارب ناقوس، قضيا الدقائق الثلاثة يشتم كل منهما الآخر بأسوأ الشتائم. في النهاية، أُعلن الفوز لمووسه، فقد كان لديه معارف. حاول مونديني أن ينسى اللقاء، ولكنْ، ذات مرّة، بينما كان جالسًا أمام التلفاز، كانت هناك أخبار حول جريمة قَتْل في أتلانتك سيتي، فسمعه أحدهم يتمتم: مكان جميل، قضيتُ فيه أسبوعًا من الزمن.

- أنُرتّب هذا الشَّعرَ الأبيض قليلاً؟ - قال ويزوند. وكان يوم الاثنَيْن يوم عطلة الحلاق، يذهب فيه إلى المقابر، يبدو أن له أقارب في كل مكان. ثمّ يقضي المساء في البيت، يعزف الغيتار. يفتح الآخرون نوافذهم، ويستمعون إليه.

بومَرينغ: انسحب مونديني من الملاكمة عندما كان عمره أربعًا وثلاثين سنة. كان آخر لقاء له مع ملاكم أسود من فيلادلفيا، كان الآخر أيضًا في نهاية مسيرته في الملاكمة. حينما شاهده مونديني يصعد إلى الحلبة، نادى زوجته التي كانت عادة ما تجلس في الصّفّ الأول، وقال لها:

- هل جلبتِ المال؟

- أجل.

- جيّد. راهني عليّ بكل ما لديكِ.

- ولكنْ ...

- لا تناقشي في الأمر. راهني عليّ، آمل فقط أن يصمدَ هذا حتّى النهاية.

سَقَطَ مونديني أرضًا في الجولة الثانية، ثمّ في الجولة السابعة. كان

يلاكم بشكل جيّد، لكنه لم يتمكّن من تسديد لكمته اليسرى. في حين كان الأسود يسدِّد اللكمة اليسرى بقدرة عالية، كانت تُفاجئ مونديني بانطلاقتها. وفي الجولة العاشرة، سدّد الملاكم الأسود لكمة يسرى، فهوى مونديني أرضًا. اختلطت الأمور عليه أول الأمر، من ثمّ، رأى وجه زوجته وهي تنحني عليه، وتحدّق في وجهه، في غرفة تغيير الملابس. قابلها بابتسامة قائلًا:

- لا تقلقي، سنبدأ من جديد.

- في الحقيقة، هذا ما فعلتُ تمامًا - أجابت الزوجة - فقد راهنتُ بكل ما لديّ على الآخر.

فتح مونديني بتلك النقود صالة ألعاب رياضية، ثمّ أصبح ما هو عليه اليوم، المعلّم. لو كان هناك آخرون مثله!

فجأةً وإذا بالولد الجالس تحت تقويم بيربالوز (شركة أصباغ الشَّعر والشامبو) بدأ يهتزّ بعنف. كان جسده يرتجف بالكامل، وبقوّة. انزلق من على الكرسي، وسَقَطَ أرضًا. برزت أسنانه، وطفحت رغوة ما من فمه. وكان يُصدِر في كل شهقة صريرًا مخيفًا. توقّف ويزوند وبيده المقصّ والمشط. كان الجميع ينظر، لكن أحدًا لم يحرّك ساكنًا. قال الرجل البدين الذي كان يجلس قرب الولد تمامًا:

- ماذا أصابه؟

لم يجبْه أحدٌ. كان الولد بحالة سيّئة تمامًا، يخبط بيَدَيْه وقَدَمَيْه الأرضَ، ويهزّ رأسه بعينَيْه الزائغَتَيْن، وتطفح من فمه تلك الرغوة التي تناثرت على وجهه.

- ما هذا القرف؟ اللعنة!

نَهَضَ الرجل البدين، وهو ينظر إلى الولد الممدّد أمامه على الأرض، ويمسح يَدَيْه بجاكيته، كما لو كان ينظّفهما من شيء ما. كان شاحب الوجه، تلمع بعض قطرات من العَرَق على جبينه.

- هلا أوقفتُمُوه عن فِعْل هذا؟ إنه أمر بذيء.

لم يقوَ ويزوند على فِعْل شيء. نَهَضَ أحدٌ ما، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من الولد. تمتم شيخ جالس هناك بشيء، كأنه:

- يجب أن يساعدَه أحدٌ على التّنفّس ...

قال ويزوند:

- الهاتف ...

كان الولد يخبط رأسه بالأرض دون أن يتألم أو يتذمّر، كل ما يصدر عنه هو ذلك الصرير المرعب.

ديزل: إنها صالة ألعاب جيّدة، صالة مونديني. كان مكتوبًا بالأحمر فوق الباب بالضبط، من أجل تلافي أي سوء فَهْم: مارس الملاكمة فقط إذا كنتَ تقاسي الجوع. ثمّ كانت هناك صورة لمونديني أيّام شبابه وهو يُبرز قبضَتَيْه، وأخرى لروكي مارسيانو(*)، عليها توقيعه. وهناك حلبة زرقاء أقلّ حجمًا من الحلبة الرسمية بقليل، ومعدّات التدريب تنتشر في كل مكان. يفتح مونديني الصالة الساعة الثالثة عصرًا. أول ما يفعله هو تعليق الساعة التي تُنظّم عليها الجولات. لم يكنْ في الساعة سوى عقارب الثواني، يدقّ

---

*) ملاكم أمريكي شهير، حاز على بطولة العالم للوزن الثقيل لأربع سنوات متتالية، من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٦. ولم يتعرض للخسارة مطلقًا، طوال مشواره الرياضي.

جرسها كل ثلاث دورات، ثمّ تتوقّف لدقيقة. كان لموندينـي عادة: حالما يدقّ جرس الساعة، يبصقُ على الأرض، ويبتسم، كما لو أنه نجا للتّوّ من شيء ما. كان يعيش في وقت خاص به، يُقسم إلى جولات من ثلاث دقائق، واستراحة من دقيقة واحدة. حينما يقفلُ الصالة، في المساء، كان آخر ما يقوم به، في الظلام، هو أن يرفعَ الساعة. ثمّ يعودَ لبيته، كسفينة أطلقوا أشرعتها.

بومَرينغ: لقد نجح بإيصال بعض الأولاد إلى لقب البطولة الوطني، أولاد، لم يكن لديهم أيّ موهبة، الفضل يعود لموهبته في التدريب. كان يُنْهِكُهُم بالتمارين، وعندما يُنهون التدريبَ، يجلس أمامهم، ويُحدِّثهم. كان يُكلِّمهم عن كل شيء، وبين كل تلك الأشياء يُحدِّثهم عن الملاكمة أيضًا. ينهض هؤلاء بعد نصف ساعة، وليس بوسعهم أن يردِّدوا شيئًا ممّا سمعوه. ولكنهم حينما يصعدون إلى الحلبة الزرقاء، لبدء الملاكمة، يتذكّرون كل شيء: كيف يدافعون، وكيف يخادعون في الضرب، وكيف يتلافون ضربات الأعسر. وكان موندينـي يتّكئ على الحبل، ينظر إليهم بصمت، دون أن تفوتَه ولا حركة واحدة. ثمّ يتركُهم يغادرون، دون أن يتفوّه بكلمة. يبدأ في اليوم التالي بالمنوال ذاته. كان تلاميذه يثقون فيه ثقةً تامّة، وكان ينجح في استنهاض أفضل قدراتهم. ولكنْ، حينما يكون مصير أحدهم أن يخسرَ كل مرّة يصعد إلى الحلبة، يقول له موندينـي: هيا، سأصطحبكَ إلى البيت، أفهمتَ؟ يرافقه بسيّارته السّيدان القديمة، يُحدِّثه عن أشياء لا تخصّ الملاكمة، لا من قريب ولا من بعيد، حتّى يصلَ إلى البيت. كان التلميذ يعلم أن نزوله من السّيّارة يعني نزوله من الحلبة أيضًا. بعضهم كان يقول: آسف، يا معلّم. يهزّ موندينـي كتفَيْه. وينتهي الأمر هناك. مرّت ستّة عشر عامًا على هذا المنوال. حتّى جاء ليري غورمان.

تبوّل الولد على نفسه، وتبلّل بنطلونه، ثمّ سال البول على بلاط المحلّ. كان الرجل البدين يدور حول الولد، وقد جُنّ جنونه:

- قسمًا بالعاهرات كلهنّ، ما هذا الخراء؟! ... ما هذا؟! توقّفْ، أيّها اللعين، هلا توقّفتَ؟

كان الولد يتلوّى أكثر، فلم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب أبدًا، وكان البدين يثير الخوف من شدّة فزعه. فكان يصرخ:

- كُفَّ عن ذلك، أيّها اللعين، أتسمعني؟ كُفَّ عن ذلك. لقد تبوّل على نفسه هذا الحقير، اللعنة، تبوّل على نفسه وكأنه حيوان، ما هذا الخراء؟! ...

كان البدين يقف أمام الولد، فجأةً، وإذا به يركله في خاصرته، ثمّ نظر إلى حذائه، الموكاسين الأسود، وكان يخشى عليه من القذارة، فأثاره الأمر حدّ الجنون حتّى أصبح كحيوان كاسر:

- قسمًا بالعاهرات كلهنّ، انظر لهذا الخراء، غير معقول، ما هذا القَرَف؟! أوقفوه عن هذا.

ثمّ جعل يركل الولد في كل مكان. تقدّم ويزوند عندئذٍ خطوَتَيْن. كان بيده المقصّ، وكان يمسكُه كخنجر.

- والآن كُفَّ عن هذا، يا سيّد إبنر.

لم يسمعْه الرجل البدين، كان يستمرّ برَكْل الولد كمجنون. كان يصرخ ويركل، والولد يرتجف، كانت الرغوة تكسو وجهه، ويصدر عنه بين الحين والآخر ذلك الصرير، ولكنه كان خافتًا، بعيدًا. كان الناس كأنهم متحجّرون في مكانهم. تقدّم ويزوند خطوَتَيْن مجدّدًا.

ديزل: كان عمر ليري غورمان آنذاك ستّة عشر عامًا. جسم جميل، من الوزن الخفيف الثقيل، وجه بهيّ، لا يبدو كوجه ملاكم، عائلة جيّدة من المجتمع الراقي. دخل ذات مساء إلى الصالة، وكان الوقت متأخّرًا، وسأل عن مونديني. كان مونديني يتّكئ على الحبال، ينظر لملاكمين على الحلبة. وكان الأشقر يكشف جانبه الأيمن دائمًا، بينما الآخر لم يكن جريئًا بما فيه الكفاية. وكان المعلّم يتقلّب على الجمر. اقترب منه ليري، وقال له:

- مرحبًا. اسمي ليري، وأريد أن أمارسَ الملاكمة.

التفتَ اليه مونديني، تمعّن فيه، ثمّ أشار بيده إلى اللوحة الحمراء فوق الباب، وعاد يتابع الملاكمِيْن. ليري لم يلتفتْ حتّى، كان قد قرأ اللوحة. مارسِ الملاكمة فقط إذا كنتَ تقاسي الجوع.

- في الحقيقة، أنا لم أتعشَّ بعد - قال.

رنّ جرس الساعة، توقّف الملاكمان، بَصَقَ مونديني على الأرض، وقال:

- يا لكَ من خفيف دم! اغربْ عن وجهي.

لو كان شخصًا آخر، لغادر، لكن ليري كان مختلفًا، إنه لا يتراجع أبدًا. جلس على مصطبة في الزاوية، ولم يتحرّك من هناك. استمرّ مونديني في عمله لساعتَيْن، ثمّ بدأت الصالة تفرغ، كلّ يتناول أغراضه، ويغادر، ولم يبقَ أحدٌ سواهما. وضع مونديني المعطف فوق بذلته الرياضية، أطفأ الأضواء، ثمّ توجّه نحو الساعة قائلًا:

- انبحْ، إذا ما دخل أحدٌ هنا.

رَفَعَ الساعة، وغادر. عاد إلى الصالة في الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي، وكان ليري لا يزال هناك على المصطبة.

- أعطني مبرِّرًا واحدًا يدفعُني لتدريبكَ - قال له مونديني.

- أن ترى ما هو شعور مَنْ يدرّب بطل العالم القادم - أجاب ليري.

بومَيرنغ: كان مونديني يكرهُه، بشكل ما. لكنه قضى عامًا كاملاً في تدريبه، ليبني جسدَه. كان يُطهِّرُه من أمواله، كما يقول هو. كان ليري ينفِّذ كل شيء دون نقاش، وفي الأثناء، يتابع الآخرين، ويتعلّم. ربّما كان التلميذ المثالي، لولا هَوَسُهُ بالحديث. كان يتكلّم باستمرار. يُعلِّق دائمًا. ما إن يصعد على الحلبة حتّى يبدأ بالكلام. لعلّه يحاول عبور الحبل، أو لا يزال على الأرض، قبل أن تنتهي الجولة، فيبدأ بالكلام. يبدأ تعليقاته من اللكمة الأولى. كان يُصرِّح برأيه، يُصحِّح للآخرين، ينصحهم، ويثور أحيانًا. كان يقوم بذلك بصوت خفيض، لكن الأمر برمّته كان مزعجًا للغاية. وذات مساء، وكان قد مرّ عام تقريبًا على قدومه إلى الصالة، وبينما كان هناك ملاكمان يتدرّبان، كان هو يستمرّ في تعليقاته. كان يقول إن أحدهما، ذلك القصير، عاجزٌ عن تلافي اللكمات. ثمّ إن حركة ساقَيْه كانت بطيئة.

- ما هذا، أتغوَّط في حذائه؟ - كان يقول.

أوقف مونديني الجولةَ، أنزل الشابَّ القصيرَ، التفتَ صوب ليري، وقال له:

- اصعدْ.

وضع له القفّازَيْن، وخوذةَ الحماية وواقي الفم. لم يصعدْ ليري مسبقًا على الحلبة، ولم يسدِّد لكمة لأحد في حياته. بينما كان الآخر من الوزن الثقيل، وله ماضٍ من ستّة نزالات، حصد فيها الفوز كلها. نظر الآخر إلى المعلّم، لا يعرف ما عليه فِعْله. مونديني أشار إليه برأسه، بمعني أوْجِعْه

ضربًا، وسأُوقفكَ عند الضرورة. اتّخذ ليري وضعية الدفاع، ولمّا التقت عيناه بعينَي الآخر تبسّم، وقال من بين واقي الأسنان الذي كان يهتزّ في فمه:

- هل أنتَ خائف؟

وَصَلَ ويزوند أمام الرجل البدين، ولكنْ، يبدو أن الأخير لم يره حتّى. كان يستمرّ بركل الولد ويصرخ، لا بد أنه أصيب بالجنون.

- أيها النغل الصغير، يا ابن العاهرة، اذهبْ إلى بيتكم، وقمْ بهذا الخراء، مُتْ إن شئتَ في بيتكم، ولكنْ، اتركني وشأني، أفهمتَ؟ هذا مكان عام، قولوا له إن هذا مكانًا عامًا، إنه لا يحقّ له ...

كان البدين ينظر إلى مَنْ حوله، يبحث في الآخرين عمّنْ يسانده، ولكنْ، كان الجميع متحجّرين، ينظرون دون أن يحرّكوا ساكنًا، لا أحد بوسعه أن يرفعَ ناظره عن المشهد، كلّهم ساكنون. ويزوند فقط، حاملاً بيده المقصّ، يبدو عليه أنه حيّ.

- ابتعدْ من هنا، يا سيّد إبنر – قال بصوتٍ عالٍ.

إلا أن السّيّد إبنر استمرّ في صراخه، ثمّ سَحَقَ بقَدَمِهِ وجهَ الولد، فوق الرغوة تمامًا، وجعل يضغط بقوّة، وكأنه يُطفئ سيجارة عظيمة، وكان في الأثناء يرفع بنطلونه، كيلا يتّسخ. تقدّم ويزوند خطوة أخرى، ثمّ غرسَ المقصّ في جنبه. ضربة أولًا، ثمّ أخرى، دون أن يتفوّه بكلمة. التفتَ الرجل البدين، أصابتْه الدهشة، ولكي يتمكّن من السيطرة على نفسه، اضطر أن يرفع قَدَمَهُ عن الولد. كان يتمايل، وقد كفّ عن الصراخ، ثمّ اقترب من ويزوند، وأمسك به من رقبته، ضغط عليها بكل قوّته، بكلتا يَدَيْه، بينما يسيل دمُه

من الجاكيت، ويسقط على البنطلون. رَفَعَ ويزوند المقصّ مجدّدًا، وغرسه في رقبة البدين، ولمّا تزعزع الرجل، ضربه في صدره أيضًا. انكسر المقصّ. كانت فقاعات الدم تتفجّر من رقبة الرجل البدين بإيقاع، وتتناثر في المحلّ. هوى أرضًا، وسحب معه الطاولة التي وُضعَت عليها المجلات. كان الولد لا يزال هناك، يصل إلى الأسماع صوت ارتطام رأسه بالأرض، لم يكفّ عن ذلك أبدًا، كأنه ساعة جُنّ جنونها، لا شيء من جسده كان مستقرًا سوى تنفّسه، ثمّ بدا أنه انقطع. رمى ويزوند مقبضَ المقصّ الذي كان بيده على الأرض، بينما كان الجزء الآخر منه يبرز من صدر السّيّد إبنر، ويقطر منه الدم.

ديزل: مرّت الدقائق الثلاث، ورنّ جرس الساعة. صاح مونديني إن هذا يكفي. خلع الخوذة عن رأس ليري، ثمّ فتح رباط القفّازَيْن. وكان ليري يلهث، فقال له مونديني:

- سأصطحبكَ إلى البيت، أفهمتَ؟

استغرقا بعض الوقت بسيّارة السيدان القديمة، حتّى وصلا إلى حيّ الأغنياء. توقّفا مقابل فيلا، مليئة بالنوافذ والمصابيح. أطفأ مونديني محرّك السّيّارة، ثمّ التفت إلى ليري:

- لم تُسدِّد ولا حتّى لكمة واحدة خلال الدقائق الثلاث!

- ولم أتلقّ ولا حتّى لكمة واحدة خلال الدقائق الثلاث - أجاب ليري.

حدّق مونديني بمقود السّيّارة. كان ذلك صحيحًا. قضى ليري كل الجولة وهو يتحرّك برشاقة مذهلة، ويرقص في الاتّجاهات كلها، كما لو أنه قد استبدل بقَدَمَيْه عَجَلَتَيْن. وقام الآخر بتسديد اللكمات التي يجيدها كلها، إلا أنه لم يتمكّن من إصابته. نزل من على الحلبة غاضبًا كثور هائج.

- ما فعلتَهُ ليس ملاكمة، ليري.

- لم أردْ أن أُسبِّبَ له الأذى.

- لا تتفوَّه بهذه الترهات.

- صَدِّقني، ما أردتُ أن ...

- لا تتفوّه بهذه الترهات.

ألقى مونديني نظرة إلى الفيلا، كانت تبدو كتلك التي في الإعلانات، تلك الفيلات التي تمنح السعادة.

- لماذا تريد ممارسة الملاكمة اللعينة؟

- لا أعرف.

- أيّ جواب هذا؟

- هذا تمامًا ما يقوله أبي، أي جواب هذا؟ إنه يمارس المحاماة.

- هذا واضح.

- بيت جميل، ها؟

- واضح على وجهكَ.

بقيا هناك لبعض الوقت، في صمت الأغنياء ذلك. كان ليري يلعب بمنفضة السجائر في السّيّارة، يفتحها، ويُقفلها. مونديني لم يكن يلعب بشيء، فقد كان غارقًا في التفكير بما جرى على الحلبة: أفضل موهبة صادفتْه في مسيرته. كان غنيًا وابن محامٍ، وليس ثمّة مبرّر معقول، لكي يمارس الملاكمة.

- أراكَ غدًا - قال ليري، ثمّ فتح باب السّيّارة.

هزّ مونديني كتفه.

- اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري.

- وأنتَ كذلك - أجاب ليري بنشوة، ثمّ توجّه إلى بيته.

أصبحت هذه طريقتهما في تحيّة بعضهما، حتّى خلال النزالات وفي زاوية الحلبة. حينما يدقّ الجرس، ينهض ليري، يسحب مونديني المقعد من الحلبة، ثمّ يحيّي أحدُهما الآخرَ.

- اذهبْ إلى الجحيم، ليري.

- وأنتَ كذلك.

يذهب ليري إلى المنازلة، ويفوز دائمًا. فاز باثنَي عشر نزالًا، ثلاثة عشر مع نزاله الأخير ضدّ سوبيلو.

هوى ويزوند على ركبتَيْه. لا يزال الولد يتلوّى على الأرض. على مسافة متر منه، كان دم الرجل البدين يتناثر في كل مكان، وكانت عيناه مفتوحَتَيْن، وتتحرّك يداه بصعوبة في الهواء، بين الحين والآخر. صحا الجميع من السِّحْر الذي سيطر عليهم في تلك الأثناء، فهرب أحدهم، ثمّ توجّه اثنان صوب ويزوند، وساعداه على النهوض، وهما يتمتمان بشيء ما. أحدهما تناول الهاتف، واتّصل بالشرطة. غولد وجد نفسه في المقدّمة، وقد دفعه الآخرون، فكان قريبًا من الجَسَدَيْن اللذَيْن كانا يرتجفان كَسَمَكَتَيْن في قاع دلو صيّاد. حاول أن يعودَ إلى الخلف، لكنه لم يتمكّن من ذلك. وصلته فجأةً رائحة مريعة. التفتَ، فشاهد على أحد المرايا صورة بالأبيض والأسود

لفريق كرة قَدَم، كان الجميع باسمين وعَرْقى، وأمامهم على الأرض كأس كبيرة، تتوسّطهم تمامًا. تدافع مع الآخرين، وشقّ طريقه بينهم، حتّى وقف أمام الصورة، متّكئًا على المغسلة. حاول أن يلغي كل ما كان حوله، ثمّ بدأ من جهة اليمين: كان اللاعب يرتدي قميصًا وشورتًا، لكن جاربَيْه نازلان، له شاربان كشاربيَ أحمق، يضحك وقد اعتراه حزنٌ عميق. كان الليبرو الوحيد الذي لا يتصبّب عَرَقًا، والأطول بين الآخرين، ومن السهل التّعرّف عليه. تعرّف أيضًا على لاعب الوسط بوجهه المضطرب، وكان على حافّة الصورة، ثمّ تعرّف على الوسط المتقدّم، وكان له وجه ممثّل، يمسك الكأس، وينظر إلى العدسة مباشرة. بدأ غولد يواجه الصعوبات عندما شرع في البحث عن الظهيرَيْن الأيمن والأيسر، فقد كان للجميع وجه ظهير. حاول عندها التركيز على السيقان، تلك التي يتمكّن من رؤيتها. ولكن الفوضى من حوله كانت عارمة، أشخاص يتدافعون وآخرون يصرخون، ولم يكنْ من السهل عليه التركيز. كاد أن يستسلمَ، قبل أن يُدركَ أن ذلك الذي يرتدي بذلة رياضية، ويتصبّب عَرَقًا، إنما هو الظهير الأيسر، ولا بدّ أنه طُرِدَ. أغمض عينَيْه، وجعل يتقيّأ.

أمضى ويزوند بضع سنين في السجن. وحينما أدركوا أنه مسالم، سمحوا له باقتناء غيتاره. كان يعزف كل مساء، عزفًا بهيجًا. وكان الآخرون، في الزنزانات المجاورة، يستمتعون بالاستماع إليه.

-١٠-

على أطراف الملعب، خلف المرمى الأيمن. كانا يقفان هناك، ويشاهدان اللعب. الأستاذ تالتومار بعقب سيجارته المنطفئ بين شَفَتَيْه. وغولد بقبّعة الصوف على رأسه، ويَدَيْه في جيبه.

يقفان هناك لدقائق طويلة.

ثمّ يبادر غولد، وهو يتابع اللعب:

- مطر عنيف ينزل على الملعب. الدقيقة العشرون من الشوط الثاني. تمريرة من الجانب الأيسر، لاعب الوسط المتقدّم للفريق الضيف في وضعية تسلّل واضح، يُوقِف الكرة بصدره، يُصفِّر الحَكَم، لكن الصّفّارة المليئة بماء المطر لا تعمل، يقوم الوسط المتقدّم بتسديد الكرة بقوّة، يُصفِّر الحَكَم من جديد، لكن الصّفّارة لا تطاوعه، تخترق الكرة المرمى من الزاوية التسعين، يحاول الحكم أن يُصفِّر بأصابعه، يسيل اللعاب على يده بلا فائدة، ينطلق لاعب الوسط المتقدّم كالمجنون نحو عَلَم الركنية، ينزع التيشيرت، يمسك العَلَمَ، يؤدّي بعض خطوات رقصة برازيلية غبية، ثمّ يستحيل إلى رماد، بفِعْل صاعقة تضرب العَلَمَ.

يستغرق الأستاذ تالتومار بعضَ الوقت، يسحب السيجارة من فمه، ثمّ ينفض رمادًا خياليًا.

كانت المسألة معقّدة بالفعل. أخيرًا يبصق الأستاذ تالتومار بعض فتات التبغ، ثمّ يتمتم:

- يُلغى الهدف، لأن وضعية التسديد غير صحيحة. إنذار للاعب الوسط المتقدّم، لأنه نزع التيشيرت. بعد نَقْل رماده خارج الملعب، يكون بوسع المدرّب استبداله لاعبًا آخر. وبعد تبديل صفّارة الحَكَم وعَلَم الزاوية، يمكن استئناف المباراة بضربة كرة من مكان التّسلّل. ليست هناك أيّ عقوبة على عاتق الفريق المستضيف. هذا ما ينقصنا: أن تحمّل أحدًا ما مسؤولية سوء الحظّ الكبير للاعب الوسط المتقدّم التابع للفريق الآخر.

يسود الصمت.

يقول غولد:

- شكرًا، يا أستاذ - ثمّ يغادر.

- اعتنِ بنفسكَ، يا بني - يتمتم الأستاذ تالتومار، دون أن يلتفتَ.

تستمرّ المباراة بالتعادل السلبي.

كان الحَكَمُ قليلَ الحركة، لكنه ماهر.

وكان الجوّ باردًا جدًّا.

الأطفال بحاجة إلى حقائق مؤكّدة.

-١١-

- دعني، أتحدّث إلى الآنسة شيتزي.

- حسنًا.

يمرّر غولد سمّاعة الهاتف إلى شيتزي. وكان أبوه على الطرف الآخر من الخطّ.

- مرحبًا.

- الآنسة شيل؟

- نعم، تفضّل.

- هل أنتِ قريبة شيل، تاجر البنزين الثري؟

- كلا.

- هذا مؤسف فِعْلًا.

- أنا أيضًا أظنّ ذلك.

- كانت إجابتكَ عن السؤال ٣١ أنكَ تكتبين ويسترن.

- بالضبط.

- وقلتِ إن حلم حياتكِ هو إتمام هذا الويسترن.

- أجل.

- أتحسبينها إجابة حسنة؟

- لم تكنْ لديّ إجابة أخرى.

- ...

- ...

- ولكنْ، ما هو؟ أهو فيلم؟

- عذرًا؟

- هذا الويسترن ... ما هو: فيلم، كتاب، قصّة مُصوَّرة، ما هو؟

- ماذا تقصد؟

- أتسمعينني؟

- نعم.

- ما هو؟ هل هو فيلم؟

- ما هو ماذا؟

- الويسترن، ما هو؟

- إنه ويسترن.

- ...

- ...

- هو ويسترن، إذنْ؟

- نعم، ويسترن.

- آنسة شيل؟

- نعم، أسمعكَ.

- أكلّ شيء على ما يرام؟

- على خير ما يرام.

- إن غولد ولدٌ مميّز، أظنّكِ فهمتِ هذا؟

- أظنّ ذلك.

- أرجو ألا تكون الأمور حوله معقّدة، أفهمتِ؟

- تقريبًا.

- أهم شيء أن يركّز في دراسته، والباقي يأتي بعفوية.

- حسنًا، يا جنرال.

- إنه فتىً شجاع، وسيُحقّق نجاحاتٍ باهرة.

- هذا ممكن جدًّا.

- أتعرفين قصّة يد جاكوين موريتا؟

- عفوًا؟

- جاكوين موريتا، كان خارجًا عن القانون.

- رائع.

- كان مصدر الرعب في تكساس، قضى سنين طويلة ينشر الرعب فيها، كان عنيفًا، ويجيد القتال، قتل أحد عشر شريفًا في ثلاث سنوات، وكانت مكافأة قَتْله تشتمل على كمّ كبير من الأصفار.

- حقًّا؟

- ولكي يتمكّنوا من القبض عليه، فقد حرّكوا جيشًا بأكمله. استغرقوا بعض الوقت، ولكنهم تمكّنوا منه. أتعرفين ماذا فعلوا به؟

- كلا.

- قطعوا يَدَهُ، يَدَهُ اليسرى التي كان يُطلِق بها النار. ثمّ وضعوها في كيس، وجالوا بها في تكساس، في كل مُدُنها. كان عمدة المدينة يستلم الطَّرْدَ، يُخرِجُ اليدَ، ويعرضُها في الصالون، ثمّ يعيدُها إلى الكيس، ويرسُلها إلى المدينة المجاورة. كان أشبه بإنذار للآخرين، أتفهمينَ ما أعني؟

- أجل.

- بتلك الطريقة، أدرك الناس مَنْ هو الأقوى.

- طبعًا.

- حسنًا، أتعرفين ما الغريب في الأمر؟

- كلا.

- لقد أرسلوا، في الحقيقة، أربع أياد لجاكوين موريتا، من أجل الإسراع في إنجاز المهمّة، ثلاث منها تعود لثلاثة مكسيكيين، والأخرى كانت يده الحقيقية. وذات يوم، أرسلوا - بالخطأ - إلى إحدى المُدُن، وكان اسمها مارتين تاون، يَدَيْن اثنَتَيْن في الوقت ذاته، يَدَيْن اثنَتَيْن لجاكوين موريتا، كلاهما يسرى.

- رائع.

- أتعلمين ماذا قال الناس؟

- لا.

- ولا أنا.

- عذرًا؟

- أنا أيضًا لا أعرف.

- آه.

- قصّة جميلة، أليس كذلك؟

- أجل، إنها قصّة جميلة.

- قلتُ في نفسي لعلّها تنفعكِ من أجل الوسترن الذي تكتبين.

- سأفكّر في الأمر.

- آخر مرّة عدتُ فيها إلى البيت، وجدتُ أن غولد قد وَضَعَ في الثلاجة طائرةً بلاستيكية صفراء وقائمة أرقام الهاتف.

- اطمئنّ، كل شيء على ما يرام الآن.

- أعتمد عليكِ.

- بالتأكيد.

- يجب على غولد أن يشربَ الحليب، الحليبَ بالفيتامين.

- حسنًا.

- والكالسيوم، إنه يحتاج إلى الكالسيوم، فهو دائمًا ما يعاني من نقص في الكالسيوم.

- حسنًا.

- يوما ما سأشرح لكِ ذلك.

- ماذا؟

- لماذا أنا بعيدٌ عن غولد. لا أظنّه يبدو لكِ أمرًا حسنًا.

- لا أعرف.

- أنا متأكّد أنه لا يبدو لكِ أمرًا حسنًا.

- لا أعرف.

- سأشرح لكِ الأمر، سترين.

- حسنًا.

- كان الأمر قبل ذلك معقّدًا مع الفتاة البكماء. إنها فتاة طيّبة، ولكنْ، لم يكن من السهل علينا أن نتفاهم.

- أتخيّل ذلك.

- أما الآن، فأنا أكثر طمأنينة وأنت برفقة غولد.

- هذا جيّد.

- على الأقلّ، أنتِ تتكلّمين.

- بالطبع.

- وهذا عملي حقًّا.

- أتفق معكَ.

- جيّد.

- جيّد.

- هلا مرّرتِ لي غولد؟

- بالطبع.

كان والد غولد يتّصل به مساء كل يوم جمعة، عند الساعة السابعة والربع تمامًا.

-١٢-

جميلةٌ هي، عاهرة كلوسينغ تاون، جميلةٌ جدًّا. أسود شَعر عاهرة كلوسينغ تاون، أسود فاحم. في غرفتها عشرات الكُتُب، في الطابق الأول من الصالون، تقرؤُها وهي تنتظر، قصص لها بداية ونهاية، وإذا ما طلبتَ منها، فإنها تقصّها لكَ بالكامل. شابّة هي، عاهرة كلوسينغ تاون، في ريعان شبابها. تهمس في أذنكَ وهي تحضنكَ بين فخذَيْها: حبيبي.

تقول شيتزي إن أجرتها تساوي ما يقارب أربع زجاجات بيرة.

وكان كل رجال البلدة يشتهون معاشرتها.

إذا ما تتبّعنا الأخبار، فسنعرف أنها جاءت إلى البلدة لتعمل معلّمة. وكانت المدرسة قد تحوّلت إلى مخازن، مذ غادرتْها السّيّدة ماك غوي. وذات يوم وَصَلَت المعلّمة الجديدة. أعادتْ ترتيب المدرسة بشكل جيّد، وبدأ الأولاد بشراء الدفاتر والأقلام وباقي المستلزمات. تقول شيتزي إنها كانت ماهرة في عملها، وكان بحوزتها كُتُب، يسهل فَهْمها من قِبَل الطلاب. وهكذا فقد بدأ الشباب أيضًا يرتادون المدرسة، كانوا يذهبون متى تسنّى لهم ذلك، وكان جمال المعلّمة يجذبهم. وانتهى الأمر أن صار الجميع يجيد القراءة: يقرؤون ما يُكتَب في الصور، تحت وجوه الخارجين عن القانون، والملصقات المعلّقة في مكتب الشريف. ولكنها ارتكبت خطأً فادحًا: بقيت - ذات مساء - مع أحد الشباب، وحدها، وكانت المدرسة خالية

تمامًا. فَجَذَبَتْه إليها بعنف، ومارست معه الجنسَ برغبة عارمة. وعلمت البلدةُ بما حدث، وكاد الرجال أن يغضّوا الطرف عن الأمر، إلا أن النساء قلنَ: إنها عاهرة، وليست معلّمة.

هذا صحيح، قالت هي.

ثمّ أغلقت المدرسة، وراحت تعمل في الجانب الآخر من الشارع، في غرفةٍ في الطابق الأول من الصالون. ناعمتان يدا عاهرة كلوزينغ تاون، ناعمتان جدًّا. كان اسمها ڤاني.

كان الجميع يرغب فيها، لكن واحدًا فقط كان يحبّها، اسمه پات كوبهان. كان ينتظرها في الأسفل، وهو يحتسي البيرة. وحينما تنهي عملها تنزل.

مرحبًا، ڤاني.

مرحبًا.

يتمشّيان ذهابًا وإيابًا، من بداية البلدة حتّى نهايتها، وهما يحتضنان بعضهما تحت جنح الليل. يتحدّثان عن تلك الريح التي لا تتوقّف قطّ.

ليلة سعيدة ڤاني.

ليلة سعيدة.

كان عمر پات كوبهان سبعة عشر عامًا. خضراء عينا عاهرة كلوزينغ تاون، خضراء جدًّا.

إذا كنتَ ترغب في فَهْم القصّة - تقول شيتزي - فعليكَ أن تعلمَ كم عدد رصاصات المسدّس، في ذلك الزمان.

ستّة.

تقول إنه رَقْم مثالي. فكِّرْ في الأمر، واستمعْ إلى موسيقى العدد. ستّ طلقات: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة. مثالي. أتسمع الصمت الذي يتبعه؟ هذا هو الصمت الحقيقي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة. صمت. إنه أشبه بعملية التّنفّس. تتنفّس بعد كل ستّ طلاقات. لكَ أن تتنفّس بسرعة أو ببطء، فهو - في الأحوال كلها - تنفّس مثالي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستّة. تنفّس بصمت، الآن.

كم رصاصة في المسدّس؟

ستّة.

إذا ما أجبتَ، تحكي لكَ عندئذٍ الحكاية:

يضحك پات كوبهان، في الطابق الأسفل من الصالون. رغوة البيرة على لحيته ورائحة خيل في يَدَيْه. هناك عازف فايولين يعزف، ومعه كلب مدرّب. يرمي الناس قطعةَ النقود، يركض الكلب، يلتقطها، ويعود إلى صاحبه، وهو يسير على ساقَيْه الخلفيَّتَيْن فقط، ثمّ يضع قطعة النقود في جيب العازف. كان العازف أعمى. وپات كوبهان يضحك.

وكانت ڤاني تعمل في الطابق الأول، وابن قسّ البلدة بين فخذَيْها: حبيبي، تهمس له. وكان اسم ابن القسّ يونغ. لم يخلعْ قميصه، وكان شعره أسود مبلّلًا بالعَرَق، وفي عينَيْه شيء أشبه بالرعب. تهمس به ڤاني: نِكْنِي، يا يونغ. لكنه يتقلّص، ثمّ ينزلق من بين فخذَيْها المفتوحَيْن - جاربان أبيضان يغطّيان ساقَيْها حتّى الركبتَيْن، ولا شيء بعدها. كان هو لا يعرف أين ينظر، فيأخذ يَدَهَا، ويضغط بها على عُضوه. أجل، يا يونغ. تصيح هي، وتداعب

عُضوَه. أنتَ جميل، يا يونغ. ثمّ تلحسُ باطن كفِّها وهي تحدِّق في عينَيْه، وتعود لتداعبَ عُضوَه برفق. نعم، هكذا، يصرخ يونغ، هيّا. فتضغط أكثر على عُضوه. يُغمضُ يونغ عينَيْه، يقول في نفسه: عليّ ألا أفكِّرَ بشيء. تنظر إلى كفّها، ثمّ إلى العَرَق المتصبّب على وجه يونغ، وعلى صدره، وتعاود النَّظَر إلى كفّها التي تداعب عُضوه. يعجبني أيرُكَ، يا يونغ، أريدُه كله. يستلقي هو على أحد جانبَيْه، يتّكئ على ذراعه. ذراعه ترتجف الآن. تعال، يا يونغ، تصيح به. كانت عيناه مغمضَتَيْن. تعال، هيّا. يركب فوقها، ويدفع عُضوَه بين فخذَيْها المفتوحَيْن. نعم، هكذا، يا يونغ، تصرخ. يفتح عينَيْه، فيهما شيء أشبه بالرعب. يكشّر، ثمّ ينزلق بعيدًا. انتظر، يا يونغ، تصرخ وهي تُقبّله ورأسه بين يَدَيْها. انتظري، يقول هو.

پات كوبهان يضحك، في الطابق الأسفل، ثمّ يلقي نظرة نحو الساعة. يطلب بيرة أخرى، ويلعب بقطعة نقدية من الفضّة، يحاول إيقافها على حافّة القدح الفارغ.

أتقبلين الزواج بي، يا ڤاني؟

لا تتفوّه بالحماقات، يا پات.

أنا جادّ فيما أقول.

كُفَّ عن ذلك.

أترغبين فيَّ، يا ڤاني؟

أجل.

أنا أيضًا أرغبُ فيكِ.

تسقط القطعة النقدية في القدح، يقلب ڤات كوبهان القدح، فتقع القطعة النقدية على خشبة المنضدة، وتسيل منها بقايا البيرة: سائل ورغوة. يلتقط القطعة النقدية، ويمسحها ببنطلونه. يُحدِّق فيها. تعتريه رغبة في شمّها. يضعها مجدّدًا على حافة القدح. يلقي نظرة إلى الساعة. يقول في نفسه: هلا انتهيتَ، يا يونغ الحقير؟ طيّبٌ عطر عاهرة كلوزينغ تاون، طيّبٌ جدًّا.

تنزلق شفتا ڤاني على عُضو يونغ، ينظر هو إليها، يُعجبُه ذلك. يغمس يدُه في شَعرها، ويكبس رأسها نحوه. تُبعد ڤاني يدَه، وهي تستمرّ في عملها. ينظر إليها. يغمس يدَهُ مرّة أخرى في شَعرها، تتوقّف، ترفع رأسَها نحوه، وتقول له: كنْ هادئًا، يا يونغ. اصمتي، يصرخ بها، ثمّ يدفعها بيده نحو عُضوه. تدسّه في فمها، وتُغمض عينَيْها. تنزلق شفتاها بسرعة أكبر، إلى الأمام، ثمّ إلى الخلف. نعم، هكذا، أيّتها العاهرة، يقول لها. تفتح عينَيْها وترى بريق العَرَق على جلده، على جِلْد بطنه. ترى العضلات وهي تتقلّص، بشكل متقطّع، كما لو كانت لحظات احتضار. هيّا، يصرخ، لا تتوقّفي. ينظر إليها، يعجبُه ذلك. ينظر إليها، ثمّ يضع يَدَيْه على كتفَيْها، يضغط عليهما بقوّة، ثمّ يدفعها فجأةً إلى الخلف، ويركبُ فوقها. ادفعه، برفق، يا يونغ. يغمض عينَيْه، ويندفع نحوها. برفق، يا يونغ. تبحث عن عضوه بيدها، يُبعدها هو عنه. يدفع عضوه بعنف بين فخذَيْها. اللعنة، يصرخ، اللعنة. كان شَعره ملتصقًا بجبهته، وقد بلّلها العَرَق. اللعنة. فجأةً ينزلق بعيدًا. تدير هي وجهها، ترفع عينَيْها نحو السماء وتتنهّد. فيراها هو، يراها وهي تقوم بذلك.

يرفع ڤات كوبهان عينَيْه ويحدّق في الساعة، يحوِّل نَظَرَهُ صوب السّلّم الذي يقود إلى الطابق الأول، ثمّ ينظر إلى قدح البيرة المليء أمامه.

هيه، كارفر.

پات؟

احفظْها لي في مكان بارد.

أتغادر؟

سأعود بسرعة.

أكلّ شيء على ما يرام؟

أجل أجل، كل شيء على ما يرام.

حسنًا.

احفظْها لي في مكان بارد.

يبقى متّكئًا على المنضدة. يستدير ويُلقي نظرة نحو باب الصالون. يبصق على الأرض، ثمّ يسحقُ البصاق بالحذاء، وينظر إلى التراب الرطب. يرفع رأسه.

احذرْ ألا يتبوّل أحدهم فيها، أفهمتَ؟ ثمّ يبتسم.

لم لا تعود إلى البيت، يا پات؟

لم لا تعود أنتَ، يا كارفر؟

عليكَ أن تعود إلى البيت.

لا تملي عليّ الأوامر.

يهزّ كارفر رأسه. پات كوبهان يتضاحك. يرفع قَدَحَ البيرة، ويرتشفُ منه. يضعه على الطاولة، ينظر إلى السّلّم الذي يقود إلى الطابق الأول، ثمّ ينظر إلى عقارب الساعة السوداء على الخلفية البيضاء المصفرّة. أيها الحقير، يقول بصوت خفيض.

التفت يونغ، مَدّ يده نحو حزامه المعلّق على الكرسي، سحب مسدّسًا من الجراب، وأمسك به من مقبضه. يمرّر فوهة المسدّس على بشرة ڤاني. بيضاء بشرة عاهرة كلوزينغ تاون، بيضاء جدًّا. تحاول هي النهوض. ابقي في مكانكِ، يأمرُها. يسدِّد فوهة المسدّس تحت ذقنها: لا تتحرّكي، ولا تصرخي. ماذا تريد أن تفعل، تسأله. اصمتي. يلامس بشرتها بفوهة المسدّس، ينزل أسفل، يفتح فخذَيْها، ويضع الفوهة في فرجِها. أرجوكَ، يا يونغ، تقول. يُدخل المسدّس ببطء، يسحبه، ثمّ يُدخلُه مجدّدًا برفق. أيعجبُكِ ذلك؟ يسألها. ترتجف. أليس هذا ما كنتِ ترغبين به؟ يدفع المسدّس داخل فرجها، تُقوِّس ظهرها، تمسحُ بيدها على خدّ يونغ بعذوبة: أرجوكَ، يا يونغ، أرجوكَ. تنظر إليه، يتوقّف. أهدأ، فأنتَ ولد طيّب، أليس كذلك، يا يونغ؟ أنتَ ولد طيّب. تتساقط دموعها على خدّها. دعني أقبّلُكَ، أرغب في تقبيلِكَ، تعال هنا، يا يونغ، قبِّلني. كانت تتكلّم برفق، ولا تكفّ عن النَّظَر إليه. ابقَ معي، ضاجِعْني، ألا ترغب في ذلك؟ أجل، يجيبها. ثمّ يعاود إدخال المسدّس، يدفعه إلى الأمام، ثمّ يسحبه. لنمارسَ الجنس، يقول هو. تُغمض عينَيْها، يرتسم على وجهها الألم، يُغيّر ملامحها. أتوسّل إليكَ، يا يونغ. ينظر إلى ماسورة المسدّس وهي تدخل في لحمها وتخرج. يرى خطوط الدم عليها. يرفع مطرقة المسدّس بإبهامه. تعجبني مضاجعتُكِ. يقول.

فلتذهبْ إلى الجحيم، يصرخ پات كوبهان. يغادر المنضدة، سأعود قريبًا، يقول. يمرّ قرب طاولة الأخوَيْن كاستورب، يحيّيهما، ماسكًا طرف القبّعة السوداء بأصبعَيْن.

هل أنتَ بخير، يا پات؟

أجل، يا سيّدي، شكرًا.

ريحٌ لعينة، اليوم.

أجل، هو كذلك.

ريحٌ لا تتوقّف.

أبي يقول إن الريح ستتعب، ذات يوم.

أبوكَ.

يقول: ليس هناك حصان يواصل الركض إلى الأبد.

لكن الريح ليست حصانًا.

أبي يقول إنها كذلك.

هكذا يقول، إذنْ؟

أجل، يا سيّدي.

أخبره أننا نودّ رؤيته، إذا ما استطاعَ الخروج.

حاضر، يا سيّدي.

قلْ له ذلك.

سأفعلُ.

أحسنتَ.

يحيّيهما پات كوبهان، ثمّ يتوجّه صوب السّلّم. ينظر إلى الأعلى، ولكنه لا يرى شيئًا. يصعد بضع درجات. يخطر بذهنه أنه بحاجة إلى مسدّس. والده لا يرغب أن يخرج وفي حزامه مسدّس: هكذا لن تواجه المصاعب، لا أحد يطلق النار على ولد بلا سلاح. يتوقّف. يلقي نظرة إلى الساعة - في الأسفل - خلف المنضدة. يصعب عليه أن يتذكّر كم مرّ من الوقت. يحاول أن يتذكّر، ولكنه يفشل. ينظر إلى الصالون من الأعلى، يخطر في ذهنه أنه أشبه بطير أقام عشّه على غصن شجرة. كم قد يكون جميلاً أن تطير بجناحَيْن، تمرّ فوق رؤوس الجميع، ثمّ تحطّ على رأس العازف الأعمى. سيكون لي ريش أسود لامع، يقول في نفسه، بينما هو يطمئنّ على وجود السّكّين في جيبه. سكّين صغير، نصله مثني في قرابه الخشبي. ينظر أمامه، لكنه لا يرى شيئًا. باب مغلَق، وليس هناك أيّ ضجيج. يبقى واقفًا هناك، يخفض بصره، يرى حذاءَه على الدرجة. تغطّي جلد الحذاء المستهلك طبقة سميكة من الغبار. يضرب خشب السّلّم مرّتَيْن بحذائه، ثمّ ينحني وينظّف مقدمة الحذاء بأصبعه. تصل مسامعه في تلك اللحظة طلقة نار، ثمّ صرخة قصيرة. يخطر في ذهنه أن كل شيء قد انتهى. ثمّ يسمع رصاصة أخرى، تتبعها ثالثة، فرابعة وخامسة. يبقى في مكانه دون حراك، ينتظر. يشعر أن أحدهم يدفعه، يصعد أناس إلى الأعلى وهم يصرخون. ينظر إلى رأس حذائه اللامع، ينتظر، ولكنْ، دون جدوى. ينزل السّلّم، يقطع الصالون، يخرج، يمتطي الحصان، ويسير الليل كله. يبلغ بلدة أبيلينا عند

الصباح. يمضي في اليوم التالي باتّجاه الشمال، يجتاز بارتلبورو وكونيكس، يسير بمحاذاة النهر حتّى يصل كونتر تاون، ثمّ يستمرّ في سيره لأيّام طويلة نحو الجبال، يجتاز بيربري، توكسون سيتي، بولاك، حتّى يصل فول كريك، حيث تمرّ سكّة الحديد. يحاذي سكّة الحديد لعدّة أميال، يمرّ بكوارسيت، كولتون، أولدبريج، وبعدها ريدر، ريو سولو، سوليفان، وبريستون. يصل بعد اثنَيْن وعشرين يومًا إلى بلدة، اسمها ستونوال. ينظر إلى قمم الأشجار وأسراب الطيور، ينزل من حصانه، يغرف قبضة تراب، يتركها تهيل من بين أصابعه. ليست هناك ريح، يقول في نفسه. يبيع حصانه ليشتري مسدّسًا. يشتري حزامًا وجرابًا ومسدّسًا. يذهب مساءً إلى الصالون، لا يُكلّم أحدًا، يقضي الوقت يشرب وينظر إلى الآخرين. يدرسهم بدقّة، واحدًا تلو الآخر. ثمّ يختار من بينهم رجلًا كان يلعب الورق، يد بيضاء وناعمة، وحديد حذائه جديد لامع. تُزيّن وجهه لحية قصيرة، حُلقت بعناية واهتمام.

إن هذا الرجل يغشّ في اللعب، يقول.

ماذا دهاكَ، يا ولد؟

لا أحبّ الحقراء، هذا كل ما في الأمر.

اغربْ عن وجهي، أيها القذر، وبسرعة.

لا أحبّ الجبناء، هذا كل ما في الأمر.

اصمتْ، يا ولد!

لم أحبّهم قطّ في حياتي.

اسمعْ، يا ولد، لننهِ الأمر بهذه الطريقة.

كيف؟

سأتظاهر أني لم أسمع شيئًا، أنت تنهض وتبرح المكان، وأعدكَ أنكَ ستشكر السماء طوال حياتكَ، لأن الأمور سارت بهذه الطريقة.

لننهِ الأمر بطريقة أخرى. تضعُ أنتَ الأوراق جانبًا، وتنهض، تذهب للغشّ في مكان آخر.

يدفع الرجل كرسيه إلى الخلف، ينهض ببطء، يستدير ويبقى واقفًا، تلامس يداه قبضَتَي مسدّسَيْه. ينظر إلى الولد.

پات كوبهان يبصق، ينهض، ينظر إلى رأس حذائه، كأنه يبحث عن شيء ما. ثمّ يرفع طرفه صوب الرجل.

أيها الأحمق، يقول للرجل.

يقبض بيده على مسدّسه، لكنه لا يسحبه. يسمع حينها الرصاصة السادسة. ثمّ لا شيء، إلى الأبد.

صمت.

أيّ صمت هذا!

كانت شيتزي، وهي تفتح الثلاجة، تمسك بقصيدة لروبرت كورتس. أعادت كتابتَها، لأنها أعجَبَتْها، ليس كلها، نهايتها فقط، حيث يقول: في الشهقة ذاتها، يموت العاشقان. كانت نهايتها جميلة، لكن هذا البيت هو الأجمل. في الشهقة ذاتها، يموت العاشقان.

ثمّ كان هناك شيء آخر: كانت شيتزي دائمًا ما تردّد أغنيّة تافهة،

تعلّمتْها في صغرها، وكانت طويلة جدًّا. وكانت اللازمة هكذا: حمراء مراعي جنّتنا، حمراء. لم تكن أغنيّة ذات معنى. كانت طويلة للغاية، وقد تموت فِعْلاً قبل أن تنهيها.

مات يونغ في السجن، قبل يوم من محاكمته. ذَهَبَ والده لزيارته، وغرس رصاصة في رأسه.

-١٣-

لغولد سبعة وعشرون أستاذًا. ولكن أستاذَه المفضّل كان موندريان كيلوري. يبلغ خمسين عامًا من العمر، وله وجهٌ أيرلندي غريب (لكنه لم يكنْ أيرلنديًا). يرتدي على الدوام نعلًا من القماش الرمادي، لذا كان الجميع يظنّ أنه يسكن في الجامعة، بعضهم يخمّن أنه وُلد هناك. وكان يُدرّس علم الإحصاء.

دخل غولد ذات يوم إلى القاعة رَقْم ٦، ولمّا جلس على المقعد، انتبه إلى أن الأستاذ موندريان كيلوري كان هناك. الغريب في الأمر أنه كان يبكي. جلس غولد على مسافة عدّة مقاعد منه، وجعل يدرس. كان يُفضِّل الدراسة في القاعات الفارغة، وفي العادة لا يجد أساتذة يبكون. تفوّه الأستاذ موندريان كيلوري بشيء ما، بقي غولد صامتًا لبعض الوقت، ثمّ قال إنه لم يفهم ما قال الأستاذ. عندها قال الأستاذ موندريان كيلوري، وهو ينظر إلى غولد، إنه يبكي. انتبه غولد عندئذٍ إلى أنه لا يملك منديلًا أو شيئًا من ذلك، وكان ظاهر كفّه مبلّلًا، والدموع تنزل حتّى ياقة قميصه الأزرق.

- هل أنتَ بحاجة لمنديل؟ سأله غولد.

- كلا، شكرًا.

- أترغب في شيء تشربه؟

- كلا، لا أرغب في شيء، شكرًا.

ولكنه كان يستمرّ في البكاء، لا شك في ذلك.

رغم أن الأمر كان غريبًا، فلا يمكن عَدّه غير منطقي، نظرًا للمادّة العلمية التي ينصبُّ عليها اهتمام الأستاذ موندريان كيلوري مؤخّرًا، أي طبيعة بحوثه، والتي تناولت مادّةً علميةً نادرة إلى حدّ ما: كان يدرس الأجسام المقعّرة. لا أحد يدرك مقدار الأجسام المقعّرة في الكون، لكن الأستاذ موندريان كيلوري، وإن بصورة تقريبية، كان يدرك مقدار تأثيرها على شبكة الإدراك لدى الإنسان، وبالتالي، مقدار تأثيرها على ميوله الأخلاقي والعاطفي. عادة ما يصعب عليه شرح فكْرته أمام زملائه الأساتذة، والذين دائمًا ما تعتريهم رغبة في انتقاد بحوث من هذا النوع - ثانوية بشكل مبالغ فيه - (أيًا كان معنى هذا التعبير). لكن الأستاذ كان يؤمن أن وجود الأسطح المقعّرة في الكون ليس عَبَثيًا مطلقًا، بل إنها تمثّل طريقًا للهرب، يمرّ الواقع عبرها، ويهرب من القَدَر وهيكليّته المتينة، وأعمدته المنتظّمَة الموصَدة بشكل تامّ. وهذا، بشكل عام "ما يضمن حركة العالم"، إذا ما أردنا استخدام مصطلحات الأستاذ موندريان كيلوري.

ويطرح فحوى فكرته بشكل واضح - لا شك مثير للاستغراب - في محاضراته، في بعضها بشكل خاص، وتنضج الفكرة تمامًا في محاضرته الشهيرة برَقْم ١١، والتي تناولت سلسلة "أزهار النيلوفر" لكلود مونيه. إن "النيلوفر"، كما هو معروف، ليست لوحة بالضبط، بل هي مجموعة من ثمانية رسوم جدارية، إذا ما وُضعَتْ قرب بعض، ستُشكِّل رسمًا، طوله تسعون مترًا، وارتفاعه متران. اشتغل كلود مونيه سنين طويلة على اللوحة، وقرّر في النهاية، عام ١٩١٨، أن يهدي العمل إلى بلده، فرنسا، احتفاءً

بانتصارها في الحرب العالمية الأولى. استمرّ في العمل عليه حتّى آخر أيّام حياته، ثمّ توفيّ في الخامس من كانون الأول عام ١٩٢٦، قبل أن يعرض العمل أمام الجمهور. وممّا يثير الفضول، رغم الجهود الجبّارة، أن العمل حاز على نَقْد فني متفاوت، بعضهم عَدّه تحفة فنّيّة تكهّنية، فيما عَدّه آخرون رسومات، لا بأس بها، صالحة لتزيين جدران مطعم صغير. لكن الجمهور لا يزال، حتّى يومنا هذا، ينظر إليها بإعجاب، لا مثيل له.

يبدو في لوحة "النيلوفر"، كما يشدّد على ذلك الأستاذ موندريان كيلوري، شيء من التناقض الجلي - عادة يُفضِّل أن يقول: المُرِبك - وهو الاختيار المستهجَن لثيمة اللوحة: لوحة بامتداد تسعين مترًا وارتفاع متريْن، لا لشيء سوى لتخليد مستنقع، يحتوي على أزهار النيلوفر. ربّما تلوح بعض الأشجار، وشيء من السماء، ربّما، ولكن معظم العمل ماء وأزهار نيلوفر. يبدو من الصعب أن نجد ثيمة أتفه من هذه، وبالتالي ذوقًا أسوء، ويصعب أيضًا أن نفهم كيف يكرّس رسّام عبقري سنين طويلة من العمل على هذه السخافة، وأن يبذل عشرات الأمتار من الألوان. ربّما كانت تكفي سويعات عصر، مع كوب من الشاي. مع ذلك، يبدو أن عبقرية العمل تبدأ انطلاقًا من هذه البادرة. أنه لواضح للعيان - يقول الأستاذ موندريان كيلوري - ما كان يبغيه كلود مونيه من وراء العمل: أن يرسم العَدَم.

لا بد أنه كان هاجسه الغالب، أن يرسم العَدَم، والذي، على ما يبدو، كان شغله الشاغل في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته - أي أن تلك السنين كانت متشرّبة بهذا الهاجس. وبدأ ذلك تمامًا في شهر تشرين الثاني من العام ١٨٩٣، حينما أقبل على شراء قطعة أرض ملاصقة لملكيّته في جيفرني، وبدر في ذهنه أن يُنشئ حوضًا كبيرًا للأزهار المائية - بتعبير

آخر، مستنقع مليء بأزهار النيلوفر. ومن الممكن أن نُترجم ذلك المشروع على أنه هواية الشيخوخة، ولكن الأستاذ موندريان كيلوري لا يتورّع من أن يُعرِّفه على أنه الانطلاقة الواعية والاستراتيجية لرجل يعرف جيّدًا ما ينوي الوصول إليه. ولأجل أن يرسم العَدَم، فعليه أن يجدَه أولًا. لكن كلود مونيه فَعَلَ ما هو أكثر من ذلك: قام بإنتاجه. ولم تفتْهُ مسألة أن الأمر لا يتعلّق فقط بإيجاد العَدَم عن طريق تجاوُز الواقع - يمكن التعبير عن ذلك بأيّ رَسْم تجريدي - بل يجب الحصول على العَدَم عبر تضاؤل الواقع، وتشتّته. فأدرك أن العَدَم الذي يبحث عنه كان - في الحقيقة - هو كل شيء، وقد فاجأه ذلك في لحظة عابرة. كان يتخيّله كمنطقة حُرّة بين ما كان موجودًا وبين تلاشيه. لم تفتْه أن المسألة قد تستغرق وقتًا طويلاً.

- عذرًا، يجب أن ألبّي نداء البروستاتة – هذا عادة ما يقوله الأستاذ موندريان كيلوري، عند وصوله إلى هذه النقطة من محاضرته رَقْم ١١. يذهب إلى الحمّام، ثمّ يعود بعد بضعة دقائق، وعلى سيمائه الارتياح.

تشير الأُخبار أن كلود مونيه، في تلك الثلاثين سنة، قضى وقتًا طويلاً في العمل على إنجاز الحديقة، لا الرَّسْم. لقد قام، ببساطة، بإنجاز شيئَيْن هما – في الحقيقة – الشيء ذاته، وكان هَوَس إنجازه مُلحًّا جدًّا، في كل لحظة من الثلاثين سنة الأخيرة من حياته، وهو: أن يُنتج أزهار النيلوفر. زراعتها أو رَسْمها كانت فقط مُسمّيات مختلفة للعمل ذاته. بوسعنا أن نتخيّل أن ما كان يمرّ في ذهنه هو: الانتظار. وقد كان حذقًا حين اختار، كنقطة انطلاق، جزء من الوجود، يرد فيه الواقع بدرجة عالية من التضاؤل والرتابة، وهو أقرب ما يكون إلى الصمت التافه: مستنقع من أزهار النيلوفر. انطلاقًا من هنا، كان يجب عليه أن يجرِّد جزء الوجود هذا من أيّ معنىً

متبقٍّ فيه، أي أن يخلعَ عنه المعاني كلها حتّى يصل به إلى الغياب. فيصبح وجوده المستهجن أقرب إلى حضور الغياب. وللحصول على هذه النتيجة، فقد قام كلود مونيه بتبنّي خدعة تافهة إلى حدّ ما، لكنها فعّالة جدًّا - فعالية تلك الخدعة تشهد لها كل تجارب العلاقات الزوجية. أكثر الأشياء تفاهة في الدنيا هي تلك التي تستيقظ، فتجدها قربكَ كل صباح، طوال حياتكَ. ما فَعَلَه كلود مونيه هو أنه جلب ذلك الجزء من الوجود، الذي ينوي أن يجعلَه عَدَمًا، إلى بيته. وهكذا فقد صنع مستنقع أزهار النيلوفر في مكان، حيث يستحيل عليه ألا يراه. الحمقى فقط - يصرّح الأستاذ موندريان كيلوري في محاضرته رَقْم ١١ - يظنّون أنه فَعَلَ ذلك لكي يفهمَ بعُمق هذا المستنقع، ويسرق أسراره. لقد قام بذلك لكي يُجرِّده. بوسعنا القول إن كل نظرة يلقيها كلود مونيه على ذلك المستنقع كانت بمثابة خطوة نحو اللامبالاة التامّة، يحرق في كل مرّة بقايا الدهشة وفضلة التعجّب. بل وبوسعنا أن نفترضَ أن عمله الدؤوب المستمرّ - كما تنقل لنا الأخبار - في التعديل هنا وهناك، وضع الأزهار أو إزالتها، رسم الحدود وتعديلها، لم يكن سوى عملية جراحية، يجريها على كل ما يقاوم الاعتياد والرتابة، ويحاول إثارة الانتباه، أو يخدش التفاهة التّامّة التي كانت تتشكّل تحت أنظار الرسّام. كان في بحث مستمرّ عن كروية العَدَم، وحيث يفشل الاعتياد في ذلك، لا يتورّع هو عن التّدخّل في الأمر.

واستيقظ ذات يوم، نزل من السرير، وتوجّه صوب الحديقة، وَصَلَ عند المستنقع، وكل ما رآه حينها كان: العَدَم. ربّما أحدٌ غيره كان سيبتهج بما وَصَلَ إليه. ولكنْ، من سمات العبقري الإصرار اللا محدود، والذي يدفعه عادة نحو أهدافه، يصاحبه بذلك هَوَسُ الكمال. حينها بدأ كلود مونيه بالرسم: ولكنه أنجز ذلك حبيسًا في مَرْسَمِهِ. لم يمرّ في خلده قطّ

أن ينصب حامل اللوحة على طرف المستنقع، أمام أزهار النيلوفر. بدا له جليًا أنه، بعد سنين طويلة من إنجاز مستنقع النيلوفر، كان عليه أن يرسمها وهو حبيس في مَرْسمه، أي منعزلًا في مكان - حسب ما تنقل الأخبار - لا يستطيع أن يرى منه الأزهار. وحسب ما نقلت الأخبار: عليه أن يتذكّرها، هناك. واعتماده على الذاكرة في الرَّسْم، لا على الرؤيا المباشرة، كان التفاتةً عبقريةً لإجراء التعديلات على العَدَم، كون الذاكرة - خلافًا للرؤية المباشرة - تضمن حركة إدراك خفيفة، تضع أزهار النيلوفر على بُعْد خطوة من التفاهة، ودفء الذاكرة يجعلها تقف على حافّة هاوية العَدَم. كانت الأزهار، إذنْ، عَدَمًا، ولكنْ .. كانت.

والآن، بوسعه أن يرسمَها، أخيرًا.

ما إن يصل الأستاذ موندريان كيلوري إلى هذه النقطة حتّى يأخذ قسطًا من الراحة بشكل مسرحي: يعود إلى مقعده، ويترك فرصة صمت للمستمعين، يتصرّفون بها كيفما شاؤوا، ولكنْ، غالبًا بأدب. كانت تلك تمامًا هي اللحظة التي يخرج فيها زملاؤه من القاعة، وقد ارتسمت على سيماهم علامات الرضا، ويعبّرون أيضًا عن شعورهم بالأسى، لعدم قدرتهم على الاستمرار في الاستماع، بفِعْل ما تنتظرهم من مهامّ والتزامات. لكن الأستاذ موندريان كيلوري يتظاهر بعَدَم رؤية ما يجري حوله.

لم يكن كلود مونيه مهتمًا برَسْم العَدَم، ليس هكذا بالضبط. لم تكن رغبته تلك تنمّ عن كونه فنانًا ضَجِرًا، ولم يكنْ لديه طموح فارغ لإلهاب المحيط الفنّي. بل كان في ذهنه شيء ما أدقّ من ذلك بكثير. يصمت الأستاذ موندريان كيلوري لحظات، يحدّق في الحضور، ويقول بصوت خفيض، كأنه يفشي سرًّا : كان كلود مونيه بحاجة للعَدَم، حتّى يكون فنّ

الرَّسْم قادرًا على تصوير ذاته، حينما لا تكون هناك مادّة للرَّسْم. وعلى خلاف ما يمكن تصوّره، فإن أزهار النيلوفر لا تمثّل بالفِعْل أزهار النيلوفر، بل النظرة التي تُوجَّه صوبها. إنها بصمة النظام الإدراكي، ولكي نكون دقيقين في التعبير، فيمكننا القول إنها بصمة نظام إدراكي شاذّ. وقد أشار زملاء أطول باعًا منّي في هذا الحقل - يقول الأستاذ موندريان كيلوري بتواضع يثير الغثيان - إن أزهار النيلوفر في اللوحة تفتقر إلى النظام، أي أنها رُتِّبَتْ في فضاء، يفتقر للتنظيم، ليس فيه قُرْب أو بُعْد، أعلى أو أسفل، قبل أو بعد. إذا ما تحدّثنا بشكل تِقْنِيّ، فبوسعنا القول إنها نظرة غير قابلة للتّحقّق. فالأزهار ليست على حافّة المستنقع، وليست في الهواء، وليست على سطح الماء، ليست بعيدة عنه، ولا فوقه. بل إنها في كل مكان. لعل إلهًا يعاني من اللابؤرية بوسعه فقط أن يراها هكذا - بهذه الطريقة الهزلية يشرح الأستاذ موندريان كيلوري وجهة نَظَره. وكان يقول: إن النيلوفر هي العَدَم، من وجهة نَظَر اللا أحد.

وهكذا فإن النَّظَر إلى "النيلوفر" يعني النَّظَر إلى نظرة ما - يقول - وتلك النظرة لا تقود إلى أيّ تجربة سابقة في حياتنا، بل هي نظرة فريدة، وغير قابلة للتكرار. وإذا ما أردْنا استخدام مصطلحات مغايرة، نقول: إن النَّظَر إلى "النيلوفر" هي تجربة محدودة، أو مهمّة شبه مستحيلة. ويبدو أن الأمر لم يغبْ عن ذهن كلود مونيه، والذي اشتغل طويلاً جدًّا، وبهَوَس جنوني، على نظام خاصّ، يجعل النيلوفر، قدر المستطاع، مَرئية أكثر. وقد وجد الحل في طريقة بسيطة جدًّا، ولكنها ناجحة حتّى يومنا هذا، وهذه الطريقة هي التي جعلت من "النيلوفر" موضوع دراسة الأستاذ موندريان كيلوري: طلب كلود مونيه أن تُوضَع "أزهار النيلوفر" - حسب تسلسل معيّن - فوق ثمانية جدران مقعّرة.

- مقعّرة، أيها السادة - يصرخ الأستاذ موندريان كيلوري بحماس ورضا واضحَيْن.

بالنسبة للباحث الذي كرّس مقالات طويلة لدراسة قوس قزح، البيض المسلوق، بنايات أنتوني غاودي، قنابل المدفع، الطُّرُق الجانبية، ومنعطفات الأنهار، الباحث الذي قضى سنين طويلة لدراسة الأجسام المحدّبة، وتحليلها، أي بالنسبة للأستاذ موندريان كيلوري، لا بد أنها كانت فرحة لا تُوصَف أن يكتشفَ كيف أن ذلك الرسّام العجوز، الذي بلغ تخوم المستحيل، قد جعل طَوْق نجاته في الجدران المقعّرة، الجدران الخالية من أية زاوية. وهكذا، وبرضا كبير، يشعر الأستاذ موندريان كيلوري أن الوقت قد حان لعرض الشريحة رَقْم ٤٢١، والتي تعرض صالتَي الأورانجيري في باريس، حيث نُصبت جداريات "أزهار النيلوفر" لكلود مونيه، في كانون الثاني عام ١٩٢٧، ولا تزال هناك حتّى اليوم، وبوسع الجماهير رؤيتها، سوى أن كلمة "رؤيتها" غير مناسبة للاستخدام في هذه الحالة.

(شريحة رَقْم ٤٢١)

ليس هناك ولا حتّى سينتيمترًا واحدًا في لوحة أزهار النيلوفر، يا سادتي، إلا وهو مقعّر الشكل. وبهذا يصل الأستاذ موندريان كيلوري إلى فحوى محاضرته رَقْم ١١، وهي أكثر محاضراته وضوحًا. يقترب عندها من المستمعين، ومن تلك اللحظة حتّى نهاية محاضرته يصبّ ما عنده بشَغَف، كشلال هادر:

لقد رأيتُ الناس، هناك، وحولهم "أزهار النيلوفر". حالما يلجون الصالة يشعرون بالضياع، وكأنهم لم يشعروا من قبل بوجوب النَّظَر لشيء

ما، كما لو زُجّ بهم من كابينة صغيرة إلى فضاء شاسع، يبحثون فيه عن نقطة البداية. نقطة بداية ما. فقد كانت "أزهار النيلوفر"، بشكل ما، تدور حولهم، رغم أنها ثابتة، وذلك بفِعْل الجدران المقعّرة التي تحيط بفضاء الصالَتَيْن، وتشكّل منظرًا بانوراميًا يُركّز عليه الناس اهتمامهم، فيدورون حول أنفسهم، وتدور عيونهم بزاوية ٣٦٠ درجة، وعلى مُحيّاهم دهشة طفولية. وعادةً ما ترتسم على شفاههم ابتسامة. ربّما يتوهّمون في لحظة ما بأنهم شاهدوا كل شيء، وفي إدراكهم فكرة عن المشاهدة شبيهة بتلك التي تمنحها السينما، ولكنْ، سرعان ما يخبو هذا الوَهْم، ثمّ يبدؤون بالبحث عن المسافة والتسلسل المناسبَيْن للمشاهدة، وهذا بالضبط ما حرمتْهم منه السينما، والتي تُملي عليهم المسافة والتسلسل المناسبَيْن، وبالتالي تحرمهم من معرفة اختيار المشاهدة، كون السينما مُشاهَدَة جبرية، متسلّطة ومستبدّة، في حين كانت "أزهار النيلوفر" تلك تمنحكَ حُرّيّة الإدراك، وهو أمر، كما هو معلوم، غير مسموح. فترى الناس وكأنها تائهة، فيضطرّون لاستغراق وقت أطول. يجولون في المكان، يتلفّتون، يتمشّون، يقفون، يسمحون بمرور الآخرين، يرجعون إلى الخلف، وأحيانًا يجلسون، على الأرض أو على مقاعد تثير الشفقة - وهم يتصوّرون أنهم يشاهدون شيئًا يحبّونه، ولكنهم ليسوا متأكّدين من مشاهدته تمامًا، من مشاهدته حقيقةً. الكثير منهم يتساءلون كم استغرق من الوقت في رَسْمها، كم ارتفاعها، كم كيلو غرامًا من الألوان استُخدِمَ لإنجازها؟! وكم هو طولها؟! ثمّ يُهملون تساؤلاتهم كلها، يروق لهم أن يظنّوا بأنهم يعرفون ما يشاهدون أمامهم، وهذا ممكن بطبيعة الحال، فهم يشاهدونها أمامهم، ليس فوقهم، أو تحتهم، أو بجانبهم، فأزهار النيلوفر هناك قابعة، لا تعير اهتمامًا لأيّ من تقديراتهم، فهي ببساطة في كل مكان. في النهاية، يجرؤون على الاقتراب

منها، يدنون لرؤيتها، يقتربون جدًّا. بودّهم أن يلمسوها، لو كان بمقدورهم، لكنهم يقربون أعينهم، كون اللمس ممنوع. فينتهي بهم الحال ألا يروا أشياء لا يستطيعون تمييزها، وكل ما يرونه هو لطخات فرشاة بارزة وموزّعة بفوضى، كأنها قعر إناء مُلطّخ بصلصة الخردل، بالموستاردة وبالمايونيز الأزرق، أو لطخات ملوّنة على جدار حمّام انطباعي. يضحكون. ثمّ يعودون إلى الوراء، إلى النقطة التي كان جليًا لهم فيها ما يرون: "أزهار النيلوفر". يتراجعون وهم يتساءلون كيف لهذا الرجل أن يرى من بعيد ما يرسمه عن قرب، تسحرهم هذه الخدعة، وتتركهم، بعد رجوعهم إلى الخلف، خالي الوفاض، كما كانوا في البداية، بل ثمّة ما هو أكثر من ذلك: في تلك اللحظة بالضبط، يبرز أمامهم بشكل مؤلم إدراكهم بعجزهم عن المشاهدة، يصاحبه إيمان خفيّ أن ما يعجزون عن مشاهدته، قد يكون لذّة لاسعة، وذكرى بديعة، لا يمكن نسيانها. عندئذٍ، يستسلمون. ويكتشفون في أعماقهم التجارب المشابهة لتلك كلها، والمشاهدات الناقصة كلها. يستخرجون كاميراتهم من جيوبهم كتصريح بالهزيمة.

يُصوِّرون "النيلوفر".

يا للمشهد المؤثِّر! فهم كَمَنْ يرمي بالعكاكيز عدوًّا، يرميهم بالمدافع. عدسات ٥٠ ملم تتوجّه مباشرة، كأنها منظار كلاشينكوف نحو أزهار نيلوفر لا متناهية. ولا يسمح لهم، حسب قوانين المتحف، باستخدام الفلاش، فيحاولون تسخير الضوء بأفضل ما يمكن، وهم يبحثون عن وضعية مناسبة للتصوير، يبركون على الركبة، يلوون الجزء الأعلى من الجسد، يتراجعون وراء النقطة المركزية. يستجدون أي نظرة، يضعون ثقتهم بالكاميرا المظلمة العجيبة. ولعلّ أكثرهم إثارة للشفقة هم أولئك الذين يعلنون أمام الجميع هزيمتهم، بأن يُوقِفوا بين الكاميرا و"النيلوفر" أحد أقاربهم،

وعادة ما يكون بوضعية، يشهر فيها خذلانه، وخلفه "أزهار النيلوفر"، ثمّ تبقى صورة الشخص لسنين طويلة على الدُّرج، يشاهدها الأصدقاء والأقارب، وعلى وجهه ابتسامة غريق في مستنقع "أزهار النيلوفر". وهكذا فقد أعيا الرسّام اللعين الناس بهذه المهمّة المستحيلة، أي أن يشاهدوا نظرة عديمة الوجود. فيشعرون بالهزيمة والخذلان، يسلبهم مكره وأزهاره وألوانه ولطخات الفرشاة اللعينة، وتلك النظرة غير القابلة للرؤية، والماء والنيلوفر. لهذا السبب كنتُ سأكرهه حتّى هذا اليوم. لا يمكن أن نغفرَ للأنبياء الذين يأتون برسالات، ليس لأحد أن يفهَمَهَا، وقد فكّرتُ طويلاً في أنه كذلك، بل هو الأسوأ بينهم، بين المعلّمين جميعهم، وكنتُ واثقًا تمامًا، في النهاية، أن تلك النظرة التي تخيّلها ستبقى بلا فائدة، كون لا أحدَ بوسعه أن يستوعبها، هو فقط يمكنه ذلك، ولكنه لم يمنحْ الآخرين القدرةَ على رؤيتها. ربّما يجب احتقاره لهذا السبب، فإذا ما استثنينا هذه اللعبة الإدراكية - وكأنها رحلة للبحث عن اللانهاية - إذا ما استثنينا هذه التجربة، فلا يبقى سوى بحر من أزهار النيلوفر المُضبّبة، كأنها مقال مطوّر عن الانطباعية، وهي تِقْنِيّة غير أخلاقية، يقدّسها البرجوازيون متوسّطو الذكاء، ويرون فيها اقتحام الحداثة للحياة، وهذه الفكرة تُؤجّجهم، وتتمثّل لهم كثورة، تؤثّر فيهم فكرة أنهم قد يحبّونها، رغم كونها ثورة، وقد أدركوا أنها، في النهاية، لا تُسبِّب الأذى لأحد، وهكذا يُمنَحون ثورة مخصّصة لهم، وتُمنَح لهم فيها عاطفة الحداثة. من غير الممكن أن لا تكرهه لهذا، وأنا شعرتُ بالكره نحوه في كل مرّة أدخل فيها صالتَيْ متحف الأورانجي، في باريس، وأخرج دائمًا منهزمًا، كل مرّة، ولعشرين سنة. وكنتُ سأكرهه حتّى هذا اليوم - وكنتُ أظنّه قد دنّس استخدام السطوح المقعّرة بلا فائدة - لو لم يحصل، عصر يوم ١٤ حزيران عام ١٩٨٤، أن رأيتُ أحدًا - وكانت

امرأة - رأيتُها تدخل الصالة الثانية، وهي الأكبر، ورأيتُها أمام ناظرَي، وهي تشاهد أزهار النيلوفر، وهكذا أثبتت لي أن رؤيتها قابلة للتّحقّق، ليس من قِبلي، ولكنْ، من قِبَل أحد ما في هذا العالم: لقد كانت تلك النظرة موجودة، وكان هناك مكان تبدأ منه، ومكان تنتهي فيه. وفي الحقيقة، لقد تجسّستُ على النساء، لسنين طويلة، وكنتُ واثقًا أن لو كان هناك حلّ، فإن امرأة ما ستكتشفه، ولم يكن ذلك سوى للتواطؤ الفِعْلي ما بين الألغاز. طبعًا كنتُ أتجسّس على النساء الحسناوات، بالذات الحسناوات.
انفردت تلك المرأة عن مجموعتها، وكانت امرأة شرقية، تعتمر قبّعة كبيرة، تغطي جزءًا من وجهها، وتضع حذاءً غريبًا، انفردت عن مجموعة السائحات الشرقيات، كلهنّ نساء - انفردت عنهنّ، كما لو أن الخيط الذي يشدّها إليهنّ قد انقطع، وجَذَبَها شيء سرّيّ نحو أزهار النيلوفر، تلك المعروضة على الجدار الغربي، حيث السطح أكثر تقعّرًا - ثمّ جلست وكأنها ورقة خريفية تتهاوى - كانت حركة جلوسها قد اتّخذت شكل البندول، حركات متناقضة فيما بينها بشكل متناغم - يحلو لي أن أسمّيها: انحناءات. كانت تستند على عكّازين من الخشب، قَدَمَاها المصابتان بتشوّهات الأطراف، كأنهما مضربيَ باب سوداوَيْن مكسورَيْن، يرنان خطاها. تضع شالاً على كتفها، وكان ذراعاها مطويَّيْن بشكل غريب - كانت تبدو كفراشة رائعة ومُجهَدَة - فنظرتُ إليها، كأنها قادمة من هجرة طويلة، متعبة ورائعة. كانت تسير بعناء كبير، ولكنها لا تعرف معنى التّوقّف. تلتوي في سيرها، تحدث خطاها نشيجًا، لا يمكن ترجمته، وهكذا تسير كحلزون صبور، لا ينفصل عن الألم الذي يسكنه، يسير تاركًا خلفه اللعاب كأثر لسيره الغريب. وكان الآخرون مُحرَجين من تتبّع خطاها، يشعرون بالحياء والأسى، وهم يحثون عن شيء يلوذون بالنَّظَر إليه، ولكنْ، لم يكن من السهل تلافي النَّظَر إليها،

لا يمكن النَّظَر لشيء آخر. كان هناك الكثير من الناس، وأنا أيضًا كنتُ حاضرًا، وفي لحظة ما صرتُ أراها هي فقط. اقتربت من "النيلوفر" حتّى كادت تلامسها، ثمّ جعلت تلتوي في سيرها قربها، وكأنها ترسم انحناء الجدار، ولكنها انحناءات حركية، ترسم الالتواء في كل حركة من حركاتها المُجهَدَة، انحناءات تتجدّد في كل لحظة طول المسافة، لكنها لا تقلّ غموضًا عن النيلوفر، كونها تتوزّع في حركاتها التي تتّخذ ألف اتّجاه، تتفجّر عن ذلك الجسد الذي يفتقر إلى المركزية. تمشّت طوال الصالة، تقترب من الجدار، وتبتعد عنه، تترامي بفِعْل البندول الذي يتمايل داخل الفضاء الزمني لألمها، بينما كان الناس يحيدون عنها، كيلا يعيقون أيّ حركة في تقدّمها. وأنا الذي لم أرَ هناك، ولسنين طويلة، سوى أزهار النيلوفر، لم أرَ غير أزهار نيلوفر جديرة بالاستهجان، مرّت بالقرب منّي، وفجأة أدركت، دون حتّى أن أنظرَ إلى ما تنظر هي إليه، أدركت وبوضوح تامّ أن تلك المرأة كانت ترى - كانت هي النظرة التي تُعبّر عنها أزهار النيلوفر، النظرة التي بوسعها أن ترى أزهار النيلوفر - كانت المرأة هي الزاوية المناسبة، ووجهة النَّظَر الصحيحة، والعين المستحيلة - حذاؤها الأسود غريب الشكل كان كذلك، وألمها أيضًا، وصبرها، وحركاتها الرهيبة، وعكازاها الخشبيان، وشالها، وحشرجة ساقاها وذراعاها، والأسى والقوّة، وذلك المسار الذي تتركه خلفها في الفضاء - ذلك كله اختفى وإلى الأبد، حينما وَصَلَت، وقفت وتبسمت.

منذ يوم ١٤ حزيران ١٩٨٤ أصبح في حياة الأستاذ موندريان كيلوري ميول للحزن، تتناسب وقناعاته بنظريّته، وقد توصّل من خلال تحليل "أزهار النيلوفر" لكلود مونيه، أن استيعاب حالة الألم أمر لا بد منه لإدراك حقيقة الحياة. أصبح على قناعة تامّة أن الآلام هي الطريق الوحيدة التي

تقود إلى ما وراء سطح الواقع. كان يعدّها الخطّ المنحني الذي يتلافى هيكلية الواقع التعامدية الزائفة. على أن حياة الأستاذ موندريان كيلوري كانت حياةً سعيدةً وخالية من الآلام، بعيدة كل البعد، وإن دون تخطيط لذلك، عن نزوات القَدَر. وهذا ما كان يُعقِّد الأمور عليه، حسب ما تشير إليه نظريّته، ممّا يجعل منه إنسانًا غير مناسب لتطبيقها، لذلك فقد أصبح هذا الشعور هو السبب الرئيس لمعاناته، أي أنه يعاني لعدم امتلاكه أسبابًا للألم. وقوعه ضحية في هذا الشرك العاطفي لنظريته، جعله يعاني من حالة عصبية، تُسبّب له - بين حين وآخر- فقدانًا للذاكرة، دوارًا في الرأس، وتغيّرات مفاجئة في المزاج. دائمًا ما تُفاجِئه دموعه المنهمرة، دون أي سبب كان. أحيانًا يشعر بالفرح حينما يحصل له ذلك، ولكنْ، غالبًا ما ينتابه شعور بالحياء.

وذات يوم، بينما كانت دموعه تسيل على وجنَتَيْه - دون أدنى سبب - وكان مختبئًا في القاعة رَقْم ٦، إذ به يرى الباب يفتح ويدخل منه وَلَدٌ صغير. كان الولدُ أحدَ طلابه، واسمه غولد. وكان غولد معروفًا لدى الجميع في الكُلّيّة، لأنه تخرّج بعمر إحدى عشرة سنة. والولد أشبه بمعجزة. وقد أقام لبعض الوقت في السَّكَن التابع للكُلّيّة، مباشرة بعد الأحداث الرهيبة التي جرت لوالدته. كانت أمّه سيّدة شقراء جميلة وظريفة، ولكنها لم تكنْ بصحّة جيّدة. وذات يوم أخذها زوجها إلى المشفى، مشفى الأمراض العقلية. قال الزوج إنه لا بد من ذلك. وكان في تلك الفترة أن جاء الولد للعيش في سَكَن الجامعة. ولم يعرف أحد ما الذي فهمه الولد من كل هذه المَعْمَعَة، ولم يجرؤ أحد أن يسأله عن ذلك. كان ولدًا مؤدّبًا، ولا أحد يرغب في الإساءة إليه. وكان الأستاذ موندريان كيلوري ينظر إليه - بين الحين والآخر - ويخطر في ذهنه أن بوسعه فِعْل شيء من أجله، ولكنه لا يعرف ما عليه فِعْله.

سأله الولد إذا ما كان بحاجة لمنديل، أو يودّ أن يشربَ شيئًا ما. أجابه الأستاذ موندريان كيلوري بالرفض، وقال له إن كل شيء على ما يرام. ثمّ بقيا هناك لبعض الوقت. وكان الولد يدرس، كانت الإضاءة جيّدة، لما يتخلّل النوافذ من ضوء. نَهَضَ الأستاذ موندريان كيلوري، تناول جاكيته، واتّجه صوب الباب. وحينما مرّ قرب الولد مسّد شعرَه برفق، وتمتم بشيء ما، لعلّه كان: "أنتَ ولد طيّب، يا غولد".

لم يتفوّه الولد بكلمة.

-١٤-

- مرحبًا.

- مرحبًا - أجابت شيتزي.

- ماذا تودّان أن تطلبا؟

- ساندويتشي تشيز برغر وعصيرَي برتقال.

- أترغبان ببعض البطاطس؟

- كلا، شكرًا.

- لن يتغيّرَ السعر، إذا ما طلبتُما البطاطس.

- لا يهمّ، شكرًا.

- ساندويتش تشيز برغر، عصير وبطاطس، إنها القائمة رَقْم ٢ - قال النادل وهو يشير إلى صورة خلفه.

- جميلة هي الصورة، ولكني لا أحبّ البطاطس.

- بوسعكما، إذنْ، أن تطلبا تشيز برغر كبير، القائمة رَقْم ٥، ليس فيها بطاطس، وتُكلّف السعر ذاته.

- أيّ سعر؟

- سعر تشيز برغر وعصير برتقال.

- سعر تشيز برغر كبير هو نفسه سعر تشيز برغر عادي؟

- نعم، إذا ما طلبتُما القائمة رَقْم ٥.

- غير معقول!

- إذنْ، قائمة رَقْم ٥؟

- كلا. نريد فقط تشيز برغر عادي. واحد لكل منّا. لا نرغب بتشيز برغر كبير.

- كما تريدان، ولكنكما تهدران نقودكما.

- لا يهمّ، شكرًا.

- إذنْ، ساندويتشي تشيز برغر وعصيرَي برتقال.

- بالضبط.

- أترغبان ببعض الحلوى؟

- أترغب بقطعة كعك، يا غولد؟

- أجل.

- حسنًا، إذنْ، أضفْ قطعة كعك، من فضلكَ.

- هناك عرض هذا الأسبوع، قطعتَا كعك بسعر قطعة واحدة.

- رائع.

- فيمَ ترغبين أنتِ؟

- لا شيء، شكرًا.

- ولكنْ، عليكِ أن تطلبي، إنها هدية.

- لا تعجبني الحلويات، لذا لا أريدها.

- ولكنْ، عليّ أن أجلبَها لكِ.

- ماذا يعني هذا؟

- إنه عرض الأسبوع.

- أما هذا، فقد فهمتُه.

- لذلك، فأنا مرغم على جَلْبها لكِ.

- ماذا يعني يجب أن تجلبَها لي؟ أنا لا أريدها، لا تعجبني، لا أريد أن أصبح بدينة مثل تينا ترنر، لا أريد أن أُجبرَ على ارتداء تبان قياسه XXL. ماذا عليّ أن أفعلَ؟ أيجب عليّ أن أنتظر حتّى الأسبوع القادم من أجل أَكْل تشيز برغر فقط؟

- بوسعكِ ألا تأكليها. تأخذين الكعكةَ كهدية دون أن تأكليها.

- لماذا آخذها، إذنْ؟

- بوسعكِ أن ترميها في سلّة المهملات.

- أرميها؟ أنا لا أرمي شيئًا، ارمِهَا أنتَ. حسنًا، افعلْ هذا: خذْها أنتَ، وارمِها حيث شئتَ، أوكي؟

- لا أستطيع، قد يطردونني إن فعلتُ.

- يا إلهي ...

- إنهم صارمون جدًّا هنا.

- حسنًا، دعْ عنكَ هذا، اجلبْ لي هذه الكعكة.

- أترغبين بالمطيّبات فوقها؟

- كلا.

- إنها مجانية.

- أعرف أنها مجانية، ولكني لا أريدها، أوكي؟

- كما ترغبين.

- جيّد.

- قشدة؟

- قشدة؟

- يمكن أن أضعَ قشدة إن أحببتِ.

- إذا كنتُ لا أريد حتّى الكعكة، فكيف يخطر ببالكَ أني أريد القشدة؟

- لا أعرف.

- أنا أعرف، لا أريد قشدة.

- ولا حتّى للولد؟

- ولا للولد.

- حسنًا، إذنْ، ساندويتشي تشيز برغر، عصيرَي برتقال، قطعة كعك فقط. تفضّلا هذا أولًا - أضاف النادل وهو يعطي شيتزي شيئَيْن ملفوفَيْن بورق شفّاف.

- اللعنة، ما هذا؟

- علكة، إنها هدية، يوجد بداخلها كرة سُكّر صغيرة، إذا كانت الكرة حمراء، فستربحين عشرة علكات، أما إذا كانت زرقاء، فستحصلين على القائمة رَقْم ٦ مجانًا. وإذا كانت الكرة بيضاء، فلا شيء، تأكلينها وينتهي الموضوع. على أية حال، المعلومات كلها موجودة على الورقة.

- لحظة من فضلكَ.

- تفضّلي.

- عذرًا.

- تفضّلي.

- لنفترض أني سأقبل بأخذ هذه العلكة، أوكي؟

- نعم.

- ولنفترض عَبَثًا أني أعلكُها لربع ساعة، ثمّ أجد في النهاية الكرة الزرقاء.

- نعم.

- عليّ، عندها، أن أحملَها لكَ، بما فيها من اللعاب، وأنت تعطيني القائمة رَقْم ٦، مَقليةَ وساخنة؟

- نعم، مجانًا.

- ومتى سآكلها، برأيكَ؟

- مباشرة، على ما أظنّ.

- أنا لا أريد سوى تشيز برغر وعصير برتقال، أفهمتَ هذا أم لا؟ ماذا تظنّ أني فاعلة بثلاث قطع مَقلية من الدجاج، وكيس بطاطس متوسّط الحجم، وقطعة خبز بالزبدة، فضلاً عن كوكاكولا متوسّطة الحجم؟ أنا لا أعرف ما أفعل بها!

- عادة يأكلونها.

- مَنْ؟ مَنْ يأكلها؟ مارلون براندو، إلفيس بريسلي، كينغ كونغ؟

- الناس.

- الناس؟

- أجل، الناس.

- اسمعْ، هلا أسديتَ لي خدمة؟

- بالتأكيد.

- خذْ هذه العلكة.

- لا أستطيع.

- احفظْها لزبون بدين، أوكي؟

- لا أستطيع، صدِّقيني.

- يا إلهي ...

- آسف جدًّا.

- آسف؟

- آسف حقًّا.

- أعطني هذه العلكة، إذنْ.

- إنها لذيذة، فهي بطعم الببايا.

- الببايا؟

- إنها ثمار غرائبية.

- ببايا.

- إنها موضة هذا العام.

- أوكي، أوكي.

- أترغبان في شيء آخر؟

- لا شيء، يا عزيزي، شكرًا.

دفعا الحساب، وذهبا صوب الطاولة. كان هناك تلفاز معلّقٌ في الجدار، يبثّ قناة FoodTV. كان المقدِّم يطرح الأسئلة، فإذا ما كنتَ

تعرف الجواب، تكتبه على ورقة الطاولة، في مكان مخصّص لذلك، ثمّ تُسلّمها إلى النادل. إذا كانت الإجابة صحيحة، فستحصل على القائمة رَقْم ٢. في تلك اللحظة، كان السؤال هو التالي: مَن اللاعب الذي سجّل هدفًا في بطولة كأس العالم عام ١٩٦٦؟

١- جيوف هورست.

٢- بوبي تشارلتون.

٣- هلموت هالر.

- الثالث - تمتم غولد.

- إياكَ أن تتفوّه بكلمة - قالت له شيتزي وهي تفتح علبة التشيز برغر. وجدت داخل العلبة ورقة صغيرة حمراء متوهّجة، كُتب عليها: تهانينا!! لقد ربحت هامبرغرًا آخر. ثمّ بخطّ أصغر: قَدِّمْ هذه الورقة إلى النادل، لتحصلَ مباشرة على هامبرغر مجاني، ومشروب بنصف السعر! كانت هناك جملة أخرى، مكتوبة بخطّ مائل، لكن شيتزي لم تقرأها. أغلقت العلبة البلاستيكية، تاركة بداخلها التشيز برغر.

- هيا، لنذهب - قالت لغولد.

- لكني لم آكلْ بعد ... - قال.

- سنأكل في وقت لاحق.

نَهَضَا، تركا كل شيء كما هو على الطاولة، واتّجها نحو الباب. التقيا بشخص يرتدي زي المهرّج، إلا أنه يرتدي القبّعة الخاصة بالمطعم.

- أتودّين بالونًا مجانيًا، يا سيّدتي؟

- خذ البالون، يا غولد.

كان مكتوبًا على البالون: أنا آكل الهامبرغر.

- إذا ما علّقتُماه أمام باب المنزل، فستشاركون بمسابقة "الأحد برغر".

- علّقْهُ أمام باب الدار، يا غولد.

- نقوم كل يوم أحد باقتراع لاختيار أحد المنازل التي عُلِّقَت أمام أبوابها البالونات، ثمّ تتكفّل شاحنة صغيرة بنقل الجائزة حتّى باب الدار: ٥٠٠ قطعة تشيز برغر.

- تذكّر، يا غولد، أن تُهيِّئ أهل الحي كلهم، لاستلام الجائزة.

- هناك أيضًا عرض خاص على جهاز تجميد سعة ٣٠٠ لتر، لحفظ التشيز برغر.

- لا أستبعد ذلك.

- أما إذا طلبتِ جهاز تجميد سعة ٥٠٠ لتر، فستحصلين على ميكروويف مجاني.

- رائع.

- إذا كان لديكِ ميكروويف، فبوسعكِ أن تأخذي - بدلًا عنه - مجفّف الشّعر للمحترفين، بأربعة درجات من السرعة.

- قد ينفعني إذا ما فكّرتُ في غسل رأسي بالتشيز برغر.

- عذرًا؟

- أو بالكتشب.

- عفوًا؟

- يقال إنه يمنح الشَّعر لمعانًا جيّدًا.

- ماذا، الكتشب؟

- أجل، ألم تجرِّبْ ذلك؟

- كلا.

- جرِّبْ، إذنْ. صلصة البارنيس أيضًا ليست سيّئة، حسبما يقال.

- هل أنتِ جادّة فيما تقولين؟

- تعالج قشرة الشعر.

- لحسن الحظّ، أنا لا أعاني من قشرة الشعر.

- ستعاني منها حتمًا إذا ما استمررتَ بأكل صلصة البارنيس.

- ولكنْ، أنا لا آكلها مطلقًا.

- ربّما، ولكنْ، تغسل شَعرَكَ بها.

- أنا؟

- طبعًا، هذا واضح على مجفّف الشَّعر.

- أي مجفّف شَعر؟

- هذا الذي علّقتَه على باب دارِكَ.

- ولكنْ، ليس هناك مجفّف شَعر مُعلَّق على باب داري.

- لعلّكَ نسيتَ ذلك، لقد بقي مُعلّقًا بعد أن طار الميكروويف بأربعة درجات من السرعة.

- طار؟ من أين طار؟

- طار من جهاز التجميد.

- جهاز التجميد؟

- نعم، يوم الأحد، أنسيتَ؟

- أتمزحين؟

- أترى في وجهي ملامح شخص يمزح؟

- كلا.

- إجابة صائبة، لقد ربحتَ ٥٠٠ لتر من البالونات، سنسلّمها لكَ على شكل تشيز برغر، أراكَ في ما بعد، وداعًا.

- لم أفهم.

- لا يهمّ، أراكَ لاحقًا، أوكي؟

- البالون.

- خذ البالون، يا غولد.

- أتريده أحمر أم أزرق؟

- إنه طفل أعمى .

- آه، آسف حقًّا.

- لا يهمّ.

- هل أنتِ من سيأخذ البالون، إذنْ؟

- كلا، سيأخذه الطفل، قد يكون أعمى، لكنه ليس أحمقًا.

- هل أعطيه بالونًا أزرق أم أحمر؟

- ألديكَ لون كلون القيء؟

- كلا.

- يا للغرابة!

- لديّ فقط أحمر وأزرق.

- أعطه الأحمر، إذنْ.

- ها هو.

- خذ البالون الأحمر، يا غولد.

- تفضّل، خذْه.

- اشكره، يا غولد.

- شكرًا.

- عفوًا.

- هل انتهينا؟

- عذرًا؟

- يبدو أنه كذلك، وداعًا.

- حظًا طيّبًا لمسابقة الأحد.

- شكرًا.

خرجا من مطعم الوجبات السريعة، كان الهواء باردًا وعذبًا، هواء شتاء نقي.

- يا له من كوكب لعين - قالت شيتزي بصوت خفيض.

كان غولد هناك، فوق الرصيف، وبيده بالون أحمر، كُتب عليه: أنا آكل الهامبرغر.

- أنا جائع - قال غولد.

-١٥-

- ليري! ... ليري! ... ليري غورمان يقترب، يحيط به جمهوره الكبير، القاعة مليئة بالمتفرّجين ... ليري ... ليس سهلاً على بطل الملاكمة أن يشقّ طريقه ... يرافقه معلّمه مونديني ... كان فوزًا ساحقًا بحقّ، هذا المساء، هنا في سوني سبورت، فلنتذكّر ذلك، دقيقتان وسبع وعشرون ثانية كانت كافية لفوزه ... ليري، ها هو، ليري، ننقل لكم على الهواء مباشرةً ... ليري ... نقل مباشر لفوزه الساحق ...

- أيعمل هذا المايكروفون؟

- أجل، نحن على الهواء.

- كم هو جميل هذا المايكروفون، من أين اشتريتَه؟

- ليس أنا مَنْ يشتري المايكروفونات، اسمعْ، يا ليري ... أكنتَ تتوقّع هذا الفوز السريع؟

- أظنّه سيُعجِب أختي كثيرًا ...

- كنتُ أقصد ...

- اسمعْ، أنا جادّ حقًّا. أتعرف، إنها تحاكي مارلين مونرو في غنائها، إذا ما غنّت، فكأنها مارلين، الصوت نفسه، أقسم لكَ، سوى أنها لا تملك المايكروفون.

- اسمعْ، ليري ...

- عادة ما تستخدم الموزة بدل المايكروفون.

- - ليري، أتودّ أن تقول شيئًا ما عن خصمكَ؟

- أجل، أودّ أنْ قول شيئًا.

- قلْ، إذنْ.

- أودّ أن أقول شيئًا عن خصمي. إن خصمي الحقيقي اسمه ليري غورمان. لا أعرف لماذا يصرّون على جَلْب هؤلاء العراة، ويضعون لهم القفّازات لمواجهتي؟ إنهم يعيقون تقدّمي، لذلك أنا أسحقهم، وأرميهم من على الحلبة.

- اللعنة يا غولد، ألا تخرج من هنا؟

كان صوت شيتزي، يصل مسامع غولد من وراء الباب، باب الحمّام.

- سأخرج حالًا.

جلبة استخدام الماء، ثمّ ضوضاء الصنبور. صمت. يُفتَح الباب.

- منذ نصف ساعة وهم ينتظرون.

- سآتي حالًا.

جاء مراسلو إحدى التلفزيونات إلى بيت غولد، وكانوا يريدون إعداد مقابلة تلفزيونية من أجل برنامج "مقابلات خاصة" ليوم الجمعة. وكان عنوان الحلقة "صفات الطفل العبقري". نصبوا كاميراتهم في الصالة. كانوا قد

خطّطوا لمقابلة تلفزيونية لنصف ساعة، وكل أملهم أن يلخّصوا قصّة الطفل الحزينة، طفل حكم عليه ذكاؤه بالوحدة والشهرة. وكانت فكرة المراسلين الأصلية هي عثورهم على شخص، تحوّلت حياته إلى تراجيديا، ليس لأنه إنسان سيّئ الحظّ، على العكس، بل لأنه كان محظوظ جدًّا. إن لم تكن تلك فكرة عبقرية، فهي لا شك جيّدة.

جلس غولد على الأريكة، مقابل الكاميرا. وجلس بوميرينغ جنبه، بينما ديزل لا تسعُهُ الأريكة، لذا فقد جلس على الأرض، وإن استغرق بعض الوقت لِفِعْل ذلك. ولا أحد يعرف مَنْ سيساعده على النهوض بعد ذلك. على أية حال، أَعَدُّوا المايكروفونات، وشَغَّلوا الأجهزة. عدّلت الشابّة الصُّحُفية تنّورتها، وجلست ووضعت ساقًا على ساق.

- أكل شيء على ما يرام، يا غولد؟ - سألتْه الصُّحُفية التي تحاوره.

- أجل.

- بقي فقط أن نُجرِّبَ الميكروفونات.

- حسنًا.

- أترغب بقول شيء في الميكروفون؟

- كلا، لا أرغب بقول شيء في هذه الميكروفونات، ولن أفعلَها حتّى لو دفعتُم لي مليارات من ...

- هذا يكفي، جيّد، كل شيء جاهز، بوسعنا أن نبدأ الآن. أنتَ جاهز؟

- نعم.

- انظرْ إليّ، أوكي؟ دعْ عنكَ الكاميرا.

- حسنًا.

- حسنًا، لنبدأ.

- أجل.

- سيّد غولد ... أم بوسعي أن أناديكَ غولد فقط؟

- ...

- سأناديكَ غولد فقط، أوكي؟ اسمعْ، يا غولد، متى أدركتَ أنكَ لست طفلاً عاديًا، أعني أنكَ عبقري؟

"لم" يقل بوميرينغ - لا أعرف. أنتِ، مثلاً، متى أدركتِ أنكِ حمقاء؟ هل حصل ذلك فجأةً، أم اكتشفتِهِ شيئًا فشيئًا، بعد أن قارنتِ أولاً درجاتِكِ بدرجات رفاقِكِ، من ثمّ، انتبهت أن لا أحدَ يرغب في أن يُشكِّل فريقًا معكِ في لعبة "احزر الفيلم"؟

- غولد؟

- نعم؟

- هلا حدَّثتَني، إن كنتَ تذكر، عن حدثٍ ما في صغرك، أيّ شيء، أدركتُ فيه أنكَ كنتَ مختلفًا عن أقرانكَ من الأطفال ...

ديزل - أجل، أذكر جيّدًا. كنتُ أذهب إلى الحديقة العامة، مع أطفال الحي ... كانت هناك الأراجيح والزحلوقات، وأشياء من هذا القبيل ... كانت حديقة عامة جميلة، وكنّا نذهب هناك، عند العصر. لم أكن أعرف،

يومئذٍ، أني كنتُ ... مختلفًا عن الآخرين، لنقل إني كنتُ أضخم من الآخرين ... ولكنْ، ليس للطفل أن يعرفَ أنه مختلف ... كنتُ أضخَمَهُم، هذا كل ما في الأمر. وذات يوم، صعدتُ سلّم الزحلوقة، وما حصل أني وَصَلْتُ إلى القمّة، ثمّ حاولتُ أن أجلسَ لأتزحلق، ولكنني لم أستطعْ فِعْل ذلك، لم يكن بوسعي أن أجلسَ، أن أضع مؤخّرتي على الزحلوقة، كانت لا تسعني، أتفهمين ذلك؟ لقد فعلتُ ما بوسعي، ولكن الزحلوقة لا تسع مؤخّرتي اللعينة ... كانت حماقة، ولكنْ، لم يكن بوسعي فِعْل شيء، الزحلوقة لا تسع مؤخّرتي. وهكذا توجّبَ أن أرجعَ القهقرى. نزلتُ من الزحلوقة، ولكنْ، من جهة السّلم. أتتصوّرين ما يعنيه أن تنزلي الزحلوقة من جهة السّلّم؟ أجرّبتِ ذلك من قبل؟ والكل يتطلّع إليكِ؟ أجرّبتِ هذا الشعور؟ ربّما من السهل أن تجرِّبي ذلك. هناك الكثير من الناس ينزلون الزحلوقة من جهة السّلّم، هل انتبهتِ لذلك؟ هناك الكثير من الناس تجري الأمور معهم عكس رغباتهم، هذه هي الحقيقة.

- غولد؟

- أجل؟

- أنتَ بخير؟

- نعم.

- حسنًا. اسمعْ ... هلا أخبرتَنا عن علاقتكَ بباقي الأولاد؟ هل لكَ أصدقاء؟ هل تلعب؟ هل تمارس الرياضة أو أشياء أخرى؟

"لم" يقل بوميرينغ - أحبّ ممارسة الغطس تحت الماء، فهناك، في العمق، كل شيء مختلف. لا يوجد ضجيج، وليس بوسعكِ أن تُصدِرِيه،

حتّى إن أردتِ فِعْلَ ذلك، لا تستطيعين، ليس هناك ضجيج، في العمق. تتحرّكين ببطء، ولا تقدرين على الإتيان بحركات مفاجئة، أو سريعة، حركاتُكِ كلها بطيئة، الجميع حركاتهم بطيئة هناك. لا شيء يُسبِّب لكِ الأذى، ولا أحد بوسعه أن يربتَ على كتفكِ، تلك الحركة التافهة. إنه مكان جميل. ثمّ إنه المكان المثالي لتبادل أطراف الكلام، أتعرفين؟ هذا أكثر ما أحبّه، أن أتحدّث هناك في العمق، إنه المكان المثالي، تستطيعين أن تتحدّثي و... تستطيعين أن تتحدّثي، هذا كل ما في الأمر، الجميع بوسعهم فِعْل ذلك، الجميع، إن هم أرادوا، لا تتصوّرين كم هو رائع أن تتحدّثي تحت الماء. ولكنْ، للأسف، لا أحدَ هناك، لا يوجد أحدٌ أبدًا، هذا هو العيب في الأمر، أن لا أحدَ هناك، سواكِ. إنه حقًّا المكان المثالي، ولكنْ، ليس ثمّة من أحد لتبادل الحديث معه، لا تجدين أحدًا. إنه لأمر مؤسف، ألا تعتقدين ذلك؟

- غولد، أتودّ أن نتوقّف عن الحوار، لتستريح قليلاً؟ بوسعنا أن نتوقّف، ثمّ نبدأ من جديد متى شئتَ.

- كلا، الأمور تسير على ما يرام، شكرًا.

- هل أنتَ واثق من ذلك؟

- أجل.

- هل هناك شيء ما تحبّ أن تحدِّثنا عنه؟

- لا، أفضِّل أن تسأليني أنتِ، هذا أسهل.

- حقًّا؟

- أجل.

- حسنًا .. اسمعْ ...

- ...

- اسمعْ ... كونك ولدًا ... مميّزًا، لنقل إنكَ مميّز ... أودّ أن أعرفَ كيف هي علاقتكَ بباقي الأولاد؟ هل تسير الأمور بشكل طبيعي؟

ديزل - أتعرفين؟ إنها مشكلتهم. لقد فكّرتُ في الأمر مرّات عدّة، وما توصّلتُ إليه أن المشكلة مشكلتهم. ليس لديّ ما يمنعني من أن أرافقَهم، يمكنني أيضًا أن أصاحبَهم، أحدّثَهم، يمكنني أن ألعبَ معهم. أنا، في الحقيقة، لا أذكر - على الدوام - ما أنا عليه، أحيانًا أنسى الأمر، ولكنْ، هم مَنْ لا ينسى ذلك، قطّ. أحيانًا يرغبون في الاقتراب منّي، ولكنْ، لا أعرف، كأنهم يخشون أن أسبّبَ لهم الأذى، أو شيئًا كهذا. ليس بوسعهم تقبُّل الأمر. لعلّهم يبنون في رؤوسهم أفكارًا غريبة، حول ما قد أفعل، أو لا أفعل، مَنْ يدري ماذا يدور في أذهانهم. يُخطّطون دومًا لِفعْل ما يُسبِّب لي الضيق، أو الحرج، أو لما يغضبني، وهكذا يُفسدون عليّ كل شيء. يجب ألا يفعلوا هذا كله. لم يشرحْ لهم أحدٌ أن الأطفال المميّزين، كما تسمّينهم أنتِ، إنما هم أطفال عاديون، لديهم رغبات الآخرين نفسها، مخاوفهم نفسها، ليسوا مختلفين لهذا الحدّ، لعلّهم يتميّزون بشيء ما، ولكنْ، في باقي الأشياء هم طبيعيون جدًّا، لعلّ أحدًا ما يجب أن يُبيّن لهم هذا. إنهم يُعقّدون الأمور، وهذا يُتعبهم، ويضطرّهم إلى عدم التفكير في الأمر، ليس من الصعب أن تفهمي لماذا يبتعدون عنكِ، فأنتِ تمثّلين مصيبة بالنسبة لهم، أتفهمين؟ مصيبة. لا أحد يذهب مع مصيبة إلى السينما،

صدِّقيني. أعني أنه إذا كان لديكِ أي صديق، مهما كان، فإنكِ سترافقينه إلى السينما، ولكنْ، لن يخطر ببالكِ البتّة مرافقة مصيبة إلى السينما. لذلك فهم لا يفكّرون قطّ بمرافقتي إلى السينما. هكذا تسير الأمور.

- أتفضِّل أن نتحدَّثَ عن أسرتكَ، يا غولد؟

- ممكن، إذا كنتِ ترغبين بذلك.

- أخبرني عن أبيكَ.

- ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط؟

- لا أدري ... أتحبّ أن ترافقَ أبيكَ؟

- نعم. إنه يعمل في الجيش.

- أأنتَ فخور به؟

- فخور؟

- نعم، أعني أنتَ ... فخورٌ ... فخورٌ به؟

- ...

- وأمّكَ؟

- ...

- أترغب بالحديث عن أمِّكَ؟

- ...

-...

-...

- لعلّكَ تفضِّل أن نتحدّث عن المدرسة؟ أيعجبكَ ما أنتَ عليه؟

- ماذا تعنين؟

- أعني أنكَ حزتَ على الشهرة، كل الناس تعرف مَنْ أنتَ، رفاقكَ وأساتذتكَ، الكل يعرفُكَ. أيعجبكَ هذا الشيء؟

"لم" يقل بوميرينغ - اسمحي لي من فضلكِ أن أحكيَ لكِ هذه القصّة. أقبلَ أحدُهم ذات يوم إلى حيِّنا، ولم يكنْ مِنْ هناك، التقيتُ به في الشارع، فأوقفني، سألني فيما إذا كنتُ أعرف بوميرينغ. وإذا ما كنتُ أعرف أين بوسعه أن يجدَهُ. لم أُجبْه بشيء، فأخذ يصفه لي: إنه ولد بلا شَعر، طوله كطولكَ تقريبًا، ولا يتكلّم أبدًا، أتعرفُهُ؟ هذا الذي لا يتكلّم مطلقًا، الكل يعرفه. بقيتُ أنا صامتًا. بدأ يشعر بالغضب، هيّا، قال لي، لقد كتبتْ عنه الصُّحُف أيضًا، إنه الشخص الذي أفرغَ شاحنة من الخراء أمام مبنى دار النشر CRB، على خلفية قصّة مامي جين، هيّا، يرتدي دومًا ثيابًا سوداء، الجميع يعرفه، وعادةً ما يرافق ولدًا آخر عظيم الهيئة، صديقه. كان يعرف كل شيء عن بوميرينغ، وكان يبحث عن بوميرينغ، وأنا كنتُ أمامه. أرتدي ثيابًا سوداء. صامت. فاشتدّ غضبه، وجعل يصرخ قائلًا: إن كنتَ لا تريد الكلام، فاذهب إلى الجحيم، إذنْ. أيّ تصرّف هذا، ألا يمكن لأحد أن يسألَ سؤالًا؟ يا له من عالم! كان يصرخ، وأنا كنتُ هناك، أمامه. أتفهمين ما أعني؟ أفهمتِ الآن كم هو سؤالٌ غبيّ فِعْلًا أن تسأليني إذا ما كان هذا يعجبني؟ هيه، أنا أحدِّثُكِ أنتِ، أبوسعكِ فَهْم هذا؟

- ألا ترغب في الحديث، يا غولد؟

- لماذا؟

- بمقدورنا أن نُوقِفَ الحوارَ، إن شئتَ.

- لا، لا، يبدو لي أن الأمور تسير على خير ما يرام.

- ولكنكَ لا تساعدني كثيرًا في الحوار.

- أنا آسف.

- لا يهمّ، عادة ما يحدث هذا الأمر.

- آسف حقًّا.

- لا أعرف، عن ماذا تودّ أن أسألَكَ؟

- ...

- قل لي، ألديكَ أحلام؟ مثلًا ... أتحلم بتحقيق شيء ما عندما تكبر، شيء مثل ... حلم ما.

ديزل - أرغب أن أجوبَ العالم. أتعرفين ما المشكلة؟ أولًا ليس هناك سيّارة تسعُني، ولا يسمحون لي بالصعود في الحافلات، فأنا ضخم جدًّا، وليس لديهم مقاعد لشخص مثلي، إنها أشبه بقصّة الزحلوقة، المشكلة نفسها، وليس هناك حلّ. إنها مسألة تافهة، أليس كذلك؟ ولكنْ، أنا أرغب في السفر إلى أنحاء العالم، وليس هناك أيّ طريقة لفِعْل ذلك، لذا يتحتّم عليّ البقاء حيث أنا، والنَّظَر إلى الصور في الصُّحُف، أو في أطلس العالم. ليس هناك حل لهذه المشكلة. كل ما أرغب فيه هو أن

أجوبَ العالم، أن أراه من خلف نوافذ شيء كبير، يحملني بعيدًا، هذا كل ما في الأمر، وقد يبدو شيئًا تافهًا للغاية، ولكنْ، بالنسبة لي مهمّ بالفعل. إنه الشيء الوحيد الذي أفتقدُه، أعني أنني سعيد بما أنا عليه، لا أريد أن أكونَ كأيّ شخص، ككُلّ الآخرين، أنا راضٍ بوَضْعي، ولكن الشيء الوحيد الذي ينقصني هو ما أخبرتُكِ به. يبدو أنني ضخم جدًّا، ولن أستطيعَ السفر عندما أكبر. هذا فقط، هذا فقط ما يثير حنقي.

- أظنّ أن هذا كاف، يا غولد.

- صحيح؟

- أعتقد أن بإمكاننا أن نتوقّف.

- جيّد.

- أواثق أنكَ لا ترغب في قول شيء آخر؟

- ماذا تعنين؟

- أهناك شيء ما ترغب في قوله، قبل أن نُوقِفَ الحوار؟

- أجل، أعتقد ذلك. لديّ شيء أقوله.

- هذا جيّد، قُلْه، إذنْ.

- أتعرفين مَنْ هو الأستاذ تالتومار؟

- أهو أحد أساتذتكَ؟

- تقريبًا. إنه لا يأتي إلى المدرسة.

- كيف؟

- إنه يقف دائمًا على أطراف ملعب كرة القَدَم، خلف المرمى مباشرةً. نقف هناك معًا، أنا وهو، ونتفرّج على المباريات، أتفهمين ذلك؟

- أجل.

- حسنًا، ما أودّ قوله أنه يحصل - بين حين وآخر - أن يركلَ أحدهم الكرة، فتخرج عن الملعب، وراء المرمى، وتتدحرج - أحيانًا - حتّى تتوقّف بالقرب منّا. فيخطو حارس المرمى بضع خطوات خارج المرمى، ولكنه حالما يرانا يصرخ عاليًا: الكرة لو سمحتُم، الكرة، شكرًا. الأستاذ تالتومار لا يحرّك ساكنًا، يبقى يتفرّج على الملعب، كما لو أن شيئًا لم يكنْ. لقد حصل هذا الأمر عشرات المرّات، ولكننا لم نجلبْ تلك الكرة أبدًا، أتفهمين؟

- أجل.

- في الحقيقة أنا والأستاذ تالتومار لا نتحدّث كثيرًا، نتفرّج فقط، ولكنْ، ذات يوم قرّرتُ أن أسألَه، وسألتُه: لماذا لا نجلب هذه الكرة اللعينة؟ فَبَصَقَ بعضَ التبغ، ثمّ قال: إمّا أن تتفرَجَ أو تلعبَ. ولم يضفْ شيئًا آخر. إمّا أن تتفرّجَ أو تلعبَ.

- ...

- ...

- أتودّ قول شيء آخر؟

- كلا، هذا ما أردتُ قولَه فقط.

- أهذا ما أردتَ قولَه، يا غولد؟

- أجل.

- لا شيء آخر؟

- كلا.

حسنًا.

- ...

- حسنًا، إذنْ، سنتوقّف الآن.

- أهذا كافٍ؟

- أجل، هذا يكفي.

- جيّد.

ماذا نفعل بهذا الحوار؟ قال ڤاك مونتورسي لمّا رأى التصوير. وكان ڤاك مونتورسي مقدّم برنامج "مقابلات خاصة" لمساء يوم الجمعة. هذا الحوار قد لا يُعجب حتّى مدمن المخدّرات، علّق المقدِّم وهو يقدِّم الفيديو سريعًا بجهاز التّحكّم، بحثًا عن شيء في الحوار أقلّ كآبة. حاولوا أيضًا إجراء لقاء صُحُفي مع والد غولد، لكنه قال، حسب رأيه، إن صُحُفيّي التلفاز أناسٌ أرذال، ولا يرغب في اللقاء بهم. وهكذا فلم يبقَ أمامهم سوى بعض الفيديوهات التي تُصوِّر مدرسة غولد وبعض الحوارات المُمِلّة مع أساتذته. قالوا أشياء مثل "علينا حماية المواهب الخاصة" أو "إن ذكاء هذا الولد يقودنا إلى التفكير في". وكان ڤاك مونتورسي يقدِّم الفيديو سريعًا بجهاز التّحكّم، وهو يهزّ برأسه.

- هناك أحدٌ ما يبكي في إحدى اللقطات - قالت الصُّحُفية وهي تجرّب ورقتها الأخيرة.

- أين؟

- قَدِّمِ الفيديوَ أكثر.

قَدَّمَ ڤاك مونتورسي الفيديوَ، فظهر أمامه أستاذ يضع نعلًا.

- أهذا هو؟

كان الأستاذ موندريان كيلوري.

- ولكنه لا يبكي ...

- سيبكي لاحقًا.

كبس ڤاك مونتورسي على زرّ التشغيل.

- ... وهذا ليس سوى كلام فارغ. يعتقد الناس أن صعوبات الطفل المعجزة تكمن في الضغوطات التي يواجهُها من حوله، وفي ما ينتظر الآخرون منه. هذا كلام فارغ. مشكلته الحقيقية في داخله، أما الآخرون، فلا شأن لهم في الأمر. مشكلته الحقيقية في موهبته. الموهبة أشبه بخلية، أُصيبت بالجنون، نشأت وتعاظمت دون أيّ ضرورة لذلك. إنه أشبه بنَصْب لعبة بولينغ في بيتكَ، ستدمّر بيتكَ بالكامل، قد تكون لعبة جميلة، ولعلّكَ بمرور الوقت ستحترف فيها، وستصبح أفضل لاعب بولنيغ في العالم، ولكنْ، كيف لكَ أن تعتني ببيتكَ؟! كيف لكَ أن تحفظَه من الخراب؟! كيف سيكون بوسعكَ أن تقول: هذا بيتي، اخرجوا منه، إنه بيتي؟! ليس

بوسعكَ فِعْل ذلك. إن الموهبة عنصر مُدمّر، وكل ما يدور حولكَ لا أهمّيّة له. إنها تنخركَ من الداخل، وتُدمّر كل شيء. يجب أن تكونَ قويًا بما فيه الكفاية، لكي تتمكّن من الحفاظ على شيء ما. وهو ليس سوى ولد صغير. أبوسعكِ أن تتخيّلي لعبة بولنغ في بيت ولد صغير؟ تخيّلي الصخبَ فقط، الصخبَ الذي تُصدره اللعبة كل يوم، تصوّري أن ليس بوسعكِ التّنعّم بالهدوء، الهدوء الحقيقي، ليس بوسعكِ ذلك. بيت بلا هدوء، أيّ بيت هو؟ مَنْ يعيدُ لهذا الولد بيتَهُ، مَنْ؟ أنتِ وكاميراتكِ، أم أنا ومحاضراتي؟

وهنا ينشج الأستاذ مونديران كيلوري، يرفع نظّارته ويمسح عينَيْه بمنديل كبير أزرق. كان شيئًا أشبه بالبكاء.

- أهذا كلّ ما في الأمر؟ - قال ڤاك مونتورسي.

- تقريبًا.

أطفأ ڤاك مونتورسي جهازَ الفيديو.

- هل هناك شيء بديل؟

- قصّة التوءم وقصّة الموناليزا المزيّفة.

- الموناليزا تُثير الاشمئزاز.

وانتهى الحال أن قدّموا مساء الجمعة لقاءً خاصًا مع أربعة توائم إنجليز. كانوا يتبادلون الدور في الذهاب إلى المدرسة، لثلاث سنوات، ولم يكتشف أحدٌ الأمرَ، ولا حتّى صديقتهم، والتي تعاني الآن من بعض مشاكل نَفْسية.

-١٦-

كان غولد جالسًا على الأرضية الخشبية، والتي يبلغ ارتفاعها أربعة سنتيمترات، ينظر صوب التلفاز. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً حينما عادت شيتزي. تحبّ الذهاب للتّسوّق في المساء، وكانت تدّعي أن الأشياء تكون مُتعِبَة في المساء، فلا تُبدي أيّ مقاومة عند شرائها. فتحت الباب، فحيّاها غولد دون أن يلتفتَ إليها. نظرت إليه، وقالت:

- ليس في التلفاز ما يثير الاهتمام، ولكنكَ قد ترى أشياء أفضل إذا ما شغّلتَه.

قال غولد إنه لا يعمل، لقد ضغط على الأزرار كلها، دون جدوى. وضعت شيتزي أكياسَ التّسوّق على طاولة المطبخ، وألقت نظرة على التلفاز المطفأ. يبدو أنه من الخشب المزيّف، إن لم يكن خشبًا حقيقيًا.

- أين حصلتَ عليه؟

- على ماذا؟

- على التلفاز؟

قال غولد إن بوميرينغ سرقه من بائع ياباني، يبيع أطباقًا يابانية مصنوعة من الشمع. قال إنها أطباق بمعنى أشياء للأكل، كالدجاج والكرفس

والسمك النيّئ، وأشياء من هذا. لا تتصوّرين كم تبدو حقيقية، ليس بوسعكِ أن تتخيّلي أنها مزيّفة. لقد صنعوا حتّى الحساء. لا بد أن صنع الحساء من الشمع أمر معقّد، يجب أن تكوني ماهرة جدًّا، فهو ليس بالأمر الذي يمكن صُنعه بسهولة.

- ماذا يعني أنه سرقه؟

- أخذه منه.

- وهل أُصيب بالجنون ليفعلَ هذا؟

- كان له نقود عند البائع الياباني.

قال غولد إن بوميرينغ يغسل واجهة المحل الزجاجية كل صباح، وكان الياباني يلوذ دائمًا بعُذر جديد لكيلا يدفع له الأجرة، وهكذا فإن بوميرينغ "لم" يقل له إنه تعب من الانتظار، ثمّ أخذ التلفاز المصنوع من الخشب المزيّف. قال إنه قد يكون خشبًا حقيقيًا، ولكنْ، إذا ما أدركتَ أنكَ أخذتَهُ من محل يبيع الطعام المزيّف المصنوع من الشمع، والذي يشبه إلى أبعد حدّ الطعام الحقيقي، ينتهي بكَ الأمر أن تتوقّع أن كل شيء في المحلّ مزيّف، فليس بوسعكَ أن تميّز الحقيقة. قالت شيتزي عندئذ إنه يبدو كذلك، وأضافت أن الشيء ذاته يحدث لها حينما تقرأ الصُّحُف. ضغط غولد على زرّ أحمر في جهاز التّحكّم، ولكنّ شيئًا لم يحدثْ.

- هل حصل وتعرّفتِ على شخص مجنون، يا شيتزي؟

- مجنون فِعْلًا؟

- أحدٌ ما يقول عنه الأطبّاء إنه مجنون.

- مجنون حقيقي، إذنْ.

- أجل.

قالت شيتزي إنها رأت بعض المجانين، ولم يكن الأمر سهلاً، في بادئ الأمر. إنهم يدخّنون طوال الوقت، ويفتقدون إلى الشعور بالحياء. قد يكون يسيرًا عليهم أن يقتربوا منكَ، وهم يداعبون أعضاءهم الذَّكَرية. إنهم لا يقومون بذلك، لأنهم سيّئون، بل لأنهم يفتقدون إلى الشعور بالحياء. ربّما سبب ذلك أن ليس لديهم ما يخسرونه، وهذا حظٌ كبير. ولكنكَ تعتاد عليهم مع مرور الوقت، وقد يبدو لكَ الأمر لطيفًا، وإن كان تعبير لطيف ليس مناسبًا. ربّما مثير. قد يكون أمرًا مثيرًا.

- أتعرفين ما الذي يحدث في رأس الإنسان حينما يصاب بالجنون؟

- سأل غولد.

سألته شيتزي أي مجنون يقصد، فالأمر يعتمد على نوع الجنون. مجنون عادي، قال غولد. لا أدري، أجابت شيتزي، ثمّ قالت: أعتقد أن شيئًا ما في رؤوسهم يصاب بالعَطَب، لذلك فإن بعض الأجزاء لا تستجيب للأوامر. إنهم يعطون الأوامر، ولكن الأوامر تتيه في الطريق، لا تصل إلى المكان المطلوب، أو تصل متأخّرة، ولا تعود بالنتائج المطلوبة، لذلك فهم يكرّرون إعطاء الأوامر نفسها، وبهَوَس بالغ، حتّى يصبح إلغاؤها مستحيلاً . وهكذا تتعقّد الأشياء، تصبح أشبه بالفوضى المنتظَمَة، تصوّر أنكَ تفتح الصنبور، فيشتعل الضوء، ويرنّ الهاتف حينما تُشغّل الراديو، الخلاط يشتغل متى شاء، تفتح باب الحمّام، فتجد نفسكَ في المطبخ، تبحث عن الباب، لكي تخرجَ، فلا تجده. من السهل أن يختفي الباب، وهكذا فإنه يختفي، وتبقى أنت هناك، في الداخل، وإلى الأبد. تقترب شيتزي من التلفاز،

تكاد تلمسه. إن أنتَ لم تستطع الخروجَ من ذلك البيت، قالت شيتزي، فعليكَ، إذنْ، أن تبتكرَ طريقة ما للعيش هناك. وهذا تمامًا ما يقوم به المجانين. لا يسعنا فَهْم شيء من الخارج، أما بالنسبة لهم، فإن الأشياء منطقية. قالت إن المجنون أشبه بشخص، إذا ما أراد أن يغسلَ شَعره، فإنه يولجُ رأسَهُ في الفرن.

- يبدو أمرًا مسلّيًا جدًّا - قال غولد.

- كلا. لا أظنّ أنه مُسلّ إلى هذا الحدّ.

ثمّ قالت: أظنّ أن التلفاز من الخشب الحقيقي.

كان غولد جالسًا على الأرضية الخشبية، والتي يبلغ ارتفاعها أربعة سنتيمترات. لا يزال ينظر صوب التلفاز. قالت شيتزي: كانت لدينا طاولة بلاستيكية خضراء اللون، ولكنْ، إذا ما اقتربتَ منها، ودقّقتَ النَّظَر، فستكتشف أنها مصنوعة من الخشب. لا معنى لذلك، سوى أنه في ذلك الوقت، كان قد انتشر الهَوَس بالأشياء البلاستيكية، كل شيء يجب أن يكونَ من البلاستك. حينها قال غولد إن أمّه أُصيبَت بالجنون. لقد حصل ذلك ذات يوم. أما الآن، فهي في مشفى الأمراض العقلية. كانت شيتزي صامتة، لكنها انحنت على التلفاز، حيث كان ثمّة رضّ، أو شيء من ذلك، وأزالت شيئًا ما بظفرها، شيئًا صلبًا أسود اللون. ثمّ قالت لا بد أن التلفاز سَقَطَ من بوميرينغ، لذلك فمن الطبيعي ألا يعملَ. التلفاز الذي يسقط هو تلفاز لا فائدة منه.

- جاؤوا ذات يوم، أخذوها من البيت، ولم أرها بعد ذلك أبدًا. لا يرغب أبي في أن أراها على تلك الحالة. يقول إنه يجب ألا أراها هكذا.

- غولد ...

- نعم.

- غادرت أمّكَ البيت، قبل أربع سنين، وذهبت للعيش مع أستاذ، يدرس الأسماك.

ضغط غولد على بعض أزرار جهاز التّحكّم، ولكن شيئًا لم يحدث. توجّهت شيتزي إلى المطبخ، ثمّ عادت ومعها علبة عصير ليمون هندي، وضعتْه على حافة الأريكة، وكانت أريكة زرقاء اللون، تقريبًا أمام التلفاز. بينما كان غولد يحكّ ساقه بجهاز التّحكّم، فوق الكاحل مباشرة. أكثر الأشياء التي تضايق فِعْلاً هي الجوارب الضيّقة. غولد يستمرّ في حَكّ ساقه بجاز التّحكّم، بينما تناولت شيتزي علبة العصير، وألقت نظرة من حولها، ثمّ وضعتْها على الطاولة، قرب أصيص زهور البتونيا. كانت تبدو كأنها هناك من أجل العمل على تأثيث المكان. يصل مسامعهما من المطبخ أزيز الثلاجة واهتزازها، كأنها سكّير يتطوّح. عندها قال غولد إنهم أخذوها ذات صباح، وقد سمع جلبة حينها، لكنه استمرّ في النوم، وحينما استيقظ وجد والده هناك، يجول في الصالة ذهابًا وإيابًا، يرتدي ملابس مَدَنية وربطة عنق، متراخية عند الياقة قليلاً. قال غولد إنه ذَهَبَ ذات يوم للبحث عن ذلك المشفى، لكنه لم يعثرْ عليه، لأن لا أحد يعرف عنه شيئًا، ولم يلتقِ بشخص، يدلّه عليه. فكّر أول الأمر في أن يراسلَها كل يوم، لكن والده قال له إنها يجب أن تنعمَ بالسكينة، وأن تتجنّب الأشياء التي تُثيرها، فتساءل غولد فيما إذا كانت قراءة الرسالة تُثيرها، فتوصّل إلى أن الأمر كذلك. وهكذا لم يكتب الرسائل. قال إنه تقصّى عن الأمر، وقيل له إن مَنْ يدخل المشفى قد يخرج منه ذات يوم، لكنه لم يجرؤ أن يسأل

والده إذا ما كانت أمّه ستخرج منه. كان أبوه لا يحبّ الحديث عن تلك القضية، والآن - بعد أن مرّت سنون طويلة - فهو لا يذكرها، ونادرًا ما يقول له إن أمّه بخير، لكنه لا يضيف أية تفاصيل أخرى. قال غولد إن الأمر قد يبدو غريبًا، ولكنه كلّما تذكّر أمّه، فإنه يتذكّرها ضاحكة دائمًا، يمرّ بذهنه شيء أشبه بالصور، وهي فيها ضاحكة على الدوام، رغم أنها - حسب ما يذكر - لم تكنْ تضحك دومًا، ولكنْ، كان هذا ما يحدث له، كلّما فكّر في أمّه، فإنها تُقبل عليه ضاحكة. ثمّ قال إن ثيابها كلها ما تزال في خزانة الملابس، وإنها كانت تجيد تقليد أصوات المطربين، كانت تجيد تقليد صوت مارلين مونرو، وكأنها هي.

- مارلين مونرو؟

- أجل.

- مارلين مونرو.

جعلت شيتزي تردّد بصوت خفيض: مارلين مونرو، مارلين مونرو، مارلين مونرو، ولم تكفّ عن ترديدها، ثمّ تناولت علبة العصير، وأفرغتْها في أصيص أزهار البتونيا، مارلين مونرو، مارلين مونرو، حتّى آخر قطرة، ثمّ وضعتْها مجدّدًا على الطاولة، وردّدت: مارلين مونرو مرّات عديدة، وهي تتنقل بين المطبخ والصالة، تبحث عن المفاتيح، تُقفل البابَ الخارجيّ، ثمّ تتّجه نحو السّلّم. تخلع حذاءها، وترفع ربطة الشّعر، تضعها في جيبها، وتترك الحذاء في مكانه.

- سأخلد إلى النوم، يا غولد.

- ...

- أنا آسفة.

- ...

- آسفة، يجب أن أذهبَ إلى النوم.

يبقى غولد جالسًا ينظر إلى التلفاز. خَطَرَ في ذهنه أن يقول لبوميرينغ أن يعيدَه إلى صاحبه. كان لدى الياباني راديو جميل، وقديم، بوسعه أن يأخذه بدلًا عنه. كان مكتوبًا على واجهة الراديو أسماء المُدُن كلها، وحينما تُدير المفتاح يتنقل المؤشّر البرتقالي، ويجول في أنحاء العالم. خَطَرَ بذهنه أن هناك أشياء، ليس بوسعكَ أن تقوم بها وأنتَ تملك تلفاز.

ثمّ لم يفكِّرْ في شيء بعد ذلك.

نَهَضَ، أطفأ الأضواء، وصعد إلى الطابق العلوي، دخل الحمّام، سار في الظلام حتّى المرحاض، رَفَعَ الغطاء، وجلس، دون حتّى أن ينزعَ بنطلونه.

- لقد تعثّرتُ فقط.

- لا تتفوّه بالتفاهات.

- قلتُ لكَ إنّي تعثّرت فقط.

- اصمتْ، يا ليري، وتنفَّسْ بقوّة.

- ما هذه المادّة اللعينة؟

- لا تتصرف بحماقة، وتنفَّسْ بقوّة.

- لا حاجة لي بهذه المادّة، لقد تعثَّرتُ فقط، اللعنة.

- حسنًا، لقد تعثّرتَ. والآن، اسمعني جيّدًا. انظر أمامكَ حينما تنهض، إذا رأيتَ اثنَيْنِ أو ثلاثة ملاكمين سودًا، فانتظر، حاول أن تُبعدَهم عنكَ بالضربات المستقيمة، ولكنْ، لا تضربْ بعنف، ستخطئ الهدفَ الأصلي، يجب عليكَ أن تنتظرَ فقط، أفهمتَ؟ حاولْ فقط أن تُبعدَهم عنكَ، وحينما يكون بمقدوركَ أن تحتضنه، فافعلْ، وتنفَّسْ. لا تضربْ بعنف إلا حينما تبدأ برؤية ملاكم واحد فقط، فهمتَ؟

- أنا أرى جيّدًا.

- انظرْ إليّ.

- أرى جيّدًا.

- دعْ عنكَ اللكمات واستخدمْ دماغَكَ، حتّى تفيقَ تمامًا.

- أتريد منّي أن أطرحَه أرضًا بنطحةٍ من رأسي؟

- ليس هذا وقت مزاح، يا ليري، لقد طرحَكَ أرضًا هذا الملاكمُ.

- ما هذا الذي تقولُه! كيف لي أن أقنعَكَ بأني تعثّرتُ؟ لعلّكَ لم ترَ جيّدًا. أتعرف، أظنّ أن عليكَ الذهاب إلى الطبيب، لأنكَ لا ترى ما ...

- كُفَّ عن ذلك، يا للحظّ اللعين.

- إنكَ أنتَ مَنْ ...

- كفى.

- ...

- لقد جعلتَني أسبّ، يا لل...

جرس بداية الجولة.

- يجب ألا نخسرَ هذا اللقاء، يا ليري.

- بل سنربحه، يا معلّم.

- اذهبْ إلى الجحيم، ليري.

- وأنتَ كذلك.

هناك توتّر كبير، في انثوني فيلد، حيث سَقَطَ ليري غورمان في الجولة السابقة، وكانت الثالثة، وانطلق العَدُّ التنازلي، بعد لكمة قاسية وسريعة من راندولف، لنرَ الآن إذا ما كان قد استعادَ قواه، إنه أمر جديد عليه، إنها المرّة الأولى التي يسقط فيها أرضًا، طوال مسيرته الرياضية، كانت لكمة قوية وخاطفة من راندولف قد فاجأتْه، والآن تبدأ الجولة الرابعة، يهجم راندولف بعنف، راندولف .. راندولف، يلوذ ليري غورمان بالحبال، يبدو أنها بداية سيّئة لتلميذ مونديني، راندولف في ثورة عنيفة، لكمة صاعدة، ثمّ أخرى، غورمان في وضعية الدفاع، يقفز نحو اليسار، يتنفّس، راندولف يهجم مرّةً أخرى، ليست لكمات منتظمة، ولكنْ، يبدو أنها فعّالة، تُجبر غورمان على التراجع، لا يزال خفيف الحركة، مستقيمة من راندولف تصيب الخصم، مستقيمة أخرى، ثمّ يمنى جانبية، غورمان يتطوّح، مستقيمة من راندولف لا تصيب الهدف، غورمان يتمايل، يلاحقه راندولف، يلوذ غورمان بالحبال مرّة أخرى، ينهض الجمهور متحمّسًا ...

ينهض غولد من المرحاض، يسحب السيفون مع أنه لم يتبوّل حتّى،

يدركُ أنها حماقة. يدنو من المغسلة، يُشغِّل الإنارة. يتناول معجون الأسنان، يُنظّفُ أسنانَه. كان معجون الأسنان بطَعْم العلكة، ويحتوي على حبيبات، كأنها قِطَع علكة. يصنعونه هكذا، لأن الأطفال يحبّون هذه الأشياء، لذا ينظّفون أسنانهم دون مشاكسة. وقد كُتب بوضوح على العلبة: للأطفال. تشعر بعد الاستخدام، وكأنكَ مضغتَ علكة طوال محاضرة فيزياء كاملة، ولكن أسنانكَ نظيفة، ولا يتحتّم عليكَ أن تُلصقَ العلكة تحت منضدة المقعد. شطف فمه بالماء البارد، وبَصَقَ مباشرة في ثقب المغسلة. نشّف وجهه، وهو ينظر في المرآة، ثمّ عاد مجدّدًا إلى المرحاض، يفتح الزمام المنزلق.

- يا إلهي، لقد كانوا ثلاثة، يا معلّم.

- حقًّا؟

- لا يمكن أن تلاكمَ ضدّ ثلاثة أشخاص.

- بالطبع.

- قد يكون بوسعكَ أن تلاكمَ ضدّ اثنَيْن، ولكنْ، ضدّ ثلاثة غير ممكن. وهكذا خَطرَ في ذهني أن أصرعَ أحدَهُم.

- فكرة جيّدة.

- أتعرف ما الغريب في الأمر؟ حينما سَقَطَ الأول أرضًا، اختفى الآخران. مضحكٌ، أليس كذلك؟

- مضحكٌ جدًّا.

- لكمة يمينية، وأخرى يسارية، ثمّ يمينية، واختفوا جميعهم.

- هلا أخبرتَني، يا ليري، كيف اخترتَ خصمَكَ بينهم؟

- لقد اخترتَ الحقيقيّ بينهم.

- وهل كان منقوشًا على جبهته أنه كذلك؟

- بل لأنه كان أنتنَهم رائحة.

- آه!

- لا شك في ذلك. لقد قلتَ لي: استخدمْ دماغَكَ.

- كم كنتَ محظوظًا، يا ليري!

- يمينية، يسارية، يمينية: أرأيتَ من قبل توليفة سريعة بهذا الشكل؟

- لم أرَها من أحد، كاد أن يُهزَم.

- اعترفْ، إذنْ، كُفَّ عن الغمغمة، واعترفْ بذلك.

- لم أرَ - من قبل - شخصًا، كاد أن يهزم، يقوم بشيء كهذا.

- لقد قالها، يا إلهي، لقد قالها، أين المايكروفونات، في اللحظة التي أحتاجها تختفي؟ أين هي؟ لقد قالها، سمعتُ ذلك بإذني، قالها، قالها، أليس كذلك؟

- كم كنتَ محظوظًا، يا ليري!

خرير ماء.

أظنّني سرقتُ هذه الجملة. كل شيء يسير بشكل سيّئ هذا المساء، قال غولد في نفسه. سحب الزمام المنزلق، أطفأ الإنارة، وذهب إلى النوم.

مرّ الوقت. مرّ جزء من الليل.

وفي لحظة ما استيقظ، كانت شيتزي جالسة على الأرض، قرب سريره. ترتدي بيجامة النوم وجاكيتًا أحمر، وبين أسنانها مؤخّرة قلم أزرق.

- مرحبًا، شيتزي.

- مرحبًا.

يدخل من الباب الموارب بعض الضوء، من الممرّ. أغمض غولد عينَيْه.

- لقد خَطَرَ شيء في ذهني - قالت شيتزي.

- ....

- أتسمعني؟

- نعم.

- خَطَرَ شيء في ذهني.

صَمَتَتْ قليلاً، ربّما كانت تبحث عن الكلمات المناسبة. كانت تلوك بالقلم، ويصدر عنه طقطقة البلاستك. ثمّ جعلت تتحدّث.

- هذا ما خَطَرَ في ذهني. هل تعرف ما هي مقطورة السفر؟ تلك التي تسحبها بالسّيّارة، مقطورة السفر، هل تعرفها؟

- أجل.

- لطالما بعثتْ فيَّ حزنًا عميقًا، لا أعرف لماذا، ولكنْ، كلّما اجتاز إحداها وأنا في السّيّارة، يعتريني حزن عميق، إنها تسير دائمًا ببطء، ربّ العائلة يقود السّيّارة، ينظر إلى الأمام، والجميع يجتازه، بينما هو يجرّ مقطورة السفر، وتبدو سيّارته منخفضة من الخلف، كأنها مَحنية، كعجوز تحمل أكياس تسوّق كبيرة الحجم، تسير مَحنية الظهر، تسير ببطء، ويجتازها الجميع. إنه أمر يبعث على الحزن. في الوقت ذاته، ليس بإمكانكَ أن تتحاشى النَّظَر إليها، أعني بينما أنتَ تجتازها، فإنكَ لا بد ستلقي نظرة، لا تستطيع ألا تنظر إليها، حتّى وأنتَ تعرف أنها تثير الحزن فيكَ، وكأنكَ أقسمتَ على وجوب النَّظَر إليها، كل مرّة. وإذا ما تأمّلتَ المسألة، فإنكَ ستجد شيئًا ما يجذبُكَ إليها، أعني المقطورة، وإذا ما دقّقتَ التفكير، فإنكَ ستكتشف، في أعماقكَ، أن هناك حقًّا شيئًا ما يجذبكَ، شيئًا ما يختبئ في أعماقكَ، وكأنه بهذه الطريقة يمنح نفسه قيمة أكبر، شيئًا ما إذا أزلتَ عنه النقاب، فستشعر بالنشوة حقًّا. أتفهم؟

- تقريبًا.

- منذ سنين، وأنا أفكّر في الأمر.

جَذَبَ غولد الغطاء، ليغطّي نفسه، كان في الجوّ شيء من البرد، بينما غطّت شيتزي قَدَمَيْها الحافيَتَيْن بطرف الكنزة.

- أتعرف، الشيء نفسه ينطبق على المحار أيضًا. كم أودّ أن آكلَها، دائمًا ما تُدهشني رؤية الآخرين وهم يأكلونها، سوى أنها تُثير اشمئزازي، لم أستطع تجاوزَ الأمر، إنها تمثّل أمامي كالبلغم، ألاحظتَ ذلك؟

- نعم.

- كيف لكَ أن تأكلَها، إذا كانت تتمثّل أمامكَ كالبلغم؟

- لا تستطيعين أكلَها.

- بالضبط، ليس بوسعكَ فِعْل ذلك. الشيء نفسه يحصل أيضًا بالنسبة لمقطورة السفر.

- تتمثّل أمامكَ كالبلغم؟

- ما الذي تقوله، لا تتمثّل أمامي كالبلغم، ولكنها تبعث فيَّ الحزن، أتفهم؟ لم أستطع استيعاب الأمر، لم أتمكّن من إيجاد سبب ما يجعلني أقول: يا إلهي، كم هو جميل أن أملكَ مقطورة السفر!

- فهمتُ.

- فكّرتُ في المسألة لسنين طويلة، لكني لم أجدْ سببًا مقنعًا لقول ذلك.

صمت.

- أتعرف، يا غولد؟

- كلا.

- لقد وجدتُه البارحة.

- وجدتُ سببًا مقنعًا؟

- نعم، وجدتُ سببًا مقنعًا.

فتح غولد عينَيْه.

- أحقًّا ما تقولين؟

- أجل.

استدارت شيتزي نحو غولد، أسندتْ مرفَقَيْها إلى السرير، وانحنتْ عليه تحدّق في عينَيْه، على مسافة قريبة، ثمّ قالت:

- ديزل.

- ديزل؟

- أجل، ديزل.

- كيف؟

- أتذكر القصّة التي أخبرتَني بها؟ إن ديزل يريد أن يسافرَ ليجوب بلدان العالم، لكنْ، لا أحدَ يسمح له بالصعود إلى القطارات، أو إلى الحافلات، لا يسمحون له بالصعود، ولا تسعه سيّارة، القصّة التي أخبرتَني بها. أنتَ مَنْ أخبرني بهذا كله.

- أجل.

- مقطورة السفر، يا غولد، مقطورة السفر.

- رَفَعَ غولد نصف جسده على السرير.

- ماذا تعنين، يا شيتزي؟

- أعني أن بوسعنا أن نسافرَ ونجولَ في بلدان العالم، يا غولد.

تبسّم غولد.

- لا بد أنكِ مجنونة.

- كلا، أنا لستُ مجنونة، يا غولد.

- عاد غولد تحت الغطاء، لاذ بالصمت، وجعل يفكّر لبعض الوقت.

- أتظنين أن مقطورة السفر ستسع ديزل؟

- أضمن لكَ ذلك. بوسعه الجلوس فيها، بل وحتّى الاستلقاء، وهكذا سنذهب به حول العالم. سيكون له بيت، وبوسعه أن يذهبَ حيث شاء.

- أظنّ أن الأمر سيعجبه كثيرًا.

- أنا متأكّدة أنه سيعجبه كثيرًا.

- أظنّ أن الفكرة ستعجبه.

كان في الجوّ شيء من البرد، يدخل بعض الضوء من الباب، ولا شيء آخر. بين فينة وأخرى تمرّ سيّارة في الشارع. كان بوسعكَ أن تسمعَ ضجيجها، وأن تتساءل: أين عساها تذهب في مثل هذا الوقت؟ بوسعكَ أن تحوكَ قصصًا كثيرة حول هذا السؤال. نظرتْ شيتزي إلى غولد.

- سيكون لنا بيتٌ، وبوسعنا أن نذهبَ حيث نشاء.

أغمض غولد عينَيْه. جعل يفكّر في مقطورة سفر، كان قد رآها في أفلام الرسوم المتحرّكة، وكانت تسير بجنون نازلة من طريق مرتفعة محفوفة بالأودية، تسير بسرعة جنونية، وتنزلق يمينًا وشمالًا، يبدو أنها ستسقط في كل مرّة، لكنها لا تسقط أبدًا، في حين كان مَنْ في داخلها يأكلون وكأنهم في بيوتهم، وكانت المقطورة صغيرة، لكنها تسعهم كلهم، وتبدو ككَفٍّ

يقبض على حيوانٍ صغير، دون أن يسحقَه، ويجوله به في كل مكان. لقد نسوا حتّى أن يضعوا سائقًا للسّيّارة، وهكذا فقد كان الجميع يأكل، وكان يبدو عليهم شيء أشبه ما يكون بالسعادة، ولكنه كان أكثر من ذلك، كأنه سعادة حمقاء رائعة. فتح غولد عينَيْه.

- مَنْ سيسوق السّيّارة؟

- أنا.

- ومَنْ سيشتري مقطورة السفر.

- أنا.

- أنتِ؟

- بالتأكيد أنا، لديّ المال.

- الكثير؟

- بعض المال.

- لا بد أن المقطورة تُكلّف الكثير.

- لعلّكَ تمزح؟ أظنّهم سيدفعون لكَ النقود، إن اشتريتَ مقطورة سفر.

- لا أحسبهم على هذا الرأي.

- يجب أن يكونَ هكذا.

- لا أظنّهم يفعلون ذلك.

- حسنًا، سندفع لهم النقود، إذنْ.

- أنا أيضًا لديّ بعض المال.

- أرأيتَ، ليس المال مشكلة.

- لا بد أن هناك واحدة تُكلّف أقلّ من بقية المقطورات.

- هذا مؤكّد. أتظنّ أن في هذا البلد اللعين كله ليس هناك مقطورة تُكلّف مقدار النقود التي بحوزتنا؟

- كان سيبدو أمرًا غاية في الحماقة.

- وغير معقول.

- تمامًا.

كانت تلوح في عيونهما طُرُق لا تُحصى.

- لنذهب للتجوال حول العالم، يا غولد، كفانا مضيعة للوقت.

قالت ذلك بنبرة بهيجة، ثمّ نَهَضَتْ. كانت الكنزة قد التفَّتْ على قَدَمَيْها، تحرّرتْ منها، ثمّ بقيتْ واقفة هناك، قرب سرير غولد. كان غولد ينظر إليها، فقامتْ هي، وانحنتْ عليه، دَنَتْ منه ببطء، ولامستْ شَفَتَاهَا شَفَتَيْه، ثمّ أبعدتْهما قليلاً، وبقيتْ تنظر إليه من قرب. فسحب غولد إحدى يَدَيْه من تحت الغطاء، غمسها في شعر شيتزي، ثمّ رَفَعَ جسده قليلاً، وقبّلها على زاوية فمها، ثمّ على شَفَتَيْها مباشرة، ولكنْ، برفق، ثمّ أغمض عينَيْه، وقبّلها بقوّة.

-١٧-

في شهر أيلول عام ١٩٨٨، بعد ثمانية أشهر من موت مامي جين، قرّرت دار النشر CRB أن تُوقِفَ إصدار مغامرات بالّون ماك، البطل الخارق وطبيب الأسنان. انخفض معدّل البيع بشكل مدهش، ولم يُفلح الأمر حتّى حينما أضافوا شخصية أنثوية، دائمًا ما يكون صدرها شبه عار. يسافر بالّون ماك في العدد الأخير إلى كوكبٍ بعيد، وهو يَعِدُ نفسَه والقرّاءَ أنه سيعود "ذات يوم في مستقبل مشرق". "آمين" علّق، وعلى وجهه الرضا فرانس فورته، المدير المالي للدار. اشترى ديزل وبوميرينغ مئة وإحدى عشرة نسخة من العدد الأخير. ورغم رداءة الورق، فقد استخدموه - ولأشهر طويلة - في تنظيف مؤخّرَتَيْهما، وبتفان تامّ، كلّما استدعى الأمر ذلك. ثمّ يطويان الورقة، بعد استخدامها، ويرسلانها إلى فرانس فورته، المدير المالي للدار. وكانا يستخدمان ظروف رسائل، تعود لمكتب عام، أو فندق ما، أو ناد رياضيّ، لذلك فقد كان من الصعب على سكرتارية المدير أن تتعرّف على هوية المُرسِل، وهكذا تصل الرسائل، دائمًا، إلى مكتب المدير، والذي صار يفتح البريد، يوميًا، بحذر شديد.

بلغ غولد الرابعة عشر من العمر، فدعت شيتزي الجميعَ على حسابها إلى مطعم صينيّ. كانت هناك عائلة على طاولة قريبة منهم: أب وأمّ وطفلة صغيرة. كانت اسم الطفلة ميلانيا. وكان الأب عازمًا على تعليمها استخدام أعواد الأكل، وكان في صوته خنّة.

- أَمْسِكِي العود، بيدِكِ ... هكذا ... أَمْسِكِي واحدًا فقط، يا عزيزتي، أَمْسِكِيْهِ جيّدًا، أرأيتِ؟ اضغطي عليه هكذا، بين الإبهام والأوسط، ليس هكذا، انظري ... ميلانيا، انظري، يا بنيّتي، يجب أن تُمسكيه هكذا، جيّد، والآن اضغطيه قليلاً، لا، ليس بهذه القوّة، يجب أن تُمسكيه وحسب ... ميلانيا، انظري، يا ابنتي، بين الإبهام والأوسط، أترين؟ هكذا، لا، يا عزيزتي، أين الأوسطُ، يا ميلانيا؟ أهذا هو الأصبع الأوسط، يا حبيبتي ...

- لم لا تتركها وشأنها؟ - قالت الزوجة. تكلّمتْ دون أن ترفعَ رأسها عن طبق حساء أذن البحر وفول الصويا. كان شعرُها أحمر، وترتدي قميصًا أصفر. استمرّ الزوج في إرشاد طفلته، وكأن أحدًا لم يتكلّم.

- انظري، يا ميلانيا، انظري إلى بابا، اجلسي جيّدًا، وأَمْسِكِي العودَ، هيّا، هكذا ... أحسنتِ، أرأيتِ كم هو سهل؟! هناك الملايين من الأطفال في الصين، يستخدمونها، أتظنّين أنهم يعانون هذه التعقيدات كله ... والآن أَمْسِكِي العودَ الآخر، ميلانيا، اجلسي جيّدًا، هيّا، انظري كيف يستخدمها بابا، العود الأول، ثمّ الآخر، هيّا، أَمْسِكِيْهَا بيدكِ ...

- ألا تتركها وشأنها.

- أنا أُعلِّمها ...

- ألا ترى أنها جائعة؟

- ستأكل حينما تتعلّم استخدامَ الأعواد.

- سيبرد الطعام قبل أن تتعلّمَ استخدامها.

- يا إلهي، أنا أبوها، ألا أستطيع أن ...

- لا ترفع صوتكَ.

- أنا أبوها، ومن حقّي أن أعلِّمَها بعض الأشياء، بما أن أمّها منشغلة بأشياء أخرى عن تعليم ابنتها الوحيدة ...

- كُلي بالشوكة، يا ميلانيا.

- لن أسمحَ بهذا مطلقًا. ميلانيا، حبيبتي، اسمعي كلام بابا، سنُري أمّكِ الآن كيف بإمكانكِ أن تأكلي كطفلة صينية عذبة...

تبدأ ميلانيا بالبكاء.

- لقد أبكَيتَها.

- لم أُبكِهَا أنا.

- ألا تراها؟ إنها تبكي.

- لا داعي للبكاء، يا ميلانيا، أنتِ طفلة ناضجة، يجب ألا تبكي، أَمْسِكِي هذا العودَ، هيّا، هات يدكِ الجميلة، هاتِها، جيّد، أحسنتِ، أَمْسِكِيها برفق، ميلانيا، ألا ترين؟ الجميع ينظر إلينا، كفّي عن البكاء، وأَمْسِكِي بهذا العودِ اللعين ...

- لا تتلفّظْ بكلمات بذيئة.

- لم أتلفّظْ بكلمات بذيئة.

ميلانيا تبكي بصوت عالٍ.

- ميلانيا، ميلانيا، ستنالين صفعة، تعرفين أن بابا صبور، ولكنْ، لصبره

حدود، ميلانيا، أَمْسِكِي العودَ، وإلا فسنغادر المكان، ونعود إلى البيت، وأنتَ تعرفين أنني لا أمزح، هيّا، أَمْسِكِي الأول، ثمّ الثاني، بين الإبهام والسّبّابة، أقصد الأوسط، اضغطيه الآن، أحسنتِ، يا حبيبتي، أرأيتِ كم أنتِ شاطرة؟ والآن خذي العود الآخر، خذيه باليد الأخرى، اللعنة، خذيه باليد الأخرى، ثمّ ناوليه لهذه، أفهمتِ؟ ليس الأمر صعبًا، كفّي عن البكاء، لماذا تبكين؟ أتريدين أن تكبري أم لا؟ أتريدين أن تبقي طفلة صغيرة وحمقاء؟...

نَهَضَ ديزل عندئذٍ، ولم يكنْ من السهل عليه النهوض، ولكنه نَهَضَ. دنا من طاولة تلك العائلة، أخذ العودَيْن من الطفلة، وفتَّتَهُما بيَدَيْه فوق طبق البطّ البيكيني بين يَدَي الأب.

توقّفت ميلانيا عن البكاء. رانَ في المطعم صمتٌ، تخلّلتْه رائحة المَقلي والصويا. تكلّم ديزل بصوت خفيض، ولكنْ، وَصَلَ صوته حتّى إلى مَنْ كان في المطبخ، طَرَحَ سؤالًا واحدًا فقط:

- لماذا تُنجبون؟ - سأل - لماذا؟

كان الأب ينظر أمامه دون أن ينبسَ ببنت شفة، أو يجرؤ على الالتفات. في حين كانت الملعقة بيد زوجته معلّقة في الهواء، في طريقها بين فمها والصحن. كانت تنظر إلى ديزل بذهول، تبدو كَمَنْ شارك في مسابقة أسئلة، وكان يعرف الجواب سوى أنه طار من ذهنه.

انحنى ديزل على الطفلة، وحدّق في وجهها.

- أيتها الطفلة الصينية العذبة - قال لها - كُلي بالشوكة، وإلا سَفَكْتُ دَمَكِ.

ثمّ استدار، وعاد إلى طاولته.

- هلاّ مرّرتِ لي الأرزّ الغوانزوي؟ - "لم" يقل بوميرينغ.

كان تلك، بطريقة أو بأخرى، حفلةَ عيد ميلاد لطيفة.

في شباط من العام ١٩٨٩ نشر مجموعة علماء من جامعة فانكوفر بحثًا في المجلّة القيمة "Science and Progress"، ويتكوّن من اثنَتَيْن وتسعين صفحة، يتناولون فيه نظرية جديدة عن ديناميكية تزاوج الجسيمات. كُتّاب البحث - ستّة عشر عالم فيزياء من خمسة بلدان مختلفة - أوضحوا، أمام كاميرات التلفاز، أن هذا الاكتشاف سيفتح آفاقًا جديدة أمام العلم، وأعلنوا أن بحوثهم ستساعد، في العشرة أعوام المقبلة، على إنتاج الطاقة بتكاليف دنيا، وضرر بيئي ضئيل. بعد ثلاثة أسابيع فقط، صدر مقال من صفحتَيْن ونصف، في "National Scientific Bulletin" يُثبت أن العملية الرياضية التي استند إليها باحثو فانكوفر في بحثهم، إذا ما خضعت للتمحيص، فإنها ستبدو غير دقيقة، وغير قابلة للتطبيق. تبدو، إلى حدّ ما، "نظرية طفولية"، هذا تمامًا ما قاله كاتبا المقال. وكان اسم الأول موندريان كيلوري، أما الثاني، فاسمه غولد.

ليس من عادتهما العمل معًا، وقد جاء هذا المقال بالصدفة. بدأ الأمر في صالة الطعام. انتهيا من تناوُل الطعام، وكانا يجلسان قبالة بعض، فجأةً قال الأستاذ موندريان كيلوري، بعد أن بَصَقَ البطاطس المهروسة:

- ما هذا؟ أصدر حقًّا عن جامعة فانكوفر؟

وكان غولد قد قرأ الاثنَتَيْن وتسعين صفحة على مجلّة " Science and Progres". وكان يظنّ أن البطاطس المهروسة لم تكن سيّئة الطعم، ولكن

شيئًا ما لا يُقنعه في المقال. أعطى حصّته من السبانخ للأستاذ موندريان كيلوري، وقال إنه يعتقد أن الخطأ يكمن في الصفحة الثانية عشرة. تبسّم الأستاذ. ترك السبانخ، وتناول منديلَ المائدة الذي بَصَقَ فيه البطاطس المهروسة، وملأه بالمعادلات الرياضية. استغرقا اثنَي عشر يومًا لإنهاء المقال، في اليوم الثالث عشر، أعادا نسخَ المقال بصورة جيّدة، وأرسلاه إلى المجلّة. وكان موندريان كيلوري يودّ أن يُعنونَه "اعتراضات على بطاطس فانكفور المهروسة"، لكن غولد أقنعَهُ بضرورة إيجاد عنوان أفضل من هذا. وحينما علمتْ وسائلُ الإعلام أن أحدَ كتّاب المقال لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر، جُنّ جنونها. وهكذا فقد أُجبر غولد والأستاذ موندريان كيلوري أن يعقدا لقاءً صُحُفيًّا، حضره ١٣٤ صُحُفيًّا من أنحاء العالم جميعه.

- كثيرون جدًّا - قال الأستاذ موندريان كيلوري.

- كثيرون حقًّا - قال غولد.

قالا ذلك، بينما كانا ينتظران في الممرّ، ثمّ استدارا، وخرجا من جهة المطبخ، وذهبا لصيد السمك في بحيرة أباليما. أعلن رئيس الجامعة أن غيابَهما غير مقبول تمامًا، لذلك يجب أن يُعلّق نشاطهما.

- أيّ نشاط بالضبط سيُعلّق؟ - سأل الاستاذ موندريان كيلوري. ولأن لا أحد يدري بالضبط أي نشاط سيُعلَّق، فقد عُلِّق قرار تعليق نشاطهما.

أدركت شيتزي، في الوقت نفسه تقريبًا، أن شراء مقطورة السفر يستوجب امتلاك سيّارة. "أنتِ محقّة" قال غولد، مستغربًا كيف أنهما لم يفكّرا في الأمر مسبقًا. قالت شيتزي إنه ربّما عليهما أن يُحدِّثا والده في الأمر. إنه رجل، والرجال غالبًا ما تكون لديهم سيّارة. "لعلّكِ محقّة" قال

غولد. ثمّ أضاف أنه من الأفضل عدم التّطرّق للأمر مع والده. "بل يجب أن نطلب منه ذلك" قالت شيتزي.

- مرحبًا.

- الآنسة شيتزي؟

- نعم، تفضّل.

- أكلّ شيء على ما يرام؟

- نعم. ولكنْ، لدينا مشكلة صغيرة.

- ما المشكلة؟

- نحتاج إلى سيّارتكَ.

- سيّارتي؟

- أجل.

- عن أيّ سيّارة تتحدّثين؟

- عن سيّارتكَ.

- أتقصدين أني أملكُ سيّارة؟

- يبدو لي أمرًا لا ريبَ فيه.

- أظنّكِ مخطئة، يا آنسة.

- يا للدهشة!

- لماذا، ألم تُخطئي من قبل؟

- ليس هذا ما عنيتُه.

- ماذا تعنين، إذنْ؟

- أقصد أنكَ رجل، وليس لديكَ سيّارة، ألا يبدو لكَ مدهشًا؟

- لا أظنّ ذلك.

- إنه مدهش فِعْلًا، صدِّقني.

- ألا تنفعكِ الدبّابة؟ لديّ الكثير من الدبّابات.

- كلا، أخشى أنها لا تجدي نفعًا.

- كنتُ أمزح.

- آه.

- آنسة شيتزي؟

- نعم.

- هلا أخبرتِني ما المشكلة، بالضبط؟

خَطَرَ في ذهن شيتزي المقاتل العجوز بيرد. يا له من آلة غريبة هذا العقل! إنه يعمل كيفما يشاء.

- ما المشكلة بالضبط، يا آنسة شيتزي؟

- أو لعلّه شيء من التعب، التعب الذي يعتريكَ. يشبه الموسيقى التي يرقص على ألحانها بيرد، المقاتل العجوز.

- آنسة شيتزي، لقد سألتُكِ ما المشكلة، هلا أجبتِني من فضلكِ؟

بيرد.

ترتسم على وجهه الطرق، تلك الطرق التي تحدث فيها الكثير من المناوشات، تقول شيتزي. تبدو عيناه وقد ابتلعهما المحجران، بشرة يَدَيْه بلون الزيتون، يداه خفيفتا الحركة، كأغصان شتاء متعبة. يُبلّل المشط في الصباح، يمشّط شعره الأبيض، الخفيف، إلى الخلف. يخرج صوته من رئَتَيْن مليئَتَيْن بالتبغ، وهو يقول:

- يا للرياح اليوم!

لا شيء أسوأ من البقاء على قيد الحياة، بالنسبة للمقاتل. ينظر من حوله، كل وجه غريب يراه يتوقّع أنه الشخص الذي جاء من مكان بعيد، ليقتلَ كلاي "بيرد" بولر. إذا أردتَ أن تعرف متى يصبح الإنسان أسطورة، فاعلمْ، إذنْ، أن ذلك يكون حينما يجد أحدهم نفسه وهو يقاتل أحدًا ما قد يكون خلفه أو في أي مكان. ما داموا يأتون من الأمام، فهو ليس سوى مقاتل. ليس المجد سوى مسار من الخراء، يتركه أحدهم خلف ظهره. عجِّلْ، أيها اللعين، قال دون أن يلتفتَ. كان الولد يرتدي قبّعة سوداء، وفي جيبه بعض الأشياء التي تشير إلى بقايا حقد دفين، ووعد بالانتقام. لقد تأخّرتَ، أيها الحقير.

ترتسم الطرق على وجهي، في هذا العمر الحقير، حيث أتبوّل على نفسي ليلاً، والألم اللعين تحت الحزام، كأنه حجر ناري بين بطني ومؤخّرتي، وذلك اليوم لا يُقبِل، وحينما يُقبِل، فكأن الوقت صحراء قاحلة علي اجتيازها، كيف وَصلْتُ ها هنا؟

كان بيرد بارعًا في إطلاق النار. يضع المسدّسَيْن بشكل معكوس، فيكون أخمص المسدّس بارزًا إلى الأمام. يشبك ذراعَيْه، ويسحب المسدّسَيْن، المسدّس الأيمن في اليد اليسرى، والأيسر في اليد اليمنى. وهكذا حينما يُقبِل عليكَ، وأصابعه تلامس المسدّسَيْن، كان يبدو كمحكوم بالإعدام، كسجين يُقاد إلى المقصلة، قُيّدت يداه أمام بطنه. ثمّ بعد لحظة، تراه كطير جارح، يفرش جناحَيْه، كسوط يشقّ الهواء، ثمّ تسمع الرصاصتَيْن. بيرد.

ما هذا الضباب الذي يغشي عينَي؟! وأنا هنا أحصي الساعات، أنا الذي كنتُ أعرف اللحظات فقط، وكانت هي الزمن الوحيد في حياتي. أنا الذي كنتُ أرى صديد العين، آثار الأصابع على القدح، أثر ضربة القَدَم على بطن الحصان، الظّلّ المتواري على جدار أزرق. كانت لحظات الآخرين عمرًا طويلاً بالنسبة لي. ما كان بالنسبة لهم برقًا، كان بالنسبة لي خريطة دقيقة، نجمًا أرى فيه السماء بأكملها. كنتُ أدقّق التفكير في منعطفات الوقت التي كانت ذكريات بالنسبة للآخرين. لم تكنْ هناك طريقة أخرى، هذا ما علّموني إيّاه، لكي ألحظ الموت قبل قدومه. ما هذا الضباب الذي يغشي عينَي، إذنْ؟ وأنا مجبر على استراق النَّظَر من أوراق الآخرين، أستجدي الحديث معهم من على كرسيّي، دائمًا في الصّفّ الثاني، وعند المساء، أرمي الكلاب بالحجارة، وفي جيبي نقود عجوز، لا ترضى بها حتّى العاهرات، ربّما سيقبلها منّي ذات يوم مغنّي المارياتشي، حينما يمرّ من هنا. لتكنْ أغنيّتكَ حزينة وطويلة، أيها الفتى، بغيتارك العذب وصوتك الرقيق، أريد أن أرقصَ، هذا المساء، سأرقص حتّى الصباح.

يقال إن بيرد كان يحمل معه القاموس دائمًا، قاموس اللغة الفرنسية، وإنه حفظ كلماته كلها، واحدة تلو الأخرى، حسب تسلسلها الأبجدي.

تقدّم به السّنّ بعد أن جال في كل مكان، أما الآن، فهو يقيم على أطراف بلدة "G"، وقد أقام فيها في وقت سابق أيضًا. لا أحد يعرف لماذا كان يفعل ذلك، ولكنْ، يقال إنه دَنَا من امرأة ذات مرّة، في بلدة تاندل تاون، وكانت حسناء جدًّا، طويلة وخضراء العينَيْن، حتّى تساءل البعض ماذا تفعل في هذا المكان؟ اقترب هو منها، وقال لها، بالفرنسية: سررتُ بمعرفتكِ.

سيموت كلاي "بيرد" بولر بطريقة ساحرة، تقول شيتزي. لقد وعدتُه بذلك: ستموتُ بطريقة ساحرة.

- آنسة شيتزي؟

- نعم.

- أتسمعينني؟

- أجل، أسمعكَ جيّدًا.

- لقد انقطع الاتّصال قليلاً.

- لا عليكَ.

- كم هي متعبة هذه الهواتف!

- صحيح.

- أظنّ أنني إذا ما أرسلتُ طيّارة حربية، لتصيبَ ابني في رأسه تمامًا، لهو أسهل من الحديث معه على الهاتف.

- أرجو ألا تفعل ذلك فِعْلاً.

- ماذا؟

- لا، لا شيء، كنتُ أمزح.

- هل غولد معكِ؟

- أجل.

- هلا مرَّرتِهِ لي، لأتحدّث إليه، من فضلكِ؟

- بالطبع.

- اعتني بنفسكِ.

- وأنتَ أيضًا.

كان غولد يرتدي البيجامة، وإن لم تكن سوى السابعة مساءً، لقد أُصيب بإنفلونزا، أطلقت عليها الصُّحُف اسم "الحمراء". كانت داءً سيّئًا، ففضلًا عن ارتفاع درجة الحرارة، تشعر بها تُفرغكَ من الداخل. تجعلكَ تقضي الساعات في المرحاض. في تلك الأثناء، أخذتْ مسيرة ليري غورمان منعطفًا حاسمًا، كما سنرى لاحقًا. ففي أيّام قليلة، هزم بارك بورتر، بيل أورميسون، فرانك تارانتيني ومورغان "كيلر" بلومان. فاز على غري لا بانكا بعد أن أُصيب الأخير بجُرح في الجولة الثالثة، في حين انسحب بات ماك غريلي، بعد أن تعثّر وسَقَطَ، فارتطم رأسه بالأرضية. سجّل ليري غورمان رَقْمًا قياسيًا، لا يمكن تجاهله، فقد شارك في ٢١ مقابلة، وحقّق فيها ٢١ فوزًا، كلها قبل انقضاء الوقت المحدّد. فبدأت الصُّحُف عندئذٍ بالحديث عنه، بِعَدِّه بطل العالم المستقبلي.

ديزل - كان درينك، نائب مونديني، مَنْ أخبرَ موندي بذلك، قال له إن الصُّحُف تتحدّث عن ليري. كانت لديه بعض قصاصات الصُّحُف، أعطاها إيّاه حفيده. وضع مونديني نظّاراته، وجعل يقرأ، فأحدث ذلك فيه شعورًا غريبًا، إذ لم يرَ من قبلُ اسمَ أحد تلاميذه، يُذكَر قرب أسماء أبطال حقيقيين. كما لو أنكَ تشتري مجلّة بلاي بوي، فتجد فيها صورة لزوجتكَ. وثارتْ حنقًا بعض الصُّحُف، وصرّحتْ أن بين الواحد والعشرين لقاءً، لم يكن هناك سوى ملاكمين حقيقيين. إحدى الصُّحُف ادّعت أن الأمر برمّته مُفبركٌ، وأن والد ليري، وهو محامٍ ثري، قد بذل كمًّا هائلاً من النقود، ليصل ابنه حيث هو الآن، وإن لم تُوضِح الصحيفةُ الكيفيةَ والتفاصيلَ. وكان أسلوب المقال جيّدًا، وهزليًّا أيضًا. ولكون والد ليري محام، فقد كان الابن دائمًا ما يُذكَر باسم ليري "لويار" غورمان، وكان مونديني يراه مضحكًا. ما عدا تلك الصحيفة، فقد أخذت بقية الصُّحُف الأمرَ على محمل الجدّ. صحيفة "بوكسينغ" تضعه في مصاف أبطال العالم، بينما لقّب في "بوكس رينغ" بـ "وريث العرش". انتبه مونديني، بينما كان يقرأ المقال، أن الدمع تزاحم في عينَيْه.

- هيه، ليري، هلا تفضّلتَ علينا بلقاء قصير للراديو؟

- لستُ أنا مَنْ يلاكم هذا المساء، يا دان.

- هيا، كلمتان فقط.

- لقد جئتُ لأشاهدَ الملاكمة فقط، أودّ الاستمتاع بها من خارج الحلبة.

- أليس لديكَ ما تقوله بخصوص بعض المقالات التي نُشرت على ...

- أحببتُ اللقبَ.

- ماذا تعني؟

- "لويار". أحببتُه. أظنّني سأستخدمه.

- نودّ أن نُذكِّر مُستمِعِينا بالمقال الهجومي الذي صدر على إحدى الصُّحُف بحقّ ليري، وقد كتبه ...

- ليري "لويار" غورمان، ألا تجده لائقًا؟ أظنّني سأستخدمه. هلا أسديتَ لي خدمة، يا دان، في المقابلات المقبلة؟

- ما هي؟

- حينما تُجري معي مقابلة، لقِّبني لويار، أحبّ هذا اللقب.

- كما تودّ، يا ليري.

- ليري لويار.

- ليري لويار، أوكي.

- هناك بقعة على ياقتكَ، يا دان، شيء ما كأنه بقعة زيت.

- ماذا؟

- هناك بقعة على ياقتكَ ... هنا، أتراها؟ يبدو أنه زيت.

بوميرينغ - انتهى مونديني من قراءة المقالات، وأدرك أن الأمور لا تسير على ما يرام. حسب رأيه الأمور لا تسير على ما يرام. عالم الملاكمة غريب، ومليء بالغرائب، هناك مَنْ يستمتع بتسديد اللكمات إلى كيس الملاكمة، وآخرون يحصلون على لقمة العيش، دون أن يُجازفوا بحياتهم.

هناك ملاكمون يُصارعون بشرف، وآخرون بالحيلة، ولكنه، في النهاية، عالم حقيقي، وذلك ما يعجبه. كانت تعجبه تلك الملاكمة التي عرفها هو. ولكن الألقاب، كأس العالم، وراثة العرش: تلك الأمور كلها تمُثّل له شيئًا آخر. وراءها كمّ هائل من النقود، وأناس يصعب فَهْمهم، والكثير من الشهرة. ثمّ هناك أيضًا لكمات مُوجِعة، لكمات غير الأخريات. كانت تلك برأيه أشياء، يجب تلافيها والابتعاد عنها.

أدرك أن الأمور ساءت حينما دخل إلى قاعة الألعاب شخص يضع نظّارة شمسية سوداء، وتلمع في فمه أسنان ذهبية. كان أحد أعضاء النادي الذي ينظّم لقاءات مهمّة. لا يزال يذكره حينما كان ملاكمًا، وكان عليه - ذات مرّة - أن يخوض نزالاً معه، ولكنْ، لم يحصل ذلك. أسف مونديني لذلك، فهو أحد أولئك الملاكمين الذي لا يصمدون أكثر من جولتَيْن، ثمّ يسألون أنفسهم ما الذي دفعهم للصعود إلى الحلبة، كان أجدر بهم أن يذهبوا لمشاهدة فيلم ما. كان أحد أولئك الخاسرين بلا شك. أما الآن، فهو بدين، وأعرج قليلاً. كان هناك لإلقاء التحية وحسب. تحدّثا قليلاً، ولم يكن ليري موجودًا.

ديزل - كان ليري يتمرّن على الدوام، ولا يتحدّث عن اللقب. مونديني يُجهده بالتدريبات، وهو لا يتذمّر قطّ. يبدو أنه في فضائه الخاص، لا شيء يعنيه من ذلك كله. وكان مونديني قد رأى هذه الحالة من قبل: إنها العلامات التي تُميّز مَنْ يحوز على لقب بطل العالم. كانت مزيجًا من القوّة الباهرة والوحدة التامّة، تقيهم من الهزائم، ومن الشعور بالسعادة. وهكذا يقضون حياتهم دون أن يعرفوا الهزيمة. وجاء ليري ذات يوم إلى القاعة، وبصحبته فتاة سمراء ورشيقة، اسمها جودي. كانت ترتدي كنزة ضيّقة،

وحذاء ذا أربطة كثيرة. بدت لموندينى جميلة للغاية، وبطريقة ما، محترمة أيضًا. جلست في إحدى الزوايا، دون أن تتفوّه بكلمة، تشاهد ليري وهو يتمرّن. ثمّ نَهَضَت وغادرت قبل أن يحينَ موعد انتهاء التدريب. وذات يوم، كان ليري يلاكم مع شابّ أصغر منه سنًّا، كان شابًّا شجاعًا، ولكنه لا يزال صغيرًا، وفي لحظة ما بدأ ليري يضربه بعنف. لم ينتظر موندينى نهاية الجولة، اتّكأ على الحبال، وصاح: يكفي. لكن ليري لم يتوقّف، كان يلكم بعنف غريب عنه، حتّى انتهت الجولة. موندينى لم ينبسْ ببنت شفة. تركه ينزل من الحلبة، ورأى درينك ينشّف ظهره، ويخلع عنه القفّازَيْن باحترام. ثمّ رآه يقف أمام المرآة، قبل أن يدخل غرفة تغيير الملابس، وقف هناك لبعض الوقت. فتذكّر موندينى الفتاة الصامتة، ثمّ مرّت بذهنه أشياء كثيرة. تمتم باللعنات، وأدرك أن اللحظة المناسبة قد حانت. انتظر خروج ليري، وكان أنيقًا، يرتدي معطفًا من الكشمير. رَفَعَ الساعة، ثمّ قال:

- سأصطحبكَ إلى البيت، أوكي، ليري؟

بوميرينغ - قطعا المدينة بأكملها دون أن ينطقا بكلمة واحدة. كانت سيّارة موندينى لا تسير بسرعتها القصوى. في النهاية، ركن موندينى السّيّارة، وأطفأ المحرّك. كان حيًا غنيًا، أضواء خافتة في حدائق، نُظّمت على الطريقة الإنكليزية.

- أتثق بي، يا ليري؟

- أجل.

- حسنًا، سأشرح لكَ الأمر.

- حسنًا.

- لقد خضتَ ٢١ لقاء، يا ليري. ستّة عشر منها كنتُ سأفوز بها حتّى أنا، ولكن اللقاءات الخمسة الأخرى كانوا ملاكمين حقيقيين. سوبيلو، باركر، مورغان بلومان ... هؤلاء ملاكمون حقيقيون، يجعلونكَ تفقد الرغبة في الملاكمة. رغم ذلك، فهم لم يصمدوا أمامكَ حتّى النهاية. لديكَ طريقة في الملاكمة، لم يكونوا حتّى ليتخيّلوها. أحيانًا، وأنتَ في الحلبة، أنظر إلى خصومكَ، فيبدون لي، ويا للعجب كأنهم عجائز. يبدون كفيلم بالأبيض والأسود. لا أعرف أين تعلّمتَ الملاكمة، ولكنْ، هذه هي الحقيقة. ما كانت لتوجد تلك الطريقة في الملاكمة لولاكَ، أتصدِّق ذلك؟

- أجل.

- والآن، استمعْ إليّ. هناك شيئان يجب أن تستوعبهما جيّدًا.

- حسنًا.

- أولًا: إنكَ لم تذقْ حتّى الآن لكمة حقيقية.

- ماذا تعني؟

- الجميع بوسعهم أن يلكموا، يا ليري، ولكنْ، هناك فقط ثلاثة أو أربعة في العالم يقومون بما هو أكثر من ذلك: يُوجِعُون بلكماتهم. إنها لكمات حقيقية. لا يمكنكَ أن تتصوّر أي لكمات هي، وليس بوسعكَ أن تتخيّل آثارها. إنها متكاملة: توازن، قوّة، سرعة، دقّة، وشراسة. إنها تُحفٌ فنّيّة، يجب أن يأخذوا الطلاب في سفرة مدرسية، ليطّلعوا عليها، كما يذهبون إلى المتاحف. جميلة هي حين تراها وأنتَ أمام التلفاز، وبيدكَ قنّينة بيرة، ولكنْ، ليس وأنتَ في الحلبة، إنها مخيفة، يا ليري، لا شك في ذلك، إنها الخوف نفسه، والرعب. قد تسبِّب لكَ الموتَ، أو تُسبِّب لكَ الجنون لما تبقّى من حياتكَ.

ليري لم يحرّك ساكنًا، كان يحدّق في الخارج، أمامه. ثمّ قال:

- وما هو الشيء الآخر؟

صَمَتَ مونديني قليلاً، ثمّ أدار مرآة الرؤية الخلفية باتّجاه ليري. ما أراد قوله هو أن أبطال العالم في الملاكمة ليس لهم وجه كوجه ليري، ولكنْ، خانه التعبير. أراد أن يقولَ له إنهم لا يملكون أيّ مستقبل، لذلك يجازفون بحياتهم فوق الحلبة، وإلا فهم شبّان مجانين، معجبون بأنفسهم فقط. ربّما أراد أن يقول شيئًا ما بخصوص تلك الفتاة الصامتة، ولكنه لم يعرف ما عليه قوله.

كان ليري ينظر لوجهه في المرآة، فرأى فيه وجه محامٍ، ووجه بطل العالم في الملاكمة.

وجد مونديني أخيرًا جملة مناسبة، لم تكن مناسبة تمامًا، ولكنها تفي بالغرض:

- أتعرف مَنْ هو الملاكم الحقيقي العظيم؟ إنه الملاكم الذي يدركُ اليوم المناسب لاعتزال الملاكمة. كنْ واثقًا، يا ليري: لقد حان يومكَ المناسب.

التفت ليري نحو المعلّم.

- عليّ الاعتزال؟

- أجل.

- أنا أعتزل؟

- أجل.

- أتريد أن تقول لي إن ليري "لويار" غورمان عليه أن يعتزلَ الملاكمة؟

- ليس ليري "لويار" غورمان، بل أنتَ، يا ليري، يجب عليكَ الاعتزال، أنتَ.

- أنا؟

ديزل – ليس بوسع الأثرياء أن يستوعبوا شيئًا عن باقي البشر، هذا معلوم، ولكنْ، ما لا يفهمه أحد هو أن البشر لا يعرفون شيئًا عن الأثرياء، وليس بوسعهم استيعاب رغباتهم. يجب أن تكون غنيًا، لتستوعب ذلك، يجب أن تكون غنيًا حينما كان لكَ ستّ سنوات من العمر، وحينما كنتَ في بطن أمّكَ، وحينما كنتَ فكرة في رأس أبيكَ، الغنيّ هو أيضًا. ربّما حينها بوسعكَ أن تفهم، وإلا فما تتفوّه به ليس إلا تفاهات. ما الذي تعرفه أنتَ عمّا هو مهمّ، بالنسبة لهم؟ ما هي الأشياء التي تعني لهم الكثير حقًّا؟ وممَّ يخافون؟ ربّما بوسعكَ أن تعرفَ ذلك عن نفسكَ، ولكنْ، ليس عنهم. إنهم يعيشون في نظام حياتي مختلف، كالأسماك، تقريبًا. مَنْ يعرف ما الذي ترغب فيه الأسماك، أو أين تذهب؟ ولماذا؟ إنها أسماك. وقد تموت بالشيء ذاته الذي هو بالنسبة لكَ سبب للحياة، قد تموتُ باستنشاق الهواء، والذي هو سبب بقائكَ على قيد الحياة. كان ليري مثل سمكة، وكان له بحره الخاص حوله، وخياشيم تصعب رؤيتها، وحياة يجب أن يخوضها بشكل يصعب عليكَ استيعابه، كما لو أنكَ تنظر إلى ذلك البحر من الشاطئ، من حيث أنتَ.

بومرينغ - ليري لم يفكّر حتّى في الأمر. أعاد المرآة حيث كانت، ثمّ نظر إلى مونديني، في عينَيْه تمامًا، وقال:

- أريد أن أبلغَ القمّة، يا معلّم، أريد أن أعرفَ ما الذي يُرى من هناك.

هزّ مونديني رأسه.

- لا شيء يستحقّ العناء فِعْلًا، خاصةً إذا كنتَ ممدًّا على الأرض، وقد انقلبت عيناك.

لم يقل ذلك لجَلْب سوء الحظّ، قاله فقط لكيلا يبقى صامتًا، حتّى لا يصبحَ الحديث جدّيًّا أكثر من اللازم. ولكنْ، بالنسبة إلى ليري، كان الكلام جدّيًّا. هو الذي كان يمزح في كل شيء، هذه المرّة كان جدّيًّا حدّ اللعنة.

- أريد أن أجرّب، يا معلّم. أتصحبني إلى القمّة؟

لم يكن مونديني يتوقّع أن عليه الإجابة على الأسئلة، كان هناك لكي يحملَ ليري على الاعتزال.

- أرجوكَ، يا معلّم، ساعدني لبلوغ القمّة.

لم يكن مونديني يتوقّع ذلك كله.

- أتوافق أم لا، يا معلّم؟

كان الطقس في شتاء ١٩٨٩ قاسٍ جدًّا، لذلك عُلِّقَت بطولة كرة القَدَم في الملعب الواقع خلف بيت غولد، بفِعْل استحالة اللعب. أحيانا تجازف الفِرَق باللعب في ظروف صعبة للغاية، فقط كيلا يختلّ الترتيب الذي نظّمته الهيئة المسؤولة. وقد صادف أن رآهم غولد، بوميرينغ وديزل - ذات يوم - وهم يلعبون على الجليد. كانت الكرة تنطُّ هنا وهناك، وكل شيء نظاميّ بالنسبة للحَكَم. كان زيّ الفريق الأول أحمر، أما الآخر، فالبنفسجي

والأبيض. ارتدى بعض اللاعبين القفّازات، في حين وضع أحد حرّاس المرمى قلنسوة على رأسه، تنزل حتّى تغطّي أذنَيْه وذقنه. كان يبدو كأنه مستكشف من القارة القطبية، عثرت عليه إحدى السفن على بحر متجمّد. وعند منتصف الشوط الثاني، خرج غولد من بيته، ووقف في مكانه المعتاد، خلف مرمى الجهة اليمنى. ولم يكنْ هناك الأستاذ تالتومار، كانت تلك المرّة الأولى التي يغيب فيها. انتظر غولد بعض الوقت، ثمّ عاد إلى البيت. فاز يومها الفريق بالزي الأحمر، بهدف سجّله أحدهم بمؤخّرته، في الدقيقة الثانية عشرة من الشوط الثاني.

لم يرَ غولد الأستاذَ في الملعب قطّ، لذلك أخذ يبحث عنه، حتّى وجده في دار العجزة، وقد أُصيب بذات الرئة، ولعلّه السرطان، لم يكتشفوا ذلك بعد. كان ممدّدًا على السرير، ويبدو أصغر حجمًا من المعتاد. بين شَفتَيْه سيجارة دون فلتر، مُطفَأة. سحب غولد الكرسي قرب السرير، وجلس. كان الأستاذ تالتومار مغمض العينَيْن، ربّما كان نائمًا. بقي غولد صامتًا لبعض الوقت، ثمّ قال:

- تعادل سلبي حتّى آخر دقيقَتَيْن من المباراة. يرتمي لاعب الوسط المتقدّم على الأرض، فيصفّر الحَكَم ركلة الجزاء. يعترض كابتن الفريق الآخر، ويبدأ بالصراخ، يتفجّر الحَكَم غضبًا، يسحب مسدّسًا، ويُطلق عليه النار من مسافة قريبة جدًّا. يصيب المسدّسَ عطبٌ ما، فلا يُطلق النارَ، يرتمي الكابتن على الحَكَم، ويتدحرج الاثنان على الأرض. يركض اللاعبون، ويفرّقونهما، فينهض الحَكَم.

الأستاذ تالتومار لا يحرّك ساكنًا. يمرّ الوقت وهو ساكن. ثمّ يسحب سيجارته من شَفتَيْه ببطء، ينفض رمادًا خياليًا، ويتمتم:

- بطاقة صفراء للكابتن. تنفّذ ركلة الجزاء. تستمرّ المباراة حتّى نهاية الشوط الثاني، ثمّ الأشواط الإضافية، بفِعْل ما حصل من مشاجرة. يُطرَد الحَكَم من لائحة الحكّام، حسب المادّة رَقْم ٢٨ من نظام جمعية الحكّام، والذي يقول: لا يسمح للحمقى التحكيم.

سعل الأستاذ تالتومار، وأعاد السيجارة بين شَفَتَيْه.

شعر غولد بشعور عذب داخله.

بقي بعض الوقت في صمت.

ثمّ نَهَضَ ليغادر قائلًا:

- شكرًا، أستاذ.

- أجاب الأستاذ تالتومار دون حتّى أن يفتحَ عينَيْه:

- اعتن بنفسكَ، يا ولدي.

في الوقت ذاته - تقريبًا - كانت شيتزي تفاوض من أجل شراء مقطورة سفر مستعملة، باجودة موديل ١٩٧١، داخلها من الخشب، ولونها الخارجي أصفر.

- كيف خَطَرَ في ذهنكِ أن تشتريها صفراء اللون؟

- تذكّري، يا آنستي، أنكِ أنتِ مَنْ يشتري، ولستُ أنا.

- صحيح، ولكنْ، قبل عشرين سنة أنتَ مَن اشتراها. ألم تكنْ هناك ألوان أخرى؟

- إذا كان اللون الأصفر لا يعجبكِ، فبوسعكِ إعادة صبغها.

- كلا، أنا أحبّ اللون الأصفر.

- تحبّين اللون الأصفر؟

- أجل. ولكنْ، عمومًا، لا يشتري مقطورة سفر صفراء اللون سوى أحمق حقيقي، ألا تعتقد ذلك؟

أخفض الأستاذ بانديني رأسه، وتذكّر أن عليه التّحلّي بالكثير من الصبر مع هذه الفتاة. يجب عليه البقاء هادئًا، وإلا فلن يتخلّصَ من تلك المقطورة اللعينة. منذ أشهر وهو يحاول بَيْعها، ولم يفلحْ. لم يكنْ هناك الكثيرون ممّنْ في قائمة رغباتهم شراء مقطورة باجودة موديل ١٩٧١ صفراء اللون. وضع إعلانات في كل مكان، حتّى في صحيفة الجامعة التي يُدرِّس فيها. كانت هي نفسها جامعة غولد. فَقَصَّ غولد الإعلانَ، ووضعه بين الإعلانات الأخرى الملصَقَة على الثلاجة. وكان على شيتزي أن تختارَ. كانت تُفضِّل الكاثوليكيين والمثقّفين: كونهم يخجلون عادة من الحديث في مسألة المال. وكان الأستاذ بانديني مثقّفًا كاثوليكيًّا.

وهكذا، بينما كان هو في المحاضرة أمام مئات من الطلاب، في القاعة رَقْم ١١، رأى الباب يُفتَح، ثمّ تدخل منه فتاة.

- أنتَ الأستاذ مونديني؟

- أجل، لماذا؟

لوّحت شيتزي بالإعلان المقصوص من الصحيفة.

- أنتَ مَنْ يعرض للبيع مقطورة سفر مستعملة، باجودة موديل ١٩٧١، بحالة جيّدة، وسعر قابل للتفاوض، ويرفض المقايضة؟

شعر الأستاذ بانديني بخجل كبير، دون أن يعرفَ سبب ذلك، وكأنه يسترجع مظلّة نسيها في سينما الأفلام الإباحية.

- أجل، أنا.

- أبوسعي أن أراها؟ أقصد مقطورة السفر، أبوسعي أن أراها؟

- ولكنْ، الآن لديّ محاضرة، أيتها الآنسة.

وإذا بشيتزي انتبهت - في تلك اللحظة فقط - أن القاعة كانت مليئة بالطلاب.

- أوه!

- هلا عدتِ في وقت آخر؟

- بالطبع، آسفة فِعْلًا. بإمكاني الانتظار، أجلس هنا، وأنتظر، أيزعجكَ ذلك؟ لعلّي أتعلّم شيئًا مفيدًا.

- تفضّلي.

- شكرًا.

خَطَرَ في ذهن الأستاذ بانديني أن العالم مليء بالمجانين. ثمّ أكمل المحاضرة من حيث توقّف.

عادة - قال الأستاذ بانديني - تكون الـ "porch" أو الكُنّة، سقيفة

تخرج من جدران البيت الأمامية. وتتكوّن من سقف بارتفاعات مختلفة - ولكنْ، نادرًا ما يتجاوز الأربعة أمتار - يستند على عدّة أعمدة، ويغطّي مساحة، ترتفع عن الأرض بمقدار يتراوح ما بين عشرين سنتمترًا إلى متر ونصف. يحيط بها درابزين، وتتقدّمها الدرجات اللازمة، فيكتمل المشهد العام للكُنّة. تمثل الكُنّة، من وجهة نظر معمارية، التطوّر البدائي للفكرة الكلاسيكية لواجهة البيت، وتعبّر عن ثراء بائس وترف بدائي وفطري. أما من وجهة النَّظَر السيكولوجية، إن لم تكن الأخلاقية، فإنها تعبير عن ظاهرة تُثير أعصابي، وبعد تحليل دقيق، يبدو جليًا أنها مثيرة للأسى وللاشمئزاز أيضًا، ولكنْ، تتجلّى فيها حقائق كثيرة، لما تحتويه من معان.

هزّت شيتزي رأسها علامة على استحسانها للطَّرْح. في الحقيقة، المنازل كلها في الغرب الأمريكي تشتمل على كُنّة أمام الدار.

ولكن الغرابة في الكُنّة - أكمل الأستاذ بانديني - تكمن في كونها فضاء داخليًّا وخارجيًّا، في آن. فهي تمثّل، بصورة ما، عتبة ممتدّة، بعيدة عن البيت، مع ذلك، فهي لا تمثّل ما هو خارج عن البيت. إنها أشبه بمنطقة حُرّة، تمتدّ فيها فكرة المكان الأمين - الذي يؤسّس له، ويمثّله البيت - ولكنها تبرز أيضًا إلى الخارج - حيث اللا أمان - وكأنها آخر نقاط حماية للبيت نحو الخارج. وبهذه الصورة، فهي تبدو المكان الأكثر وهنًا، كمكان يفتقر إلى التوازن، أو كفكرة في منفى. ولا يمكننا أن نستبعد أن وهنها ذلك هو تمامًا سرّ سِحْرِها، كون الإنسان، بطبيعته، يميل إلى حبّ الأماكن التي تمثّل حقيقته المؤقّتة، وكونه مخلوقًا معرّضًا لكل شيء، وإنه يطلّ على تخوم الوجود.

كان الأستاذ بانديني يلخّص فكرته تلك بتعبيرات، حسب رأيه، يجب

الحذر من استخدامها في محيط عام، رغم أن إيضاحها سهل للغاية. "لدى الإنسان في أعماقه بيت، لكن الإنسان في الحقيقة كُنّة". حاول - ذات مرّة - أن يشرحها لزوجته، فضحكت منه حتّى أصابها ألم في بطنها. وقد صدمه ذلك الأمر. بعد ذلك، تركتْه زوجته، وذهبت للعيش مع مترجمة أصغر منها باثنَيْن وعشرين عامًا.

وممّا يثير الفضول - أضاف الأستاذ بانديني - كيف تنعدم حالتها البدائية، فتكفّ عن كونها "المكان الواهن"؟ ذلك عندما تصبح الكُنّة مُجرّد شكل هندسي، يلجأ إليه الإنسان. يجلس الإنسان العادي تحت الكُنّة، خلف ظهره البيت، وغالبًا ما يجلس على كرسي خاص، مزوّد بميكانيكية معيّنة، تسمح له بالتمايد. ومن أجل إكمال الصورة بشكل تامّ، أحيانًا، تكون بين يَدَي الرجل، بالضبط فوق فخذَيْه، بندقية مَحشوّة بالذخيرة. وهذا الرجل دائمًا ما ينظر أمامه. لو عدتُم الآن إلى صورة الكُنّة، بِعَدِّها حقيقة مؤقّتة، وكونها شكلًا معماريًّا، ثمّ زيّنتُمُوها بوجود هذا الرجل - وخلف ظهره البيت، يتمايد على كرسيّه والبندقية بين يَدَيْه - فإن تلك الصورة ستتمثّل بشكل دقيق على أنها شعور بالقوّة والأمان والجسم. ربّما بوسعنا القول إن الكُنّة الآن تتوقّف عن كونها صورة واهنة للبيت الذي تستند إليه، وتصبح بداية برهانٍ على ما يوحي به البيت: أي المكان الآمن، وهو تمامًا ما تُعبّر عنه نظرية البيت.

أكثر ما أعجب شيتزي هو التفصيل الصغير الذي يخصّ البندقية المَحشوّة بالذخيرة.

في الختام - أكمل الأستاذ بانديني - فإن ذلك الرجل وتلك الكُنّة يشكّلان، معًا، أيقونة دنيوية، وربّما مقدّسة، والتي يُعلَن فيها أن من حقّ

الإنسان أن يحوز على مكان خاص به، يخلّصه من ضياعه في كون بلا حدود. وربّما أكثر من ذلك: تعطي تلك الأيقونة الحقّ للرجل في الدفاع عن ذلك المكان، سواء بسلاح يدلّ على الجبن (تأرجح الكرسي) أو بأسلحة توحي بشجاعة أكبر (البندقية المَحشوّة بالذخيرة). أن هذه الصورة تُلخّص حالة الوجود الإنساني، بما أنها تُعبّر عن وضعية الإنسان: بأن يكون في مواجهة العالم، وذاته خلف ظهره.

كانت تلك نظرية يؤمن بها الأستاذ بانديني، بعيدًا عن أيّ ضرورة أكاديمية - إنه يعتقد ببساطة أن واقع الأمور هو هكذا بالضبط، يعتقد بذلك حتّى وهو في المرحاض. كان يعتقد فِعْلًا أن الإنسان يجلس في كُنّة وجوده (منفيًا عن حقيقة ذاته) وأن تلك هي الطريقة الوحيدة للإنسان لكي يدافعَ عن حياته ضدّ العالم، وإنه إذا ما جرؤ على الدخول إلى البيت (أي أن يكون كما هو في حقيقة ذاته)، فإن ذلك البيت لن يعودَ ذلك المكان الآمن في بحر العَدَم المتلاطم، وأن أمواج الخارج ستمحوه من الوجود، فيتحوّل المكان الآمن إلى مكيدة مميتة، لذلك يسارع الإنسان للخروج من البيت (أي من أن يكون كما هو في حقيقة ذاته) ويجلس هناك، حيث يستطيع من هناك فقط أن يُوقِفَ هجوم العالم، ليحمي - على الأقل - فكرة البيت الذاتي، رغم معرفته أنه ليس بوسعه السَّكَن فيه. لدينا في الأعماق بيوت، ولكننا في الحقيقة كُنّات، هكذا يعتقد الأستاذ بانديني. كان يراقب الناس ويسمع في كذباتهم المؤثّرة صرير الكرسي المتأرجح تحت أعمدة الكُنّة المغبّرة، وكان يرى في خيلاء أفعالهم وزعمهم البائس لإثبات أنفسهم، تلك البنادق المَحشوّة بالذخيرة، وذلك المنفى الدائم. إنه أمر محزن، إذا ما دقّقنا النَّظَر فيه، ولكنه مؤثّر في الوقت ذاته، كون الأستاذ بانديني كان يشعر بالعطف نحو نفسه والآخرين، يشعر بالعطف تجاه الكُنّات التي تحيط به.

أن تلبثَ عند عتبة بيتكَ، ما قبل حقيقة ذاتكَ بخطوة، إلى الأبد، فيه شيء من العزّة.

في الليالي التي تعصف فيها رياح الحقيقة، تكون مُجبرًا - في الصباح - على تصليح كُنّة كذباتكَ، بصبر وتأنّ، وأنتَ تقول في نفسكَ إن حبيبتي ستأتي، وسيكون كل شيء على ما يرام، سنرقب الغروب معًا بينما نحتسي الشراب.

أو عندما يدعوكَ أحدُهم، وقد أعياه التعب، أن تجلس أمامه، ويفتح لكَ قلبه، يستلّ منه كل شيء، كل شيء تمامًا، حتّى في تلك اللحظة، فإنكَ تدرك أنكما جالسان في كُنّته هو، ولكنه لم يُدخلكَ إلى بيته مطلقًا، فهو نفسه لم يدخلْ بيته منذ سنين، ولهذا السبب تمامًا هو الآن يجلس أمامكَ، وقد أعياه التعب.

وفي المساءات التي تهبّ فيها النسائم الباردة، ويبدو العالم غائبا بالمرّة، تشعر فجأةً أنكَ مضحك، وأنتَ هناك في كُنّتكَ، تحمي بيتكَ من لا أحد، وقد أنهككَ التعب، ومذلّة أن تشعر بنفسكَ تافهًا للغاية، فتنهض، وتدخل بيتكَ، بعد سنين من الكذب والتمثيل، تدخل إلى البيت، وأنتَ تدرك - ربّما - أنكَ لا تعرف أين ستتّجه، هناك، كما لو أن البيت لشخص آخر، في حين أنه بيتكَ أنتَ، ولا تزال كذلك، تفتح الباب، وتدخل، تعتريكَ سعادة، لم تعد تذكرها، بيتكَ، "يا إلهي! أيّ جمال ذلك! وأي دفء وسلام أن أكون كما أنا في حقيقة ذاتي! لن أخرج بعد مطلقًا، سأُلقي البندقية في ركن ما، وسأتعلّم التّعرّف إلى الأشياء وأشكالها وإلى حجم الفراغ، سأعتاد على جغرافية الحقيقة التي نسيتُها، سأتعلّم كيف أتحرّك فيها دون أن أحطّم شيئًا، وحينما يطرق أحدُهم البابَ، فإني سأفتحُه له، وفي الصيف، سأُشرع الشبابيكَ، سأبقى في بيتي هذا ما حييتُ، ولكنْ" ...

ولكنكَ إذا ما انتظرتَ في الخارج، وأنتَ تنظر إلى بيت ذلك الرجل، قد تمرّ ساعة أو يوما كاملًا، لكنكَ في النهاية سترى الباب يُفتَح، دون أن تعيَ أو تستوعبَ ما حدث في داخل البيت، أبدًا، ترى الباب يُفتَح، وترى ذلك الرجل يخرج، وكأن شيئًا ما دفعه إلى الخارج، شيئًا لن تعرفَه، ولكنْ، لا بد أنه خوف مذهل، أو ربمّا عدم قدرته على البقاء، أو لعلّه حكم جائر، يدفع ذلك الرجل إلى الخارج، حيث كُنّته، والبندقية بين يَدَيْه، كم أحبّ تلك اللحظة! ...

كم أحبّ تلك اللحظة - يقول الأستاذ بانديني - تلك اللحظة التي يخطو فيها الرجل، بندقيّته بين يَدَيْه، ينظر إلى العالم أمامه، يشعر بلسعات الهواء، يرفع ياقة جاكيته، ثمّ - يا للروعة - يجلس على الكرسي، يسند ظهره، ويعود إلى تأرجحه، تأرجح خفيف يحثّ على النوم، ويُشعر بالأمان الزائف وبالسكينة التي عادت إليه، وبالسلام البائس، كل ما ينقص الآن هو مرور الناس التي تُلقي عليه التحية "مرحبًا جاك، أين كنتَ؟ لم يحدث شي، ها أنا هنا الآن. اعتنِ بنفسكَ، يا جاك". يمرّر يَدَهُ على أخمص بندقيّته، ثمّ ينظر في البعيد، يخزّر عينَيْه، يا لقوّة الضوء! كم من الضوء تحتاج، أيها العالم؟! ما كنتُ أحتاج في الداخل سوى إلى ضوء ضئيل، كم من الضوء؟! لا أذكر، ولكنْ ألم أقرّر عدم العودة إلى هذا المكان؟ ولا يقول شيئًا بعد ذلك، لن يحدّث نفسَه البتة، سيبقى هناك، إلى الأبد، يتأرجح على الكرسي في كُنّته الخشبية المصبوغة ...

إذا ما فكّرتَ في الأمر، فكم من البيوت الخالية، لعلّها مئات، وراء وجوه الناس، خلف كل كُنّة، آلاف البيوت المنظّمة في الداخل، والفارغة، فكّر بالهواء داخلها، الألوان، الأشياء، الضوء في تغيّره المستمرّ، كل ما يجري

من أجل لا أحد، أماكن يتيمة، تلك هي "الأماكن" الحقيقية الوحيدة، ولكن ذلك النظام العمراني للقدر الغريب، جعل منها نخورًا في العالم، ثقوبًا مهملة تحت سطح الضمير، أي سرّ هو؟! ماذا سيحلّ بتلك الأماكن، الأماكن الحقيقية؟! ماذا سيحلّ بمكاني الحقيقي؟! وأين أنا، حينما كنتُ هنا لأدافع عنه؟! ألم تسألوا أنفسكم؟ مَنْ يدري كيف أنا في الحقيقة؟ بينما أنتَ هناك، تتأرجح على الكرسي، أو تُصلح سقف الكُنّة، أو تُلمِّع بندقيّتكَ، وتُحيّي المارة، ألا يمرّ بذهنكَ هذا السؤال، مَنْ أنا؟ أودّ أن أعرف ذلك فقط، كيف أنا؟ هل يعرف أحد ما إن كنتُ رجلاً طيبًا، إن كنتُ عجوزًا، أيعرف أحد إن كنتُ لا أزال حيًّا؟

اقتربت شيتزي من كرسي الأستاذ، كان الطلاب يخرجون، والأستاذ بانديني واقف يرتّب بعض الأوراق.

- كانت محاضرتكَ رائعة.

- شكرًا.

- أنا جادّة فيما أقول. كان هناك الكثير من الأشياء المهمّة.

- أشكرك، يا آنسة.

- أتعرف ما مرّ بذهني؟

- كلا.

- لقد قلتُ في نفسي إن الأستاذ محقّ فِعْلًا، أعني، أن الأمور تسير هكذا تمامًا، لدى الإنسان بيت، لكن الإنسان في حقيقته كُنّة، لا أعرف إن فهمتَ قصدي، لديه بيت، لكنّه في الحقيقة ...

- ماذا قلتِ؟

- متى؟

- الآن، هذا الذي قلتِهِ عن البيوت.

- لا أعرف، ماذا قلتُ؟

- لقد قلتِ تلك الجملة.

- أيّ جملة؟

تمشّى الأستاذ بانديني وشيتزي في شارع الكُلّيّة وهما يتحدّثان، ثمّ ودّعا بعضهما، وقد قال الأستاذ بانديني عندئذ إن المقطورة في حديقته، إذا ما أرادت أن تراها عصر ذلك اليوم، فوافقت شيتزي، وهكذا فقد ذهبت عصرًا، عندها جعلا يتحدّثان عن اللون، وقد قالت شيتزي بالضبط:

- كيف خَطَرَ في ذهنكَ أن تشتريها صفراء اللون؟

- تذكّري، يا آنستي أنكِ أنتِ مَنْ يشتري، ولستُ أنا.

- صحيح، ولكنْ قبل عشرين سنة، أنتَ مَن اشتراها. ألم تكنْ هناك ألوان أخرى؟

- إذا كان اللون الأصفر لا يعجبكِ، فبوسعكِ إعادة صبغها.

- كلا، أنا أحبّ اللون الأصفر.

- تحبّين اللون الأصفر؟

- أجل. ولكنْ، عمومًا، لا يشتري مقطورة صفراء اللون سوى أحمق حقيقي، ألا تعتقد ذلك؟

على مسافة عشرين متراً منهما، كان هناك غولد، بوميرينغ وديزل، متكئين على حائط كراج بيت بانديني، ومن تحت الظلّ يتابعون المشهد.

- إنه لا يعرف، ولكنه مجنون بحبّها - "لم" يقل بوميرينغ.

- من أين لشيتزي ذلك القميص المروّع؟ - سأل ديزل.

- إنه قميص استراتيجي - قال غولد - ما إن تسعلَ حتّى ينفتحَ الزرّ الأول، ويظهر قليل من الصدر.

- حقًّا؟

- أجل، ولكنْ، يجب أن تسعلَ بالطريقة الصحيحة. وقد تمرّنت شيتزي على ذلك أمام المرآة.

سعل بوميرينغ، ثمّ نظر لأزرار قميصه. رَفَعَ رأسه، وأخذ ينظر إلى شيتزي والأستاذ، يدخلان المقطورة، ويخرجان منها وهما يتناقشان.

- كيف جرت الأمور بين مونديني وليري؟ هل سيساعده على حيازة لقب بطل العالم أم لا؟

- ربمّا.

- ماذا تعني؟

- لم تكن الأمور واضحة جدًّا.

- ماذا يعني لم تكن الأمور واضحة؟

- لقد حدث أن جاء أصحاب نادي تروبيكانا، وعرضوا المال الكثير حتّى يخوضَ ليري مباراة ضدّ بينسون.

- بينسون بلحمه ودمه؟

- أجل.

- اللعنة.

- إلا أن موندِيني قال: كلا، شكرًا، سيكون في مناسبة أخرى.

- أهو مجنون؟

- لا أحد يعرف بمَ يفكّر. يقول فقط إن على ليري أن يخوضَ لقاءً ما، ثمّ بعد ذلك نرى.

- ولكن بينسون يختصر الطريق نحو بطولة العالم، إذا ما هزمه ليري.

- لا فائدة، مونديني لا يعير اهتمامًا لهذا.

- هل أُصيب بالجنون هذا العجوز الأحمق؟

- كلا، ولكنه يخطّط لشيء ما. وقد استاء ليري لذلك، وقال له: معلّم، يجب أن تشرح لي الأمر. نظر إليه موندي، ثمّ قال له: بعد المباراة المقبلة، يا ليري، وأنا مَنْ سيختار الخصم.

- أحقًّا ما تقول؟ ...

- أجل. عندئذ ضحك ليري، وقال له: كما تشاء، يا معلّم، ولكنْ، مَنْ هذا الذي عليّ أن أطرحه أرضًا؟

- وهنا المفاجأة.

- ماذا تعني؟

- غريب مونديني هذا، لا أحد يعرف ما يخطّط له.

- اللعنة، هلا تكلّمتَ، يا غولد؟

- من بين الملاكمين كلهم في العالم ... غريب هذا الرجل، لا أحد يفهم ...

- هيا، يا غولد، مَن الذي وقع عليه اختيار مونديني؟

- لن تتخيّلا ذلك أبدًا.

- هيا، تكلّم ...

التفتَ غولد، ونظر إلى شيتزي والأستاذ بانديني، ثمّ قال:

- بوريدا.

- مَنْ؟

بوريدا.

- ستانلي بوريدا؟

- أجل.

- بوريدا الذي كسروا ذراعَيْه؟

- أجل هو.

- ولكنْ، ما شأنه في الأمر؟

- لقد قلتُ لكما إنكما لن تصدِّقا.

- بوريدا؟

- ستانلي "هوكر" بوريدا؟

- أيا ابن العاهرة.

- هو كذلك تمامًا.

- بوريدا ... اللعنة.

- بوريدا.

بوميرينغ - اعتزل بوريدا الملاكمة قبل سَنَتَيْن. لقد أُجبر على ذلك، إذا ما أردنا أن نكون دقيقين. كان قد باع مباراة، أُعدّ لها مسبقًا، سوى أن الأمور سارت بشكل سيّئ. كان خصمه شابًّا أنيقًا، من أقارب شخصية نافذة في مدينة بليم. أسلوبه في الملاكمة لا بأس به، ولكنه لا يتمتّع بالقوّة، فليس بوسعه أن يَطرحَ أرضًا، ولا حتّى رجلًا ثملًا. وكان بوريدا فنّانًا فِعْلًا في تمثيل دور الصريع في ضربة قاضية، إلا أن الآخر، خلال الجولات الأربعة الأولى، لم يسدّد لكمة حقيقية، لتساعد بوريدا على تمثيل الدور. كان بودّه أن يمثّل دور الصريع، لكي ينتهي من تلك المهزلة، ويعود إلى بيته، ولكن ذلك الراقص اللعين ليس بوسعه تسديد ضربة جيّدة حقًّا. فقام بوريدا، في نهاية الجولة الرابعة، بتسديد لكمة مستقيمة وأخرى دائرية، لمُجرّد إثارة المشهد، ولم تكن فِعْلًا لكمات قاسية، سوى أن الراقص سَقَطَ أرضًا، وانتهت الجولة. عاد بوريدا إلى الزاوية، أقبل رجل أنيق نحوه، في فمه سيجارة، يحيط بعقبها ورق ذهبي. انحنى على بوريدا، دون أن يسحب السيجارة من فمه، وهمس قائلًا: إن فعلت ذلك مرّة أخرى، أيها الحشرة، فسأسحقكَ بقَدَمي. ثمّ سحب سيجارته، وبَصَقَ في قنّينة الماء وقال لمساعد المدرّب: أعطِ ماءً للفتى، إنه عطشان. وكان بوريدا فنّانًا

في أداء أدواره. تناول القنّينة، شرب جرعة دون أن يتفوّه بكلمة، ثمّ سمع صوت الجرس. نَهَضَ الراقص وهو يتطوّح قليلاً، وَصَلَ إلى وسط الحلبة، وقال لبوريدا: هيا، لنحسم الأمر، أيها البائس. أنتَ محقّ، قال بوريدا في نفسه. سدّد له لكمَتَينْ مستقيمَتَينْ، اخترق بهما دفاعات الشابّ، ثمّ باغته بأخرى صاعدة، وحسم الأمر بدائرية. طار الشابّ إلى الخلف كأنه دمية، سَقَطَ على الأرض، وكأنه يسقط من الطابق العاشر. نزع بوريدا واقي الفم، توجّه صوب زاوية الشابّ، وقال فقط: أعط ماءً للفتى، إنه عطشان. بعد عشرة أيّام من ذلك، دخل بعض الصبية المسلّحين إلى بيته مساءً، كسروا ذراعَيْه، كسروا الأولى في البداية، ثمّ الثانية. ها قد انتهى الأمر، قال بوريدا في نفسه.

ديزل- كان بوريدا قد بدأ مسيرته مع مونديني. وبعد مباراتَينْ أو ثلاث، اكتشف موديني أنه يسقط أرضًا، بفِعْل لكماتٍ تافهة، عندها فَهِمَ كل شيء. إنها مهنة كغيرها من المهن، قال له بوريدا. ولكنها ليست كذلك بالنسبة لي، أجابه موديني، ثمّ طرده من القاعة. لكنه استمر يتابع أخباره من بعيد، لم يكن ملاكمًا عظيمًا، ولكنه كان كحيوان شرس، يجد في الحلبة مملكته. كان يعرف الخدع كلها، وقد ابتكر هو خدعًا أخرى، وينفّذها بشكل لا يترك مكانًا للشك بأنها حقيقية، وليست خدعة. والأهم من ذلك كله أنه كان قوي جدًّا. القليل من الملاكمين لهم قوّته تلك. إنها موهبة. وحينما يقرّر بالفِعْل أن يسدِّد لكمة، فإنه يضع فيها وزنه الاثنَينْ وثمانين كيلو كله، وكأن كل جسمه في القفّاز. إنه يلكم حتّى بأرداف مؤخّرته، يقول موديني الذي كان يكنُّ له الإعجاب. وهكذا، حينما انتشرت الأخبار عن ليري وعن ترشيحه للقب بطل العالم، خَطَرَ بوريدا في ذهن موديني، ومن بين الملاكمين الموجودين كلهم اختاره هو.

بوميرينغ - لم تكن فكرة سيّئة. إذا ما استثنينا أبطال العالم الحقيقيين، فإن بوريدا هو الخصم الأشرس والأصعب، والأقوى والأكثر تمرّسًا، وليس بوسعه أن يجدَ مَنْ هو أفضل منه، ليقابل ليري. إنه يمارس الملاكمة الحقيقية، وسيكون صراعًا شرسًا. ولكنْ، يجب إقناعه على صعود الحلبة. ارتدى مونديني معطفه الجميل، ذَهَبَ إلى المصرف، سَحَبَ بعض مدّخراته، ثمّ راح يبحث عن بوريدا، في القاعة التي يعمل فيها مدرّبًا. وكانت تلك القاعة قرب المسلخ، ولعلّ ذلك مصادفة، لا غير.

- إنه مبلغ كبير - علّق بوريدا وهو يعاين حزمة النقود - مبلغ كبير لشراء ملاكم، اعتزل الملاكمة منذ سَنَتَيْن.

مونديني لم يحرّك ساكنًا.

- لعلّكَ لم تفهمْ، أنا أدفع لكَ، يا بوريدا، إذا فزتَ فقط.

- إذا فزتُ؟

- بالضبط.

- أجننتَ؟ إن هذا الفتى لديه موهبة فريدة، وهو بين يَدَيْكَ أشبه بكنز، وتأتي أنتَ لتدفعَ المالَ من أجل أن يُهزَم؟

- لديّ مبرّراتي الخاصة.

- لا لا، لا أريد أن أعودَ لهذا العمل، لقد اعتزلتُ الرهانات، ليس لديّ ذراعان، لأخسرهما من جديد.

- لا شأن للرهان بذلك، أقسم لكَ.

- ما الذي تفعله، إذنْ؟ أتدرِّبُ الأشخاصَ لتشاهدَهم يخسرون المباريات أمامكَ؟

- ربّما.

- أنتَ مجنون فِعْلًا.

- ربّما هو كذلك، أتوافق؟

لم يكن بوسع بوريدا التصديق، إنها المرّة الأولى التي يدفعون له فيها النقود، ليفوزَ.

- موينديني، لنكنْ واقعيين، إن لدى ليري موهبة رائعة، ولكنكَ تعلم جيّدًا أن بمقدوري إيجاد حيلة ما لهزيمته.

- أعرف، لذلك أنا هنا.

- ستخسر نقودكَ هذه حتمًا.

- أعرف.

- موينديني؟

- أجل.

- ما وراء هذا كله؟

- لا شيء. أريد أن أرى إذا ما كان بوسع هذا الفتى أن يرقصَ، بعد أن تُغرقَه في الخراء، وأنتَ الخراء، يا بوريدا.

تبسّم بوريدا. كانت لديه طليقة، تستنفد ماله، وعشيقة تصغره بخمس

عشرة سنة، وموظّف الضرائب الذي يأخذ منه ألف دولار في الشهر، لكي لا يُسبّب له المتاعب. لذلك تبسّم. ثمّ بَصَقَ على الأرض. كانت تلك طريقته المعتادة في توقيع العقد.

- لقد سعلت.

- ماذا؟

- لقد سعلت ... شيتزي.

- إذنْ، الأمور تسير على ما يرام.

- إنه مجنون بها، سيبيعها لها، أقسم أنه سيبيعها.

- وهل فُتح الزّرّ؟

- لا يمكن رؤيته من هنا.

- لعلّه فُتح.

- أعتقد أن ذلك غير كاف.

- أراهن بعشرة دولارات أنها ستنجح في المهمة - "لم" يقل بوميرينغ، ثمّ أخرج من جيبه ورقة نقدية متهالكة.

- حسنًا، أراهن بعشرة دولارات. وأراهن بعشرين دولار على بوريدا.

- لا تراهنوا على بوريدا، يا شباب، لقد أقسم مونديني أنه ليس هناك أي رهان.

- وما شأنه بذلك؟ كنّا دائمًا نراهن فيما بيننا.

- ليس هذه المرّة، فالأمر جادّ فِعْلًا.

- ألم تكن المرّات الأخرى جادّة أيضًا؟

- هذه المرّة أكثر جدّيّة.

- أوكي، ولكنها ملاكمة؟

- قلتُ لكَ إن موندي أقسمَ أن ليس هناك رهان.

- موندي أقسَمَ، أنا لم أفعل، لم أُقسِم على أنني لن أراهنَ ...

- لا فرقَ في ذلك.

كيف لا فرقَ في ذلك؟

في تلك اللحظة بالضبط، قال الأستاذ بانديني لشيتزي:

- أبوسعي أن أدعوكِ إلى العشاء هذا المساء؟

تبسّمتْ شيتزي.

- في وقت آخر، يا أستاذ.

مَدّتْ يَدَهَا، فصافَحَهَا الأستاذ باندينى.

- في وقت آخر، إذنْ.

- أجل.

- نَزَلَتْ شيتزي في الطريق الوعرة، وقبل أن تصلَ أمام الكراج، زرّت القميصَ عند الصدر. كانت ملامحها جادّة عند وقوفها أمام غولد:

- لقد هجرتْهُ زوجتُهُ من أجل امرأة.

- رائع.

- كان بوسعكَ أن تُخبرَني بذلك.

- لكنني لا أعرف.

- أوليس أستاذكَ؟

- أجل، ولكنْ، أتتصوّرين أنه يُدرِّسنا تاريخ زواجه؟

- لم يفعل؟

- كلا.

- آه.

التفتتْ، كان الأستاذ لا يزال واقفًا هناك، حيّاها بيده، فردّت على التحية.

- إنه رجل طيّب.

- أجل.

- لا أظنّه يستحقّ مقطورة صفراء، أحيانًا يعاقبُ البعضُ أنفسَهم بأشياء، لا يدركونها، يفعلون ذلك فقط، من أجل إيذاء أنفسهم ... يقرّرون فِعْل ذلك، وكفى ...

- شيتزي؟

- نعم.

- هل نجحتِ في شراء هذه المقطورة؟ أخبريني.

- غولد؟

- نعم.

- لا ترفع صوتَك.

- أوكي.

- أتودّ أن تعرفَ فيما إذا كنتُ نجحتُ بشراء مقطورة باجودة موديل ١٩٧١ صفراء اللون، بسعر زهيد؟

- أجل.

- سحقًا وألف لعنة على هذا العالم البائس، طبعًا نجحتُ.

صرختْ بذلك عاليًا حتّى إن زرّ القميص عند الصدر قد فُتح. أصاب غولد وديزل وبوميرينغ الذهول، وكانت أعينهم ككرات من الجيلاتين. ليس من أجل الزرّ، بل من أجل المقطورة. لم يخطرْ بذهنهم أن ذلك قد يحدث فِعْلًا. كانوا ينظرون لشيتزي وكأنها تجسيد حيّ لمامي جين، وقد عادت لتسلخَ جِلْدَ فرانس فورته، المدير المالي لدار النشر CRB. سحقًا وألف لعنة على هذا العالم البائس، لقد فعلتها.

بعد مضي يومَيْن على ذلك، جلبوا سيّارة سَحْب، وأخذوا المقطورة إلى بيت غولد، وضعوها في الحديقة. غسلوها بشكل جيّد، غسلوا حتّى الإطارات والنوافذ وكل شيء. كانت صفراء جدًّا. تبدو كأنها لعبة، صُنعت خصّيصًا للأطفال. وكان الجيران يمرّون من هناك، فيقفون للتّفرّج عليها. وذات مرّة، اقترح أحدُهم على شيتزي أن تصنعَ كُنّة أمام باب المقطورة، كُنّة من البلاستك، كتلك التي يبيعونها في السوبر ماركت، بعضها أصفر اللون أيضًا.

- لا نرغب بالكُنّة - قالت شيتزي.

-١٨-

عثروا على جثّة بيت كلارك بعد أربعة أيّام من البحث، وكان مدفونًا تحت ثلاثين سنتمترًا من الأرض، قرب ضفّة النهر. فَحَصَهُ الطبيب، ثمّ قال إنه مات مخنوقًا، ومن المحتمَل أنه دُفن حيًا. كانت هناك كدمات على الذراعَيْن والرقبة والظهر. لا بد أنهم اغتصبوه قبل أن يدفنوه. كان عمر بيت خمس عشرة سنة.

والآن، استمعْ لهذه القصّة الغريبة، تقول شيتزي.

في اليوم نفسه الذي عثروا فيه على جثّة بيت كلارك، كان قد اختفى من مزرعة عائلة كلارك رجل هندي، يُلقّبه الجميع بير، أي دبّ. أحدهم رآه يخرج من المدينة، على ظهر جواده، متّخذًا ناحية الجبال. وكان بير صديق بيت المقرّب، وكان بيت دائمًا برفقته. وعادة ما يذهبان معًا للسباحة في النهر، واصطياد الأفاعي. يحتفظان بها حَيّة لبعض الوقت، يُطعمانها الفئران، ثمّ يقتلانها. وكان بير في العشرين من العمر. يُلقّبونه بالدّبّ، لأنه غريب الأطوار، غريب التعامل مع الناس. وجدوا تحت سريره علبة من المعدن، فيها سوار عادة ما يضعه بيت في معصم يده اليمنى، كان قد صُنعَ من جِلْد الأفاعي.

تقول شيتزي لقد تطوّع الكثيرون ليُلاحقوا الهندي. كانت ملاحقة ذلك الرجل تبعث في أنفسهم النشوة. ولكن الشريف قال: سأُلاحقُهُ أنا. أنا

وحدي. كان اسمه ويستر، وهو رجل طيّب. لا يحبّ المشانق، ولديه ثقة بالمحاكم. وكان يعرف پيت جيّدًا، يصحبه معه أحيانًا لصيد الأسماك، وقد وعده أنه إذا ما بلغ الرابع عشرة من العمر، فسيُعلّمه استخدام السلاح، وإصابة القناني، على مسافة عشرة أمتار، بعينَيْن مغمضَتَيْن.

قال: أنا سأتولىّ أمر بير.

امتطى ظهر جواده عند الصباح، بينما الريح تصنع زوابع ترابية تحت الشمس الحارقة.

والآن انتبهْ جيّدًا، تقول شيتزي، كانت ملاحقة الرجل عبارة عن هندسة رياضية: نقاط وخطوط ومسافات. إذا ما وضعتَها على الخريطة، فستدرك أنها ملاحقة قاسية. قد تستمرّ ساعات أو أسابيع. الأول يهرب، والآخر يلاحقه. يبتعدان في كل دقيقة عن المدينة التي أنشأتْهما وعرفتْهما جيّدًا. سيصبحان - عمّا قريب - كنقطتَيْن في العَدَم، ولا أحد بوسعه أن يُميّز الطّيّب من الشّرّير بينهما. عندئذ لن يكون بوسعهما تغيير أيّ شيء، وإن أرادا ذلك. إنها مسارات موضوعة، واستنتاجات رياضية، قام بحسابها القَدَر، انطلاقًا من الذنب الأول. لا يمكنهما أن يركنا إلى نتيجة نهائية، تُخَطّ بحبر الدم الأحمر في قعر الحياة.

موسيقى.

كانت شيتزي هي مَنْ تصنع الموسيقى، بفم مُغلَق، شيء ما يشبه الأوركسترا، فايولين وأبواق، شيء مُتقَن. ثمّ تسألكَ: أكلّ شيء واضح؟

تقريبًا.

سترى أن الأمر ليس صعبًا.

حسنًا.

هل نُكمِلُ؟

نُكمِلُ.

يسلك الشريف ويستر طريقَ الجبال، يصعد نحو بينتر باس، يخترق الغابة، يسير في الظلّ وقد خَطَرَ في ذهنه أن بير يسبقه بنصف نهار. يتوقّف عندما تقلّ كثافة الأشجار، يمنح حصانَه قسطًا من الراحة، ثمّ ينطلق من جديد. يصعد نحو قمّة الجبل، بخطى ثقيلة، وفي الوقت نفسه، يبحث عن آثار في الطريق. يستغرق بعض الوقت، ولكنه في النهاية يتعلّم كيف يُميّز آثار حصان بير. كان يعرف أن بوسع الهندي أن يُخفيها، لو أراد ذلك. يبدو أن الشّابّ واثقٌ من نفسه، وهادئ البال. لعلّه يظنّ أن بوسعه اجتياز الحدود، أو أنه لا يتوقّع أن أحدًا ما يتبعه. يحثّ السير، يصعد نحو بينتر باس، يصل عند المساء. ينظر إلى الوادي الضيّق الذي ينزل نحو الصحراء. يبدو له أنه يرى في البعيد غبارًا يتصاعد في ذلك العَدَم. ينزل لبضع مئات من الأمتار، يجد كهفًا، فيتوقّف عنده. كان مُتعَبًا، يقضي الليلة هناك.

يستيقظ الشريف ويستر عند الفجر، يتناول المنظارَ، ويمعن النَّظَر في الوادي البعيد، فيرى بقعة سوداء على الطريق. إنه بير. يمتطي حصانه، ينزل بحذر من الجبل. ما إن يصل إلى الوادي حتّى ينطلق بحصانه يسابق الريح، لساعة كاملة، ثمّ يتوقّف. باستطاعته الآن أن يرى بير بالعين المُجرّدة، على مسافة بضعة كيلومترات أمامه. يبدو أنه مُتوقّف هناك. ينزل وستر من على ظهر الحصان، يأوي إلى ظلّ شجرة كبيرة، لينال قسطًا من الراحة.

ينطلق الشريف مجدّدًا والشمس في زاوية السمت. يهرول حصانه ببطء، بينما هو لا يرفع عينَه عن هيئة بير، الصغيرة والمؤكّدة، أمامه. يبدو أنه لا يزال متوقّفًا. لماذا لا يفرّ؟ يقول الشريف في نفسه. يسير لنصف ساعة، ثمّ يتوقّف، بير الآن لا يبعد عنه أكثر من خمسمائة متر. كان ساكنًا، على ظهر جواد أبقع، وكأنه تمثال. يحشو الشريف ويستر بندقيّته، ثمّ يمدّ يده، ليتأكّد من مسدّساته. يرفع رأسه نحو الشمس، بعد قليل، ستصبح خلف ظهره. أفقدتَ رشدكَ، يا فتى؟ ينطلق بحصانه، يقترب مئة متر، ثمّ مئة متر أخرى، حصانه يهرول دون هوادة، يرى بير يتحرّك،أخيرًا، يحيد عن طريقه، وينطلق نحو اليمين. إلى أين، يا فتى؟ ليس في هذا الاتّجاه سوى الصحراء. يلكز بطن حصانه بكعبَيْه، يحيد عن الطريق متّبعًا بير. ينعطف بير باتّجاه الشرق، ثمّ يميل نحو الغرب، ثمّ يعود باتّجاه الشرق. أين تنوي الذهاب، أيها الفتى؟ يتساءل الشريف ويستر. يُبطئ في سيره، لا يزال بير على مسافة خمسمائة متر منه، يتوقّف بير فجأةً، يلحظ ويستر ذلك، يحثّ السير لِلَّحاق به، لكن بير ينطلق مسرعًا، ينعطف نحو الشرق، يخفت الضوء، ثمّ يهبط الظلام فجأةً. يتوقّف ويستر، حسنًا، أيها الفتى، لستُ على عجلة من أمري. ينزل من على حصانه، يُهيّئ موضعًا له، ثمّ يوقد النار. يرى في الظلام النار التي أوقدها بير، على مسافة خمسمائة متر منه، وقبل أن ينامَ يهمس قائلًا: تصبح على خير، أيها الفتى.

يستيقظ الشريف ويستر، في يومه الثالث، عند الفجر، يوقدُ النارَ من جديد، ويُعدّ القهوة. لا يلمح أيّ أضواء في الظلام، ينتظر انبلاج الصبح. يرى بير مع أول خيوط الصباح، واقفًا دون حراك جنب حصانه الأبقع. ينظر إليه بالمنظار، يبدو أن الفتى لا يملك بندقية، لعلّه يحمل مسدّسًا. يجلس الشريف ويستر على الأرض: أترك الخطوة الأولى لكَ، يا فتى.

يبقيان ساكنَيْن بلا حراك لساعاتٍ طويلة. ليس حولهم سوى شمس تحرق بحرارتها الصحراء القاحلة. يرتشف ويستر رشفة ماء ورشفة ويسكي كل نصف ساعة. كان الضوء يُشوّش النَّظَر من فرط قوّته. فجأةً يتراءى له پيت، كان يركض ضاحكًا، ثمّ يراه يصرخ، ويصرخ ويصرخ. يحدّق في يَدَيْه، فيجدهما ترتجفان. ستموتُ، يا ابن العاهرة، ستموتُ، أيها الهندي الحقير. ينهض، يشعر بالدوار، يأخذ عنان الفَرَس، ويتمشّى وهو يجرّه خلفه. يتمشّى ببطء، لكنه يلاحظ أنه يقترب أكثر من بير. لا يحرِّكُ الفتى ساكنًا، لم يمتطِ جواده، ولم يهرب. لا يفصل بينهما الآن سوى ثلاثمائة متر، ثمّ مئتَي متر. يتوقّف الشريف ويستر، يصرخ عاليًا: دعنا ننهي الأمر، يا بير. ثمّ يضيف بصوت خفيض: دعني أقتلَكَ، ولا تقاوم. ثمّ يصرخ مرّة أخرى: لا تكنْ أحمقًا، يا بير. يبقى الفتى واقفًا بلا حراك. يتفحّص ويستر بندقيّته ومسدّساته، ثمّ يمتطي جواده، وينطلق مسرعًا. يرى بير يمتطي جواده هو الآخر، وينطلق. يستغرقان نصف ساعة من السير المتواصل، لا يفصل بينهما سوى مئتَي متر. تلوح في الأفق بلدة ضائعة في تلك الصحراء الشاسعة. يتّجه بير نحوها، يتبعه ويستر. بعد عشر دقائق، يبلغ بير البلدة، يدخل فيها، ويتوارى عن أنظار الشريف. يُبطئ الشريف في سيره، ينزل من على حصانه قبل دخول البلدة، يسحب مسدّسه، يصل إلى أول بيوت البلدة، تبدو له خالية من البشر. يسير ببطءٍ جنب الحائط، بحيطة وحذر، يسترق النَّظَر من الشبابيك، يلتفت لأيّ ظلّ، يلمحه. يشعر بقلبه ينبض في أذنَيْه، أهدأ، يقول في نفسه، قد يكون الفتى بلا سلاح أصلاً. يجب عليكَ فقط أن تعثرَ عليه، وترديه قتيلاً، فهو ليس إلا فتى. يرى امرأة عجوز تقف عند باب النزل، يدنو منها، يسألها بالإسبانية إذا ما كانت قد رأت هنديًا يمتطي حصانًا أبقعًا. تومئ برأسها، ثمّ تشير إلى

أطراف البلدة، حيث يستمرّ الطريق نحو الصحراء الشاسعة. يسدّد ويستر مسدّسه إلى رأسها، لا تكذبي عليّ، يقول لها بالإسبانية. ترسم العجوز بيَدَيْها إشارة الصليب، ثمّ تشير مرّة أخرى نحو أطراف البلدة. ألديكِ ما يُشرَب؟ تدخل العجوز إلى النزل، ثمّ تخرج وبين يَدَيْها مشروب البراندي، يشرب الشريف، ثمّ يأخذ معه ما تبقّى منه. إذنْ، رأيتِ الهندي؟ تومئ المرأة برأسها. أتعرفين مَنْ هو؟ عندئذٍ تجيب العجوز: أجل، فتى هارب من جريمة قتل. يحدّق الشريف ويستر بالعجوز، أهو مَنْ قال لك ذلك؟ أجل. يرتشف ويستر رشفة أخرى من مشروب البراندي. إنكَ ميتٌ، أيها الفتى، يقول في نفسه. يمتطي جواده، يرمي إلى العجوز قطعة نقود، يضع المشروب في جيبه، ويسير ببطء على حصانه حتّى أطراف البلدة. يجتاز آخر بيت، ينظر أمامه، فلا يرى شيء. يلتفت نحو اليمين، يرى بير على ظهر حصانه، على مسافة مئتَي متر منه. فتى هارب من جريمة قتل. يسحب الشريف ويستر البندقية من السرج، على عجل، يُصوّبها نحو بير، ويفتح النارَ. بير لا يحرّك ساكنًا. يتلاشى صدى الرصاصات - ببطء - في الأفق البعيد. بحركة من يد الشريف ويستر يقفز الخرطوش من البندقية. اهدأ، يقول لنفسه، ألا تراه بعيدًا جدًّا؟ اهدأ. ثمّ يبقى واقفًا يحدّق ببير. أراد أن يصرخ بشيء ما، فلم يحضر في ذهنه شيء. يجذب عنان الحصان، يعود أدراجه، يأوي إلى أول بيت، ويقضي الليلة هناك، يقبض على مسدّسه دون أن تغمض له عين.

يخرج الشريف ويستر من البلدة في يومه الرابع، يرى بير من بعيد، على الطريق التي تقود إلى الصحراء القاحلة. يمتطي جواده، ويجري خلفه. يترك الحصان يقوده حسب رغبته، ينام - بين الحين والآخر - من شدّة الحرّ والتعب. يتوقّف بعد ثلاث ساعات من المسير عند نبع ماء. يخطر في

ذهنه أن الهندي قد سمّمه. يملأ قنّينة الماء، ثمّ ينطلق. يجب أن ألحقَ به قبل أن يبلغ الصحراء، يقول في نفسه، وإلا فسيموت كلانا هناك. يجب أن أوقفَهُ قبل أن يبلغَها. يرتشف من مشروب البراندي. ينتظر حتّى تهدأ وطأة الشمس، ثمّ يطلق العنان لحصانه. يبدو أن بير لم ينتبهْ له، كان يسير ببطء دون أن يلتفتَ. ربّما غلبه النعاس، يقول في نفسه. إنه في قبضتي، يقول الشريف ويستر في نفسه. يصبح على مسافة ثلاثمائة متر منه، مئتَي متر، مائة متر. يسحب مسدّسه، لا يفصل بينهما سوى خمسين متر. يلتفت بير فجأةً، بيده مسدّس بماسورة طويلة، يُسدِّد ويطلق النار. رصاصة واحدة. يثب حصان الشريف ويستر نحو اليمين، ثمّ يتهاوى. يسقط الحصان على أحد جانبَيْه، يرفع رأسه محاولاً النهوض. يتمكّن ويستر من سَحْب نفسه من تحت الحصان، وهو يشعر بألم يحرق كتفه. يسمع رصاصة أخرى تخترق جسد الحصان. يختبئ ويستر خلف حصانه، يرفع رأسه، ثمّ يطلق ثلاث رصاصات من مسدّسه، واحدة تلو الأخرى. يثب حصان بير على ساقَيْه الخلفيّتَيْن، ويدور حول نفسه، وهو يعبث بالأماميّتَيْن في الهواء. يسحب الشريف ويستر بندقيّته من السرج. يتمكّن بير من استعادة السيطرة على حصانه، ثمّ ينطلق هاربًا. يسدّد ويستر بندقيّته، ويطلق رصاصَتَيْن، يبدو له أنه يرى بير ينحني على رقبة الحصان. ثمّ يرى الحصان يفقد توازنه، يجري ما يقارب العشرين مترًا، ثمّ يهوي على الأرض، فيشاهد جسد بير يتمرّغ بالتراب. وداعًا، يا فتى، يقول في نفسه. يحشو بندقيّته، ثمّ يسدّدها نحو بير الذي كان يحاول النهوض. يفتح ويستر النار، يرى الغبار يتصاعد على بُعْد عشرين مترًا من بير. اللعنة، يصرخ. يطلق النار مرّة أخرى، لكن الرصاصة لا تتجاوز الأولى. ينهض بير، يتناول مسدّسه، ينزع بيده الأخرى الحقائب عن السرج. يبقى واقفًا يحدّق في ويستر، لا يفصل بينهما سوى

ثمانين متراً، وهو المدى الذي تقطعه رصاصة بندقيّة، أو شيء من ذلك. يرفع الشريف ويستر رأسه نحو الشمس، يُقدِّر أن أمامه ساعتَيْن قبل هبوط الظلام. ألم فظيع في كتفه، يتضاعف شدّة كلّما حرّك ذراعه. حسنًا، أيها الفتى. يرفع ويستر الحقيبة، ويُعلّقها على الكتف الصحيحة، يحشو بندقيّته، ويتقدم. يراه بير، يدير ظهره، ويهرب ببطء. إذا ركضتُ خلفه، فقد يكون الأمر مضحكًا، يقول الشريف في نفسه. ثمّ يتخيّل المشهد، وكأنه ينظر من الأعلى: رجلان يركضان في العَدَم، فيخطر في ذهنه أن القَدَرَ قد حكم عليهما بالموت. ثمّ يتراءى له پيت مرّة أخرى، يركض ويركض، يحاول الهرب، يركض هاربًا على طول النهر. أيها اللعين، يقول في نفسه، سأقتلكَ، يا فتى. يمرّ بالقرب من حصان بير، لا يزال يتنفّس، يفرغ ويستر مسدّسه في رأسه. سأقتلكَ، يا فتى. ثمّ يواصل السير. ينزل الظلام، فيراه يبتلع بير. يتوقّف. يسبّب له كتفه ألمًا فظيعًا، يستلقي على الأرض، قابضًا على مسدّسه. يحاول ألا ينام، منذ يومَيْن لم يغفُ لي جفن، يقول في نفسه.

في اليوم الخامس، يشعر الشريف ويستر أن نَظَرَه يتضبّب ودقّات قلبه تتسارع بفِعْل الحمّى. ألا ينام هذا اللعين؟ يتساءل. يراه الآن أمامه، تفصل بينهما مسافة الأمس نفسها. في عينَيْه حرقة، تمنعه من رؤية الظلال في ذلك الضوء الصباحي. يواصل السير، يحاول أن يتذكّر أين قد تحملهما هذه الطريق، وكم كيلومترًا قَطَعَا مذ خرجا من البلدة. كان بير أمامه، يسير دون توقّف، يلتفت - بين الحين والآخر - ثمّ يواصل السير. إنها الطريق التي تقود إلى سالينا، يجب أن يلحقَ به قبل أن يبلغَها. يجب ألا يدخل إلى سالينا. يتوقّف، ينحني، يلتقط بعض التراب. تراب ملطّخ بالدم. يرفع رأسه نحو بير، لقد أصبتُكَ، إذنْ، يا فتى. لا تريد أن تخبرَني بذلك، صحيح؟ ينهض، يخطو بضع خطوات، يرى بقعة دم أخرى. هذا جيّد، أيها اللعين. يتلاشى

شعوره بالحمّى، يواصل السير. بعد مسير ثلاث ساعات ينحرف بير نحو الشرق. يتوقّف الشريف ويستر، لا بد أنه أُصيب بالجنون، يقول في نفسه. إنه يتّجه إلى قلب الصحراء، يا للمجنون. يرفع بندقيّته، ويُطلِق رصاصة في الهواء. يتوقّف بير، يلتفُ إليه. يرمي ويستر حقيبتَهُ، ثمّ يُلقي البندقيّة، ويفتح ذراعَيْه. يبقى بير ساكنًا في مكانه. يتقدّم ويستر نحوه ببطء. بير لا يتحرّك. يواصل ويستر سيره، يُخفض ذراعَيْه، ويضع يَدَيْه على قبضَتَي مسدّسَيْه. يصل على مسافة خمسين متر من الفتى الهندي. يتوقّف. دعنا ننهي الأمر، أيها الفتى، يصيح بصوت عالٍ. بير لا يتحرّك. لا ينتظرَكَ في هذا الاتّجاه سوى الصحراء، أتريد أن تموتَ كالأحمق؟ يصيح. يتقدّم بير بضع خطوات باتّجاهه، ثمّ يتوقّف. يبقيان على تلك الحالة، كأنهما بقعتان سوداوان في العَدَم. كانت الشمس الحارقة عمودية، في ذلك المكان الخالي من الظلال. صمت شديد يلفّ المكان، حتّى إن الشريف ويستر كان يسمع صراخ پيت. يحاول أن يستعيدَ وجه پيت في مُخيّلته، لكنْ، لا جدوى، لا يسمع سوى ذلك الصراخ الشديد. يحاول أن يركّز على بير، إلا أن ذلك الصراخ لا يبارحُه. ما عليكَ سوى أن تُنجزَ عملكَ، يقول لنفسه. انسَ كل شيء، أنجزْ عملكَ فقط. يدركُ حينها أنه أخفض نظره نحو الأرض، فيعدّل رأسه، يحدّق ببير. يرى عينَيْه الغائرَتَيْن في محجرَيْه. لا يمكن لأحد أن يغلبَه، يقول في نفسه. فجأةً يشعر بالخوف ينقضّ عليه، ويثني ساقَيْه. لقد حاول أن يُبقي الخوف بعيدًا عنه، لأيّام طويلة، ولكنْ، ها هو الآن ينقضّ عليه، كانفجار صامت. يهوي على ركبَتَيْه، ينحني إلى الأمام، يستند على يَدَيْه، فيراهما ترتجفان. يشعر بصعوبة في التّنفّس، يشعر بالدم يضرب في صدغَيْه. يرفع نَظَره - بصعوبة شديدة - صوب بير. لا يزال واقفًا هناك. أيها اللعين. ليس هناك طيور في السماء، ولا أفاعٍ

في الأرض، ولا ريح تهبّ، فترفع الأعشاب، ولا أُفُق بعيد، ليس هناك شيء. إنه مكان لا وجود له. يتمتم الشريف ويستر: اذهبْ إلى الجحيم، أيها الفتى. ينهض، يرمق بير بنظرة أخيرة، ثمّ يدير ظهره، ويعود أدراجه، يصل إلى بندقيّته، يتناولها، يتقدّم خطوات أخرى، يرفع حقيبته، ويُعلّقها على كتفه. يمشي وهو يُركّز على خطاه، دون أن يلتفتَ. يواصل سيرَهُ حتّى يهبطَ الظلام. يتهاوى على الأرض، وينام. يستيقظ في منتصف الليل، يواصل السير، يتبع الطريق التي قطعوها من قبل. يسقط على الأرض، يُغمضُ عينَيْه، ويحلم.

يستيقظ الشريف ويستر فجر اليوم السادس، ينهض، يرى في الأفق البعيد بيوتَ البلدةِ البيضاءَ التي تَرَكَاهَا من قبل. يلتفتُ، يرى بير على مسافة مئة متر خلفه. يلتقط ويستر بندقيّته وحقيبتَه، ثمّ يواصل سيره. يسير لساعات طويلة. يسقط أرضًا بين الحين والآخر، يُنزِل قبّعته على عينه، وينتظر. ينهض حينما يشعر بشيء من القوّة، ويعاود السير، دون أن يلتفتَ. يتمكّن من بلوغ البلدة قبل الغروب. يعطونه بعض الطعام والشراب، يُخبرهم بأنه الشريف ويستر، فيوفّرون له مكانًا للمبيت. يقولون له بالإسبانية إن هناك فتىً خارج البلدة، أقام على مسافة بضع مئات من الأمتار من البيوت الأولى. يسألونه إذا ما كان صديقه؟ كلا، يجيب الشريف ويستر. يشعر بألم جنوني في كتفه، ينام ومسدّسه في قبضته.

في اليوم السابع، يطلب الشريف ويستر حصانًا من أهل البلدة، ثمّ يرحل نحو الجبال. الرياح والزوابع الترابية محت الآثار في الطريق التي جاء منها. لا يتوقّف سوى مرّة واحدة، ليمنحَ الحصان قسطًا من الراحة، ثمّ يواصل الرحلة. يبلغ الجبال، يصعد حتّى بينتر باس، ثمّ يهبط دون أن

يلتفتَ وراءه. ينحرف نحو منجم مهجور قبل أن يصلَ إلى الهضبة، ينزل ويُوقِدُ النار. يقضي الليلة هناك دون أن ينامَ، يقضي الوقت في التفكير.

في اليوم الثامن، ينهض الشريف والشمس في كبد السماء، يمتطي حصانه، يأخذ من حقيبته بعض الأشياء التي يُعلّقها بالسرج، ويترك البندقيّة مركونة على أحد جدران المنجم. ينزل ببطء حتّى الوادي، تبدو له من بعيد بيوت كلوزينغ تاون، والأشجار المائلة تحت وطأة الريح. يسير ببطء، يترك الحصان على هواه. يُحدِّث نفسه بصوتٍ عالٍ، يعيد الجملة نفسها. يصل إلى النهر، يُوقِف الحصانَ، يجعله يدور حول نفسه. يفتح عينَيْه، ينظر، فيرى بير على مسافة بضع مئات من الأمتار منه، على ظهر جواد. يتقدّم ببطء. يا للفتى! يقول ويستر. يواصل سيره دون أن يلتفتَ، حتّى يصل إلى كلوزينغ تاون.

ما إن يبلغ البيوت الأولى من البلدة حتّى يبدأ أحدُهم بالصراخ قائلًا إن الشريف قد عاد. يخرج الناس إلى الشارع، يواصل هو سيره ببطء، دون أن ينظرَ لأحد. يمسكُ العنان بيد، ويضع الأخرى على مقبض المسدّس. لا يجرؤ الناس على الدّنوّ منه، كان يبدو كجثّة على حصان، أو كأنه فَقَدَ رشدَه. يقطع الشريف ويستر المدينة، كأنه شبح، يدور حول السجن، ويسلك الطريقَ نحو مزرعة عائلة كلارك. يجري الناس خلفه، سيرًا على الأقدام، دون أن يجرؤوا على الكلام. يصل ويستر إلى المزرعة، يترجّل الحصان، يلفّ الحبل حول عمود من الخشب، يسير نحو البيت كأنه ثمل. يقترب أحدهم، ليسندَه، يصوّب ويستر المسدّس نحوه. يواصل السير دون أن يتفوّه بكلمة، حتّى يصل إلى بيت كلارك. كان أوجينيو كلارك، والد بِيت، يقف أمام باب الدار. شَعر رمادي، ووجه يبدو أكبر سنًّا بفِعْل الريح. يتوقّف

الشريف ويستر على مسافة ثلاث خطوات منه، لا يزال يضع يده اليمنى على مقبض المسدّس. يرفع نَظَره نحو أوجينيو كلارك، ثمّ يقول له: آسف، لقد كان يستمرّ بالصراخ، لم يكفّ عن الصراخ. عادة ما يكون طيّبًا معي وهادئًا، لم يفعلْ ذلك من قبل أبدًا. كان ولدًا طيّبًا. يتقدّم أوجينيو كلارك خطوة نحوه، يصوّب ويستر مسدّسه نحوه، يتوقّف أوجينيو كلارك. يرفع الشريف فوهة مسدّسه Colt ٤٥ ثمّ يقول: لم أدفنْه حيًا، أقسم لكَ، لم يكن يتنفّس. لقد انقلبت عيناه، وتوقّف عن التّنفّس. ثمّ أسند مسدّسه تحت ذقنه، وأطلق النار. تناثرت بقع الدم على وجه كلارك وثوبه. تراكض الناس، الكل يصرخ، الأطفال يريدون أن يروا المشهد، كبار السّنّ يهزّون رؤوسهم، والريح ما تزال ترفع زوابع التراب في المكان. تنبّهوا بعد ذلك إلى وجود بير. كان يمتطي الحصان، واقفًا قرب العمود، وقد غارت عيناه في محجرَيْه. كان يتنفّس من فمه، وقد جفّ التراب على شَفَتَيْه. يصيب الناسَ الذهولُ، يلكز هو بطن الحصان بكعبَيْه، يجذب العنانَ جهة اليسار، ثمّ يرحل. يلحق به فتى صغير، بير، يصرخ خلفه. بير، لقد انتحر الشريف، يا بير. لا يلتفتُ، يواصل سيره البطيء نحو النهر. بير، بير، أين تذهب؟

بير لا يلتفتُ.

أذهب إلى النوم، يقول بصوت خفيض.

موسيقى.

-١٩-

- هالو، غولد؟

- مرحبًا بابا.

- أنا أبوكَ.

- مرحبًا.

- أأنتَ بخير؟

- أجل.

- ما حكاية كوفرني هذه؟

- لقد وجّهوا إليّ دعوةً من كوفرني.

- وماذا يعني هذا؟

- إنهم يقومون ببحوث علمية هناك، ويريدون منّي أن أعملَ معهم.

- يبدو أنه شيء عظيم.

- أظنّ أنه كذلك.

- وماذا ستفعلُ بعد ذلك؟

- لا شيء، دعوني إلى هناك لثلاثة أعوام، سيوفّرون لي سَكَنًا في الجامعة، ويدفعون لي رحلتَيْن في العام، لأعود إلى البيت، إذا ما كانت لديّ الرغبة في ذلك.

- مثلًا في عيد الميلاد وعيد الفصح؟

- شيء من ذلك.

- يبدو أنه شيء عظيم.

- أجل.

- إن كوفرني في الجانب الآخر من العالم.

- أجل، إنها بعيدة.

- يتناولون الكثيرَ من الطعام هناك، أتعرف؟ لقد زرتُها ذات مرّة، ليس الجامعة، ولكنْ، المدينة، لا شيء تأكله إلا وفيه طَعْم السمك.

- يقال إن الطقس هناك شديد البرودة.

- ممكن.

- أشدّ برودة من هنا.

- سيعطونكَ المالَ أيضًا، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- أقصد سيدفعون لكَ مبلغًا جيّدًا؟

- أظنّ ذلك.

- هذا شيء مهمّ. وما رأي رئيس الجامعة بولدر؟

- يقول إنها أموال كثيرة بالنسبة لفتى في الخامسة عشر من العمر.

- كلا، أقصد بشكل عام، ما رأي رئيس الجامعة بولدر بالمسألة؟

- يقول إنها فرصة عظيمة، لكنه يريد منّي البقاء هنا.

- بولدر العزيز، إنه رجل طيّب، أتعرف؟ بوسعكَ أن تثقَ به.

- يقول إنها فرصة عظيمة.

- إنها أشبه بأن يدعوكَ إلى ويمبلدون. أقصد بالنسبة للاعب تنس.

- تقريبًا.

- كما لو أنكَ تلعب التنس، وذات يوم يرسلون إليكَ رسالة، يقولون لكَ فيها: نرجو من حضرتكَ أن تُشرِّفنا بحضوركَ لِلَّعب هنا. أمر مثير للجنون، ألا تعتقد ذلك؟

- أجل.

- أنا فخور بكَ، يا بني.

- شكرًا، بابا.

- أمر مثير للجنون فِعْلًا.

- هو كذلك.

- ستكون أمّكَ سعيدة جدًّا بذلك.

- ماذا؟

- ستكون أمّكَ سعيدة جدًّا، يا غولد.

- هل ستُخبرها بذلك؟

- أجل، سأخبرها بذلك.

- حقًّا؟

- أجل.

- حقًّا؟

- ستكون سعيدة.

- ولكنْ، لا تقل لها إني سأذهب، لا أعرف إن كنتُ سأذهب، أقصد أنهم طلبوا منّي ذلك منذ وقت قصير.

- سأخبرها أنهم طلبوا منكَ ذلك، هذا ما سأخبرها به.

- أجل.

- وسأخبرها أنه أمر عظيم جدًّا.

- أجل، اشرح لها كيف أن الأمر عظيم.

- ستكون سعيدة.

- أجل، إنها فكرة حسنة، أخْبِرْها بذلك.

- سأخبرُها، يا غولد.

- شكرًا.

- ...

- ...

- متى تظنّ أنكَ ستتّخذ قراركَ؟

- لا أعرف.

- هل عليكَ أن تسافرَ فورًا؟

- في أيلول.

- ما يزال لديكَ بعض الوقت.

- أجل.

- إنها فرصة كبيرة، ربّما يجب عليكَ أن تستغلّها.

- هذا ما يقوله الجميع هنا.

- ولكنْ، عليكَ أن تتّخذَ قراركَ بنفسكَ، أفهمتَ؟

- أجل.

- استمعْ لكل ما يقولونه، ولكنْ، اتّخذْ قرارَكَ بنفسكَ.

- نعم.

- إن الأمر يخصّ حياتكَ، وليس حياة الآخرين.

- بالضبط.

- ستكون أنتَ تحت القنابل، لا هُم.

- أيّ قنابل تلك؟

- إنها مُجرّد مقولة للتعبير عن مثل هذه الحالة.

- آه.

- أجل، هذا ما يُقال في مثل هذه الأمور.

- آه.

-كنتُ أعرف كولونيلاً، وكانت لديه مقولة رائعة، حينما تتعقّد الأمور. كان يردّد المقولة نفسها: إذا كنتَ تحت الشمس، فإنكَ قطعًا تتشمّس، ولستَ تُحارب. يقول هذه الجملة حتّى حينما ينزل المطر، لا شأن للطقس بذلك، الشمس عبارة عن رمز، إنها مقولة للتعبير عن موقفٍ ما، ويستخدم تلك الجملة حتّى إذا كان الثلج يتساقط في ذلك اليوم، أو كان الضباب كثيفًا، فهو يردّدها: إذا كنتَ تحت الشمس، فإنكَ قطعًا تتشمّس، ولستَ تُحارب. هذا ما كان يردّده. الآن هو مُقعَد. أصابتْه رصاصة، بينما كان يسبح في المسبح. ربمّا كان من الأفضل أن يتركوه يغرق، على أي حال.

- بابا ...

- نعم، يا غولد.

- يجب أن أذهبَ الآن.

- اعتنِ بنفسكَ، يا ولدي، وأبلِغْني قرارَكَ.

- حسنًا.

- أخبرني إذا ما اتّخذتَ قرارًا ما.

- لا تنسَ أن تُخبرَ أمّي بذلك.

- بالتأكيد، سأفعل.

- أوكي.

- سأفعل ذلك بكل تأكيد.

- أوكي.

- وداعًا، إذنْ.

- وداعًا، بابا.

- غولد ...

- نعم.

- ماذا عن شيتزي؟

- إنها بخير.

- كلا، أقصد ما رأيها بمسألة كوفرني؟

- آه، أهذا ما تقصد؟

- أجل.

- تقول إنها فرصة رائعة.

- لا شيء آخر؟

- تقول إذا ما كنتَ معطّر جوّ، فإن إرسالكَ إلى مراحيض الأوتوغرل، لثلاث سنوات، لا شك أنها فرصة رائعة.

- الأوتوغرل؟

- أجل.

- ماذا تعني؟

- لا أعرف، ولكنها تقصد أنني أنا معطّر الجوّ.

- آه.

- أعتقد أنها تمزح.

- أتعتقد أنها كذلك؟

- أظنّ ذلك.

- ماكرة هذه الفتاة.

- أجل.

- بلِّغها تحياتي.

- حسنًا.

- وداعًا، يا بني.

- وداعًا.

-٢٠-

(يذهب غولد لزيارة الأستاذ تالتومار. يدخل المشفى، يصعد حتّى الطابق السادس، يلج في الغرفة رَقْم ٨. تالتومار ممدّد على السرير، يتنفّس عن طريق قناع، يتّصل بجهاز تنفّس. يبدو نحيفًا جدًّا، وقد حلقوا شَعره. يسحب غولد كرسيًا، يضعه قرب السرير، ويجلس، ينظر للأستاذ تالتومار، وينتظر بصمت) ... تنتشر في المكان روائح الحساء والبازلاء. ربّما البازلاء صحّيّة للمرضى، لأي نوع من الأمراض، يقول غولد في نفسه. أو ربّما رائحتها، بحدّ ذاتها، تجلب لهم الشفاء، لعلّهم قاموا بدراسات علمية، واكتشفوا أن... كانت الجدران صفراء، تمامًا كالمقطورة. ولكنه يبدو لونًا باهتًا، باهتًا، وليس نظيفًا، مَنْ يدري كيف هي المراحيض؟!

نَهَضَ غولد، لمس بإصبعه يد الأستاذ تالتومار الرمادية، شعر كأنه يلمس جِلْدَ حيوان من عصور ما قبل التاريخ، ملساء وعتيقة . كان جهاز التّنفّس يتنفّس مع تالتومار، ويعطي تنفّسه إيقاعًا رتيبًا هادئًا. لا يبدو عليه أنه في صراع ما، بل هو في مرحلة ما بعد الصراع. عاد غولد للجلوس، ثمّ نظم تنفّسه على إيقاع جهاز التّنفّس. جهاز التّنفّس يتنفّس مع تالتومار، غولد يتنفّس مع جهاز التّنفّس، غولد يتنفّس مع تالتومار. كما لو كنّا في نزهة - معًا - يا أستاذ.

نَهَضَ غولد، خرج إلى الممرّ. كان هناك بعض المرضى يتجوّلون بلا

وجهة معيّنة، وبعض الممرّضات يتحدّثنَ بصوتٍ عالٍ. وكان بلاط الأرضية أسود وأبيض. فجعل غولد يمشي وهو يدقّق النَّظَر في الأرضية، ويحاول السير على اللون الأسود فقط، دون أن تطأ قَدَمُهُ الخطوطَ الفاصلة. خَطَرَ في ذهنه فيلم، كان قد رآه فيما مضى، وكان فيه ملاكم يتمرّن راكضًا على طول سكّة الحديدة. كان ذلك في الشتاء، والملاكم يرتدي معطفه، وقد لفّ يَدَيْه بلفافة، كما يفعل الملاكم قبل أن يضعَ القفّازات للبدء بالنزال، وكان يلكم الهواء بين حين وآخر. شمس الشتاء النحيلة فوق رأسه، وخلفه المدينة الرمادية، وكان البرد قارسًا، ومعطفه يرفرف في الهواء، والقطارات واقفة. لعل بوتش له رغبة في الركض، وكان بوسعه أن يأتيَ. يقول إنه سيذهب للركض على الشارع، وليس على سكّة الحديد، سيركض حتّى الحديقة العامة، ويعود هنا، إلى سكّة الحديد، لو كان بوتش هنا، لما شعرتُ بالضجر هكذا، ولكني أفضّل الركض وحدي. إنه لمن الصعب أن تدركَ ما يعجبكَ، وإذا ما سألتُ نفسي أيعجبني فِعْلًا أن أركضَ وحدي أم أنني أحبّ الركض مع بوتش؟! لو كان بوتش معي، لكان بوسعنا تبادل أطراف الكلام، هو يتحدّث عن النساء دومًا. أما أنا، فبوسعي أن أحدّثه عن "جودي" بصدرها الصغير. سحقًا، ما هذا الذي أفكّر به؟! يجب ألا أفكّر. لماذا تهربين دائمًا، يا جودي، فنحن سعداء معًا؟ لماذا تهربين دائمًا وكأنكِ بحاجة للهرب - بين حين وآخر -؟ ربمّا لتذكّركَ أنها لن تكونَ معكَ إلى الأبد، أو أنها ليست معكَ بكامل ذاتها. اللعنة، فكِّرْ بشيء آخر، أيها الغبي. ثمّة ظلّ، وبرد شديد حينما كان هناك قطار واقف وأنا أركض على سكّة الحديد. إن مونديني عبقريّ فِعْلًا، الركض هنا يقوّي كاحلكَ. ركِّزْ نَظَرَكَ على قَدَمَيْكَ، واركضْ دون أن تنظرَ إلنهما. ولكنْ، حاول أن تضعَ قَدَمَيْكَ على خطوط السّكّة، وانظرْ إليهما بطرف عينكَ، فطرف

عينكَ هو ما يدركُ حركات الخصم. أوكي، معلّمي. إن اللكمات تُولَد من الأقدام، إن الأقدام لكمات لم تُولَد بعد. إنها لكمات مجهضة، لكمة يمينية، لكمة يمينية، لكمة يسارية، ثمّ يمينية. إن مونديني رجل طيّب. ما أجمل الظّلّ الذي يصنعه معطفي المرفرف في الهواء ويداي تلكمان الهواء. إنهم يسخرون منّي، لأني أركض وقد لففتُ يَدَيّ بلفافة. وهل يجب أن تُنازِلَ؟ يقولون، يا لها من حماقات! إنه نزال مستمرّ، أنتَ في نزال دائم. وهذا ما أحبّه في الملاكمة، إنها نزال دائم، حينما تركض، حينما تأكل، حينما تقفز على الحبل، حينما ترتدي ملابسكَ، حينما تربط رباط حذاءكَ، حينما تغنّي قبل المباراة. كم أحبّ أن أركضَ وأنا أضعُ القفّازات، كم هو جميل ظلّي! أنت جميل، يا ليري، ليري لويار، ليري لويار ضدّ ستانلي بوريدا، يا للحماقة! كم هو اسم سخيف، بوريدا!

سأحلقُ شَعري تمامًا، مرّري يدكِ هنا، يا جودي. تضحك هي بينما تمرّر يَدَها على رأسي. أرغب في معطفٍ مكتوب عليه لويار، أفهمتِ؟ ارفعْ غورمان وَضْعَ ليري لويار، أفهمتَ ذلك؟ حتمًا فهمت ذلك. سيقول موندينى إنها ليست سوى حماقات. موندينى لا يرغب في استيعاب هذه الأمور. اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري، وأنت كذلك. يا للبرد اللعين! كم ما يزال أمامي من الظّلّ؟ إنه ما يقارب الساعة أو الساعة والنصف. انظرْ إلى هذا الذي يسخر من ساعتي الذَّهَبية. لا يجب أن تذهبَ للركض وأنت تضعُ الساعة، خاصة إذا كانت من الذَّهَب، يا للحقير، دع الآخرين وشأنَهم. أُحبّ حتّى البخار الذي يخرج من فمي في هذا البرد اللعين. أنتَ رائعٌ، يا ليري لويار. اسألْني لماذا أمارسُ الملاكمةَ، أنتَ، يا صاحب الميكروفون، يا لـ"دان دي بالما"، أمّي تستمع إليه في الراديو خفية عن أبي الذي لا يطيقه. أمّي تستمع إليه، ولكنها لا تبكي فِعْلًا. دان دي بالما،

اسألني ولو لمرّة واحدة، لماذا أمارسُ الملاكمة؟ أمارسها لأن كل شيء جميل في الملاكمة، أنتَ جميل، بوسعكَ أن تصبحَ جميلاً، يا ليري لويار، معطفي من الكشمير يرفرفُ في هذا الصباح الشتوي على سكّة الحديد. يمينية يسارية يمينية، ثمّ أَعِدْ بسرعة قَدَمَكَ على خطّ الحديد. بوسعي أن أغمضَ عيني، وأجري على خطوط السّكّة الحديدية. هل رأيتَ أحدًا هكذا من قبل، يا مونديني؟ لم تره أبدًا، لا أنتَ ولا بوريدا، هذا الاسم اللعين. اسمعْ، يا دان دي بالما، أودّ أن تعرفَ لماذا أمارس الملاكمة، أتودّ ذلك؟ سأقول لكَ: لأنني على عجلة من أمري، هذه هي الحقيقة،لا رغبة لي في الانتظار، الملاكمة حياة كاملة في بضع دقائق، ضَعْ هذا نصبَ عينَيْكَ. كان بوسعي أن أنتظرَ. أتعرف والدي؟ لو كنتَ تعرفه، لأدركتَ ما أعنيه. حياة كاملة في بضع دقائق، لتبلغَ اللحظة الحاسمة، تجد نفسكَ ما بين الشهرة والدمار، هذه هي اللحظة الحاسمة، أنت ومهارتكَ، ولا شيء آخر. لا داعي للانتظار، فأنت تعرف كيف ستنتهي الأمور، وتنتهي في ليلة واحدة، ينتهي كل شيء، لو أنكَ جرّبتَ هذا الإحساس مرّة، لاستمررتَ في طلبه أبدًا، أنه كما لو أنكَ تعيش الحياة مئة مرّة، لا شيء يثني رغبتي في الاستمرار في ممارسة الملاكمة. مَنْ هو بوريدا هذا؟! ٥٧ لقاءً، أربعة عشر منها باعها مسبقًا، مَنْ قال لكَ أن تعود، أيها اللصّ؟ هل أقنعوكَ أن بوسعكَ هزيمة ليري؟! يا لكَ من مسكين، مَنْ سيدفع ثمن تذكرة، ليراكَ تلاكم أنتَ وذراعاك المحطّمتان؟! هل آلمكَ ذلك؟! اِعلمْ أني سأسبّبُ لكَ ألمًا مضاعفًا، يا بوريدا. ربّما تلك المرّة في ساراتوغا، وربّما في مرّة أخرى ضدّ والكوت، ولكنْ، في البداية فقط. وقد تمكّنتُ دائمًا من اجتياز ذلك، على أي حال، لم يكن خوفًا حقيقيًا. يقولون لكَ دائمًا لا تفكِّرْ بالخوف، أما أنا، فلا أفكّر به مطلقًا، دعوني أرى الخوف، فأنا لم أرَهُ

من قبل، سيُريكَ إياه بوريدا، يقول مونديني. سنرى ذلك، أنا أريد أن أرى الخوف، يا معلّم، لا أخاف من الخوف، يسارية يمينية يسارية، خطوتان إلى الخلف، ثمّ أهجم من جديد. لا ترقص. بل سأرقص، فأنا أحبّ الرقص، لأن خصومي يفقدون السيطرة حينما أرقص، أقرأ ذلك في عيونهم. لا يدركون شيئًا من النزال. ما أجمل حذائي بخطوطه الحمراء هذه! وذلك الذي لا يكفّ عن الهذر قبل النزال، ذلك، نعم، كان مرعوبًا، أنا أريد الخوف، يا توم العجوز، دائمًا تدقّ الجرس في القاعة، الكثير من اللكمات في رأسه، إن توم عجوز طيّب، قد تموت أو تصبح مثل توم، أما أنا، فأختار الموت، لا يهمّني الموت، ولكنْ، لا أريد أن أصبح مثل توم، أريد أن أموتَ وبسرعة، إذا ما تمكّنوا من الإطاحة بي، لن أدعهم دون أن يُكملوا مهمّتهم، سوف أنهض وأنهض حتّى يقضوا عليّ. أسمعتَ، يا دان دي بالما؟ أحبّ هذا كله، إنه سريع، لا داعي لانتظار سنين طويلة، فأنا على عجلة من أمري، أفهمتَ؟ أنا على عجلة من أمري، ولا تسألني لماذا يبدو الأمر غريبًا، ولكنْ، حينما يخطر في ذهني أنني قد أموت في الحلبة، فإن هذا يعجبني، يبدو أنني مجنون، كيف ترمي بنفسكَ من مرتفع ما، هذا الذي أفكّر به. كان من الأفضل أن يأتيَ معي بوتش، كنّا تحدّثنا معًا. اصمتْ، أيها الأحمق، وركّزْ تفكيركَ على بوريدا، هذا الاسم السخيف، سيكون نزاله قذرًا، ولكنْ، لا يهمّ، سيكون نزالًا قذرًا، إذا كان هذا ما تريد، أو أني أرقص أمامه وخلفه مثل إله، ثمّ أمامه وخلفه، لن ألكمه، ولكنْ، سأجعله يصاب بالجنون من اللكمات المزيّفة. تصوّر كم هو جميل أن تربح نزالًا بضربة واحدة فقط! أما الباقي، فهو مُجرّد زيف، تُنهِكُ به هذا المسكين حتّى يفقدَ عقله، فتتقدّم أنتَ، وتلكمه اللكمة القاضية، ولكنّ هذا لن يحدث مع بوريدا، مع بوريدا سيكون نزالًا قذرًا، ربّما ليس من البداية، ولكنْ، فيما بعد، سيكون نزالًا

لعينًا، تلاكم فيه ثمّ تنساه بعد ذلك. كم بودّي أن يكون اللقاء غدًا، بل الآن. اهدأ، يا لويار، اهدأ، اركض الآن، فقط اركضْ.

توقّف غولد. كانت هناك امرأة تبكي في الغرفة رَقْم ٢، تبكي وتصرخ قائلة إنها تريد أن تغادرَ المشفى، وكانت غاضبة من الجميع، لأنهم لا يتركونها تغادر. وكان زوجها عند الباب، يتحدّث مع رجل آخر، بدين وعجوز. كان يقول له إنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعلَ، لقد رَمَتْ هي بنفسها من السّلّم في ليلة عيد الميلاد، حدث كل شيء بشكل مفاجئ، فقد كانت تبدو معافاة بعد أن خرجت من مشفى الأمراض النفسية، كانت إنسانة طبيعية، ثمّ قامت في ليلة عيد الميلاد، ورمت بنفسها من على السّلّم، لا أعرف ماذا أفعل؟! لا أستطيع إعادتها إلى مشفى الأمراض النَّفْسية، فلديها كَسْرٌ في ساقها، وثلاثة أضلاع منحرفة، لقد مَلَلْتُ، أنا هنا منذ ثمانية عشر يومًا، لقد مَلَلْتُ فِعْلاً. كان يقول هذا كله دون أن يبكيَ، أو يحرّك يَدَيْه، كان متّكئًا على الجدار، وهادئًا، في حين يصله صراخ المرأة من الغرفة. كان بكاؤها يشبه بكاء طفلة. كأنها امرأة صغيرة. واصل غولد سيره، وحينما وَصَلَ إلى الغرفة رَقْم ٨، دخل فيها، وجلس على الكرسي جنب سرير الأستاذ تالتومار. لا يزال جهاز التّنفّس يواصل العمل، وكان تالتومار في وضعيّته نفسها، رأسه مائل قليلاً فوق الوسادة، ذراعاه خارج الغطاء، ويداه متكوّرتان. بدا لغولد كأنه يشاهد فيلمًا قديمًا لرجل يرحل عن الدنيا. مَدّ جسده نحو السرير دون أن ينهضَ من الكرسي، وقال:

- في الدقيقة الخامسة عشرة من الشوط الثاني. لا يزال التعادل سلبيًّا. يُصفّر الحَكَمُ، وينادي على كابتني الفريق، يقول لهما إنه مجهد جدًّا، لا يعرف ماذا حصل له، لكنه يشعر بالتعب، ويرغب في العودة إلى البيت.

يصافحهما، ثمّ يدير ظهره، ويسير ببطء وسط الملعب، باتّجاه غرف تبديل الملابس. ينظر إليه الجمهور بصمت، اللاعبون لا يحرّكون ساكنًا. كانت الكرة في منتصف الملعب، لا أحد يعير لها اهتمامًا. يضع الحَكَمُ صفّارته في جيبه، يتمتم بشيء، لا يسمعه أحد، ثمّ يختفي عن الأنظار.

لا تُبدي يدا تالتومار أيّ حركة، بالكاد تهتزّ أهدابه، بينما يستمرّ جهاز التّنفّس في عمله. يبقى غولد ينتظر بصمت. يتأمّل شَفَتَي تالتومار، تبدوان قاحلَتَيْن بدون عقب السيجارة المنطفئ. يصل مسامعه من الممرّ صوت بكاء المرأة الطفولي. يمرّ الوقت، الوقت الذي لا يتوقّف.

ينهض غولد، يعيد الكرسي حيث كان، يتناول معطفه، ويضعه على ذراعه، فقد كان الجوّ حارًا جدًّا. يلقي نظرة أخيرة لجهاز التّنفّس، ثمّ يقف أمام السرير للحظات.

- شكرًا، يا أستاذ - قال.

شكرًا، ردّدها في أعماقه.

ثمّ يخرج، ينزل الطوابق السّتّة، يقطع صالة الدخول الكبيرة، حيث تُباع الصُّحُف، ويستخدم المرضى - وهم بالبيجاما - الهاتفَ العمومي. باب الخروج الزجاجي ينفتح أوتوماتيكيًا ما إن تقترب منه. كان يومًا مُشمِسًا، بوميرينغ وديزل ينتظرانه في الخارج، يستندان على حاوية القمامة. غادروا معًا، سلكوا الشارع المشجّر الذي يقود إلى مركز المدينة. كانوا يقلّدون مشية ديزل المتمايلة، يرقصونها بأداء فنّيّ مميّز.

بعد ذلك بقليل، لمّا وصلوا إلى تقاطع الشارع في المنطقة السابعة، مسح بوميرينغ رأسه الحليق و"لم" يقل:

- يناقش الكابتنان الأمرَ، ثمّ يعاود الفريقان اللعبَ، يستمرّون حتّى اللا نهاية.

كان لدى غولد علكة قديمة ملتصقة في جوف جيب المعطف. يبحث عنها في الجيب، يخرجها، ثمّ يضعها في فمه. كانت باردة وصلبة، كزميل الدراسة الابتدائية الذي تلتقيه ذات يوم في الشارع، وأنت لم ترَه منذ سنين.

-٢١-

عادت شيتزي إلى البيت في الساعة الخامسة فجرًا. من عادتها أنها حينما تمارس الجنس مع أحدٍ ما، تكره أن تنامَ عنده حتّى الصباح. كان أمرًا مُضحِكًا، لكنها دائمًا ما تجد عذرًا للانصراف.

جلست على درجات السّلّم، دون أن تدخلَ البيت، كان الظلام مخيمًا، وثمّة ضجيج لا تسمعه عادةً خلال النهار. كأنه ضجيج أشياء، خلّفها الليل، والآن تسعى جاهدة لِلّحاق بركب الحياة، والوصول حتّى الفجر في الوقت المناسب، وسط باقي الضجيج العالمي.

ثمّة أشياء لا تصل حتّى النهاية، قالت في نفسها.

يجب أن أكفَّ عن هذا، ردّدتْ.

أن ينتهي بكِ الحال في سرير أحدٍ، لم تريه مسبقًا، إنما هو شيء أشبه برحلة. يبدو أمرًا مُتعِبًا، ومُضحِكًا بعضَ الشيء. لعلّه يصبح جميلًا فيما بعد، حينما تُعيدين التفكيرَ به، جميلٌ أنكِ قمتِ به، ثمّ تذهبين للتجوال في اليوم التالي، نظيفة وأنيقة، كأنكِ لم تكوني هناك - في الليلة الماضية - وأنتَ تفعلين وتقولين تلك الأشياء كلها، تقولين تلك الأشياء بالذات، لشخص لن تريه مجدّدًا.

عادة هي لا تراهم قطّ في المستقبل.

يجب أن أكفَّ عن هذا، قالت في نفسها.

لن أحقِّقَ أيّ شيء هكذا.

قد تكون الحياة أكثر بساطة، لو أنهم لم يحشوا رأسكَ بتلك الترهات، أي أنكَ يجب أن تحقِّقَ مستقبلاً، لو أنهم علّموكَ فقط أن تكونَ سعيدًا، حتّى إن لم تُنجزْ شيئًا! تلك الترهات كلها عن طريقكَ في الحياة. مَنْ يدري؟! لعلّنا خُلِقنا لكي نسلكَ طريقًا، تقودنا إلى ساحة ما، أو إلى حديقة عامة، ثمّ نتوقّف هناك، نترك الحياة تمرّ. لعلّنا نحن مفترق الطُّرُق، والحياة بحاجة أن نكون ثابتَيْن في مكاننا، قد تحدث كارثة كبرى لو تحرّكنا، في لحظة ما، وسَلَكْنَا طريقنا، ولكنْ، أيّ طريق؟ إن الآخرين هم الطُّرُق، أمّا أنا، فإني ساحة، لا أقود إلى أي مكان، أنا المكان. أظنّ أنني سألتحق بقاعة الألعاب الرياضية، قالت. هناك قاعة قريبة من هنا، تبقى مفتوحة حتّى خلال الليل. لماذا أحبّ فِعْل كل شيء في الليل فقط؟ تنظر إلى حذائها، ثمّ إلى قَدَمَيْها العاريَتَيْن في الحذاء، ثمّ إلى ساقَيْها العاريَتَيْن فوق القَدَمَيْن، تصل حتّى أطراف التّنّورة القصيرة. لقد كوّرت جاربَيْها وحمّالة صدرها، ودسّتْهما في الحقيبة. لم تنجحْ أبدًا في ارتدائهما عند نهوضها من سرير الرجل كي تغادرَ. كان شيئًا أشبه بحشو مسدّس بعد المبارزة. يا لها من حماقة! ما رأيكَ، يا بيرد العجوز؟ أنتَ أيضًا كنتَ تعيد مسدّسَيْكَ إلى القراب بعد أن تُطلِقَ النار، وتنفد الذخيرة؟ أتُكوِّرهما وتدسّهما في الحقيبة؟ أيها العجوز بيرد، سأضمن لكَ ميتةً رائعة.

فكّرتْ بالدخول والذهاب إلى النوم، ولكنها رأت المقطورة تحت أضواء

المصابيح، مركونة في الحديقة، وكأنها أقلّ صفرة من ذي قبل. كانت تغسلها جيّدًا مرّة في الأسبوع، تغسل حتّى الزجاج والإطارات، وكل شيء. ولأنها كانت تراها هناك، كل يوم، ولشهور طويلة، فقد أصبحت جزءًا من مشهد الحديقة العام، كشجرة أو جسر يعبر النهرَ. فأدركت شيتزي في تلك اللحظة كل شيء، في ظلام تلك الليلة الأخير، بجاريَيْها - كَجَارِيَيْ عاهرة - التي كوّرتْهما ودسّتهما في الحقيبة: فهمتْ وهي ترى المقطورة الصفراء تلمع تحت الأضواء أنها لم تعدْ شيئًا في انتظار أن ينطلقَ في رحلة ما. لقد أصبحتْ إحدى تلك الأشياء التي كانت وظيفتها أن تبقى ثابتة في مكانها، تتشبّث بجذور جزء ما من هذا العالم. تلك الأشياء التي تجدها وأنتَ تستيقظ صباحًا أو تعود إلى البيت، فتجدها هناك، تحرس وجودكَ. يا للغرابة! تُجهد نفسكَ في البحث عن الآليات الغريبة، لكي تحملَكَ إلى أماكن بعيدة، ثمّ ينتهي بكَ الأمر أن تحتفظَ بها بحبّ عميق، يجعل الأماكنَ البعيدة تلك - بصورة أو بأخرى - بعيدة عن الآليات الغريبة نفسها.

كلها ترهات، لا ينقصنا سوى الحصول على سيّارة، قالت في نفسها.

لا يمكننا الاستغناء عن السّيّارة، لا يمكن للمقطورة أن تتحرّك وحدها.

ستعثر ولا بد على سيّارة، هذا كل ما في الأمر.

وسيكون بوسعهم - حينها - الرحيل بعيدًا.

تبدو كأنها شجرة، قالت في نفسها. ثمّ شعرت بشيء ما في أعماقها، شيء تعرفه جيّدًا، ولا يعجبها، يشبه صخبًا نائيًا لإخفاق ما. وكان السّرّ في السيطرة على هذا الشعور - في حالة كهذه - هو كَبْتُهُ، كأنْ تصرخ عاليًا حتّى لا تسمعه، أو تضع جارِيَيْن وحمّالة صدر سوداء، ثمّ تخرج من البيت،

تمارس الجنس مع شخص، لم تره من قبل. أما هذا، فقد فعلتُهُ، قالت. لذلك وَقَعَ اختيارها على الاحتمال الآخر، وقرّرتْ أن تغنّي بأعلى صوتها New York, New York(*).

- هل سمعتِ الرجلَ الثملَ هذه الليلة؟ - سألها غولد صباح اليوم التالي، بينما كانا يتناولان الفطور.

- كلا، كنتُ أغطّ في نوم عميق.

ثمّ رنّ الهاتف، ذهبت شيتزي لتُجيب على الاتّصال، واستغرقتْ بعض الوقت قبل أن تعودَ. قالت إن المتّصل كان رئيس الجامعة بولدر، كان يريد الاطمئنان على غولد، سألها غولد إذا ما كان ينتظر على الخطّ.

- كلا، قال إنه لا يريد إزعاجكَ، كان فقط يريد الاطمئنان عليكَ. ثمّ تحدّث عن مؤتمر ما أو شيء من ذلك، ربّما مؤتمر حول الجسيمات.

- حول الجسيمات.

- قال إنه توجّب أن يُؤجّلوه.

قال غولد شيئًا ما لم تفهمه شيتزي، فنَهَضَتْ، ووَضَعَتْ كوبَ الحليب في الميكروويف.

- أهو بدينٌ رئيس الجامعة؟ أعني أهو سيّد بدين؟ أو ماذا؟ - سألت شيتزي.

- لماذا؟

- يبدو أن صوتَهُ صوتُ رجل بدين.

---

*) أغنيّة للمطرب الأمريكي الشهير، من جذور إيطالية، فرانك سيناترا. (المترجم).

أغلق غولد علبة البسكويت، ثمّ نظر إلى شيتزي.

- ماذا قال لكِ بالضبط؟

- قال إنهم لم يروكَ منذ اثنَيْن وعشرين يومًا، وقد اتّصل ليطمئنّ عليكَ. ثمّ قال هذا الشيء المتعلّق بالمؤتمر.

- أترغبين ببعض البسكويت؟

- كلا، شكرًا.

- إذا استهلكتِ مئتَي علبة، فستفوزين برحلة إلى ميامي.

- رائع.

- وهل استغرق هذا الوقت كله ليقول لكِ هاتَيْن الجملتَيْن؟

- في الحقيقة، فقد أرشدتُهُ إلى بعض الأساليب التي تساعده على التّخلّص من زيادة الوزن. إن الناس لا تدرك أن هناك أساليب بسيطة للتّخلّص من زيادة الوزن، يكفي أن تأكل بشيء من الذكاء. هذا ما قلتُهُ له.

- وكيف كان جوابه؟

- لا أعرف، ولكنْ، يبدو أنه شعر بالضيق. قال كلامًا خاليَ المعنى.

- إنه نحيف جدًّا. يبلغ ستّين عامًا من العمر، وهو نحيف للغاية.

- آه.

جعلت شيتزي ترتّب الطاولة. صعد غولد إلى غرفته، ثمّ نزل وهو يرتدي الجاكيت، وجعل يبحث عن حذائه.

- غولد ...

- نعم.

- كنتُ أتساءل ... تخيّل أن ولدًا عبقريًا، يتردّد على الجامعة مذ وُلد، كل يوم تطلّ فيه شمس الرّبّ على الأرض، أتفهم؟ ثمّ يحدث أن يخرجَ كل يوم من البيت، ولاثنَيْن وعشرين يومًا، دون أن يذهب إلى جامعته المقدّسة تلك، لم يذهبْ، ولا حتّى مرّة واحدة، مطلقًا، لذلك أنا أتساءل: أتعرف أين قد يذهب هذا الولد، كل يوم؟

- لعلّه يتجوّل في الشوارع.

- يتجوّل؟

- يتجوّل.

- هذا ممكن، أجل، هذا ممكن. من السهل أن يذهب للتّجوّل.

- وداعًا، شيتزي.

- وداعًا.

وَصَلَ غولد في ذلك اليوم إلى مدرسة رينيمبورت، تلك المدرسة التي يحيط بها سياج حديدي صدئ، عالٍ جدًّا حتّى إنه لا يمكن تسلّقه وعبوره. يمكن رؤية التلاميذ من الشبابيك وهم في الصفوف. وكان في باحة المدرسة تلميذ، لم يدخل الصّفّ، وكان يلعب بكرة سلّة، في زاوية الباحة بالضبط، حيث كان هناك عمود، فيه سلّة. وكان العمود مستهلكًا، لكن السّلّة جديدة، يبدو أنهم بدّلوها منذ وقت قصير. كان الولد يبلغ قرابة عشرة أعوام من العمر، أو ثلاثة عشر عامًا. وكان أسود. يلعب بالكرة، بكل

هدوء، كأنه يبحث عن شيء ما بداخله، وحينما يجده يتوقّف، ثمّ يرمي الكرة نحو السّلّة، وكان يُدخلُها كل مرّة. بوسعكَ أن تسمعَ صوت اصطدام الكرة بالسّلّة، إنه أشبه بالتّنفّس، أو هبوب رياح خفيفة. يقترب الفتى من العمود، يلتقط الكرة التي تكاد تتوقّف، ثمّ يبدأ من جديد. لا يبدو أنه حزين أو سعيد، كان يلعب بالكرة، ويُسدّد نحو السّلّة، كما لو كان قد كُتِبَ عليه أن يفعلَ ذلك منذ الأزل.

أنا أعرف هذا كله، قال غولد في نفسه.

أتقنَ الإيقاع قبل كل شيء، أغمضَ عينَيْه، واستمعَ إليه بشكل أفضل، كان الإيقاع نفسه.

أنا الآن أرى الفكرة، قال في نفسه.

حينما تأخذ الأفكار شكل السؤال، ثمّ تنطّ هنا وهناك، وتجمع قشور الأسئلة، تتبع مسارًا، يبدو عَبَثيًا في أول الأمر، ولكنْ، حينما يتركّب السؤال، فإنها تتوقّف. غولد الآن يرى الفتى يحدّق في السّلّة. يصمت. يقفز من على الأرض، يقوم التخمين بتعبئة القوّة اللازمة لاختصار المسافة البعيدة. يرمي الكرة. يتّحد الخيال بالفكرة. تطير الفكرة المنطقية في الهواء، وتدور حول نفسها بفِعْل رمية اليد التي تسلّمت الأمر من الخيال. تنزل الكرة في السّلّة تمامًا. ينتج عن ذلك كله شيء أشبه بالتّنفّس. ما إن تصل إلى تلك الصورة حتّى تفقدَها. تنطّ قشور السؤال من جديد وهي تُهيّئ نفسها للسؤال القادم. وهكذا دواليك.

شيتزي، المقطورة، مشفى الأمراض النَّفْسية، يدا تالتومار، المقطورة، كوفرني، إنه لشرف لنا أن نمنحكَ، إمّا أن تنظر أو تلعب، بكاء الأستاذ كيلوري، حينما تضحك شيتزي، ملعب كرة القَدَم، كوفرني، ديزل

وبوميرينغ، سكّة الحديد، يمينية يسارية، الأمّ. العيون التي تحدّق في السّلّة. القفزة. رمية الكرة.

ما يزال الفتى الأسود مستمرًا في لعبه، وكان وحيدًا، لا يمكن غضّ الطرف عنه، تمامًا كالأفكار حينما تأخذ شكل الأسئلة. تقبع خلفه المدرسة، مكان العِلْم المنشود، والمحاطة بسياجها العازل، فيها تنتج الأسئلة والأجوبة بطريقة منهجية، وفي إطارها، يدخل قوم، يخفّفون من حدّة زوايا الأسئلة القاطعة، وهم يُشكّلون جزءًا من تلك المجموعة المنعزلة.

ما تزال تصارع، تلك الأفكار التي نبذتْها المعرفة، قال غولد في نفسه.

(أخي الطفل، وأنتَ في فراغ الباحة الفارغة، أنتَ وأسئلتكَ، عَلِّمْني السكينة وتلك الحركة الواثقة التي تصيب بها السّلّة، ذلك النَّفَس، القابع في الجانب الآخر، بعيدًا عن المخاوف كلها).

عاد يسير وهو ينظّم خطواته على القفزات الخيالية لكرة افتراضية، يحرّكها بيده، يدفع بالهواء، ويسمع ارتطامها بإسفلت الشارع، ارتطامًا منتظمًا، يشبه دقّات قلب هادئ.

ما كان يراه الناس، ما يرونه فِعْليًا، هو ولد يمشي ويلعب بلعبة يويو خفية. وهكذا فقد كانوا ينظرون إليه وقد جَذَبَهم هذا الشيء غير المعقول الذي يقوم به ذلك المراهق، والذي يوحي بأولى علامات الجنون. إن الناس بطبيعتها تخشى الجنون، لذلك كانوا يمشون وكأن خطرًا ما يُهدِّدهم، وإن لم يكن هو على عِلْم بذلك، فقد كان هذا الشعور ينقضّ عليهم.

وَصَلَ إلى البيت.

كان في الحديقة مقطورة سَفَر. صفراء اللون.

-٢٢-

جاء إلى جامعة غولد باحثٌ إنكليزي، كان شخصيةً شهيرةً جدًّا، فاستقبله رئيس الجامعة بولدر في القاعة الكبرى في الجامعة. نَهَضَ بولدر لكي يقدّم الباحث للجمهور، ويحدّثهم عن مسيرته، وقد استغرق وقتًا طويلاً، لأن للباحث الإنكليزي مؤلّفات كثيرة، فضلاً عن ذلك، فقد ترجم وأسّس ودعم، إلخ، إضافة إلى هذا كله، فقد كان رئيسًا للكثير من الأشياء، ومستشارًا في أشياء أخرى. ثمّ إنه كان يتعاون مع الكثيرين، كان يتعاون بشكل جنوني. وهكذا فقد توجّب على بولدر أن يستغرقَ وقتًا طويلاً في الحديث. وقف يقرأ ورقة بين يَدَيْه، وبجانبه يجلس الباحث الإنكليزي.

كان الأمر يبدو غريبًا، لأن رئيس الجامعة بولدر يتحدّث عن الباحث كما لو كان فقيدًا، ولم يكن يفعل ذلك بقصد الإساءة، ولكن هذا ما تجري عليه الأمور في حالات كهذه، فلا بد للمتحدّث من أن يتكلّم عن الآخر بمديح شبيه بالمديح الجنائزي، والشيء الغريب أن الفقيد - هذه المرّة - حيّ يُرزَق، بل هو جالس بجانب المتحدّث - هادئًا ووديعًا - ولم يبدِ أيّ اعتراض على ذلك كله، بل يبدو - أحيانًا - أنه يستمتع بالأمر. وبدل أن يكون الباحث متحيرًا أو خجولاً، فإنه كان يتقبّل ذلك المديح الجنائزي من قِبَل بولدر بصورة عفوية، ورغم أن مكبّرات الصوت تصدح بجمل مثل "بحماس أخّاذ وقدرات فكرية فذّة..." أو "أخيرًا وليس آخرًا، قبل الباحث

بالرئاسة الشرفية لمجلّة "اتّحاد اللاتينيين" والتي ترأسها من قبله ..."، فقد كان هو بمأمنٍ من الحرج، وكأنه قابع في مكعّب زجاجي، يقيه ذلك كله. كان يُحدّق في الفراغ أمامه، لكنه يؤدّي ذلك بشيء من النُّبل والجدّيّة، وقد رَفَعَ ذقنه قليلاً، وخطّت التجاعيد جبينه، فبدت عليه مسحة من التركيز الرزين. يفرج شَفَتَيْه، ويُغلقهما في أوقات متقطّعة، فيبدو أن في أعماقه أشياء كثيرة، لكنه نادرًا ما يبلع ريقه. وكان يغيّر ملامح وجهه بين حين وآخر، وما إن يغيّرها حتّى يبقى ساكنًا في وضعيّته الجديدة، كأنه يقلب ساعة رملية، وعلى قسماته يلوح صبرُ مَنْ يقارع الزمن منذ أمد، ويفوز في الصراع كل مرّة. ذلك كله يجعل منه شخصية متكاملة تقريبًا، تتحلّى في آن واحد بالصلابة، وبشرود الذهن: وكان يعمد في الأولى إلى ترسيخ مديح رئيس الجامعة بولدر، وفي الثانية إلى تخفيف وطأة التّملّق والفظاظة. وفي لحظة ما، بينما بولدر يسرد فضائله في التدريس "دائم الحضور بين الطلاب، ولكنْ، بتواضعٍ شديدٍ، كأنه واحدٌ منهم" قام الباحث الإنكليزي بحركة فاقت التّصوّر: غادر سكونه المعتاد، رَفَعَ نظّارته، وأخفض رأسه قليلاً، وكأن التعب غالبه، ثمّ رَفَعَ سبّابة يده اليمنى وإبهامها، أغمضَ عينَيْه، وقامَ بتدليكهما برفق. بتلك الحركة الإنسانية البسيطة أظهر للجمهور الواسع كل مشوار العناء وخيبات الأمل والجهد الذي لم تقوَ حياة النجاح والشهرة أن تمحوه، وكأنه، بتلك الحركة، أراد أن يورثَهم تلك الذكريات. وكان ذلك مذهلاً. ثمّ رَفَعَ رأسه فجأةً، وكأنه صحا من حلم، وضع النظّارة بحركة سريعة، ولكن دقيقة، وعاد إلى سكونه التّامّ، كذي قبل، وهو يحدّق في الفراغ أمامه، بشجاعة من ذاق العذابات، لكنها لم تهزمه.

في تلك اللحظة - تمامًا - تقيّأ الأستاذ موندريان كيلوري. كان جالسًا في الصّفّ الثالث، وجعل يتقيّأ.

هناك شيء آخر - فضلاً عن البكاء - عادة ما ينتاب الأستاذ موندريان كيلوري، وهو أن يتقيّأ، بين الحين والآخر، وهذا أيضًا له علاقة بأبحاثه، بالذات فيما يتعلّق بالبحث الذي بدأ بكتابته، والذي عَنْوَنَهُ، ويا للغرابة، "الدحض النهائي والمنقذ لكل ما كتبته، أكتبه وسأكتبه في المستقبل". وقد كان بحثًا غريبًا جدًّا، عمل عليه الأستاذ موندريان كيلوري لمدّة أربعة عشر عامًا، دون أن يُدوِّن منه حرفًا واحدًا. وذات يوم، بينما كان في كابينة، تُعرَض فيها أفلام إباحية، وفيها لوحة أرقام، بوسعكَ أن تختارَ منها ما بين ٢١٢ فيديوًا مختلفًا، أدرك حينها كل شيء، فخرج من الكابينة، تناول قصاصة ورق، طُبعت فيه أسعار الصالة، وكتب بحثه على الوجه الآخر منها. كان واقفًا هناك، كتبه وهو متّكئ على الطاولة، لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقَتَيْن، ويتكوّن البحث من ستّ نظريات متسلسلة، لكل منها فحوى مستقل. أطول نظرية بينها لم تتجاوز الخمسة أسطر. ثمّ عاد بعدها إلى الكابينة، كانت لا تزال لديه ثلاث دقائق مدفوعة الثمن، ويؤسفُهُ ألا يستغلّها. جعل يختار فيديوهات بشكل اعتباطي، وحينما يقع على فيديو مثلي، فإنه يثور غضبًا.

وكان الأمر في الحقيقة مدهش، إذ لم يكن بحث الأستاذ موندريان كيلوري يتناول موضوعه المفضّل - أي الأسطح المقعّرة - كلا، بل كان يحمل العنوان التالي:

"بحث حول المصداقية الفكرية".

وكان بوميرينغ من أشدّ المعجبين به، وذات مرّة، لخّصه بالجملة التالية:

مادام سارقو البنوك يُلقى بهم في السجن، فلماذا، إذنْ، يبقى المفكّرون أحرارًا؟

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن لدى بوميرينغ "حسابًا مفتوحًا مع البنوك" (وتعود هذه الجملة لشيتزي، وتظنّ أنها عبقرية). كان يمقتُ البنوك، وإن لم يُعرَف سبب ذلك. وقد قام - لفترة من الزمن - بحملة تأديبية ضدّ الاستخدام المجحف للصّرّاف الآلي. كان هو وغولد وديزل يلوكون العلكة، ثمّ يلصقونها على لوحة مفاتيح الصراف الآلي. وعادة ما يلصقونها على الرَّقْم ٥. وحينما يأتي شخص لاستخدامها، وما إن يصل إلى مرحلة كتابة الرَّقْم السّرّيّ، حتّى ينتبهَ للعلكة. إن لم يكن الرَّقْم ٥ في رَقْمه السّرّيّ، فإنه يستمرّ في العملية، متّخذًا جانب الحذر حينما يضغط على بقية الأرقام. أما إذا كان الرَّقْم ٥ من بينها، فإنه يُصاب بالهلع. يجب أن تواجه حاجته الملحّة للمال تلك العلكة المقيتة. يحاول بعضهم أن يزيلَ العلكة بمختلف الأشياء، وعادة ما يلطّخون لوحة المفاتيح بأكملها. نسبة قليلة من الناس تعدل عن صرف المال، وتغادر المكان. ولكن الأغلبية - وهذا المحزن في الأمر - تبلع ريقها، ثمّ تضغط بالإصبع على العلكة. وذات مرّة، رأى ديزل امرأة سيّئة الحظّ، يتردّد الرَّقْم ٥ ثلاث مرّات في رَقْمها السّرّيّ، فضغطت المرّة الأولى بعزم، ثمّ كشّرت في المرّة الثانية، وفي المرّة الثالثة، جعلت تتقيّأ.

بالمناسبة، هذا مضمون النظرية الأولى في "بحث حول المصداقية الفكرية":

١- إن لدى الناس أفكارًا.

- عبقري - علّقتْ شيتزي.

- إنها البداية فقط، يا آنسة. ولا تتصوّري أن الأمر تحصيل حاصل. شخص مثل كانط، على سبيل المثال، كان سيعطي النظرية قَدْرَهَا.

- كانط؟

- إنه ألماني.

- آه.

- هل يجب أن أغسلَ هذا أيضًا؟

- أجل، شكرًا.

حينما كانوا يغسلون المقطورة - بين حين وآخر - كان الأستاذ موندريان كيلوري يحضر لمساعدتهم. بعد حادثة فانكور، أصبح هو وغولد صَديقَيْن. وكان الأستاذ يحبّ الآخرين أيضًا، شيتزي والعملاق والأبكم. وكانوا يتبادلون أطراف الحديث، بينما هم يغسلون المقطورة. وكان "بحث حول المصداقية الفكرية" أحد تلك المواضيع التي تسلب لُبّهم.

١. إن لدى الناس أفكارًا.

يقول الأستاذ موندريان كيلوري إن الأفكار أشبه بمجرّات إدراكية صغيرة، ويدّعي أنها فوضوية ومتغيّرة باستمرار، ولا يمكن استخدامها فِعْليًا في الواقع. إنها جميلة، هذا كلّ ما في الأمر، هي جميلة جدًّا. ولكنها عبارة عن فوضى عارمة. الأفكار، في شكلها العذري، فوضى عارمة حقًّا. إنها إيحاءات مفاجئة، تفضي إلى اللا نهاية. هكذا يقول. أمّا الأفكار "الجلية وواضحة المعالم"، يضيف، فهي من اختراع ديكارت، وهي ليست إلا خدعة، لا توجد أفكار واضحة، الأفكار بطبيعة حالها معتمة، أما إذا كانت لديكَ فكرة واضحة، فلا شك بأنها ليست فكرة.

- ما هي، إذنْ؟

- النظرية رَقْم ٢، يا شباب.

مضمون النظرية رَقْم ٢:

٢. يطرح الناس أفكارَهم.

هذه هي المصيبة العظمى، يقول الأستاذ موندريان كيلوري. حينما تطرح فكرة ما، فإنكَ تمنحها نظامًا، هي، أصلًا، تفتقر إليه. عليكَ، إذنْ، أن تمنحها شكلًا مناسبًا، وملخّصًا، يمكن للآخرين استيعابه. ما دمت تفكّر بها فقط، فستبقى كما هي، تلك الفوضى الرائعة، ولكنْ، حينما تقرّر طرحها، فإنكَ ستقوم بإقصاء جانب منها، ثمّ تلخّص جانبًا آخر، تبسط هذا، وتلغي ذاك، حتّى ترتّبها، وتضفي عليها شيئًا من المنطق: ستعمل كثيرًا، فينتج عن ذلك كله - في النهاية - شيء ما، يستوعبه الآخرون. فكرة "جلية وواضحة المعالم". تحاول - في بداية - الأمر أن تُحسنَ صُنعَها: لا تقصي منها الكثير، في محاولة للحفاظ على اللا نهاية التي تفضي إليها فكرة وُلِدَت في رأسكَ. ولكنها محاولة فقط، فالآخرون لا يمنحونكَ الوقتَ الكافي لفِعْل ذلك، يحثّونكَ، ويتهجّمون عليكَ، ليفهموا ما تقصد منها.

- مَنْ هم الآخرون؟

- الآخرون، كلّ مَنْ حولكَ.

- مثلًا؟

- الناس. الناس. تطرحين أنتِ فكرةً ما، وهناك أناسٌ يستمعون إليها، ويريدون فَهْمَهَا. بل ربّما ثمّة ما هو أسوأ من ذلك، يريدون أن يتيقّنوا فيما إذا كانت صحيحة أم خاطئة. هذا عهر وانحراف.

- وماذا على المتحدّث أن يفعلَ؟ يقفل عليها في رأسه، وكفى؟

- لا أعرف ما هو الحل، ولكنْ، أعرف تمامًا ما سيكون ردّ فِعْله. ها أنتَ هناك، تحاول طرح فكرتكَ، وتشعر أن الآخرين يتهجّمون عليكَ. فتقوم أنتَ، وبسرعة مذهلة، بجعل الفكرة - قدر الإمكان - أكثر تماسكًا وقوّة، لكي تقاومَ تهجّمهم عليكَ، ولكي تخرج الفكرة حيوية، تلجأ إلى كامل ذكائكَ، لتجعلَ منها آلة لا تُهزَم، وكلّما نجحتَ في سعيكَ، أدركتَ أن ما تقوم به، أن ما تقوم به فِعْليًا، هو أنكَ تنأى شيئًا فشيئًا، ولكنْ، بسرعة مذهلة، عن أصل فكرتكَ الأولى، وذلك كله من أجل الرغبة البائسة في طرحها، أي من أجل إثباتها بقوّة وتماسك ورُقيّ حتّى تقاومَ أمواج العالم الخارجي التي تصطدم بها، تقاوم اعتراضات الآخرين، رغم أنوف أولئك الذين لم يفهموكَ جيّدًا، أو رغم أنف مديركَ الذي يتّصل بكَ هاتفيًا، والذي ...

- سيبرد الطعام، يا أستاذ.

عادة ما يتحدّثون وهم يأكلون أيضًا، وكان الأستاذ موندريان كيلوري يحبّ البيتزا على الطريقة التي تصنعها بها شيتزي، وهكذا، في أيّام السبت على الأخصّ، يأكلون البيتزا، والبيتزا إذا ما بردتْ، يصبح من الصعب أكلها.

٢. يطرح الناسُ أفكارَهم.

فلم تعدْ تلك أفكارَكَ، يصيح الأستاذ موندريان كيلوري ثائرًا. ما هي سوى مخلّفات الأفكار، قمتَ بتنظيمها بمهارة حتّى أصبحتْ آلات صلدة، آلات متكاملة، آلات حرب. إنها أفكار اصطناعية، تربطها صلة بعيدة جدًّا بتلك الفوضى اللا نهائية الرائعة التي ابتدأ منها كل شيء، إلا أنها صلة، لا يمكن لمحها، كعطر بعيد جدًّا. في الحقيقة، ما هي إلا فكرة بلاستيكية،

شيء اصطناعي، لا صلة لها بالحقيقة، إنها ابتكارات، الهدف منها هو الظهور بصورة مقبولة أمام الناس. وهذا - حسب رأيه - يقود، بلا شك، إلى النظرية رَقْم ٣، وهذا مضمونها:

٣. يطرح الناس أفكارًا، ليست أفكارهم.

- أتراكَ تمزح؟

- بل أنا جادّ فِعْلًا.

- كيف لهم أن يطرحوا أفكارًا، ليست أفكارهم؟

- لنقل إنها كانت أفكارهم مسبقًا، لكنها لم تعدْ كذلك. لقد أفلتتْ بسرعة من بين أيديهم، وأصبحت مخلوقات اصطناعية، تطوّرت بشكل مستقلّ، وهدفها الأوحد هو أن تبقى على قيد الوجود. يقوم الشخص بتسخير ذكائه لها، فتستغلّه هي، لتصبح أكثر صلادة ودقّة. يمكننا القول إن الذكاء الإنساني يعمل بشكل مستمرّ، من أجل تشتيت الفوضى اللا نهائية الرائعة، فوضى الأفكار الأصلية، وإبدالها صلادةَ أفكار مصطنعة، إنها صلادة متكاملة. كانت تلك الأفكار أشبه بالإيحاءات، أما الآن، فقد أصبحت آلات في قبضة الشخص، وهو يعرفها تمامًا، ولكنه لا يعرف من أين أتت، وما هي صلتها بالحقيقة التي كانت بداخله. ويبدو أن ذلك لا يعنيه أصلًا، فهي تعمل، تقاوم الهجمات الخارجية، وبوسعها أن تهزّ ضعف الآخرين، دون أن يلحقَها سوء، فلماذا، إذنْ، يسأل نفسه من أين أتت؟ ها هو الشخص ينظر إليها، ويكتشف بهجة امتلاكها في قبضته، واستخدامها ورؤية تأثيرها. ثمّ يدرك - عاجلًا أم آجلًا - أن بوسعه استخدام تلك الأفكار المصطنعة في صراعاته. ولم يكن قد خَطَرَ في ذهنه ذلك من قبل، فلم

تكن تلك الأفكار في أصلها سوى إيحاءات، وما مرّ بذهنه هو رغبة إظهارها للآخرين، هذا كل ما في الأمر. ولكنْ، مع مرور الوقت، لم يبقَ أثر لتلك الرغبة الأصلية. كانت إيحاءات، فصنع منها الإنسان أسلحة.

كان هذا ما تحبّه شيتزي في النظرية: كانت إيحاءات، فصنع منها الإنسان أسلحة.

- أتعرف بمَ أفكّر عادة، يا أستاذ؟

- بمَ، يا آنستي؟

- بمقاتلي الويسترن، أتفهم ما أقصد؟

- أجل.

- حسنًا، إنهم يجيدون إطلاق النار بشكل مذهل، يعرفون كل شيء عن مسدّساتهم، ولكنْ، إذا ما انتبهتَ للأمر، فإن لا أحد منهم بوسعه أن يصنع مسدّسًا، أتفهم ما أعني؟

- أكملي.

- أعني أن استخدام السلاح يختلف عن ابتكاره أو صناعته.

- بالضبط، يا آنستي.

- لا أعرف ماذا يعني هذا، ولكنني أفكّر فيه دائمًا.

- خيرًا تفعلين، يا آنسة.

- أتظن ذلك؟

- أنا واثق من ذلك تمامًا.

ثمّ إنك إذا ما نظرتَ في الأمر - يا غولد - ستعرف ماذا يحدث في رأس رجلٍ، يطرح فكرةً، وأحد ما أمامه يعترض عليها. أتظنّ أن لدى الرجل الوقت أو المصداقية ليعود إلى الإيحاء الذي كان - ذات يوم - أصل الفكرة، ليدقّق إذا ما كان الاعتراض في محلّه؟ لن يفعل ذلك أبدًا. إن من السهل جدًّا تشذيب الفكرة المصطنعة التي بين يَدَيْه، بحيث تصمد أمام الاعتراضات، وربّما تجتاز ذلك، وتأخذ دور الهجوم على الاعتراض. ما شأن احترام الحقيقة في هذا كله؟ لا شأن لها. إنها مبارزة، وكلٌّ يريد أن يُثبت أنه الأقوى. لا يستخدمون أسلحة أخرى، لأنهم لا يجيدون استخدامها، إذنْ، يستخدمون الأفكار. ويبدو أن الهدف من هذا كله هو طَرْح الأفكار بوضوح أكثر، ولكن الحقيقة ما يرغب فيه الاثنان هو إثبات مَنْ هو الأقوى بينهم. وليست هذه إلا مبارزة. يبدون كمفكّرين بارزين، ولكنْ، في الحقيقة، هم ليسوا سوى حيوانات، تدافع عن حدودها، أو تتنافس على أنثى، أو تتقاتل من أجل الطعام. اسمعني جيّدًا، يا غولد: لن تجدَ أبدًا منظرًا أكثر بدائية وبربرية من منظر مفكّرَيْنِ يتبارزان. وليس هناك ما هو أكثر زيفًا ممّا يقومان به.

بعد مضي أعوام على ذلك، وبعد أن وقع كل شيء ولم يكنْ هناك ما يمكن فِعْله، التقت شيتزي مصادفة بالأستاذ موندريان كيلوري، في محطّة القطار. وكانا لم يلتقيا منذ زمن. جلسا يحتسيان الشراب، ويتحدّثان عن الجامعة، عمّا كانت تفعله شيتزي، وعن قرار الأستاذ في تَرْك التدريس. وبدا واضحًا أنه كان يرغب في الحديث عن غولد، وعمّا جرى، ولكنْ، كان الأمر صعبًا بالنسبة له. وفي لحظة ما، ساد الصمت بينهما، عندها قال الأستاذ موندريان كيلوري:

- قد يبدو الأمر مضحكًا، ولكنْ، أظنّ أن ذلك الفتى هو الشخص الوحيد الصادق من بين كل الذين التقيتُ بهم في حياتي. كان فتى صادقًا، أتصدِّقين ما أقوله؟

أومأت شيتزي برأسها، وخَطَرَ بذهنها أن هذا تمامًا هو جوهر القضية، وأن كل شيء يستوي في مكانه إذا ما أدرك أحدٌ أن غولد كان عبقريًا صادقًا.

ثمّ قام الأستاذ وعانق شيتزي قبل أن يغادر، بدا عناقه مضحكًا، لكنه كان حقيقيًا.

- لا تشغلي بالكِ، إذا ما بكيتُ، أنا لستُ حزينًا، لستُ حزينًا من أجل غولد.

- أعرف ذلك.

- كل ما في الأمر أنني أبكي دائمًا.

- لا تقلق، يا أستاذ، أنا أحبّ الأشخاص الذين يبكون.

- هذا أفضل.

- أنا جادّة فيما أقول، لطالما أحببتُهم.

ولم يلتقيا أبدًا بعد ذلك اليوم.

على أي حال، فبعد النظرية رَقْم ٣ (يطرح الناس أفكارًا ليست أفكارهم) تأتي النظرية رَقْم ٤، متناغمة تمامًا معها، وهذا مضمونها:

٤. بعد أن تُطرَح الأفكار، وتتعرّض للضغوطات والنقد من قِبَل المستمعين، تصبح مادّة مصطنعة، لا صلة لها بالأصل. فيُشذّبها الشخصُ

بعبقرية حتّى تصبح أدوات قاتلة، ويكتشف - مع مرور الزمن - أن بوسعه استخدامها كأسلحة. حتّى إنه لا يعيد النَّظَر في الأمر، بل يفتح النار مباشرةً.

- عظيم - تقول شيتزي.

- إنها نظرية طويلة بعض الشيء، يجب أن أعيدَ النَّظَر فيها - يدّعي الأستاذ موندريان كيلوري.

- برأيي من الممكن اختصارها هكذا: كانت الأفكار إيحاءات، فأضحت أسلحة.

- إنها مختصرة جدًّا، ألا تعتقدين ذلك، يا آنسة؟

- أهكذا يبدو لكَ؟

- إنها تراجيديا، تراجيديا حقيقية. يجب أن نكون حذرين من تلخيصها في كلمتَيْن فقط.

- تراجيديا؟

أومأ الأستاذ برأسه وهو يلوك البيتزا. فقد كان - في حقيقة الأمر - على قناعة تامّة بأنها تراجيديا. وقد فكّر بوضع عنوان ثانوي للبحث، وكان العنوان الثانوي: تحليل التراجيديا الضرورية. ثمّ خَطَرَ في ذهنه أن العناوين الثانوية مزرية، كما الجوارب البيضاء أو حذاء الموكاسين الرمادي. اليابانيون فقط يضعون الموكاسين الرمادي، ومن الممكن أنهم يعانون من عمى الألوان، وأنهم متأكّدون أنها بنّيّة اللون، إذنْ - والحال هذه - يجب تنبيههم إلى سوء الفَهْم، وبسرعة.

أتعرف، يا غولد؟ لقد استغرقتُ سنين طويلةً حتّى استسلمتُ للأمر الواقع، ولم أكن أنوي الرضوخ. كانت الصلة بين الحقيقة وسِحْر تلك الأفكار جميلة جدًّا، وشيء فريد لا يتكرّر. تلك الأفكار الإيحائية الفوضوية في عقلكَ ... كيف للجميع أن يختاروا التّخلّي عن ذلك كله؟ كيف لهم رفضه وقبول الصراع بتلك الأفكار التافهة المصطنعة؟ - ولا أنكر أنها نتاج فكري رائع - ولكنها ليست سوى ألعاب تافهة وبائسة، إنها نتاج البلاغة وحركات المنطق البهلوانية، ولكنها ألعاب، آلات صغيرة مصطنعة. وذلك كله من أجل ماذا؟ من أجل الرغبة الجامحة في الصراع؟ لم يكن بمقدوري تصديق ذلك، كنتُ أظنّ أن هناك شيئًا ما يخفى عليّ، ولكنْ - في النهاية - توجّب عليّ أن أرضخ للأمر، كان من السهل استيعابه إذا ما تمكّنتُ من اجتياز الاشمئزاز والنَّظَر إلى المسألة من قرب، حتّى وإن كانت تثير اشمئزازكَ، يجب أن تنظرَ إليها من قرب. خذ مثالًا على ذلك أحد أولئك الذين يعيشون من الأفكار، أحد المتمرّسين، باحث مثلًا، باحث في باب من أبواب العلم، أوكي؟ لا بد أنه بدأ عمله راغبًا فيه، ومن المؤكّد أنه بدأ مسيرته العلمية لأنه موهوب، وكان أحد أولئك الذين لديهم تلك الإيحاءات المفضية إلى اللا نهاية. بوسعنا أن نتخيّل أنه حظي بها في شبابه، وقد سَحَرَتْهُ بجمالها. ثمّ خَطَرَ في ذهنه أن يُدوِّنها، ربّما تحدّث قبل ذلك مع أحدهم، ثمّ أدرك - ذات يوم - أن بوسعه تدوينها، فجلس وهو يقصد تدوينها عن حُسن نية، ولكنه يدركُ جيّدًا أنه سيتمكّن من كتابة جزء ضئيل من تلك الفوضى اللا نهائية التي تضجّ في رأسه، وإنه - يومًا ما - سيتمكّن من تناول المسألة بالكامل، كأن يشرح مقاصده بشكل أفضل، وأن ينظّمها بصورة حسنة. فيبدأ هو بالكتابة، ويقرأ الآخرون ما يكتب. يأتي أناس لا يعرفهم حتّى، يحاولون فَهْم ما كَتَبَهُ، في حين يدعوه آخرون للمشاركة في

مؤتمرات، لكي يتمكّنوا من نَقْض أفكاره، فيدافع هو عنها، يُطوِّرها، يُصحِّحها، ويبدأ بالهجوم بها، فيجد جمهورًا صغيرًا يحيط به، ويقف إلى جانبه، ويرى جهة عدوّة أمامه، ترغب في تدمير أفكاره: عندئذٍ يدرك ذلك الشخص وجوده، يا غولد. لا يتسنّى له حتّى أن ينتبهَ للأمر، يجذبه كلّ ما حوله، يجذبه الصراع، يفهم عندها معنى دخوله القاعة، واستماع بعض الطلاب إليه، يرى الاحترام في نظرة الناس العاديين، ثمّ تُفاجِئه رغبة في أن يحصد كُره أحد الأساتذة المشاهير، بل يحاول صُنع ذلك بنفسه، ينال غايته، لعلّه يكتب ثلاثة أسطر في كتاب ما، ثلاثة أسطر، توحي بالبُغض، فيقوم بعد ذلك بذِكْرها في مجلّة مختصّة في مجال بحثه، وبعد عدّة أسابيع، يجد مقالًا عنه في صحيفة ما، وقد عدّوه غريمًا لذلك الأستاذ الشهير، ثمّ يجد صورته أيضًا في تلك الصحيفة، ها هو يرى صورته في الصحيفة، ويراها الكثيرون أيضًا، وهكذا تتدرّج الأمور - شيئًا فشيئًا - حتّى يصبح هو وفكرته المصطنعة كتلة واحدة، تشقّ طريقها في الحياة، هو المحرّك والفكرة وقوده، يشقّان طريقهما في الحياة معًا، ولم يخطر بباله ذلك أبدًا، يجب أن تفهمَ هذا، يا غولد، لم يخطر في باله أن ينال ذلك كله، ولعلّه لم يكنْ يرغب فيه، إذا ما أردنا أن نكون دقيقين، ولكنْ، لقد وَقَعَ الأمر، ووجوده الآن مرتبط بفكرته المصطنعة، تلك الفكرة البعيدة كل البُعْد عن الإيحاء الذي يفضي إلى اللا نهاية، لأنكَ عدّلتَها - مع الوقت - ألف مرّة، لكي تتمكّن من الصمود أمام الهجمات، فهي، وإن كانت فكرة مصطنعة، لكنها صلدة وثابتة، تخضع للتجربة دائمًا، ودونها قد يختفي الباحث مباشرةً، يعود من جديد إلى بركة حياته الاعتيادية. قد لا يبدو الأمر بهذه الفظاعة - أي أن يعود إلى بركة حياته الاعتيادية - ولم أدركْ، ولسنين طويلة، فظاعة الأمر، ولكن السّرّ في فَهْمه هو الاقتراب أكثر، أن

تنظر للأمر من مسافة قريبة جدًّا، أعرف أنه يثير الاشمئزاز، ولكنْ، يجب أن تتبعني، يا غولد، سُدَّ أنفكَ، وادنُ، لترى من قُرب ذلك الباحث، لا بد أن له أبًا، انظرْ من قرب، إنه أب قاسٍ جدًّا، قاسٍ بشكل أحمق، وقد أثقل كاهلَ ابنه - ولسنين طويلة - وهو يُثبت له أنه إنسان فاشل، واستمرّ ذلك حتّى اليوم الذي رأى فيه اسم ابنه في الصحيفة، لا يهمّ لماذا، المهمّ أن كبار السّنّ من أصدقائه يُهنّئونه على ذلك "لقد رأيتُ ابنكَ في الصحيفة"، قد يبدو لكَ مثيرًا للاشمئزاز، يا غولد، ولكن الأب يطير فرحًا، عندها تتسنّى للابن الفرصة التي لم يحصل عليها من قبل، أي الانتقام المتأخّر، وهو شيء عظيم، أن تُسدِّد نَظَرَكَ في عينَي أبيكَ، ليس ثمّة ثمن لذلك، ماذا يعني أنك تستخدم الأفكار كأسلحة، وقد نسيت صلتها بأصلها، لا شيء يعنيه أمام أن تصبح ابنًا فِعْليًا لوالدكَ، ابنًا حقيقيًا، ومقبولًا. لا شيء له قيمة أمام نَيْل احترام الأب، صدِّقني، ولا الحُرّيّة التي نالها الباحث لقاء حصوله على بعض المال، مال حقيقي، يجود به عليه الكرسي الذي ناله في جامعة ما، مال يُنقذه من حياة العَوَز، ويجعله يتذوّق حياة التَّرَف، وبالتالي يتمكّن من الحصول على بيت جميل، يتّخذ فيه مكتبًا، ويُنشئ فيه مكتبة رائعة. ثمّ يأتي أحد الصُّحُفيين، ويقوم بعمل ريبورتاج، ولعلّه شيء بسيط، ولكنه عظيم، ويكشف كيف يلجأ ذلك الباحث إلى مكتبه وكُتُبه، ليهرب من واقع الحياة الذي يحاصره، حياة في حقيقة أمرها خيالية، بينما هو هناك، في ملجئه الذي يعرضه الريبورتاج فجأةً، ويبدو كأنه حقيقة واقعية، فتستقرّ تلك الصورة في أذهان الناس التي تنظر - منذ تلك اللحظة - بإجلال واحترام للباحث، وتصبح تلك النظرة أساسية في حياته، ولا يمكنه الاستغناء عنها، فهي تمنحه الإجلال والاعتبار والحصانة. يمكنكَ التّخلّي عن تلك النظرة فقط حينما لا تُدرك معناها. ولكنْ، بعد أن تُدركَه! بعد

أن رأيتَهُ في عين الشخص الذي يجلس إلى جانبكَ على الشاطئ، تحت مظلّته، وبعد أن رأيتَهُ في عين مَنْ يبيعكَ السّيّارة، وفي عين الناشر الذي لم يخطر في بالكَ يومًا أنكَ كنتَ ستتعرّف إليه، وفي عين الممثّلة التلفزيونية، ثمّ - ذات مرّة وأنتَ تُصيّف على الجبل - تراه في عين الوزير، الوزير شخصيًا! إنه أمر مثير للاشمئزاز، أليس كذلك؟ هذا أفضل، إذ يعني أننا قريبون من المقصد. لا تتراجع، يا غولد، ليس هذا وقت الاستسلام. بوسعنا أن نقتربَ أكثر، لنرى زوجة الباحث، وكانت صديقته في الصبا، مذ كان عمره اثنَي عشر عامًا، وقد أحبّها دائمًا، ثمّ تزوّجها كعملية أوتوماتيكية، وليصون نفسه من سوء الأقدار، وهي زوجة ظريفة ورزينة، زوجة جيّدة للأستاذ الشهير، ولفكرته القاتلة، ولكنها سعيدة، على أي حال، انظرْ إليها جيّدًا. انظرْ إليها حينما تصحو، حينما تخرج من الحمّام، انظرْ إليها، ثمّ انظرْ إليه، إلى الباحث، فهو ليس طويلاً، ابتسامته حزينة ورأسه مليء بالقشرة، وليس هذا عيبًا، ولكنه هكذا، انظر إلى يَدَيْه الرقيقَتَيْن، ناعمَتَيْن وشاحبَتَيْن، وعادة ما تسند ذقنه في الصور، يدان جميلتان، أما الباقي، فمثير للشفقة، يجب أن تُجهدَ نفسكَ، يا غولد، لتراه وهو عارٍ، شخص كهذا من المهمّ أن تراه عاريًا، صدِّقني، ستجده شاحبًا ومترهّلاً، بعضلات واهية، وفي وسط الأُرْبِيَّة أعضاؤه الذَّكَرية، تُرى أيّ حظوظ لهذا النوع من الحيوانات في الصراع اليومي حول الأنثى، لا بد أن حظوظه بائسة ومتواضعة، لا شك في ذلك، لولا تلك الفكرة المصطنعة التي حوّلته من حيوان مقهور إلى مصارع، وبالتالي إلى قائد قطيع. ها هو بين يَدَيْه حافظة أوراق من الجِلْد، يسير بخطوات رزينة، انظرْ إليه، ها هو ينزل سلّم الجامعة، تدنو منه إحدى الطالبات التي تُقدّم نفسها بخجل، تتحدّث معه وهي تسير إلى جنبه حتّى الشارع، ثمّ تتكوّن علاقة صداقة مزعومة بينهما، علاقة

تثير التّقزّز، ولكنها تفيدنا في بحثنا، وصالحة للدراسة، لكي نتعلّم منها كيف سينتهي الأمر، في بيت الطالبة الصغير المستأجر، حيث السرير الكبير المغطّى بشرشف من البيرو، فيصعد هو، يحمل حافظة الأوراق، والقشرة تملأ رأسه، بحجّة أن يُصحّح مراجعَ البحث، تمرّ ساعات طويلة وهو يغازل الفتاة حتّى يجتاحَ آخرَ أسوارِ تَرَدُّدِهَا، بفضل كمّاشة فكرته المصطنعة ومشرطها، وبفضل مقال له، نُشر على مجلّة ما، يقترحه عليها، فيتشجّع حينها، ويشعر بشكل ما بأحقّيّته في وَضْع إحدى يَدَيْه، إحدى يَدَيْه الجميلَتَيْن، على بشرة تلك الفتاة، تلك الفتاة التي ما كانت لتسمحَ له الأقدار أن يلمسَها، إلا أن فكرته المصطنعة الآن تمنحها إليه، وتمنحه أيضًا ذلك القميصَ الذي يُفتَح الآن، واللسانَ الذي تُطبِق عليه شفتاه الدقيقتان والرماديتان، والنَّفَس الأنثوي المرتعش في أذنه، ويدها الجميلة الناعمة التي تمُسك بعُضوه الذَّكَري. أتظنّ أن هناك ثمنًا ما لكل هذا؟ ليس هناك لهذا ثمن، يا غولد. أتظنّ أن ذلك الرجل كان ليتخلّى عن هذا كله فقط، من أجل أن يكون صادقًا، من أجل احترام اللا نهاية في أفكاره، ليتساءل ما هي الحقيقة؟ أتظنّ أن ذلك الرجل سيتساءل يومًا ما، حتّى ولو في سرّه، أو في وحدته المطلقة التي لا يتخلّلها أحد، فيما إذا كانت لفكرته المصطنعة صلة ما بالحقيقة، وبأصلها النقي؟ أتظنّه قادرًا للحظة واحدة، حتّى لو في سرّه، أن يكون صادقًا؟ مطلقًا. (نظرية رَقْم ٥: يستخدم الناس الأفكار كأسلحة، وبهذا فهم ينأون تمامًا عن أصلها). أصبح الآن بعيدًا جدًّا عن النقطة التي انطلق منها، ومرّ وقت طويل وهو لا يعيش تلك الأفكار، بصدق وبساطة وسلام. ليس من الممكن أن تعيدَ تشكيل مصداقيّتكَ بعد أن خنتَها، وبعد أن منحتْكَ ذلك الوجود، أنتَ الذي لولاها ما كنتَ لتُوجَدَ في هذا الكون، وها أنتَ الآن موجود، ولسنين،

حتّى تفنى. لا يمكنكَ إرجاع الحياة الكاملة التي سلبتَها من القَدَر، فقط لأنك - ذات يوم - وبينما تنظر لنفسكَ في المرآة، تشعر أنكَ مثير للاشمئزاز. سيموت الشخص وهو غير صادق مع فكرته، لكنه - على الأقلّ - سيموت بعد أن يقضي حياة ما، هذا الأستاذ.

كان يقول ذلك وقد أثاره الكلام، لم يكنْ يبكي، ولكن عينَيْه تلمعان، وبُحّة ما في حَنْجَرَتِهِ، هكذا كان الأستاذ موندريان كيلوري.

وذات يوم سأله بوميرينغ لماذا لا ينشر أطروحته "بحث حول المصداقية الفكرية". "لم" يقل له بوميرينغ إن بإمكانه أن يجعلَ منه كتابًا كبيرًا. يترك الصفحات كلها بيضاء، ويضع هنا وهناك النظريات السّتّة، يضعها لا على التعيين. قال الأستاذ موندريان كيلوري إنها فكرة جيّدة، ولكنه فكّر ألا ينشره أبدًا، لأنه يعتقد، في أعماقه، أنه بحث ساذج. كان يراه طفوليًا. ولكنه يقول إنه يحبّه، لأنه يراه طفوليًا وساذجًا حدّ الجنون، ولكنه - في الوقت نفسه - ليس هكذا بالضبط، على أنه يشعر أن ذلك يجعل من بحثه فكرة، بالمعنى الحقيقي للكلمة. بالمعنى الصادق للكلمة. ثمّ أضاف قائلًا إنه لم يعدْ يعي من الأمر شيئًا، وسأل فيما إذا كانت هناك بعض البيتزا.

الشيء الأكيد الآن هو أنه أصبح يتقيّأ أكثر من ذي قبل، ليس بفِعْل البيتزا، ولكنْ، يحدث له ذلك في كل مرّة يكون فيها قريبًا من المفكّرين والباحثين. أحيانًا يكفي أن يقرأ مقالًا في الصحيفة، أو غلاف كتابٍ ما. وفي يوم حضور الباحث الإنكليزي، ذلك الذي يتأمّل الفراغ، كان يرغب في البقاء والاستماع، ولكنْ، لم يكن بوسعه ذلك، وفي النهاية، فقد تقيّأ، وأحدث شوشرة كبيرة، لذلك كان عليه أن يذهب للاعتذار من رئيس الجامعة، ولكي يعتذر، لم تحضر في ذهنه سوى جملة واحدة، كان يردّدها

باستمرار: أنا أعرف أنه إنسان طيّب، بل أنا على يقين من أنه إنسان طيّب. وكان بذلك يشير إلى الباحث الإنكليزي. كان رئيس الجامعة يحدّق به مندهشًا. أنا أعرف أنه إنسان طيّب، بل أنا على يقين من أنه إنسان طيّب. وحتّى في اليوم التالي، بينما كانوا يغسلون المقطورة، كان يردّد بأنه إنسان طيّب، وقد بدا ذلك حماقة كبرى بالنسبة لغولد.

- لو كان فِعْلًا إنسانًا طيّبًا، لما سبّب لكَ التّقيّؤ.

- ليس الأمر بهذه السهولة، يا غولد.

- آه، صحيح؟

- مطلقًا.

وكان غولد يغسل الإطارات. كان يحبّ تنظيف الإطارات أكثر من أي شيء آخر. إطار السّيّارة الأسود وفوقه رغوة الصابون، كان ذلك قمّة المتعة بالنسبة له.

لقد فكّرتُ طويلًا، يا غولد، فكّرتُ طويلًا وبكل ما أُوتيتُ من قدرة، وفي النهاية، أدركتُ الحقيقة، رغم الطريقة الداعرة التي يقوم بها الإنسان بالتّخلّي عن الحقيقة، ويُجهِد نفسه من أجل تطوير الأفكار المصطنعة، ليصارعَ بها الآخرين، رغم أن أي شيء فيه ذِكْر للأفكار يثير غثياني، ورغم أني لا أستطيع فِعْليًّا أن أحبسَ القيء أمام ذلك الصراع البدائي اليومي المقنّع بمصداقية البحث عن الحقيقة، برغم الذروة التي وَصَلَ إليها غَثَياني، فَعَلَيّ أن أقول: من العدل أن يكونَ الأمر هكذا، من العدل حتّى اللعنة أن تسير الأمور بهذا الشكل، إنه - ببساطة - فِعْل إنساني، وهذا ما يجب أن يكونَ، إنه الحضيض الذي ينتظرنا، الحضيض الذي نستحقّه. لقد فهمتُ ذلك

وأنا أراقب الأفاضل، يا غولد، يجب أن تتحلّى بالشجاعة، لتنظر إليهم عن قرب. لقد رأيتُهم: كانوا مثيرين للغثيان وعادلين، أتفهم ما أعني؟ مثيرون للغثيان، ولكنهم بريئون للغاية، كل ما أرادوا هو أن يُثبتوا وجودهم، أبوسعكَ أن تمنعهم من حقّهم هذا؟ كانوا يريدون إثبات وجودهم. خذ مثالًا على ذلك أصحاب المبادئ العليا، أصحاب المبادئ النبيلة، أولئك الذين جعلوا من أفكارهم مهمّة نبيلة في حياتهم، الذين كانوا فوق كل الشكوك. خذ الراهب مثالًا، ليس أي راهب، بل ذلك الراهب الذي يقف جنب الفقراء والمستضعفين والمنبوذين، ذلك الذي يرتدي الكنزة وحذاء الريبوك، خذه مثالًا، لا بد أنه بدأ وفي ذهنه بعض الإيحاءات الفوضوية اللا نهائية، ثمّ حمله شيء ما في شبابه أن يتّخذ موقفًا في حياته، دار في ذهنه أن يكون في جانب معيّن، فبدأ كل شيء كما ينبغي، بشكل صادق، ولكنْ، بعد ذلك، يا إلهي، حينما يصبح ناضجًا وشهيرًا، يا إلهي، شهيرًا، تشعر بالغثيان وأنت تلفظ ذلك، شهيرًا، فأصبح اسمه يرد في الصُّحُف وكذلك صوره، وهاتفه يرنّ بلا توقّف، لأن الصُّحُفيين يريدون معرفة رأيه حول هذا الأمر وذاك، وهو يجيبهم، اللعنة، يجيب ويشارك على رأس حشد المتظاهرين، إن هاتف الرهبان لا يرنّ، يا غولد، يجب أن تعرفَ ذلك رغم ما فيه من قسوة، لعلّكَ لا تعرف ذلك، ولكن هاتف الرهبان لا يرنّ، لأن حياتهم أشبه بصحراء، إنها مبرمجة هكذا، أشبه بمَحمية طبيعية، حيث بوسع الناس النَّظَر إليها، ولكنْ، من بعيد، إنهم أشبه بحيوانات في مَحمية طبيعية، ليس لأحد أن يلمسَهم، أتستطيع أن تتخيّل ذلك، يا غولد؟ إنه مشكل بالنسبة للرهبان أن يلمسَهم أحد، أرأيتَ راهبًا يُقبِّل طفلًا ما، أو سيّدة، حتّى ولو لتحيّتهم، ليس لشيء آخر، وهو شيء لا قيمة له فِعْليًا، شيء طبيعي، ولكنْ، ليس بوسع الراهب فِعْل ذلك، سيعتري الناس حوله

شيء من الانزعاج، إذا ما فَعَلَ ذلك، أو سيشعرون بشيء أشبه بالعنف، هذه هي حياة الراهب اليومية القاسية في هذا العالم، وهو الرجل العادي ككل الرجال، سوى أنه اختار تلك الوحدة الرهيبة، وليس له مخرج منها قطّ، ولم يكن ذلك كله - في البدء - سوى فكرة، فكرة عادلة، سَقَطَتْ عليه من الخارج، وغيّرت ملامح حياته، أعادت إليه شيئًا من كونه إنسانًا كالآخرين، فكرة أحسن استخدامها، ثمّ شذّبها، وأعاد النَّظَر فيها، ثمّ حماها من أن تتعرّض للمقارنة بالحقيقة، فقادت الراهب في النهاية خارج وحدته، وشيئًا فشيئًا ها أنت تراه الآن محاطًا بالمعجبين، ولديه الرغبة في التّقرّب من الآخرين، بل ولديه رغبات الرجل العادي، رجل بكنزةٍ وحذاء ريبوك، ليس وحيدًا أبدًا، يسير وقد أحاط به الأخوة والأبناء، تحيط به بعض وسائل الإعلام، وبين حين وآخر يلمح بين المحيطين به نظرة امرأة ما مشحونة بالرغبة، ما الذي يعنيه له هذا حسب ظنّكَ، في وحدته الفظيعة تلك وفي غمرة تلك الحياة؟ لا عجب أنه مستعد للموت من أجل فكرته. إنها كل وجوده، ماذا يعني له الموت من أجلها؟ قد يموت إذا ما حُرِمَ من فكرته تلك، إن نجاته في فكرته، وكأنه يُنقذ بها مئات من البشر أمثاله، أو الآلاف منهم، لكنها لا تُغيّر في الأمر شيئًا، كل ما في الأمر هو أن يُنقذ نفسه أولًا بحجّة إنقاذ الآخرين، وهكذا فهو يسلب من القَدَر ذلك الكَمّ من الإعجاب والاعتبار الذي يجعل منه حيًّا، حيًّا، يا غولد، افهمْ معنى هذه الكلمة، حيًّا، كل ما يريدونه أن يكونوا أحياء، حتّى الأفاضل، أولئك الذين يؤسّسون العدالة، التّقدّم والحُرّيّة والمستقبل، حتّى بالنسبة لهؤلاء ما هي إلا مسألة بقاء على قيد الوجود، اقتربْ منهم ما استطعتَ، إن لم تكنْ تصدّق ذلك، انظرْ لهم كيف يتحرّكون، انظر إلى مَنْ حولهم، وتخيّلْ ماذا سيحلّ بهم لو أنهم قرّروا ذات يوم، وغيّروا فكرتهم تلك، ماذا سيبقى منهم؟ حاول أن

تستنطقَهم وتحصلَ منهم على جواب، على ألا يكون جوابًا غريزيًا ودفاعيًا، انظرْ إذا ما كان بوسعهم أن يتفوّهوا بفكرتهم بدهشة مَنْ يكتشفها في تلك اللحظة وتردّده، أم بثقة مَنْ يعرض أمامكَ - متفاخرًا - إمكانية السلاح المدمِّر الذي بين يَدَيْه، لا تدعْ هدوء النبرة يخدعكَ، إنهم يصارعون، يا غولد، يصارعون بأيديهم وأسنانهم، من أجل البقاء على قيد الوجود، من أجل الطعام، الأنثى، الجحر، ما هم سوى حيوانات، وأنا أكلّمكَ عن الأفاضل بينهم، أتفهم؟ ماذا بوسعكَ أن تنتظرَ من الآخرين، من صغار مستخدمي الذكاء، من الصراع الجماعي، من المقاتلين الصغار الذين يجمعون بقايا الحياة على هامش ساحة المعركة، أولئك الكنّاسون المثيرون للشفقة، الباحثون عن النجاة، كل منهم بفكرته الصغيرة المصطنعة، وهدفهم الرئيس هو الحصول على التمويل، من أجل دفع أقساط الابن في الكُلّيّة، أو العجوز الناقد الذي يخفّف وطأة تقدُّم السّنّ بكتابة بعض السطور، لإثارة بعض الضجّة حوله، والعالِم صاحِبُ "مهروس بطاطس فانكوفر" الذي يحاول إطعام زوجته وأطفاله وعشيقاته بكرامة، الأشخاص الذي يمثّلون في التلفاز عن رواية كاتب، يخشى أن يختفي بين كتاب وآخر، الصُّحُفي الذي يطعن في أحدٍ ما - لا على التعيين - في الصفحة الأولى، لكي يطمئنّ على حضوره في الأربعة والعشرين ساعة القادمة، إنهم يصارعون فقط، أتفهم؟ يقومون بذلك بأفكارهم، لأنهم لا يجيدون شيئًا آخر، ولكن جوهر القضية لا يتغيّر، ما هو إلا صراع، وأسلحتهم هي الأفكار، ورغم أن إقراره مثير للغثيان، فاعلمْ أنهم من حقّهم فِعْل ذلك، عدم مصداقيّتهم هي حاجة بدائية، إذنْ، فهي ضرورة، خيانتهم اليومية للحقيقة هي النتيجة الطبيعية لحالة العَوَز، لا يمكنكَ أن تطلبَ من أعمى الذهاب إلى السينما، كذلك لا يمكنكَ أن تطلبَ من المفكّر والمثقّف أن يكونَ صادقًا، لا أظنّ ذلك حقًّا، لا أظنّ أن

بوسعكَ طلب ذلك منه، بقدر ما يكون حزينًا الاعتراف بذلك، لأن مفهوم "المصداقية الفكرية" هو تناقض لفظي.

٦. "المصداقية الفكرية" هو تناقض لفظي.

أو إنها - على أي حال - مهمّة أكبر من طاقة الإنسان، وليس بوسع أحد تنفيذها، لذلك يسعى جهده - في أحسن الأحوال - للقيام بها بصورة مميّزة، بأكبر قدر ممكن من الكرامة، لنقل بذوق جيّد، أظنّ أن الصيغة الأمثل هي بذوق جيّد، بالتالي، فأنتَ تحاول أن تصطفيَ أولئك الذين ينجحون - قدر الإمكان - في القيام بالواجب بذوق جيّد، بشيء من الحياء، أولئك الذين لا يبدو عليهم أنهم فخورون بهذا الحضيض الذي يعومون فيه، ليسوا فخورين تمامًا، أو على الأقلّ، ليسوا فخورين حدّ اللعنة والبجاحة واللا مبالاة. يا إلهي! ما هذا الغثيان؟!

- هل كل شيء على ما يرام، يا أستاذ؟

- كنتُ أتساءل ...

- قلْ، يا أستاذ.

- ما هذا الذي أغسل بالضبط؟

- مقطورة سَفَر.

- أعني: ما هو الدور الذي يلعبه هذا الشيء الأصفر في حياتكم؟

- دور هذا الشيء الأصفر في حياتنا حتّى الآن هو انتظار سيّارة.

- سيّارة؟

- لا يمكن للمقطورة أن تتحرّك دون سيّارة.

- أنتِ محقّة في هذا.

- ألديكَ سيّارة، يا أستاذ؟

- كانت لديّ.

- للأسف.

- في الحقيقة، كانت لأخي.

- أمر طبيعي.

- أن لي أخًا؟

- أيضًا .

- في الحقيقة، فقد حدث لي ذلك ثلاث مرّات، وأنتِ؟

- لم يحدثْ لي شيء كهذا.

- يؤسفني ذلك.

- لماذا؟

- هلا أعطيتِني الليفة من فضلكِ؟

كانا يتحدّثان، وكانت شيتزي تُعجب الأستاذ.

ذات مرّة ترك غولد وديزل وبوميرينغ غسل المقطورة، وغادروا، كانت هناك مباراة في الملعب القريب من البيت، يودّون مشاهدتها. بقي

الأستاذ موندريان كيلوري وشيتزي، غسلا المقطورة جيّدًا، ثمّ جلسا على درجات مدخل البيت، يتأمّلان المقطورة الصفراء.

تبادلا بين بعضهما الكثير من الكلام.

وفي لحظة ما قال الأستاذ موندريان كيلوري إنه سيفتقد هذا الولد كثيرًا، وكان يقصد بذلك غولد. عندها قالت له شيتزي إن بوسعهم أن يصحبوه معهم، إن أراد ذلك، ربّما كانت المقطورة صغيرة، ولكنهم سيتدبّرون الأمر. التفت إليها الأستاذ موندريان كيلوري، وسألها إن كانوا حقًّا ينوون الذهاب حتّى كوفرني بالمقطورة، جميعهم. فقالت له شيتزي:

- كوفرني؟

- كوفرني.

- وما شأننا وكوفرني؟

- ماذا تقصدين بما شأننا وكوفرني؟

- عن ماذا تتحدّث، يا أستاذ؟

- عن غولد.

- ما شأن كوفرني، إذنْ؟

- إنها جامعة غولد، جامعته الجديدة، أليس كذلك؟ ذلك المكان الرهيب.

- لقد طلبوا منه الذهاب إلى كوفرني؟ طلبوا منه ذلك؟

- لقد طلبوا منه ذلك، وسيذهب.

- حسب علمي، هو لم يقرّر بعد.

- حسب علمي، لقد قرّر.

- متى؟

- لقد قال لي ذلك، إنه مصمّم على الذهاب، وسيبدأ الدراسة هناك في شهر أيلول.

- متى قال لكَ ذلك؟

فكّر الأستاذ موندريان كيلوري قليلاً، ثمّ قال:

- لا أذكر، قبل بضعة أسابيع، على ما أظنّ. يحصل أن لا أذكر بالضبط متى تقع الأحداث، ألا يحصل لكِ ذلك أيضًا؟

- ...

- يا آنسة ...

- ...

- هل يحصل لكِ ألّا تتذكّري متى تقع الأحداث؟

- ...

- إنه فضول، لا أكثر.

- هل قال لكَ غولد حقًّا إنه سيذهب إلى كوفرني، يا أستاذ؟

- أجل، أنا واثق من ذلك، وقد أخبر رئيس الجامعة بولدر أيضًا، وبولدر يودّ أن ينظّم حفلة وداع، أو شيئًا من ذلك، لكن غولد يفضّل تلافي الأمر، يقول إن ذلك سيكون ...

- ماذا تعني بحفلة وداع؟

- إنها مُجرّد فكرة، فكرة اقترحها بولدر، قد يبدو قاسيًا ومتزمّتًا، لكنه طيّب ورقيق القلب، قد أقول إنه ...

- هل أصابكم الجنون؟

- ... قد أقول إنه ...

- يا إلهي، لا يبلغ هذا الولد سوى خمسة عشر عامًا من العمر، يا أستاذ، وكوفرني جامعة للكبار، وحينما يكون عمر الشخص خمسة عشر عامًا، فهو ليس كبيرًا، ربّما عندما يبلغ العشرين، عندها يصبح كبيرًا، وبوسعه أن يفكّر في الأمر، أن يفكّر في رَمْي حياته في ذلك المرحاض، لعلّه يفكّر في المسألة، ليرى إذا ما أراد أن يفنيَ حياته في ذلك ...

- اسمحي لي أن أذكّركِ، يا آنستي، أن هذا الولد عبقريّ، وليس ...

- ومَنْ قال ذلك؟ أخْبِرْني مَنْ قال ذلك؟ أخْبِرْني كيف فكّرتُم كلكم، ودون مقدّمات، أن هذا الولد عبقريّ؟ هذا الولد الذي لم يرَ في حياته سوى قاعاتكم اللعينة والشوارع التي تقوده إليها، هذا العبقري الذي يتبوّل في فراشه، ويصاب بالفزع إذا ما سألَه أحد ما - في الشارع - عن الوقت، لم يرَ أمّه منذ سنين، ولا يسمع والده سوى مساء كل جمعة على الهاتف، ولن يتمكّنَ من الدّنوّ من فتاة حتّى لو رَجَتْهُ فِعْل ذلك بالهندية،

ما هي حظوظه؟ أظنّ أن هذا يجعله في قمّة العبقرية، للأسف أنه لا يُتأتىء، لأصبحَ عبقريًا، لا يجاريه أحد.

- يا آنسة، لا أظنّ - والحال هذه - أن الأمر ...

- طبعًا هو كذلك، لو أن الأساتذة كلهم مثلكَ يُصرّون على حِفْظ عقولهم في محلول ...

- لا أظنّ أن الأمر ...

- ... في محلول حبّهم لذاتهم، وهم مقتنعون تمامًا أنهم حصلوا على الدجاجة التي تبيض ذهبًا، ولذلك فهُم ...

- أرجوكِ، يا آنستي، أن ...

- ... مندهشون من مسألة جائزة نوبل، ولنكنْ صريحين، إن هذا هو ما ترمون إليه، أنتَ و...

- هلا أغلقتِ فمكِ هذا الذي يقذف الخراء؟

- عذرًا؟

- كنتُ أقول هلا أغلقتِ فمكِ هذا الذي يقذف الخراء؟

- أجل.

- شكرًا.

- عفوًا.

- ...

- ...

- ...

- ...

- أظنّ، يا آنستي، أنني بالغتُ في الأمر، أرجو المعذرة، ولكنْ، صدِّقيني إن هذا الفتى عبقري.

- ...

- وأرغب أن أضيفَ شيئًا آخر: طبيعة الطيور أنها تطير، كذلك فإن العباقرة يذهبون للدراسة في الجامعة. بقدر ما يكون الأمر تافهًا، ولكنه تمامًا هكذا. لقد قلتُ ما عندي.

بعد أشهر من ذلك، حينما قرّرت شيتزي الرحيل، مرّتْ لتُسلِّمَ على الأستاذ موندريان كيلوري. كان غولد قد غادر منذ مدّة. وكان الأستاذ يتجوّل بنعله، ويتقيّأ في كل مكان، بدا واضحًا أنه يأسف لرحيل الجميع، ولكنْ، لم يكنْ يُفصح عن ألمه. كانت له قدرة فظيعة على تقبُّل الأمور حينما تقع. قال لشيتزي الكثير من الحماقات، بعضها كان مثيرًا للضحك. ثمّ توجّه إلى جارور، وتناول شيئًا ما، وأعطاه إلى شيتزي. كانت قصاصة الورق التي طُبعت فيها أسعار الصالة، وعلى الوجه الآخر منها "بحث حول المصداقية الفكرية".

- بودّي أن تحتفظي أنتِ به، يا آنستي.

كانت في القصاصة النظريات السّتّ، وقد كُتبت بالتتابع، بخطّ واضح، مائل بعض الشيء، لكنه منتظَم. تحت النظرية الأخيرة كانت هناك ملاحظة، كُتبت بقلم مختلف، وبخطّ مائل. ليست مُرقّمة، ولا تسبقها أيّ علامة، هذا نصّها:

قد نكون صادقين في حياة أخرى. سيكون بمقدورنا - حينئذٍ - أن نصمتَ.

كانت تلك هي الجملة التي تثير جنون بوميرينغ، فلا يكفّ عن ترديدها. كان "لا" يقولها للجميع، كما لو كانت اسمه.

تناولت شيتزي القصاصة، طوتْها، ودسّتْها في جيبها. احتضنت الأستاذ، ثمّ قام كلاهما بحركات، إذا ما وُضِعت مع بعضها، فستُشكِّل شيئًا ما، يُطلق عليه عادة التوديع.

حملت شيتزي معها قصاصة الورق المَطوية تلك لسنين طويلة، كانت تضعها في الحقيبة المكتوب عليها أنقذ كوكب الأرض من مخالب الأقدام مطلية الأظفار. كانت تقرأ النظريات السّتّ - بين فترة وأخرى - وتقرأ الملاحظة أيضًا، فتتخيّل أنها تسمع صوت الأستاذ موندريان كيلوري وهو يشرحها، وقد بدا عليه التّأثّر، بينما يطلب قطعة بيتزا أخرى. وكانت تعتريها رغبة أن يقرأها أحدٌ ما، إلا أنها - في الحقيقة - لم تلتقِ أحدًا بتلك البراءة التي تمُكِّنه من فَهْم فحوى النظريات. أحيانًا تلتقي بأناس أذكياء، ولكنْ، يبدو أن الوقت متأخّرَ لكي يرجعوا لبراءتهم، ولو للحظات فقط.

وفي النهاية، فقدت قصاصة الورق و"بحث حول المصداقية الفكرية"، حينما أفرغت - ذات يوم - حقيبتَها في بيت طبيب ضاجعتْه، وكانت حينها تبحث عن حمّالة الصدر السوداء، لكي تغادر بينما هو نائم، فلم تجدْها. أحدثت فوضى عارمة، وبينما كانت تعيد الأشياء إلى الحقيبة، استيقظ الطبيب، فتفوّهت ببعض الحماقات، وسَهَتْ عن القصاصة، ونسيتْها هناك.

كان حدثًا مؤسفًا حقًّا.

-٢٣-

- معنا على الميكروفون ستانلي بوريدا، لقد جئنا لزيارته في قاعة الألعاب الرياضية التي يتمرّن فيها، وهو يتهيّأ للقائه القريب مع ليري "لويار" غورمان، وقد تمّ تحديد اللقاء في يوم ١٢ من هذا الشهر، يوم السبت. إذنْ، يا بوريدا ... هل أنتَ مستعدّ؟

- على أتمّ الاستعداد.

- لقد انتشرت الكثير من الأقاويل عن عودتك هذه إلى حلبة الملاكمة ...

- الناس تحبّ الأقاويل.

- الكثيرون يتساءلون عن سبب قرار عودتكَ إلى الملاكمة بعد سَنَتَيْنْ من الاعتزال ...

- بعد سَنَتَيْنْ وثلاثة أشهر.

- ... سَنَتَان وثلاثة أشهر، فترة طويلة جدًّا، والناس تتساءل كيف أن ملاكمًا متمرّسًا اعتزل الملاكمة ...

- ليس لفضول الناس حَدّ.

- لعلّكَ، يا بوريدا، تودّ القول إن ...

- بوريدا يقصد أنها تساؤلات لعينة، أنا أعود من أجل المال، وإلا فلماذا أعود؟ لقد سبّبت لي الملاكمة الكثيرَ من المتاعب، ألا ترى ذراعَيَّ كيف هما أعوجان، هذا بسبب كثرة اللكمات التي سدّدتُها للآخرين، لقد اعوجّت ذراعاي، هذا ما خلّفتْه لي الملاكمة، ولكنها العمل الوحيد الذي أجيد ممارسته، وإذا عرض عليّ أحدهم المال، فإني حتمًا سأعود ... ما كان سؤالكَ؟

- تقول الناس إن هذا لقاء مزيّفًا.

- ومَنْ يقول ذلك؟

- لقد نشرتْه الصُّحُف. ويقول المراهنون إنهم سيُغيّرون رهاناتهم حتّى يوم ما قبل اللقاء، فهم لا يستطيعون التخمين.

- ومتى استطاع هؤلاء التخمين، لقد خدعتُهم لسنين طوال، لم يفهموا شيئًا ممّا كنتُ أقوم به، لقد خسروا على لقاءاتي مالًا أكثر ممّا خسرتُ أنا على زوجتي السابقة ...

- أتقصد، إذنْ، أنه لقاء نظيف؟

- ... أنت لا تعرف زوجتي السابقة، لقد كانت شفّاطة نقود، عجيب أمرها، كانت تقول باستمرار إنها لا تملك المال لشراء الملابس، وكنتُ لا أصدّق ذلك، وأدعها تقول ما تريد، لكنها كانت شديدة الإلحاح، ليس لديها المال لشراء الملابس، فلمّا رأيتُ صورها على بلاي بوي، صدّقتُها ...

- سيكون لقاءً نظيفًا، يا بوريدا؟

- ... على بلاي بوي، أتفهم؟

- أتهرّب من الإجابة عن السؤال؟

- اسمعْ، أيها المنيوك: لا شيء نظيف في الملاكمة. وهذا اللقاء اللعين لن يكون نظيفًا، اعلموا أنه سيكون لقاءً قذرًا. دم وخراء. اسمعني جيّدًا، أيها المنيوك: أنا سأريكم الخراء، بينما الدم سيريكم إيّاه لويار، أوكي؟

ينهض غولد، يسحب السيفون، يرفع بنطلونه، ثمّ ينظر إلى وجهه في المرآة، يفتح الباب، ويخرج من الحمّام. كانت شيتزي جالسة على الدرجة الأخيرة من السّلّم، وكانت تعطيه ظهرها، ولم تلتفتْ نحوه حتّى حينما بدأتْ تتحدّث معه. لم تلتفتْ نحوه أبدًا، حتّى النهاية.

- أوكي غولد، لنختصر الأمر، كيلا يكون الحديث مثيرًا للضجر. أنتَ تريد الذهاب إلى كوفرني، وأنا لم أكنْ أعرف ذلك، ولا يهمّ كيف عرفتُ الآن، على أيّ حال، لقد أخبرني الأستاذ موندريان كيلوري، وأظنّ أنه إنسان طيّب - بشكل ما - لعلّه كثير الثرثرة، إنه يحبّ الثرثرة، ولكنْ، لا تغضب منه، كنتُ سأكتشف الأمرَ على أي حال، ربّما كنتَ ستبعث لي تلغرافًا، أو شيء من ذلك، أنا متأكّدة أنكَ ستفعل ذلك، لنقلْ في عيد الميلاد، أو بعد عدّة أسابيع من رحيلكَ، أعرف أنكَ كنتَ ستخبرني، ربّما بعد أن تستقرّ هناك، وتعتاد على المحيط، فلن يكونَ سهلاً عليكَ أن تصلَ إلى تلك المنطقة - ساحة الحرب تلك - وكأنكَ مظليّ، يهبط من الأعلى، فتجد نفسكَ بين باحثين، يغلب عليهم التّوتّر والإحباط، يحيط بكَ هؤلاء الزملاء الذين يدفعون المال من أجل الدراسة، بينما أنتَ يدفعون لكَ المال، لكي تدرسَ، وبرغم الجهد الذي تبذله من أجل أن تكون لطيفًا، فسيكلّفكَ ذلك مجهودًا كبيرًا، كي ترى مَنْ حولكَ باسمين ومُشجّعين، ولكنْ، يجب أن تشرحَ لهم حقيقة مَنْ أنتَ، فأنتَ لا تعلب في فريق كرة القَدَم، لا ترتاد

حفلات نهاية العام الدراسي، لا تتردّد على الكنيسة، وأنتَ بعيد عن أيّ جمعية أو نادٍ أو أيّ شيء يجتمع فيه الناس، ثمّ إنكَ لا تهوى التدخين، ليس لديكَ هواية جمع شيء ما، لا يعنيكَ أمر تقبيل الفتيات بشيء، لا تحبّ السّيّارات، فيسألونك كيف تقضي وقت فراغكَ، ولن يكون من السهل حينها أن تشرحَ لهم أنكَ تتجوّل في الشوارع رفقة عملاق، وآخر أبكم، تلصقون العلكة على لوحة مفاتيح الصرّاف الآلي، أقصد أنه لن يكونَ من السهل عليهم تصديق ذلك، ولكنْ، بوسعكَ أن تُخبرَهم أنكَ تذهب لمشاهدة المباريات، ذلك أن صديقكَ الأبكم شاهد ذات مرّة - قبل سنين - حركة رائعة، وهو في بحث مستمرّ عنها، قد تبدو هذه أكثر قبولاً، ولعلّهم سيتقبّلونها، ولكني أنصحكَ بالتركيز على الأمور العامة، وقد يكون بوسعكَ إعطاء هذه الإجابة الرائعة: ليس لديّ وقت فراغ، فقد يجعل هذا منكَ عبقريًا مقيتًا، ولكنْ - في النهاية - هذا تمامًا ما يرونه فيكَ، أي أنكَ عبقريّ مقيت، بوسعكَ أن تكونَ أوليفر هاردي(*)، لكن هذا لن يُغيرّ من نظرتهم إليكَ كونكَ مقيتًا، إنهم بحاجة لذلك، يجعلهم يشعرون بالسكينة، وستكون أيضًا متعجرفًا، وهذا أهمّ ما يرغبون به، ستكون أنتَ بالنسبة لهم دائمًا المتعجرف، حتّى وإن طلبتَ منهم المعذرة طوال الوقت، اعذروني، اعذروني، اعذروني، ستكون بالنسبة لهم متعجرفًا، إنها طريقتهم في تسوية الأمور، فالناس العاديون لا يدركون أنهم كذلك، لا يتحلّون بالخيال الكافي لكي يتخيّلوا أن ثمّة مَنْ هو أفضل منهم، ومَنْ تتوفّر فيه المواصفات التي تجعله أفضل منهم، يجب أن يكون فيه خَلَلٌ ما، لعلّه مجنون فقط، ويتخيّل نفسه أفضل من الآخرين، أو لا بد أنه مخاتل بطريقة ما، لذلك فأنت ستكون متعجرفًا، وسيسعون لكي يُظهِروا لكَ ذلك على عجل، سيفعلونه بطُرُق غير

*) ممثّل كوميدي أمريكي شهير، له العديد من الأفلام الكوميدية، سواء في السينما الصامتة أو الناطقة، بالذات مع زميله ستان لوريل.

مُحبّبة، وربّما قاسية أيضًا - أحيانًا - وهذا أمر يتميّز به الناس العاديون، إنهم قساة، والقسوة هي الفضيلة العظمى التي يتحلّى بها الناس العاديون، بل إنهم بمساس الحاجة لممارستها، ولا يتطلّب أمر ممارستها أي ذكاء، لذلك فإن العملية سهلة بالنسبة إليهم، ولا تحتاج للجهد، فيصبحون عظماء في ممارسة القسوة، كلّما استطاعوا ذلك، أي في أغلب الأحيان، وأكثر ممّا تتوقّع، وسيفاجئونكَ لا شك، ستنقضّ قسوتهم عليكَ من الخلف، لا بد أنه سيكون هكذا، سينقضّون عليكَ من الخلف، ولن يكونَ ذلك سهلاً عليكَ، يجب أن تدركَه منذ اللحظة، إن لم تفهمْه بعد، سينقضّون عليكَ من الخلف، وأنا شخصيًّا لم أستطع التّخلّص من تبعات الهجوم من الخلف، وأدرك تمامًا أن ليس هناك ما يُخلّصكَ منه، فلا يمكنكَ أن تحميَ نفسكَ من الهجوم المباغت الذي يأتيكَ من الخلف، ليس هناك ما بوسعكَ فِعْله سوى أنكَ تمُضي قُدُمًا وأنتَ تحاول ألا تسقط وألا تتوقّف، فلا أحدَ يظنّ أن بوسعه الوصول إلى هدفه بطريقة مغايره، حتّى الحمقى يعرفون ذلك، لا بد أن تصلَ إلى هدفكَ منهكًا، وقد جمعتَ كمًّا من الجراح في كل مكان من جسمكَ، بالذات في ظهركَ، وهكذا سيكون بالنسبة لكَ أيضًا، بالنسبة لكَ أنتَ بالذات، بما أنكَ لا تريد أن تنزعَ من رأسكَ هذه الفكرةَ الغريبةَ واللعينة في السير أمام الآخرين، في طريق لا أعرف كيف أصفها، فأنا لا أفهم ماذا تعنيه الدراسة وكل ما يأتي منها، وجائزة نوبل، هذه الخزعبلات، وليس لكَ أن تتوقّع منّي أن أفهمَ الأمر، ولو كان بيدي لربطتُكَ إلى حوض المرحاض حتّى تكفّ عن هذا التفكير، ولكنني لستُ الشخص المناسب لفَهْم هذه الأشياء، لم يحصل لي أن رغبتُ بالسير أمام الآخرين، وقد كان فشلي في الدراسة فظيعًا، كان هكذا دائمًا، لذلك فمن الطبيعي جدًّا ألا أفهم من الأمر شيئًا، حتّى لو أجهدتُ نفسي، وكل ما يخطر في

ذهني هو حكاية الأنهار، إذا ما أردتُ فِعْلاً أن أُقنعَ نفسي بهذا كله، فإني أفكّر بالأنهار، وبالدراسات كلها حولها، فلم يقنع الباحثون أن الأنهار، لكي تصبّ في البحر، تستغرق ذلك الوقت كله، ولماذا اختارت - بصورة طبيعية - تلك التّعرّجات كلها في سيرها، بينما كان بوسعها أن تذهبَ مباشرة إلى هدفها، عليكَ الاعتراف أن في الأمر شيئًا غريبًا فِعْلًا، وهذا تمامًا ما توصّل إليه الباحثون، فأمر تلك التّعرّجات كلها غريب فِعْلًا، وهكذا خَطَرَ في ذهنهم أن يبحثوا في القضية، وما توصّلوا إليه في النهاية - شيء لا يُصدَّق - أن كل نهر، كبيرًا كان أم صغيرًا، في أيّ بقعة من بقاع العالم، فإنه يقطع بالضبط ثلاثة أضعاف الطريق المباشرة التي تقوده إلى البحر، شيء مذهل فِعْلًا، إذا ما أمعنتَ النَّظَر فيه، يقطع ثلاثة أضعاف ما يحتاج إليه للوصول إلى هدفه، يضيعه في التّعرّجات، فقط التّعرّجات تمكّنه من القيام بذلك، ولا يقتصر الأمر على هذا النهر أو ذاك، بل كلها، كما لو كان مفروضًا عليها فِعْل ذلك، إنه قانون يسري على الجميع، أليس هذا مذهلًا، يثير الجنون؟! ولكن هذا تمامًا ما توصّلوا إليه، وببحوث علمية، أُجريت على الأنهار، الأنهار كلها، وبذلك اكتشفوا أنها مجنونة، وطبيعتها، بِعَدِّها أنهارًا، تُجبرها على تلك التّعرّجات، وبالتالي، فكلها، تحديدًا الأنهار كلها، تقطع ثلاثة أضعاف المسافة اللازمة للوصول إلى البحر، بل ولكي نكونَ دقيقين، فهي تقطع - في الحقيقة - ثلاثة أضعاف المسافة وأربعة عشر بالمائة، أقسم لكَ، لم يكن بوسعي التصديق، إنها تمامًا كنسبة الـ π الإغريقية، تقيس المسافة المباشرة التي تفصل منبع النهر عن المصبّ، تضربها بالـ π الإغريقية، فتحصل على المسافة الحقيقية التي يقطعها النهر، وهذا شيء عظيم فِعْلًا، فخَطَرَ في ذهني أن الأنهار لها قواعدها الخاصة، فلماذا لا تكون لنا نحن البشر أيضًا قواعدنا الخاصة، أعني أن الشيء ذاته

يسري علينا أيضًا، وأن تقلّباتنا في الحياة وضياعنا هنا وهناك ربّما هي طريقتنا في السير المباشر نحو هدفنا، وهي طريقة علمية مضبوطة، ومرتّبة بشكل دقيق، رغم سلسلة الأخطاء التي نقترفها، ورغم الفوضى، أو تغيير آرائنا ووجهاتنا، ولكنْ، هذه كلها مظاهر، فالحقيقة الجوهرية - ببساطة - هو أن هذه هي طريقتنا في السير المباشر نحو أهدافنا، هذه طبيعتنا في الحياة ... ماذا كنتُ أقول؟ أجل، حكاية الأنهار، إذا ما نظرتَ فيها، فستشعر بالسكينة، وقد قرّرتُ أن أؤمن بها، فما أريد قوله، إذنْ، هو أنني أتألم حينما أراكَ تقطع هذه التّعرّجات المقيتة كلها، مثل الذهاب إلى كوفرني، ولكنْ، لو تحتّم عليّ الذهاب وتأمّل النهر - كل مرّة - لكي أتذكّر هذه الحقيقة، فسأذهب، لذلك فأنا أعتقد أن ما تفعله صحيح، وخيرًا تصنع، إذ تذهب إلى كوفرني، رغم أن قوله فقط يجعلني أرغب بتحطيم رأسكَ، ولكنني أريدكَ أن تذهبَ، وسأكون سعيدة، أنت نهر قوي، ولن تضيع أبدًا، لا يهمّ أنني لن أذهبَ إلى ذلك المكان حتّى لو صلبوني، هذا فقط لأننا أنهار، تختلف عن بعضها بطبيعة الحال، يبدو أنني نهر من طراز مختلف، بل إذا ما فكّرتُ في الأمر، فلا أراني نهرًا، أقصد قد أكون بحيرة، لا أدري إن كنتَ تفهم قصدي، ربّما بعضنا أنهار، والبعض الآخر بحيرات، أما أنا، فإني بحيرة، أو ربّما شيء ما شبيه بالبحيرة، لقد سبحتُ - ذات يوم - في بحيرة، وبدا لي أمر غريب، أقصد أنكَ إذا ما عمتَ، فستشعر أنكَ تتقدّم فوق الماء، وهذا شعور غريب، لقد كان هناك الكثير من الحشرات، وإذا ما وقفتَ حيث تلامس قَدَمَاك القاعَ، فسينتابكَ شعور مثير للاشمئزاز، تشعر بشيء أشبه بالرمل الدهني اللزج، ما كنتَ لتتوقّع ذلك، رمل لزج، كأنه ممزوج بالزيت أو شيء يشبه ذلك، تشعر بالغثيان حقًّا، على أي حال، كنتُ أريد قول شيئَيْن، الأول: إذا ما تجرّأ أحد، وأساء

إليكَ، فإني سآتي إلى هناك، وسأعلّقه على أسلاك الضغط العالي، سأعلّقه من خصيتَيْه، بالضبط من خصيتَيْه، أما الشيء الآخر، فهو: أنني سأفتقدكَ، أعني سأفتقد عزيمتكَ، لا يهمّ إن كنتَ لا تفهم الآن ما أعنيه، لعلّكَ ستفهمه يومًا ما، سأفتقد عزيمتكَ، يا غولد، أيها الفتى الصغير الغريب، عزيمتكَ، سحقًا وألف لعنة.

تصمت.

- أتعرفُ كم الساعة الآن؟

- لا أعرف، ولكنْ، هناك ظلام في الخارج.

- اذهبْ، إلى النوم، يا غولد، فالوقت متأخّر، اذهبْ إلى النوم.

-٢٤-

كل شيء حدث بشكل مفاجئ، ولكنْ، بصورة طبيعية.

عاد غولد في ذلك الصباح إلى مدرسة رينيمبورت - خَطَرَ في ذهنه أنه قد يجد ذلك الصبي الأسود الذي يلعب بكرة السّلّة - وإذا ما أردنا أن نكون دقيقين، فقد كان غولد يشعر أنه هناك، وقد استيقظ صباحًا وهو واثق من ذلك.

استغرق بعض الوقت حتّى وَصَلَ إلى المدرسة. ربّما وَصَلَ في وقت الفسحة، أو لعلّهم نظّموا حفلة، أو ربّما كان آخر يوم لنشاط ما. المهم أن باحة المدرسة كانت مليئة بالأطفال، أولاد وبنات، وكان الكل يلعب، ويُصدرون ضجيجًا أشبه بصياح طيور في قفص كبير، بينما أحدهم يُطلق رصاصًا عشوائيًا في ذلك القفص.

كان هناك العديد من الكرات، بمختلف الأحجام، تركلها الأقدام، أو ترميها الأيدي، فتنطّ هنا وهناك بفوضى عارمة. كانت المدرسة التي تقبع خلف تلك الفوضى تبدو فارغة. لم يرَ غولد الولد الأسود، وكان الأطفال يرمون كرة السّلّة - بين الحين والآخر - ولكنهم لا يدخلونها أبدًا. جلس غولد على أريكة قرب الشارع، على مسافة عشرة أمتار من سياج المدرسة. كانت السّيّارات تمرّ في الشارع خلفه بسرعة قصوى، بينما كانت أمامه حديقة تمتدّ حتّى السياج الصدئ، ووراءه باحة المدرسة المليئة بالأطفال. لم

يكن حوله إيقاع في تلك الفوضى كلها، أو قانون أو مركز ما، لذا كان من الصعب عليه التركيز والتفكير، بل كان مستحيلاً أن تتخلّل ذهنه الأفكار. لذا قام غولد بخَلْع جاكيته، وَضَعَهُ على مسند الأريكة، ثمّ جلس "لا" يفكّر بشيء هناك.

وكانت الشمس عالية، تنهمر على كل شيء.

ارتفعت كرة فوق السياج بمقدار قليل، ما يقارب الإصبَعَينْ لا أكثر، ثمّ سَقَطَتْ في الحديقة، نطّتْ، مرّتْ على مقربة من غولد، ثمّ تدحرجتْ نحو الشارع. كانت كرة قَدَم بيضاء وسوداء. كان غولد "لا" يفكّر في تلك اللحظة، فتبعها بشكل عفوي، رآها تتقافز فوق العشب، ثمّ تدحرجت خلفه في الشارع. عاد غولد إلى "لا" تفكيره.

اخترق - عندئذٍ - صوت ما ذلك الضجيج كله:

- الكرة!

كانت طفلة قد استندت إلى السياج، وقبضت بأصابعها على الحديد الصدئ.

- هيد، هلا رميتَ لي الكرة؟

سنين من المحاضرات التي لقّنها إيّاه الأستاذ تالتومار، علّمتْ غولد ألا يحرك ساكنًا في حالة كهذه، لذلك بقي يحدِّق في الفراغ أمامه، وهو "لا" يفكّر بشيء.

- هيه، هلا رميتَ لي الكرة، إني أكلّمكَ أنتَ، هل أنتَ أصمّ؟

مضى بعض الوقت، الطفلة تصرخ، وغولد لا يأبه بالأمر، كان ينظر أمامه بصمت.

مرّت الدقائق.

فشعرت الطفلة بالمَلَل، غادرت السياج، وعادت تلعب في الباحة.

نظر إليها غولد وهي تلاحق طفلة أخرى أطول منها، ثمّ اختفت وسط حشد الأطفال والكرات والصراخ والبهجة. نظر إلى السياج الحديدي الصدئ، بالضبط إلى المكان الذي كانت تسند إليه الطفلة يَدَيْها، ثمّ تخيّل كمّيّة الغبار والصدأ الذي علقَ بباطن كَفَّيْها، وفي طيّات أصابعها.

نَهَضَ عندئذٍ، دار حول نفسه ينظر حتّى شاهد الكرة البيضاء والسوداء، على الجانب الآخر من الشارع، ملاصقة للرصيف، تتدحرج مع الغبار الذي يسبّبه مرور السّيّارات السريعة.

كل شيء حدث بشكل مفاجئ، ولكنْ، بصورة طبيعية للغاية.

رأى سائقُ الحافلة الولدَ الصغير من بعيد، لكنه لم يتصوّر أنه كان سيعبر الشارع. تصوّر أنه كان سيتلفّتُ - على الأقل - فيرى الحافلة ويتوقّف. إلا أن الولد نزل إلى الشارع دون أن يتلفتَ، كما لو كان يسير في الشارع المؤدّي إلى بيته. كبس السائق على المكابح - بصورة غريزية - ضغط بشدّة على المقود، واندفع إلى الوراء. انحرفت الحافلة عن خطّ السير، بينما السائق يرى الولدَ وهو يسير ويحدِّق بشيء ما أمامه. رَفَعَ السائق قَدَمَهُ عن المكابح - قليلاً - كي يستعيدَ السيطرة على الحافلة، كانت أمامه أمتار قليلة جدًّا، فخَطَرَ في ذهنه أنه سيقتل طفلاً. انحرف بعنف نحو اليمين، سمع صراخ الناس يأتيه من خلف المقعد. شاهد - بالمرآة - جانب الحافلة على بُعْد متر لا أكثر من الولد، ثمّ شعر باحتكاك العجلات بالرصيف.

وَصَلَ غولد إلى الجانب الآخر من الشارع، انحنى والتقط الكرة، التفتَ، لينظر فيما إذا كانت تمرّ سيّارة ما، ثمّ عبر الشارع. كان ثمّة حافلة واقفة بشكل منحرف بين الشارع والرصيف، وصوت مزمارها يملأ الجوّ ضجيجًا. ظنّ غولد أن السائق يُسلّم علىٰ أحد ما. سار في الحديقة حتّى وَصَلَ إلى الأريكة، نظر إلى السياج، كان عاليًا. ثمّ حدّق بالكرة، كان مكتوبًا عليها: ماراكانا. لم يرَ في حياته كرة عن قرب هكذا. في الحقيقة، هو لم يلمس قطّ كرة في حياته.

نَظَرَ مجدّدًا إلى السياج. كان قد رأى تلك الحركة التي ينوي القيام بها ألف مرّة، فاستعادها في ذهنه، وتساءل إذا ما كان بوسعه أن يُوصِلَ الفكرة إلى أعضاء جسده كلها التي سيحتاجها. فبدا له الأمر صعبًا، ولكنْ، كان من الضروري أن يُجرِّبَ. استعاد الحركات في ذهنه من جديد، وبالترتيب الصحيح. الخطوات، بشكل عام، لم تكن صعبة. كان عليه أن يُنسِّقَ عامل الزمن، وهذا يبدو له صعبًا بعض الشيء، تنسيق الزمن، تنسيق الحركات كلها زمنيًا، لجَعْلها حركة واحدة غير متقطّعة. عليه أن لا يتوقّف في منتصف العملية، هذا واضح جدًّا. يجب أن تكون عملية لها بداية وخاتمة. مثل لازمة الأغنيّة، قال في نفسه. ما يزال الأطفال وراء السياج مستمرّين بصخبهم ولَعبهم. جرِّبْ، يا غولد، كيفما كانت النهاية، يجب عليكَ القيام بذلك.

نزل سائق الحافلة رغم أن ساقَيْه ترتجفان، ترك باب الحافلة مفتوحًا، واتّجه صوب الطفل الأحمق. كان الطفل صامتًا، يتأمّل الكرة بين يَدَيْه. يبدو أنه أحمقٌ حقًّا. كاد يصرخ به، إلا أنه رآه يتحرّك: رآه يرمي الكرة في الهواء، بيده اليسرى، ثمّ يضربها - وهي في الهواء - بقَدَمه اليمنى، فيرسلها إلى ما وراء السياج، في فناء المدرسة. يا للأحمق، قال السائق في نفسه.

التقت الكرة السوداء والبيضاء في مسارها - وهي في الهواء - بظاهر القَدَم اليمنى وهو يشقّ الهواء كالسوط، فشعر بالمَلْمَس اللَّيِّن والتّامّ على ظاهر قَدَمه حتّى وَصَلَ إلى الدماغ - يا للّذّة النقية - بينما استدار جسده حول ساقه اليسرى التي كانت تحفظ التوازن خلال العملية، لتُشارِكَ فيه - بعد ذلك - الساق اليمنى التي عادت لتوّها من طيرانها البهلواني، لتحافظَ على عدم اندفاع الجسد إلى الأمام، بينما ترتفع العينان - غريزيًا - لتتبعَ الكرة التي اجتازت السياج والظنون، تتدحرج في السماء في مسار كقوس قزح أبيض وأسود.

- أجل - قال غولد. كان ذلك جوابًا لكَمٍّ هائل من الأسئلة.

بلغ سائق الحافلة مسافة بضعة أمتار من الولد، ما تزال ساقاه ترتجفان، وكان غاضبًا فِعْلاً.

- هل أنت مجنون أم ماذا؟ هيه، أنتَ، أتراكَ مجنونًا؟

التفتَ إليه الفتى، حدَّق به.

- ليس بعد الآن - قال.

-٢٥-

- هالو.

- هالو.

- مَن المتحدّث؟

- أنا شيتزي شيل.

- آه، هذه أنتِ، يا آنسة.

- أجل، أنا يا جنرال.

- أكلّ شيء على ما يرام؟

- ليس تمامًا.

- جيّد.

- لقد قلتُ: ليس تمامًا.

- عذرًا؟

- لقد اتّصلتُ بكَ لأخبركَ أن هناك مصيبة.

- في الحقيقة أنتِ مَن اتّصل بي هذه المرّة، ما المناسبة؟

- لكي أخبركَ أن هناك مصيبة.

- مصيبة؟

- أجل.

- أرجو ألا تكون مصيبة كبيرة.

- هذا يعتمد على وجهات النَّظَر.

- ليس هذا هو الوقت المناسب، أتعرفين؟ ليس الوقت المناسب للمصائب.

- يؤسفني جدًّا.

- ليس هذا بالوقت المناسب قط.

- هلا استمعتَ إليّ من فضلكَ؟

- بالتأكيد، يا آنستي.

- لقد اختفى غولد.

- اسمعي، يا آنسة ...

- أجل.

- لقد سافر غولد إلى كوفرني، يا آنسة.

- هذا صحيح.

- وهذا لا يعني أنه اختفى.

- أنتَ محقّ.

- إنه فقط سافر إلى كوفرني.

- أجل، سوى أنه لم يصلْ قطّ.

- ماذا يعني ذلك؟

- لقد سافر غولد إلى كوفرني، لكنه لم يصلْ إلى هناك.

- هل أنتِ متأكّدة من ذلك؟

- متأكّدة تمامًا.

- أين ذَهَبَ، إذنْ؟

- لا أعرف. أظنّه قرّر أن يختفي.

- عذرًا؟

- لقد رحل، يا جنرال، غولد رحل.

- ربّما أصابه مكروه ما، هل اتّصلتِ بالجامعة، بالشرطة، هل اتّصلتِ بأحد ما؟

- كلا.

- يجب أن نفعلَ ذلك الآن، هلا اتّصلتِ بي بعد خمس دقائق، يا آنسة، سأتولى أنا الأمر، بل سأتّصل أنا بكِ، خلال خمس دقائق.

- يا جنرال ...

- لا تقلقي.

- أنا لستُ قلقة، لكنْ، بودّي أن تستمعَ إليّ.

- تفضّلي.

- لا تفعلْ شيئًا، من فضلكَ.

- ما هذا الهراء الذي تقولين؟

- اسمعني جيّدًا، لا تفعلْ شيئًا، لا تُخبر أحدًا بذلك، أرجوكَ، تعال هنا فقط.

- أنا آتي هناك؟

- أجل، تعالَ إلى هنا فقط.

- لا تتفوّهي بالتفاهات، يجب أن نعثرَ على غولد، ما فائدة أن آتي إلى هناك، هلا تفضّلتِ عليّ...

- جنرال...

- أجل.

- ثقْ بي، اسْتَقِلّ إحدى طائراتكَ، أو أيّ شيء، وتعال هنا.

- ...

- ...

- صدّقني، إنه الشيء الوحيد المفيد الذي بوسعكَ فِعْله، تعال إلى هنا.

- ...

- أنا بانتظارِكَ، إذنْ.

- ...

- جنرال ...

- أجل.

- شكرًا.

-٢٦-

سيجارة تشتعل - صوت عالٍ، ضجيج تبغ يحترق، قويّ كَطَيّ ورقةٍ، طولها آلاف الكيلومترات - ينخسف الخدّان عند سَحْب الدخان، فوق الخَدَّيْن عينان، كأنهما صدفتان طافيتان في وجهِ أحمر، يلتفت صوب الآنسة الجالسة إلى جانبه، شقراء تضحك بصخب، ضحكة كأنها وعدٌ بممارسة الجنس، يُرطّب عقول الذُّكُور، وإن كل في مكانه، على مسافة عشرة أمتار منها، ثمّ تتبدّد الضحكة - شيئًا فشيئًا - في الصفوف التالية المليئة بالرجال والنساء، أجسادهم المتلاصقة وعقولهم الهائمة، في صفوفهم تلك، من الأعلى حتّى الأسفل، يخترق الأجواء صخب موسيقى الروك الذي يتفجّر من مكبّريْ صوت في الأعلى، ثمّ صراخهم الذي يمزّق الهواء من طرف الصالة حتّى الطرف الآخر، في بقع الضوء والفلاشات، بين روائح التبغ، والعطور الثمينة، وكريم ما بعد الحلاقة، والآباط، وجاكيتات الجِلْد، والفشار، الصراخ وآلاف الكلمات المثيرة، الحمقاء والقذرة، عن ثمالة أو حبّ، تسير كالحشرات فوق تلك الأجساد، وفي العقول، يبدو كأنها أرض محروثة من كثرة الرؤوس المصطفّة، تتسلسل بطريقة منتظَمَة نحو بقعة مضاءة في العُمق، تجذب الأنظار الراجفة بفِعْل ضغط الدم، وقد تَحلّق الجميع حول الحلبة وسجّادتها الزرقاء، وفوقها خطٌّ باللون الأحمر "بونتياك هوتيل"، وسيبقى الجميع طوال تلك الليلة المتوهّجة حول السجّادة الزرقاء، ليباركَهُ الرّبّ، ها قد وَصَلَ أخيرًا، جاء من بعيد...

... هنا في حلبة بونتياك هوتيل، يرحّب بكم دان دي بالما من راديو KKJ، أهلًا بكم في هذا المساء الرائع، ومباراة الملاكمة. كل شيء "فلاش" جاهز الآن من أجل هذا النزال الذي سالت بسببه أنهار من الحِبْر وآلاف من الرهانات، تحدٍّ رغب به مونديني بقوّة، ونجح في تنظيمه، رغم عدم رغبة تلميذه "فلاش"، وقد فاجأ الجميع بذلك "فلاش"، وأثار حفيظة الإعلام وشكوكه، شكوك قد تحوّلت الآن إلى انتظار رهيب، إذا ما نظرنا إلى الكَمِّ الهائل من المتفرّجين، والتّوتّر الذي بوسعنا الشعور به "فلاش" هنا في الحلبة، لم يبقَ الآن سوى ثوانٍ على بدء النزال "فلاش"، والذي سيُديره الحَكَمُ المكسيكي رومان غونزالس، ٨٢٤٣ متفرّجًا، دفعوا ثمن التذاكر، اثنا عشر راديوًا تتابع اللقاء مباشرة، في الزاوية الحمراء "فلاش" باللباس الأبيض والحزام الذَّهَبي، ٣٣ عامًا، ٥٧ نزالًا، ٤١ فوزًا "فلاش" ١٤ خسارة، ٢ تعادل، اثنا عشر عامًا من الملاكمة، نافس لمرّتَيْن على بطولة العالم، انسحب قبل سَنَتَيْن وثلاثة أشهر من على حلبة أتلانتيك سيتي، ملاكم شهير، محبوب ومكروه "فلاش" كان كابوس المراهنين، دفاعاته لا تُخترَق، وهجومه خارق القوّة، ستانليييي "هوووووووووكر" بوريييييييييييدا "فلاش"، في الزاوية الزرقاء، بلباسه الأسود، ٢٢ عامًا، ٢١ نزالًا، ٢١ فوزًا، كلها قبل انتهاء الوقت، "فلاش" لم يُهزَم قطّ، سَقَطَ أرضًا مرّة واحدة فقط، أحد الملاكمين الواعدين لبطولة العالم، دفاعاته يمينية وشمالية "فلاش" قدرة على اللَّكْم "فلاش" بسرعة مذهلة، بخفّة لا مثيل لها، شابّ، لا يمكن توقّع حركاته، متعجرف "فلاش" مكروه، الشّابّ الذي ربّما سنُلقّبه - بعد بضع سنين - الملاكم الأكبر، ليرييييييي "لويااااااار" غوووووووورمان.

يُدلّكُ مونديني رقبة ليري، لتخفيف شدّة الخوف.

- أنا لستُ خائفًا، يا معلّم، ولكنْ، استمرّ في ذلك، إنه يُعجبني.

- لا تستعجلْ، يا ليري، ودعْ عنكَ الحماقات.

- حسنًا.

- قمْ بالأمر بسهولة، ولن تواجهَ المصاعب.

- لقد قطعتَ على نفسكَ الوعد، يا معلّم.

- أجل، لقد فعلتُ.

- أنا أفوز، وأنتَ ترافقني إلى بطولة العالم.

- ركّز الآن على النزال، أيها الأحمق.

- سوف تروقكَ بطولة العالم، سترى.

- اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري.

- وأنتَ كذلك.

يعلن الحَكَمُ غونزالس بدءَ النزال، بوريدا يتوسّط الحلبة، يتّخذ ليري وضعية الدفاع اليمينية، يدور حول بوريدا ... يتّخذ بوريدا وضعية دفاع مُحكَمَة، كلتا يَدَيْه أمام وجهه، يُفضّل تَرْكَ جسده مكشوفًا، لا وجهه، نظرته لا مبالية و... قاسية خلف قفّازه الأحمر، يبدو أنه "فلاش" بوريدا الحقيقي السابق، لعلّ أسلوبه ليس أنيقًا، ولكنه صلب كالصخر ... صلبٌ جدًّا، ليري يحوم حوله، يُغيِّر وجهته باستمرار "فلاش" يبدو نشيطًا، يستخدم ساقَيْه، لكنه لم يُسدِّدْ حتّى الآن لكمة واحدة ... يبدو أنهما يدرسان بعضهما، لكمة مناورة من ليري "فلاش"، ثمّ أخرى ... لا يُحرِّك بوريدا

ساقَيْه بخفّة عالية، ولكنه خفيف الحركةِ في الجزء الأعلى من الجسم، لكمة مناورة من ليري، ثمّ أخرى "فلاش" بوريدا لا يتراجع، يُحرِّك جسده بخفّة ... لم تسجَّلْ حتّى الآن لكمة حقيقية، يبدو أنها جولة مليئة بالحذر من كلا ... (إنكَ قبيح حدّ الغثيان، يا بوريدا، هل أخبرَكَ أحدُهم بهذا من قبل؟ يبدو أن ساقَيْه لا تساعدانه، أم أنه يتظاهر بذلك، فبهذَيْن الساقَيْن لن يكون بوسعه حتّى الهرب، يجب أن أسدِّدَ اللكمات على الذراعَيْن، إنهما مكسورتان، أليس كذلك؟ أجل، إنهما مكسورتان، سحقًا لكل العاهرات) اللكمة المستقيمة، يا ليري، اللكمة المستقيمة، لن تفعلَ شيء بحركاتكَ هذه. بأناقة شديدة يحوم ليري في مركز الحلبة، ولكنه لا يُوجِّه اللكمات، يبدو أنه يهزأ من خصمه، وهذا في الحقيقة أسلوب ليري المعتاد، فهو "فلاش" يحبّ أن يقوم بهذه الحركات البهلوانية ... ربّما بشكل مبالغ، يدّعي بعض مبغضيه ... (أهذا ما ترغب به، يا بوريدا؟ أنا أجهد نفسي لِلَّحاق بكَ، وأنت واقف تنتظر اللحظة المناسبة لتنالَ منّي، أتظن أنكَ خدعتَني؟ حسنًا، والآن انتهى المشهد المسلّي، كان ذلك فقط من أجل) "فلاش فلاش" يمينية من بوريدا، لكمة يمينية مباغتة "فلاش" لم يكن ليري مستعدًا لذلك، سدّدها لوجهه، يبدو أن التّوتّر سيشتدّ هنا في بوتانيك هوتيل (أيها الحقير، ما هذا؟) أين أنتَ، يا ليري؟(أنا هنا، يا معلّم، أنا هنا، حسنًا، أيها اللعين، لقد انتهى الرقص) لكمة مناورة من ليري، ثمّ أخرى، يُغيِّر وضعية الدفاع، مستقيمة، مستقيمة أخرى، ثمّ لكمة يمينية "فلاش"، لقد تراجع بوريدا عن "فلاش" مركز الحلبة، هو الآن على الحبال، إنه ليري "فلاش" توليفة مباغتة، يا للسرعة! "فلاش" بوريدا يشدِّد دفاعاته، ليحمي وجهه "فلاش"، بينما ليري يسدِّد لكماته، ثمّ يرجع إلى الوراء، ها هو الآن يهجم، يستمرّ في الضرب (ابتعدْ عنه، يا ليري، ابتعد، اللعنة)

يتراجع ليري، ثمّ يتقدّم، لا يزال بوريدا مستندًا على الحبال، يحرّك أعلى جسده، قابعًا خلف دفاعاته (ابتعد من هنا) يصرّ ليري، لكمة صاعدة من بوريدا، ثمّ أخرى جانبية، يمينية جانبية في الوجه، ليري يتطوّح، يحتضن بوريدا، ليوقفَ الهجوم، يطير واقي الفم في الهواء، إنه واقي فم ليري، يتدخّل الحَكَمُ، يُوقِف النزال، لقد أربكت لكمة بوريدا الجانبية القوية رأسَ ليري، وقذفت بواقي الأسنان من فمه، التقطه الحَكَمُ، وناوله إلى مساعدي ليري، ليري يتنفّس الآن، يبدو أنه عانى كثيرًا من لكمات بوريدا الذي كان يبدو أنه قابع خلف دفاعاته، إلا أنه باغت ليري، ولكمه بشدّة، وبسرعة مذهلة، ها هو ليري يستعيد واقي الأسنان، ويعلن الحَكَمُ استعادة النزال، هناك بعض الدم على وجه ليري، ربّما أُصيب بجرح فوق الحاجب، ها قد عاد الملاكمان يدرسان بعضهما، يبدو أنه جرح في فمه، يسيل الكثير من الدم على رقبة ليري في هذه اللحظة، ربّما على الحَكَم أن ... ثلاثون ثانية فقط، يا ليري (حسنًا، ثلاثون ثانية، رأسي ما يزال بخير)، ثلاثون ثانية، ابتعدْ عنه، دع الثواني تمرّ، ليري الآن هو مَنْ يستند إلى الحبال، بوريدا يدنو منه، ولكنْ، بحذر شديد، يقترب وهو يحافظ على وضعية الدفاع، وقد غاص رأسه بين كتفَيْه، يحاول ليري أن يُبقيه بعيدًا بلكمة مستقيمة، يتدخّل الحَكَم، يُنذر بوريدا الذي يُخفض رأسه، يستعيدان النزال، ولكنْ، ها هو جرس نهاية الجولة الأولى يرنّ، الجولة التي كانت ...

- إنه ابن عاهرة.

- دعني أرى.

- لقد لكَمَني على فمي مباشرة بمرفقه، حالما رأى واقي الأسنان يطير من فمي، اللعنة ...

- اصمتْ، ودعني أرى.

- ...

- حسنًا، ناولوني هذا السائل، هيا، ناولوني السائل ...

- إنه مؤلم، يا معلّم.

- كفَّ عن الثرثرة.

- إن فمي ...

- أغلقْه، إذنْ، واستمعْ إلي جيّدا، يا ليري.

- نعم.

- لنبدأ من جديد، انسَ كل شيء، سنبدأ من جديد.، كما لو كانت الجولة الأولى ... بهدوء، ودون عجلة، أوكي؟ لم يتغيّر شيء، أنت الأقوى، كن مطمئنًّا، اصعدْ على الحلبة، وافعلْ ما عليكَ فِعْله، هذا كل ما في الأمر.

- كم سنًّا فقدتَ؟

- اثنَينْ أو ثلاثة.

- اثنَينْ أو ثلاثة؟

- لا تقلقْ، سأرسلكَ إلى طبيب أسنان ماهر، لا داعي للقلق. والآن انهضْ، تنفّسْ، هل أنتَ عطشان؟

- سوف أقتل ابن العاهرة هذا، أقسم أني ...

- ليري، اللعنة، لم يحدثْ لكَ شيء، لنبدأ من جديد، أتفهم أم لا؟ من جديد تمامًا، لم يحصلْ شيء، أفرغْ رأسكَ.

- أوكي، أوكي.

- كأنها الجولةِ الأولى، أفهمتَ؟

- الجولة الأولى.

- لم يحدثْ أيّ شيء.

- أوكي.

- أتعرف، أظنّ أنكَ فَقَدْتَ ثلاثة أسنان من المقدّمة.

- نعم، لقد أصابوني بمضرب البسبول، سنين مَضَتْ.

- حسنًا، اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري.

- وأنتَ كذلك.

تبدأ الجولة الثانية، هنا في حلبة البونتياك هوتيل، نحن على الهواء مباشرة لمستمعي راديو KKJ، لقد أُصيب ليري بضربة قاسية في الفم، ها هو الآن يتوسّط الحلبة ... يقف بوريدا دون حراك، يحتمي خلف دفاعاته، مستعدًا لتسديد اللكمات، يمينية مستقيمة من ليري، ثمّ أخرى، لكنه لا يخترق دفاعات بوريدا، يحوم ليري حوله، يبدو أنه ... مستقيمة قوية، ثمّ مستقيمة أخرى، لكمة جانبية، بوريدا يستند إلى الحبال، بوريدا في الزاوية، يخرج منها، ليري يلاحقه (احم رأسكَ، كنْ حذرًا من لكمته الصاعدة، سيحاول من جديد بالتأكيد)، لاذ بوريدا بالزاوية مجدّدًا، حاول تسديد لكمة صاعدة، ولكنْ، دون جدوى، ليري يسدِّد لكماته، ضربات سريعة على

الجنب، بوريدا يحمي وجهه، ينحني، يحاول الانزلاق من جهة اليمين، يسقط أرضًا، بوريدا يسقط أرضًا، لقد أسند ركبته إلى الأرض (ماذا تفعل، أيها اللعين؟) يُبعد الحَكَمُ ليري، لا بد أنها لكمة على الكبد، لكمة عن قرب، لقد أحنى بوريدا ساقه اليمنى، كما لو أنها انكسرت إلى نصفَين، والآن بوريدا ينهض، يتنفّس بعناء، بينما غونسالز يعدّ، لكنْ، يبدو أنه على ما يرام، يُومئ برأسه أنه بخير، ليري! (عيناه لم تتغيّران عن ذي قبل، لم يصبْه شيء، إنه فخّ، ليس إلا) ليري، اتركه! (لقد فهمتُ، يا معلّم، أعرف، لن أقتربَ منه، سأرقص الآن، بعض الرقص سيُساعده)، ليري يحوم حول بوريدا، يبدو أنه لا ينوي الهجوم، أو لعلّه ينتظر اللحظة المناسبة ... يدنو بوريدا، يتراجع ليري، يتراجع بأناقة صوب اليمين، يدور حول بوريدا، ها هو يغيّر اتّجاهه، يحاول بوريدا الدّنوّ منه، ليري يستند إلى الحبال، لكمة من ... إنها مستقيمة من ليري تجعل بوريدا يترنّح، ما يزال واقفًا، ليري يلكم بكلتا يَدَيْه، بوريدا في وضع حرج، بوريدا بوريدا، لقد سدّد لكمة جانبية، ثمّ أخرى، أصبح الآن هو مَنْ يسدِّد اللكمات، تبادل لكمات عنيف جدًّا، لقد أُصيب ليري، يستند إلى الحبال (اللعنة)، بوريدا ما يزال في هجومه، ابتعدْ من هناك، يا ليري، يهجم بوريدا على خصمه، ضربة جانبية لا تصيب الهدف، ابتعدْ من هنا، يا ليري، اللعنة، (حالما يقف للراحة) يصرّ بوريدا، يقترب من الخصم، ليري يحتمي خلف دفاعاته مستندًا على الحبال، بوريدا بوريدا، ليري، (حالما يقف للراحة)، بوريدا يسدِّد لكمة يمينية، ثمّ يمينية أخرى، ولكنه يخطئ الهدف، يكفّ بوريدا عن الهجوم، يتراجع خطوَتَيْن إلى الخلف (الآن)، ينطلق ليري، يمينية مستقيمة، مستقيمة أخرى، يتراجع بوريدا حتّى مركز الحلبة، قابعًا خلف القفّازَيْن، ضربة جانبية قوية جدًّا من ليري، بوريدا يترنّح، يبحث عن الحبال (لا يرى اللكمة الجانبية)، بوريدا يتّكئ على الحبل،

ليري لا يقترب منه كثيرًا، إنه يبحث عن منفذٍ في دفاعات بوريدا، بوريدا يحرّك أعلى جسمه (أأنتَ مستعدّ، يا عزيزي؟) يهجم ليري بمستقيمة، ثمّ مستقيمة أخرى، بوريدا لا يحرِّك ساكنًا، يحاول أن .. مستقيمة قاسية جدًّا، ثمّ ضربة يمينية جانبية، يسقط بوريدا أرضًا، واحد اثنان كالبرق، بوريدا طريح (قمْ، يا فزّاعة الطيور) يبدأ العَدّ على بوريدا، ينهض (هيا، قمْ، لم أنتهِ منكَ بعد) ينهض بصعوبة، ستّة ... سبعة .. ثمانية، يشير بيده أنه يريد إكمال النزال، يبدأ النزال من جديد، ليري يدنو منه، يسدِّد مستقيمة، ثمّ أخرى، إلا أن بوريدا يسبقه في التوقيت، يسدِّد مستقيمة قاسية، ليري يتطوّح، يثني ساقَيْه، كانت مستقيمة قوية جدًّا، سبّبت لليري الأذى، لكنه ما يزال واقفًا يقاوم (اللعنة ...) يحاول احتضان بوريدا ليوقفَ الهجمات (اللعنة عليكَ، أيها الحقير) مرحلة متأجّجة من النزال، الجماهير كلها تنهض، يأمر الحَكَمُ بفسحة، ليري يتنفّس بفم مفتوح، لقد أوجعتْه المستقيمة تلك (يا لكَ من غبي، يا ليري) الملاكمان يحتضنان بعضهما، بوريدا يسدِّد لكماته إلى جنبَي ليري، ضربة جانبية من ليري، لكمة صاعدة تُخطئ الهدف، ما يزال بوريدا يسدِّد اللكمات إلى جنبَي ليري، يسندان رأس على رأس (ما الذي يفعله هذا؟) يبدو أن بوريدا يجيد الصراع أفضل من قرب (اصمتْ، أيها الحقير، اصمتْ) يفصل الحَكَمُ الملاكمَيْن، ما هذا، أيها الحَكَم؟ بوريدا سدَّد ضربة لليري، بينما الحَكَمُ يفصلهما عن بعض، يعترض ليري، ما كان هذا، أيها الحَكَم؟ من الصعب على الحَكَم أن يرى من تلك المسافة (أعرف هذه الخدع كلها، أيها الحقير) ليري يتراجع، ليلتقط أنفاسه، بوريدا لا يلحّ بالهجوم، يعود ليري إلى وسط الحلبة، يبدأ بتحريك ساقَيْه، إنه ليري الذي نعرفه، ها قد رنّ جرس نهاية الجولة، الجولة التي كان فيها الملاكمان، حسب رأيي ....

- أ أنتَ بخير، يا ليري؟

- يا للنزال اللعين!

- دعني أرى فمكَ.

- إنه نزال لعين فِعْلًا.

- حسنًا، ستربح النزال، ونغادر إلى البيت.

- إنه يتظاهر بالسقوط أرضًا.

- هي طريقته في أخذ قسْط من الراحة.

- ماذا يعني هذا؟! ليس بوسعه أن يسقطَ أرضًا هكذا، ودون ...

- لا يعنيه من الأمر شيء، يتظاهر بالسقوط، يأخذ قسطًا من الراحة، بينما أنت تطير فرحًا لذلك. لطالما فَعَلَ هذا.

- لم أضربْه مطلقًا على الكبد.

- يسقط بمهارة كأنه أُصيب حقًّا، إنه مختصّ بهذه الخدع.

- سحقًا له ...

- تنفَّسْ.

- لقد حاولتُ أكثر من مرّة ...

- اصمتْ، وتنفَّسْ.

- إنه يتحدّث خلال النزال، أتفهم؟

- دعه يتحدّث، لا شأن لكَ به.

- لا أريد أن أسمعَه يتحدّث.

- تنفَّسْ.

- يقول إنكَ دفعتَ له المال، لكي يهزمني.

- اصمتْ، وتنفَّسْ.

- ...

- اسمعني، يا ليري، لا تتركه أبدًا، انقضّ عليه حتّى حينما تراه يتهاوى مثل ميت، لا تتركه.

- أما يقوله صحيح؟

- ماذا؟

- أنكَ دفعتَ له المال؟

- اللعنة، يا ليري، هذا نزال ملاكمة، وليس مؤتمرًا، حافظْ على وجودكَ فوق هذه الحلبة، وإلا فإن بوريدا سيهشِّم وجهكَ هذا، أيها الصبيّ المُدلّل.

يرنّ جرس بداية الجولة.

- أنتَ الأقوى، يا ليري، لا تضيّع كلّ شيء.

- أوكي.

- أنتَ الأقوى.

- بجانب مَنْ أنتَ، يا معلّم؟

- اذهبْ إلى الجحيم، يا ليري.

- وأنتَ أيضًا .

تبدأ الآن الجولة الثالثة في حلبة البوتانيك هوتيل، ليري "لويار" غورمان ضدّ ستانلي "هوكر" بوريدا، التّوتّر في أعلى درجاته، إنه لقاء مليء بالمفاجآت، كالبرق الحارق ... ليري الصاعد ضدّ بوريدا العظيم ... مَنْ كان يظنّ - حتّى البارحة - أن هذا اللقاء قد نُظِّم من أجل ملء جيوب المراهنين بالمال، يجب عليهم الآن أن يُعيدوا النَّظَر فيما اعتقدوه ... لا تدعْه يقترب منكَ أكثر، يا ليري، ها هما الملاكمان (اغربْ عن وجهي، أيها القبيح) يدنو بوريدا أكثر، يُجبر ليري على الصراع القريب (اذهبْ إلى الجحيم) ضربات متوالية على جنبَيْ ... لا تصارعْه، يا ليري، ابتعدْ عنه، يتدخّل الحَكَم، يفصلهما عن بعض، بوريدا يضيّق الخناق على ليري، لا بد أنه قرّر ألا يمنحه الفرصة السانحة ... السرعة، يا ليري، اهجمْ بسرعة، ثمّ تراجعْ، لا يزالان في الصراع عن قرب (بسرعة، بسرعة، هيا، بسرعة) يفصلهما الحَكَم مجدّدًا، يهجم بوريدا مباشرةً، رأسه غائص في كتفه، يتلافاه ليري بمهارة، يدور حول الخصم، يغيّر الاتّجاهات والحركات، بوريدا يحاول الدّنوّ أكثر، ضربة خاطفة من ليري تخترق دفاعات بوريدا، مستقيمة تتبعها أخرى، لكمات خاطفة، يسدِّد ليري ضرباته، ثمّ يعاود الرقص حول خصمه (والآن، لأنهيه في دقيقة واحدة)، إنها طريقته المفضّلة في الملاكمة، خفّة وسرعة، يسدِّد مستقيمة، جانبية للمناورة، يتراجع بوريدا، فيسدِّد ليري المستقيمة، لقد أصاب بوريدا في وجهه، اهدأ، يا ليري، اهدأ، اللعنة، يبدو ليري كجسم مطّاط، يتقدّم إلى الأمام، ثمّ يتراجع، يسدِّد

لكمات خاطفة، بوريدا يفقد التوازن، إنه يستند إلى الحبال مُنهكًا، ويتلقّى الضربات من ليري ... ليري، يا للمشهد الرائع! هذه طريقته المفضّلة في الملاكمة، توقّفْ، يا ليري، اللعنة على العاهرات كلهنّ، يهجم ليري بعزم، بوريدا يتطوّح على الحبال، ليري يضرب بكلتا يَدَيْه، يحاول بوريدا بلكمة صاعدة، فيصدّها الآخر بدفاعاته (تنفّسْ، وأحكِمْ دفاعاتكَ)، يتراجع ليري خطوَتَيْن، يقلّ الضغط على بوريدا، ينهض الجمهور بالكامل، ابتعدْ الآن، يا ليري، ابتعدْ، يبدو التّوتّر في أعلى مستوياته، يهجم ليري كالبرق، مستقيمة، ثمّ جانبية يمينية، هجمة خاطفة (اسقطْ أرضًا، أيها الحقير)، يتطوّح بوريدا على الحبال (اسقطْ، أيها اللعين)، بوريدا ينحني، ليري يضرب بكلتا يَدَيْه (اذهبْ إلى الجحيم، إلى الجحيم، إلى الجحيم) ينزلق بوريدا على جهة اليمين، يسدِّد لكمة جانبية، يصيب ليري (كفى، اللعنة) الذي يردّ بمستقيمة، ولكنْ، لا يصيب الهدف (أريد أن أتنفّس، منذ متى لم أتنفّس؟) ينحني بوريدا، ثمّ ينهض وهو يسدِّد لكمة صاعدة وضربة جانبية، يتراجع ليري، ليري!!! بوريدا يلاحقه، ارفعْ ذراعَيْكَ، يا ليري، ارفعهما!!! (ارفعْ ذراعَيْكَ) بوريدا يسدِّد لكمات إلى بطن ليري (يجب أن أتنفّس، أتنفّس)، لا تخفضْ ذراعَيْكَ، اللعنة (كم بقي من الوقت؟) يسدِّد بوريدا لكمة جانبية، يُخطئ الهدف، يعيد الكرّة (لكمة صاعدة) لكمة صاعدة من ليري تُخطئ الهدف (ارفعْ ذراعَيْكَ)، ارفع ذراعَيْكَ، يا ليري!!! يمينية قوية من بوريدا، أُصيب ليري، ليري يسقط ( ) سَقَطَ ليري، سَقَطَ ليري (أين هو؟) يمينية قاسية من بوريدا أسقطتْ ليري لويار غورمان أرضًا، إنه ممدّد الآن على الأرض، على ظهره (أضواء، ضجيج، أضواء، برد) يرفع رأسه، ينحني الحَكَم غونزالس، يبدأ بالعَدّ (أشعر بالغثيان، دم على حذاء الحَكَم، من أين أتتْ هذه اللكمة؟) ثلاثة (يجب أن أجلسَ الآن، أضواء، برد، وجوه تنظر، وجوه ضخمة، غثيان، يا إلهي ما هذا التعب؟ كيف لم

ألحظْ تلك اللكمة؟ يا للعين!) أربعة (لقد أصابني بعنف، اللعنة، أنظر إلى الحبال، وأحسبها، ثلاثة، نعم، ثلاثة، ما هذا الوجه؟ والمرأة التي تصرخ، لكني لا أسمع صراخها، اللعنة) خمسة (ساقاي، ها هما موجودتان، كل شيء على ما يرام، إذنْ، أوكي، والآن أنهض، ضجيج، أين موندينى؟ تنفّس، تنفّس) ستّة (لا أشعر بفمي، اللعنة، كم بقي من الوقت، يا موندينى؟ ساقاي ما تزالان هنا، يجب أن أُوقِفَ دوران رأسي، انظرْ إلى نقطة ثابتة، ثبِّتْ نَظَرَكَ، لماذا تقترب منّي هكذا، أيها الحَكَم الحقير، هناك سنّ ذهبي في فمه) سبعة (حسنًا، يجب أن أنتظرَ حتّى يستقرّ رأسي، ما هذا الضجيج ونَظَري الراقص؟! يجب أن ترفعني ساقاي، سترفعني ساقاي، لا أشعر بفمي، موندينى، حسنًا، سأتمايل بجسمي، وأرقص بساقي، ليست هناك مشكلة) ثمانية (طبعًا بوسعي أن أُكملَ النزال، أكْمِل العَدَّ، أيها الحَكَم الحقير، كم بقي من الوقت، يا موندينى؟ سأُكمل النزال، أنا بخير، أين بوريدا؟ أرني وجه بوريدا اللعين، كيف هو وجهي؟) يعلن الحَكَم بداية النزال من جديد، بقيت ٢٣ ثانية على نهاية هذه الجولة الثالثة المأساوية، يحاول بوريدا الضغط على ليري، ليلوذ بالحبال، ليري يتراجع، يتراقص بساقَيْه، يسدِّد المستقيمة، لكي يُبعِدَ بوريدا عنه، ١٨ ثانية على نهاية الجولة، يهجم بوريدا، ليري ينسحب من جهة اليسار، لكنه يتطوّح، يضغط عليه بوريدا، يسدِّد يمينية، يصيب الهدف، يعيدُ الكرّة بيمينية في وجه ليري، ليري يحتضن بوريدا، يبدو مُنهَكًا، يصرّ بوريدا، يحاول أن يجد منفذًا مناسبًا لتسديد اللكمات، ليري يسدِّد لكمات واهية، يمينية يسارية، لا تصيب الخصم، يمينية أخرى، يصيب بوريدا تحت الحزام، بوريدا يعترض، يتدخّل الحَكَم، ويُنذِر ليري، ٥ ثوان، يهجم بوريدا بعنف على ليري، هجوم قريب وعنيف ..

يرنّ جرس انتهاء الجولة.

الجرس هو ما أنقذ ليري من وضعية حرجة جدًّا، بعد سقوطه الذي ..

- تنفَّسْ.

- ...

- اجلسْ، وتنفَّسْ، هيا.

- ...

- دعني أرى، انظرْ إليّ، حسنًا، هيا، تنفَّس.

- ...

- لقد أعجبتَني لكمتكَ تحت الحزام ... لم يعدْ بوريدا كما كان سابقًا، كان من المفترَض أن يسقطَ مُغمى عليه، لقد كنتَ محظوظًا أنت أيضًا، وإن لم يعدْ حظّكَ كذي قبل.

- ...

- أذراعاكَ ويداكَ على ما يرام؟

- أجل.

- تنفَّسْ.

- لم أرها.

- لكمة عن قرب، لم ترها منذ البداية.

- ...

- عليكَ بالماء، هيا.

- معلّم ...

- اغسلْ وجهَكَ، لا تشربْ، لا تشربْ، ابصقْ، هكذا.

- ماذا عليّ أن أفعلَ، يا مايستر؟

- هذا جيّد، والآن تنفَّسْ، تنفَّسْ.

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- كيف هو فمكَ؟

- لا أشعر به.

- هذا أفضل.

- لا أعرف ما عليّ فِعْله هناك، في الحلبة، يا معلّم.

- كفّ عن ذلك، هل تنفُّسكَ جيّد؟

- مايستر ...

يرنّ جرس بداية الجولة.

- اذهبْ إلى الجحيم، ليري.

- ماذا يجري، معلّم؟

- اذهبْ إلى الجحيم، ليري.

- معلّم ...

بدأت الآن الجولة الرابعة هنا في بونتياك هوتيل، يتعالى صراخ الثمانين ألف متفرّج، بوريدا وليري في قلب الحلبة، وقد تركت الجولات السابقة آثارًا في وجه كلّ منهما، ففم ليري مدمى، بينما انتفخت عين بوريدا، فتبدو شبه مغمضة، ها هما يتحرّكان ببطء، يدرسان بعضهما في قلب الحلبة (يبدو كل شيء بعيدًا، كل شيء يسير ببطء، بوريدا أكثر بُطئا، قفّازي الأحمر كأنه قفّاز شخص آخر، كأن دبابيس في يدي، إنه الألم الذي يُبقيني يقظًا، ألم جميل، أشبه بالفوضى، بوريدا، أيها العاهر، اذهبْ إلى الجحيم، لم تُؤذِني لكمتكَ تلك، لم أعدْ أشعر بشيء، اضربْني، إن شئتَ، لا أشعر بشيء، اضربْني كيفما شئتَ، تعال، أيها العجوز الحقير، يمينية يمينية يسارية، أتخاف من لكمتي اليسارية، أرأيتَ لكمتي الجانبية كيف كانت؟! ها أنتَ تكاد تفقد عينكَ، لا ترى بها والدم ينبض في عروقكَ، وفي رأسكَ، تعال، هيا، أنا لن أهجمَ عليكَ، اذهبْ إلى الجحيم، لم أشعرْ بلكمتكَ، ولن أشعرَ بشيء أبدًا، لا شيء هنا، إنه الجحيم، تعال إلى الجحيم، جميلة هي الزاوية والحبال خلف ظهركَ، أشمّ رائحتكَ، أيها العاهر، سأرقص بساقَيّ هاتَيْن كساقَيْ إله، أيها الحقير، برأسكَ المتحجّر، لن ترى لكمتي، لن تراها أبدًا، تعال إلى الجحيم الآن) ضربة جانبية من ليري، يا لها من ضربة! شيء لا يُعقَل، بوريدا يتطوّح متراجعًا إلى الخلف، ها هو الآن وسط الحلبة، ليس بوسعه أن يرفعَ ذراعَيْه للدفاع عن وجهه، إنه يتطوّح، ليري يقترب منه بروية، بوريدا يتراجع خطوة، ليري يصرخ بشيء ما، يدنو منه، ليري، بوريدا واقف، لا يحرّك ساكنًا، ليري ليري، ينهض المتفرّجون ...

شاهد غولد مفتاح الباب يدور، ثمّ يُفتَح، دخل عليه رجل يرتدي بذلة.

- هيه، أيها الصبي، لماذا لا تجيبني؟

- ماذا؟

- لقد طرقتُ الباب، من أجل التذكرة، ولم تجبْني، ماذا تفعل؟ أكنتَ نائمًا في المرحاض؟

- لا.

- ألديكَ تذكرة؟

- أجل.

- هل أنتَ بخير؟

- نعم.

بقي غولد جالسًا في المرحاض، ومَدّ التذكرة للمُحصّل.

- لقد طرقتُ الباب، لكنكَ لم تجبْني.

- لا يهمّ.

- ألا تخرج؟

- أجل، سأخرج الآن.

- سأترك الباب مواربًا، أوكي؟

- أجل.

- عليكَ أن تجيبَ في المرّة القادمة، إذا ما طَرَقَ أحدُهم البابَ.

- حسنًا.

- أوكي، أتمنّى لكَ سفرة سعيدة.

- شكرًا.

ترك المحصّل الباب مواربًا، نَهَضَ غولد ورَفَعَ بنطلونه، نظر إلى نفسه في المرآة، ثمّ فتح الباب، وخرج، وأوصد الباب وراءه. عاد لمكانه، بينما كانت هناك سيّدة واقفة تنظر إليه. كان القطار يعدو مسرعًا، وتعدو الأرياف الشاسعة بالاتّجاه المعاكس.

-٢٧-

وَصَلَ والد غولد عند حلول الظلام، ألقى نظرة حوله:

- لقد تغيّر كل شيء هنا.

لم يكن يرتدي بذلته العسكرية، وكان في ملامحه أشياء طفولية، كابتسامته مثلاً. يضع حذاءً بنّيًا ذا رباط، أنيقًا إلى حدّ ما. وكان من الصعب أن تتخيّله وهو يخوض حربًا بذلك الحذاء. يبدو ملائمًا أكثر لعقد السِّلْم، أو شيء أشبه بسِلْمٍ مملّ، يُشعركَ بالأمان.

نظرت شيتزي من الشّبّاك، كانت تتصوّر أنه سيأتي ومعه الجنود والحَرَس الخاص، وأشياء من هذا القبيل. ولكنْ، لم يكن هناك أحد. فقالت في نفسها إن هذا أمر غريب. لم يخطر في ذهنها أن ترى هذا الرجل وحيدًا هكذا، ولكنْ، ها هو الآن هناك. وحيد. كيف يمكن شرح ذلك؟

قال والد غولد إن اسمه هيلي، وإنه سيكون سعيدًا إذا ما نادتْه باسمه. وليس: جنرال.

ثمّ قال إنه - في الحقيقة - ليس جنرالاً.

- حقًّا؟

- إنها حكاية طويلة ومملّة. أنتِ نادني هيلي فقط، اتّفقنا؟

قالت شيتزي إنها موافقة. كانت قد أعدّت البيتزا، وهكذا جلسا يأكلان على طاولة المطبخ، وكان الراديو مفتوحًا. قال والد غولد إن البيتزا لذيذة، ثمّ سأل عن غولد.

- لقد رحل، يا جنرال.

- هلا وضحتِ لي ما معنى هذا؟

فشرحت له شيتزي ذلك. قالت إن غولد كان قد سافر، لكنه لم يصل إلى كوفرني، لقد استقلّ قطارًا إلى حيث لا تعلم، وكان سيتّصل بها من هناك.

- وهل اتّصلَ بكِ؟

- أجل. أخبرني أنه لن يعودَ، و...

- هلا أخبرتِني بما قاله بالضبط؟

- لا أعرف، قال إنه لن يعودَ، وترجّاني ألا نبحثَ عنه، أن نتركَه يعيش بسلام، هذا ما قاله بالضبط، اتركوني أعيش بسلام، كل شيء على ما يرام، ثمّ قال لي سأشرح لكِ كيف سأتدبّر أمري مع النقود، وشرح لي ذلك.

- أية نقود؟

- النقود، طلب منّي أن أرسلَ له النقود، لتدبير أسابيعه الأولى على الأقلّ، بعدها سيتدبّر أمره.

- نقود.

- أجل.

- وأنتِ، ماذا قلتِ له؟

- أنا؟

- أنتِ.

- لا أعرف، أظنّ أنني لم أقل شيئًا، كنتُ أستمع إليه. كنتُ أحاول أن أفهمَ - من صوته - إذا ما كان ... لا أعرف، كنتُ أحاول أن أكتشفَ إذا ما كان خائفًا، شيء من ذلك، إذا ما كان خائفًا أو ... أو كان هادئًا، أتفهم؟

- ...

- أظنّه كان هادئًا. أذكر أني سمعتُ صوته هادئًا، بل أكثر من ذلك، لقد كان يبدو فرحًا، ها قد تذكّرتُ، قد يبدو لكَ غريبًا، ولكنه تحدّث بصوت صبيّ فَرِحٍ.

- ألم يخبركِ أين كان؟

- كلا.

- وأنتِ، لم تسأليه ذلك، صحيح؟

- لا، أعتقد أني لم أفعلْ.

- قد تكون هناك طريقة ما لتتبّع المكالمة، كأن نفتّش في قوائم الهواتف. لا أظنّه أمرًا مستحيلاً.

- إياكَ أن تفعلَ ذلك، يا جنرال.

- ماذا تعنين؟

- إذا كنتَ تحبّ غولد فِعْلاً، فلا تفعل ذلك.

- إنه فتى صغير، يا آنسة، لا يمكن أن يجولَ العالم هكذا، دون أن يرافقَه أحد، من الخطر عليه أن يجولَ هكذا، لن أتركَه ...

- أعرف أن هناك خطرًا، ولكنْ ...

- إنه فتى صغير ...

- أعرف، ولكنه ليس خائفًا، هذا ما يهمّ، إنه لا يخاف، أنا متأكّدة من ذلك. لذا يجب أن لا نخشى عليه من شيء. أعتقد أنها مسألة شجاعة، أتفهم؟

- لا.

- أعتقد أننا يجب أن نتحلّى بالشجاعة، ونتركه بسلام.

- هل أنتِ جادّة فيما تقولين؟

- أجل.

كانت جادّة. كانت متأكّدة أن غولد يفعل ما أراده تمامًا، وحينما يكون الأمر هكذا، فلا خيار أمامهم، كل ما بوسعهم فِعْله هو ألا يخلقوا له المشاكل، فقط هذا، أن يحاولوا قدر الإمكان أن لا يتسبّبوا له بالمشاكل.

قال والد غولد إنها مجنونة.

عندئذٍ قالت شيتزي:

- لا شأن لهذا بالأمر.

ثمّ جعلت تروي له حكاية الأنهار، وكيف أن النهر ينعطف يمينًا ويسارًا، في حين كان - بلا شك - أسرع وأنسب له أن يسلكَ الطريق المباشرة نحو الهدف، بدل تلك التعقيدات والمنعطفات كلها التي لا تعود عليه بشيء سوى مضاعفة المسافة المقطوعة بثلاث مرّات - ثلاث مرّات فاصلة أربعة عشر بالمائة، إذا ما أردنا أن نكون دقيقين - كما أثبت العلماء باستنتاجات علمية دقيقة وجميلة.

- وكأنه مفروض عليها أن تسلكَ تلك المنعطفات، أتفهم؟ قد يبدو أمرًا ساذجًا، إذا ما أمعنتْ النَّظَر، ولكنْ، عليها أن تسلكَ تلك الطريق، وهي تمرّ في منعطفٍ، ثمّ بآخر وهكذا، ولا يتعلّق الأمر بكونه منطقيًا أو سخيفًا، صحيحًا أو خاطئًا، بل هذه - ببساطة - هي طريقة وجودها في الطبيعة.

بقي والد غولد صامتًا يفكّر بعض الوقت، ثمّ قال:

- وإلى أين يريد أن نبعثَ له تلك النقود؟

- لن أخبركَ بذلك حتّى لو ربطتَني على صاروخٍ نوويّ، وأطلقتَهُ على جزيرة يابانية.

ران الصمت بينهما لبعض الوقت. جعلت شيتزي ترفع الأواني عن الطاولة، بينما والد غولد كان يتمشّى ذهابًا وإيابًا، ويقف - بين حين وآخر - عند النافذة، يُلقي نظرة إلى الخارج. وفي لحظة ما، صعد إلى الطابق الثاني، وكانت شيتزي تسمع خطواته فوق السطح. تخيّلتْ أنه يُلقي نظرة إلى غرفة غولد، يتلمّس الأشياء، يفتح الدولاب، يتناول الصور بيده، وينظر إليها، وأشياء من هذا القبيل. ثمّ سمعتْه يدخل الحمّام، ثمّ سمعتْ هدير الماء في المغسلة، وهكذا حضر في ذهنها ليري "لويار" غورمان، وأدركتْ

أنها تفتقده، تفتقده بشدّة. نزل والد غولد، ثمّ جلس على الأريكة. كان رباط أحد حذاءَيْه محلولًا، لكنه لم ينتبهْ لذلك، وما كان ليعنيه من أمره شيء.

أطفأت شيتزي النور في المطبخ، ولكنها تركت الراديو مفتوحا، ثمّ جلست أرضًا، واتّكأت على الأريكة، على الأريكة الأخرى، الخضراء. بينما كان والد غولد جالسًا على الأريكة الزرقاء. كان مذيع الراديو يتحدّث عن الزحام المروري، وعن حادث مروري في الشارع العام، ولم يتسبّب الحادث في موت أحد، حسب المعلومات الواردة، ولكنْ، مَنْ يدري ماذا تُخبّئ المفاجآت.

- كانت زوجتي غاية في الجمال، أتعرفين؟ حينما تزوّجتُها كانت جميلة فِعْلًا. وكانت ظريفة أيضًا. كانت دائمة الحركة، يعجبها كل شيء، كانت كأولئك الأشخاص الذين يمنحون معنى لأتفه أشياء الحياة، تستخلص المتعة حتّى من تلك الأشياء، وكانت شديدة الثقة بالحياة، أتفهمين؟ كانت هكذا. لم أكنْ أعرفها جيّدًا حينما تزوّجتُها، وكنّا قد التقينا قبل ثلاثة أشهر من ذلك، لا أكثر، ولم يكن من طَبْعي فِعْل شيء كهذا، ولكنْ، كانت هي مَنْ طَلَبَتْ منّي أن أتزوّجها، وقد فعلتُ ذلك، وكلّما فكّرتُ في الأمر وجدتُ أنها كانت الخطوة الأفضل في حياتي. كنّا في قمّة السعادة، أرجو أن تصدِّقيني. حتّى حينما اكتشفنا أنها حامل، لم يرعبْني الأمر، بل كنتُ - ببساطة - سعيدًا للغاية، وفكّرنا أنه من الجميل أن يكون لدينا طفل. كنّا ننتقل من مدينة إلى أخرى كل عام، هكذا هو الجيش، ينقلكِ من مكان لآخر، وكانت هي تنتقل معي، وحيثما نذهب كان يبدو وكأنها وُلدَتْ هناك، وكأن تلك هي مدينتها، تبني صداقات مع الجميع. حينما وُلد غولد كنّا - عندئذٍ - في قاعدة المنديراس، حيث أجهزة الرادار والكَشْف وأشياء

من ذلك. وُلد غولد هناك، وكنتُ أنا طوال الوقت في العمل، وكل ما كنتُ أذكره أنها كانت سعيدة، أذكر أننا كنّا نضحك دائمًا، وكانت حياتنا جميلة كذي قبل. لا أذكر متى بدأت الأمور تزداد تعقيدًا. في الحقيقة، يا آنسة، غولد لم يكنْ طفلاً بسيطًا، أعني أنه لم يكنْ عاديًا، كان لا يبدو كالآخرين، بل يبدو أنه أكبر من عمره. لا أذكر أننا تعاملنا معه بطريقة خاصة، كنّا نعامله كيفما اتّفق، وما كنّا نتصوّر أن علينا فِعْل شيء معيّن. وربّما أخطأنا في ذلك. وحينما التحق بالمدرسة، فاجأتْنا مسألة كونه عبقري. لقد استخدموا هذه الكلمة بالضبط: عبقريّ، حتّى إن عقله بلغ تقريبًا معدّل دلتا. أتعرفين ما يعني هذا؟

- كلا.

- إنها مقاييس ستوكن.

- آه.

- كان عبقريًّا. وأنا لم أكنْ سعيدًا أو حزينًا، ولا حتّى زوجتي، لا تعرف ما عليها أن تفعلَه، كان شيئًا عاديًا بالنسبة لنا، أتفهمين؟ كان اسمها روث، زوجتي اسمها روث. ساءت حالتها حينما كنّا في توبيكا، كانت تعتريها لحظات من الفراغ، لا تعرف فيها حتّى نفسها، بعدها تعود إلى وضعها الطبيعي، ولكنْ، كما لو أنها قامت بجهد كبير، فتبدو مُنهَكَة. غريب فِعْلاً ما يدور في العقل البشري. وقد انقلب عقلها رأسًا على عقب، وكانت تجهدُ نفسها في البحث عن النشاط وعن الحبّ للحياة، ولكنْ، كان عليها في كل مرّة أن تعيدَ الكرّة، ولم يكنْ ذلك سهلاً، فيبدو أنها تحاول تجميع شظايا شيءٍ، تحطّم إلى قِطَع صغيرة. قيل إنه الإجهاد، ليس سوى الإجهاد،

ثمّ قاموا بمجموعة من التحاليل. أذكر أننا في تلك الفترة لم نكنْ سعيدَيْن البتّة. كنّا نحبّ بعضنا، حبًّا جمًّا، ولكنْ، كانت الأمور أكثر تعقيدًا، وذلك الألم يتوسّطنا، فكان كل شيء مختلف. كانت - في تلك الأثناء - تقضي وقتًا طويلاً مع غولد، ولم يكن أمرًا مثاليًا، بالنسبة لغولد، ولا بالنسبة لها - وقد أدركتُ ذلك الآن - أن تكون بصحبته، لا أعتقد أنه كان العلاج الأفضل لها. كان طفلاً يزيد تعقيد الأشياء في رأسكَ، ولم تكن هي بحاجة لذلك. ولكنْ، كان يبدو أنهما يستمتعان معًا. وكما تعرفين، فإن الآخرين يشعرون بالخوف من أشخاصٍ مثل روث، فهم لا يُفضّلون قضاء الوقت مع مَنْ يعاني من مشاكل نَفْسية، أعني مشاكل حقيقية. بينما غولد لم تكنْ لديه تلك المخاوف، فكانا يفهمان بعضهما، يضحكان معًا، وكان لديهما عالمهما الخاص. كان الأمر يبدو كمزحة، ولكنْ، لا أعرف، كنتُ أظنّ أن ذلك ليس حسنًا لكلَيْهما. وهذا ما أثبتَهُ الزمن فيما بعد. ففي لحظة ما، بدأت حالة روث تزداد سوءًا، فقالوا يجب أن تقطعَ تواصلها مع الجميع، وبقدر ما يكون الأمر مزعجًا إلا أنها بحاجة إلى دخول مشفى الأمراض النَّفْسية، وإلى علاج مستمرّ، فليس بمقدورها العيش في مكانٍ طبيعي. كانت تلك صدمة قوية. وكما تعرفين، فأنا أعمل في الجيش، وما تتعلّمينه هناك هو تنفيذ الأوامر، لا فهمها، فلم أكنْ معتادًا على فَهْم الأمور. نفّذتُ ما طلبوه منّي، ونقلتُها إلى مشفى الأمراض النَّفْسية. كنتُ أعمل طوال الوقت، وأذهب لزيارتها ما إن يتسنّى لي ذلك. كنتُ أودّ أن نستمرّ بالعيش معًا. أعود إلى البيت في وقت متأخّر، فلا أجد غولد صاحيًا. أذكر أنني كنتُ أكتب له قصاصات من الورق، ولكنْ، لم أكنْ أعي تمامًا ما أكتب. أحيانًا أحاول العودة مبكرًا، فنقضي بعض الوقت في اللعب معًا أنا وهو، أو نستمع للقاءات الملاكمة في الراديو، لأننا لم نملك تلفازًا قط. كانت روث تكره

الملاكمة، في حين كنتُ أنا مغرمًا بها، وقد مارستُها قليلاً في شبابي، كنتُ أحبّها جدًّا. كنّا نتحدّث قليلاً أنا وغولد، وعادة ما نقضي الوقت في الاستماع للراديو. ليس من السهل أن تبتكري شيئًا تتحدّثين فيه مع ابنكِ، إمّا أن تبدئي مبكرًا في فِعْل ذلك، وإلا فهي مَعْمَعَة حقيقية. في النهاية، جاءت الضربة القاضية، حينما تمّ نَقْلي إلى بورت لارينك، على مبعدة آلاف الكيلومترات من هنا. فكّرتُ طويلاً قبل أن أتّخذَ القرار النهائي. أعرف أن الأمر قد يبدو أحمقًا، وربّما شائنًا، لكنّ ما قرّرتُه هو أنني أريد العيش مع روث، كنتُ أودّ استعادة حياتي معها، كما كانت من قبل، وكنتُ مستعدًا لفِعْل أيّ شيء في سبيل تحقيق ذلك. وجدتُ مشفى للأمراض النَّفْسية ليس بعيدًا عن القاعدة، فأخذتُ روث معي، وتركتُ غولد هنا. كنتُ على يقين أن تَرْكَهُ هنا أفضل بالنسبة له. أعرف أنكَ ستعتبرينني أبًا سيّئًا، ولكنْ، لستُ بحاجة لتبرير تصرّفي أو شرحه. ما أودّ قوله فقط هو أن غولد كان في عالمٍ وأنا وروث في عالمٍ آخر. وفكّرتُ في نفسي أن من حقّي أن أعيشَ عالمي الخاص، وهكذا سارت الأمور. سواء كان تصرّفًا صحيحًا أو خاطئًا، فقد سارت الأمور بتلك الطريقة. وقد حاولتُ توفير كل شيء لغولد، لينشأ نشأة صحيحة، ويستمرّ في الدراسة، فقد كان هذا هو طريقه في الحياة. حاولتُ جهدي، لأقوم بواجبي تجاهه، وكانت العناية به هو واجبي، وبدا لي أن الأمور تسير في طريقها الصحيحة، بشكل أو بآخر. ولكنْ، يبدو أنني كنتُ مخطئًا. علمًا أن روث الآن بحال أفضل، يُسمَح لها بالخروج لفترات طويلة، فتعود إلى البيت، ويبدو أنها كذي قبل. نضحك كثيرًا، ونختلط بالآخرين، فما عادوا يخشونها. إنها جميلة فِعْلًا. وذات مرّة، وكانت بحالة جيّدة، سألتُها إذا ما كانت ترغب برؤية غولد، بوسعنا أن نأتي به إلى هنا لبعض الوقت. فرفضتْ هي ذلك، ولم نتطرّقْ للأمر بعد ذلك قطّ.

عندئذ سَكَتَ والد غولد وكأنه جهاز، وانطفأ. كأنما أحدٌ ما شغّل هذا الجهاز، ثمّ أطفأه. قال بعدها:

- المعذرة.

ولكنْ - في الحقيقة - شيتزي لم تسمع شيئًا، شعرتُ أنه قال:

- المعذرة.

ولكنْ، مَنْ يدري؟

مرّ الوقت - ما بين شيء وآخر - وتساءلتْ شيتزي ماذا قد يحدث بعد. فكّرتْ فيما إذا كان في ذهنها شيء لتقولَه، أو تفعلَه. كانت الأمور معقّدة مع هذا الرجل الجالس بسكون على الأريكة، وهو يحدّق بيَدَيْه، ويبلع ريقه بصعوبة. خَطَرَ في ذهنها أن تسأله عمّا قاله من كونه جنرالًا، ولكنه ليس جنرالًا بالضبط، أرادتْ أن تسأله عن تلك القضية، ثمّ قرّرتْ أنها ليست فكرة جيّدة. تذكّرتْ أن بوسعها الحديث عن مسألة النقود، فبطريقة ما يجب إرسال النقود إلى غولد. كانت تفكّر في كيفية مفاتحته في الموضوع، وإذا بها تسمع والد غولد يسألها:

- كيف هو غولد الآن؟

قال ذلك بصوت جديد، كما لو أن أحدهم أعاده إليه في تلك اللحظة، بعد أن غسله، وكواه. كما لو أنه صَبَغَهُ أيضًا.

- كيف هو غولد الآن؟

- لقد كبُر.

- أقصد ما عدا هذا.

- أظنّه كبُر بشكل حسن.

- هل كان يضحك؟.

- طبعًا، يضحك. لماذا؟

- لا أعرف، لم يكنْ كثير الضحك من قبل.

- كنّا نضحك كثيرًا أنا وهو، إذا كان هذا ما يُقلقكَ.

- جيّد.

- كنّا نموت من الضحك، حقًّا.

- جيّد.

- له يدان كَيَدَيْكَ.

- حقًّا؟

- أجل، الأصابع بالذات، إنها متطابقة.

- مضحك.

- لماذا؟ إنه ابنكَ، أليس كذلك؟

- نعم، بالتأكيد، أقصد أنه من المضحك أن يجولَ ولد صغير في أرجاء العالم وهو يحمل يَدَيْكَ، أو يَدَيْن يشبهانهما. إنه غريب فِعْلًا. أيروقكِ شيء كهذا؟

- نعم.

- سيحصل ذلك، حينما يكون لكِ أولاد.

- بالتأكيد.

- يجب أن تُنجبي الأطفال، بدلًا من كتابة الويسترن.

- أتظنّ ذلك؟

- أو على الأقلّ، أولاد وويسترن في الوقت ذاته.

- لعلّها فكرة جيّدة.

- فكّري في الأمر.

- سأفعل.

- ماذا عن الأصدقاء؟

- أصدقائي؟

- كلا، أعني ...أصدقاء غولد.

- غولد؟ حسنًا ...

- لا بد أنه بحاجة للأصدقاء.

- أجل، لديه ديزل وبوميرينغ.

- أنا أقصد أصدقاءً حقيقيين.

- إنهما يحبّانه فِعْلًا.

- أعرف، ولكنهما ليسا حقيقيَّيْن، يا آنسة.

- وهل يُفرّق في شيء؟

- طبعًا، يُفرّق.

- أنا أجدهما لطيفَيْن جدًّا.

- كانت روث تقول ذلك أيضًا.

- أرأيتَ؟

- طيّب، ولكنْ، لا وجود حقيقيّ لهما، يا آنسة. إنهما في خياله فقط.

- أجل، ولكنْ ...

- وهذا ليس أمرًا طبيعيًا.

- لعلّه أمر غريب، ولكنْ، لا سوء فيه، فهما ينفعانه.

- ألا ترين أنهما مرعبان؟

- أنا؟ أبدًا.

- أن يجولَ طفل طوال الوقت، مع صديقَيْن خياليَّيْن، ألا تجدينه مرعبًا؟

- لا، لماذا؟

- أما أنا، فيُرعبني فِعْلًا، أذكر أنها إحدى الأشياء التي كانت تُقلقني في غولد. ديزل وبوميرينغ كانا يُخيفانني.

- أتمزح؟ ما كانا ليؤذيا نملة، وهما مرحان للغاية. أقسم لكَ أني

أفتقدهما، فضلًا عن غولد طبعًا، ولكنني أفتقده أكثر حينما أذكر هذَيْن الاثنَيْن، ومتعة رفقتهما له حينما كانا هنا.

- أتقصدين أن العملاق والأبكم اختفيا أيضًا؟

- أجل، لقد رحلا معه.

ضحك والد غولد بصوت خافت، وهزّ رأسه قائلًا:

- أمر مثير للجنون فِعْلًا.

ثمّ كرّره مرّة أخرى:

- أمر مثير للجنون فِعْلًا.

- لا تقلقْ، يا جنرال، غولد سيتدبّر أموره.

- أرجو ذلك.

- علينا أن نثقَ به.

- طبعًا.

- سيتدبّر أموره، إنه فتىً شجاع. ربّما لا يبدو كذلك، ولكنه شجاع.

- أتعتقدين ذلك فِعْلًا؟

- نعم.

- كان لديه فرص وفيرة، وموهبة لا مثيل لها، وها هو يجازف بكل شيء.

- إنه ليس أحمقًا، يقوم فقط بما يرغب به.

- لطالما أعجبته الدراسة، وكانوا سيدفعون له المال في كوفرني من أجل أن يدرسَ، فليس هناك ما يسوغ هربه. ألا يبدو لكِ أمرًا غريبًا اختفاؤه في هذا الوقت بالضبط؟

- لا أعرف.

- هل من الممكن أنه لم يفسّر لكِ أيَّ شيء عن هذا حين تحدّثتُما على الهاتف؟

- لم يُطِل الحديثَ معي.

- لا بد أنه أخبركِ بشيء ما.

- أخبرني بقضية إرسال النقود.

- شيء آخر؟

- لا أدري، كان الاتّصال رديئًا أحيانًا.

- لعلّه اتّصل بكِ من كابينة في الشارع؟

- حدَّثني، من بين الأشياء الأخرى، عن رَكْله لكرة ما.

- رائع.

- لكني لم أفهمْ جيّدًا ما عَنَاه من ذلك.

- لم تفهمي؟

- لا.

ضحك والد غولد مجدّدًا، وهزّ رأسه، لكنه لم يقل:

- أمر مثير للجنون فِعْلًا.

هذه المرّة قال:

- لن تساعديني في البحث عنه، صحيح؟

- أنتَ لن تبحثَ عنه، يا جنرال.

- لماذا؟

- لن تبحثَ عنه.

- وكيف تعرفين ذلك؟

- لم أكنْ متأكّدة أول الأمر، أما الآن، فأنا متأكّدة.

- حقًّا؟

- أجل، بعد أن رأيتُكَ تأكّدتُ من ذلك.

- ...

- لن تبحثَ عنه.

نَهَضَ والد غولد، جال في الغرفة، اقترب من التلفاز، كان يبدو أنه من الخشب، ولكنْ، مَنْ يدري؟ لعلّه من البلاستك الشبيه بالخشب.

- هل اشتريتُمُوه؟

- لا، لقد سرقه بوميرينغ من بائع ياباني.

- آه.

تناول والد غولد جهاز التّحكّم، وشغّل التلفاز، لكنه لم يعمل. قام بكَبْس بعض الأزرار، ولكن شيئًا لم يحدث.

- هلا صَدَقْتِنِي القولَ، يا آنسة؟

- عن ماذا؟

- ألم تشعري بالخوف وأنتِ تعيشين مع ولد مثل غولد؟

- مرّة واحدة فقط.

- متى حدث ذلك؟

- حينما حكى لي - ذات مرّة - عن والدته. قال إنها أُصيبت بالجنون، وجعل يقصّ عليّ الحكاية. ولم يكن ما قاله قد أخافَني، بل نبرة صوته. بدا لي أنه صوت رجل مُسنّ. صوت رجل يعرف كل شيء، ويعرف ما ستؤول إليه الأمور، رجل طاعن في السّنّ.

- ...

- إنه بحاجة لأحد يجعله يشعر بصغر سنّه وطفولته.

- ...

- كان لا يصدِّق أن بإمكاننا العيش أطفالًا في الحياة الواقعية، دون أن يستغلّ أحدٌ ما ضعفنا ويقتلنا، أو شيء من ذلك.

- ...

- كان يعدّ نفسَهُ محظوظًا كونه عبقريًا، ظنًّا منه أن ذلك يجعله في مأمن من الخطر.

- ...

- كأنها طريقة ما لكيلا يبدو طفلاً صغير.

- ...

- لا أعرف، أعتقد أن حلمه هو أن يعيش كطفل.

- ...

- أعني، أظنّ أن ذلك هو حلمه. وأظنّه الآن، وقد أصبح كبيرًا، بوسعه أن يعودَ طفلاً، لما تبقّى من حياته.

ثمّ بقيا حتّى وقت متأخّر، يتحدّثان عن الحروب والويسترن، أو يلتزمان الصمت لبعض الوقت، بينما الراديو يبثّ موسيقى لا على التعيين. في النهاية، قال والد غولد إن بودّه البقاء للنوم، إذا كان ذلك لا يسبّب لها الحرج. قالت له شيتزي إن بوسعه فِعْل ما يشاء، فالبيت بيته، ثمّ إنه لا يسبّب لها أيّ حرج، بل ستكون سعيدة إذا ما بقي. ثمّ قالت له إن بوسعه النوم في غرفة غولد، إلا أنه ألمحَ بإشارة غامضة، وقال إنه لا يحبّذ ذلك، وإنه سينام على الأريكة، ليستْ لديه أيّ مشكلة، فالأريكة مناسبة جدًّا.

- إنها ليست مريحة.

- إنها مناسبة جدًّا، كوني واثقة من ذلك.

وهكذا نام على الأريكة، تلك الزرقاء. بينما نامت شيتزي في غرفتها.

بقيت جالسة - أول الأمر - على السرير، والأضواء مشتعلة. ثمّ خلدت إلى النوم.

في اليوم التالي، اتّفقا على مسألة النقود. ثمّ سأل والد غولد شيتزي عمّا تنوي فِعْله. وكان يقصد إذا ما كانت تنوي البقاء في البيت، أم ماذا.

- لا أعرف، أعتقد أني سأظلّ هنا لبعض الوقت.

- سأشعر بأمان أكثر، إذا ما بقيتِ هنا.

- صحيح؟

- إذا ما بدر في ذهن غولد أن يعود، فسيكون من الأفضل أن يجدَ أحدًا ما هنا.

- حسنًا.

- سأتّصل بكِ.

- أوكي.

- إذا خَطَرَتْ بذهنك فكرة جيّدة، أرجو أن تُخبريني بها مباشرة، اتّفقنا؟

- بالطبع.

ثمّ قال لها والد غولد إنها فتاة شجاعة. وشكرها، لأنها فتاة شجاعة. ثمّ أضاف أشياء أخرى. وفي النهاية، سألها إذا ما كان بوسعه فِعْل شيء من أجلها.

لم تتفوّه شيتزي بشيء. ولكنْ، حينما كان على الباب، يهمّ بالخروج،

قالت له إن بوسعه فِعْل شيء من أجلها. طَلَبَتْ منه أن يأخذَها - يومًا ما - لتتعرّف على روث. لم تشرح السبب، طَلَبَتْ منه ذلك فقط.

- أتأخذني - يومًا ما - لأتعرّفَ على روث؟

لاذ والد غولد بالصمت برهة، ثمّ قال لها إنه سيفعل ذلك.

-٢٨-

كانت الريح تعصف بشدّة، تحني ما أمامها من بشر أو زَرْع نحو الغرب، فتبدو كلوسينغ تاون كأنها قاضٍ عجوز مَحنيّ الظهر، يعود مُتعَبًا من المحكمة، بعد أن قضى بحُكْم الإعدام على أحدهم.

موسيقى.

وكانت الموسيقى ذاتها تتكرّر، تُصدرها شيتزي من فمها.

في المساء، كانت الأختان دولفِن جالستَيْن في الصالة، برفقة الغريب الذي رمتاه بالرصاص حال دخوله البلدة. قد يبدو الوضع غريبًا بعض الشيء، ولكنكَ إذا ما قلتَ ذلك لشيتزي فإنها تهزّ كتفها، وتستمرّ بالحكاية.

كان اسم الغريب فْيل ويتشر. ولم يكنْ ويتشر رجلًا كثير الترحال، لنقل إنه يسافر من مكان إلى آخر فقط إذا ما دُفعَ له الكثير من المال، مُقدّمًا. تسلّم رسالة موجّهة إليه - بكل إجلال - من كلوزينغ تاون، إضافة إلى ألف دولار، ثمن قراءتها. وكانت تلك بداية جيّدة. تبلغه الرسالة أنه إذا ما أراد الحصول على التسعة آلاف دولار الباقية، فعليه القدوم إلى البيت الأحمر الوحيد في البلدة.

البيت الأحمر الوحيد في البلدة كان بيت الأختَيْن دولفِن. لذا فهم الآن هناك، في الصالة، يتبادلون أطراف الحديث.

- لماذا اخترتماني أنا؟ - يسأل الرجل الغريب.

- إذا ما نظرنا في مشكلتنا، فأنتَ الشخص الوحيد - من الجوانب جميعها - القادر على إيجاد حلّ لها، يا سيّد ويتشر - أجابت جولي دولفن.

- كنّا نبحث عن الأفضل، وأنتَ بلا شك كذلك، يا فتى - قالت ميليسا دولفن.

كانت الأختان دولفن متشابهتَيْن تمامًا، ولكنهما ليستا متشابهتَيْن، تقول شيتزي. يحصل هذا مع التوءم عادة: شكليًا يتشابهان كقطرَتيَ ماء، ولكنهما كروح واحدة انقسمت نصفَيْن: الأبيض منها في جهة، والأسود في الجهة الأخرى. كانت جولي الجانب الأبيض، ميليسا الأسود. من الصعب أن تتخيّلهما منفصلَتَيْن، لأنهما تُكملان بعضًا. ومن الممكن جدًّا أن يتلاشى وجودهما، إذا ما فصلتَهما عن بعض.

يزيّن القدحَ الذي تحمله جولي دولفن نحو فمها منظرٌ طبيعيٌّ أزرق، مثير للفضول. كانت تشرب شاي الأعشاب.

- أظنّكَ لاحظتَ أن حياة هذه البلدة طبيعية في الظاهر فقط: إذا ما أردنا استخدام تعبيرًا رقيقًا، فبوسعنا أن نُطلقَ على ما يحصل هنا يوميًا مَلَلٌ.

- بلدات الغرب الأمريكي كلها متشابهة في ذلك، يا آنسة.

- ما هذه الحماقات؟! - تقول ميليسا دولفن. يبتسم الغريب.

- لا أظنّني أفهم ما تُلمّحون إليه.

- ستفهم، ولكنْ، من الضروري أن تستمعَ إلى بعض الحكايات. ألنا أن نطلبَ منكَ العودة غدًا، عند الغروب؟ نودّ أن نقصّ عليكَ بعضها.

لم يكن ويتشر طويلَ البال، إذا كان لديه عمل ما، فإنه يُفضِّل الانتهاء منه على عَجَل. تضعُ جولي دلفن حزمة من الأوراق النقدية على الطاولة، تبدو كأنها خرجت للتّوّ من المطبعة.

- نأمل أن يساعدَكَ هذا المال على اتّخاذكَ قرار البقاء في البلدة، حتّى نشرحَ لكَ القضية، يا سيّد ويتشر.

ألفا دولار.

ينحني الغريب انحناءة خفيفة، يلتقط المال، ويدسّه في جيبه. ينهض. كانت هناك حقيبة من الجلد الصلب، أشبه بحافظة الفايولين، مسندة إلى الكرسي. كانت الحقيبة لا تفارق ويتشر.

- ربّما يحقّ لنا أن نُلقي نظرة على ما في داخلها، بعد كل ما أعطيناكَ من المال - تقول ميليسا دولفن.

- تقصد أختي أننا سنكون أكثرَ اطمئنانًا إذا ما اطّلعنا على أغراضكَ، أعني أدوات العمل. إنها رغبة في الاطّلاع فقط، فكما تعرف لدينا خبرتنا في هذا الميدان، بكل تواضع طبعًا.

يبتسم الغريب. يتناول حقيبته، يضعها على الكرسي، ثمّ يفتحها. يظهر المعدن اللامع المَطليّ بالزيت، والمُزيّن بالصدف والنقوش. تنحني الأختان، لتنظرا من قرب.

- يا إلهي!

- إنها تحف فنّيّة، لا يسعني سوى قول هذا.

- أهي مشحونة؟

يومئ الغريب برأسه:

- بالطبع.

تلتفت ميليسا صوب الغريب:

- ولماذا هي متوقّفة عن العمل، إذنْ؟

رَفَعَ ويتشر حاجبَيْه قليلًا:

- عذرًا؟

- إن أختي تتساءل عن سبب توقّف ساعاتكَ البديعة هذه، بما أنكَ تؤكّد أنها مشحونة.

يقترب الغريب من الحقيبة، ينحني عليها، ثمّ ينظر بداخلها. يدقّق النَّظَر في الساعات الثلاث، واحدة تلو الأخرى، ثمّ يرفع رأسه:

- إنها متوقّفة عن العمل - يقول.

- هذا ما قلناه.

- أؤكّد لكِ أن هذا أمر عجيب، يا آنسة دولفن.

- ليس هنا، في هذه البلدة - تجيب جولي دولفن، ثمّ تُغلقُ الحقيبة، وتُسلّمها للغريب.

- كما قلتُ لكَ، من الضروري جدًّا أن تتكرّمَ علينا، وتمنحنا بعض وقتكَ للاستماع لما نودّ أن نحكيه لكَ.

يتناول ويتشر حقيبته، يرتدي معطفه، ثمّ يلتقطُ قبّعته، ويتّجه نحو الباب. يلتفتُ قبل أن يفتحَ الباب، يسحبُ ساعة الجيب، يُلقي عليها نظرة، ثمّ يُعيدُها، يرفع نَظَره نحو الأختَيْن دولفن، وقد اعتلى وجهه بعض الشحوب:

- عذرًا، هلا أخبرتُماني كم الساعة الآن؟

جولي دولفن تبتسم.

- بالتأكيد، لا. منذ أربعة وثلاثين عامًا وشهرَيْن وأحد عشر يومًا، لا أحد، في كلوزينغ تاون، يعرف شيئًا عن الوقت، يا سيّد ويتشر.

عندئذ يتفجّران ضحكًا. شيتزي نفسها تضحك أيضًا، لا بد أنها تحبّ تلك القصّة، وكانت تستمتع كثيرًا بروايتها للآخرين، وكان بوسعها أن تستمرّ في ذلك طوال حياتها. كانت تُشعرها بشيء من البهجة، هذا كلّ ما في الأمر.

- نراكَ غدًا، يا سيّد ويتشر.

-٢٩-

بدلًا من المسدّسات، يحمل في الجيب - ناحية القلب - بعض بطاقات التعريف، مكتوب عليها:

ويتشر وأولاده

صُنع وتصليح الساعات والكرونومترات

حاصل على ميدالية مجلس المعارض الدولية في شيكاغو

يحمل حقيبته بيده، يخترق الريح حتّى نهاية البلدة، يصل إلى البيت الأحمر، بيت دولفن - ثلاث درجات، ثمّ الباب، تستقبله جولي دولفن، يدخل الصالة، تغمر أنفَهُ رائحةُ الخشب والخضروات، يرى بندقيَّتَيْن مُعلَّقَتَيْن فوق الموقد، يسمع هسيس التراب تحت حذاء ميليسا دولفن، وفي كل مكان، يا للبلدة الغريبة! الغبار في كل مكان، المطر لا ينزل قطّ، غريبة هذه البلدة، مساء الخير، يا سيّد ويتشر.

مساء الخير.

كل يوم عند الغروب، ولخمسة أيّام، يذهب ويتشر عند الأختَيْن دولفن للاستماع لحكاياتهما. حَكَتَا له حكاية پات كوبهان الذي قُتِل في مبارزة انتحارية، في ستونويل، بسبب عشقه لعاهرة. ثمّ حكاية الشريف ويستر،

الذي غادر كلوزينغ تاون بريئًا بلا ذنب، فعاد إليها مذنبًا. سألتاه إذا ما كان قد التقى بشيخ شبه أعمى، يحمل في حزامه مسدّسَيْن لامعَيْن. كلا، قال. لا بد أنكَ ستلتقي به. اسمه بيرد، وهذه هي قصّته. حَكَتَا له عن والاس العجوز وثروته، حَكَتَا له عن كريستيانسون، وقصّة حبّه بأكملها. في اليوم الخامس رَوَتا له حكاية بيل وماري، ثمّ قالتا له:

- أهذا كافٍ؟

أطفأ ويتشر سيجاره في صحن من البلّور الأزرق.

- حكايات جميلة - قال.

- ربّما - قالت ميليسا دولفن.

- أما نحن، فنراها حكايات مرعبة - قالت جولي دولفن.

ينهض ويتشر، يدنو من الشّبّاك، ينظر إلى الظلام في الخارج، ثمّ يقول:

- حسنًا، أين المشكلة؟

- ليس من السهل شَرْحها. ولكنكَ الوحيد الذي بوسعه فَهْمها.

سألتاه إذا ما كان قد لاحظ الشيء الذي يربط بين الحكايات كلها.

يطرق ويتشر مفكّرًا.

الموت، قال.

بل هو شيء آخر، قالت الأختان.

يفكّر من جديد.

الريح.

بالضبط. الريح.

يصمت ويتشر.

يعيدُ التفكير بقصّة پات كوبهان الذي ينزل من الحصان، بعد أيّام سفر طويلة، يلتقط بعض التراب، ينثره بين يَدَيْه في الهواء، ويقول في نفسه: لا ريحَ هنا. ثمّ يقرّر الموت هناك.

لم يكنْ هناك ريح، حيث استسلم الشريف ويستر لبير. كانت صحراء مشمسة. وليس من ريح هناك.

يطرق ويتشر مفكّرًا.

إنه في البلدة منذ ستّة أيّام، ولم تتوقّف الريح حتّى لحظة واحدة، تهبّ بقوّة، والغبار في كل مكان.

- لماذا؟ - يسأل ويتشر.

- الريح هي لعنتنا - تجيب ميليسا دولفن.

- الريح كشقّ في الزمن - تقول جولي دولفن - هذا ما يظنّه الهنود، أتعرف؟ إنهم يقولون إن الريح حينما تهبّ، فهذا يعني أن عباءة الزمن قد تمزّقت. عندئذ تفقد الناسُ بوصلةَ حياتها، ولا يعثرون عليها ما دامت الريح في هبوب. يبقى الناس بلا أقدار، تائهين في إعصار الغبار. يقول الهنود إن أشخاصًا قليلين لديهم الخبرة في فنّ تمزيق الزمن، وهم يخشونهم كثيرًا، ويُطلقون عليهم "قاتلو الزمن". وقد مزّق أحدهم الزمن في كلوزينغ

تاون، قبل أربعة وثلاثين عامًا وشهرَيْن وستّة عشر يومًا. في ذلك اليوم، يا سيّد ويتشر، أضاع كلٌّ منّا قَدَرَهُ في تلك الريح التي هبّتْ فجأةً، في سماء البلدة، ولم تتوقّف من يومها.

ليتكَ تسمع شيتزي وهي تروي تلك الأحداث. كانت تقول: يجب أن تتخيّل كلوزينغ تاون كرجل يبرز رأسه من نافذة عربة، تجرّها الخيل، والريح تعصف بوجهه. العربة تمثّل العالمَ الذي يمضي في رحلته خلال الزمن، يجري قاطعًا الأيّام والمسافات، فإذا كنتَ في الداخل، فلن تشعر بالسرعة التي يجري بها، ولا بالريح. ولكنْ، إذا ما أبرزتَ رأسكَ من شبّاك العربة، فستجد نفسكَ في زمن آخر، تعصف بكَ الريح والغبار حتّى تفقدَ رشدكَ. كانت تقول بالضبط "تفقد رشدكَ"، وليس هذا تعبيرًا عاديًا في المكان الذي نعيش فيه. تقول إن كلوزينغ تاون مدينة أبرزت رأسها من شبّاك العالم، وكان الزمن يعصف بوجهها، والغبار يتوغّل في عينَيْها، فتزداد الأمور تعقيدًا في رأسها. لم يكنْ من السهل فَهْم ذلك المثال، ولكنه نال إعجاب الجميع، وتداوله كلّ مَنْ في المشفى، أظنّ أن الجميع يجدون فيها حكاية مألوفة لديهم بشكل ما. بل إن الأستاذ بارمينتير نفسه قال لي - ذات مرّة - إن بوسعي تصوّر ما يحصل في رأسي كالذي يحدث في كلوزينغ تاون. عادة ما يحدث أن يتمزّق الزمن، قال لي، فنفقد التوقيت المناسب لكل شيء. نشعر بأنفسنا كأننا في مكان آخر، إمّا قبل الموعد أو بعده. لديكِ الكثير من المواعيد مع عواطفكِ أو مع أشياء أخرى، فتجدين نفسكِ إمّا تلاحقينها أو تَصِلين - بحماقة - قبل الموعد. كانت تقول إن هذا هو مرضها، إذا شئنا القول. وكانت جولي دولفن تسمّيه: فقدان المصير. ولكن تلك قصّة في الغرب الأمريكي، وما يزال بوسعهم هناك أن يتفوّهوا ببعض الأشياء. وكانت هي تتفوّه بها أيضًا.

- مَضَتْ أربعة وثلاثون عامًا وشهران وستّة عشر يومًا مذ أضاع كل منّا قَدَرَهُ، يا سيّد وتشر، في هذه الريح التي هبّتْ فجأةً، في سماء البلدة، ولم تتوقّف من يومها. كان پات كوبهان شابّ، والشباب لا يستطيعون العيش بلا أقدار، فامتطى ظهر جواده، ورحل، لم يتوقّف قبل أن يصلَ إلى ذلك المكان، حيث كان قَدَرُهُ فيه ينتظرُه. بينما بير، فهو هندي، وكان يدرك ذلك. فقاد الشريف ويستر بعيدًا، حتّى أطراف الريح، وهناك سلّمه لقَدَره الذي يستحقّه. أما بيرد، فهو عجوز، لا يرغب بالموت، يسبّ ويشتم، ولكنه ها هنا، في هذه الريح، يبحث عن قَدَره كمقاتل دون أن يعثرَ عليه. لقد سرقَ أحدُهم الوقتَ من هذه البلدة، وكذلك القَدَر. كنتَ تبحث عن شرح للمشكلة، فهل هذا كافٍ؟

يطرق ويتشر مفكّرًا.

هذا جنوني فِعْلًا، يقول.

ليس كما تظنّ.

إنها أساطير، يقول.

لا تتفوّه بالتفاهات، يا فتى.

إنها مُجرّد ريح، يقول.

أتظنّ ذلك؟

تقول شيتزي إنهما جعلتاه يفتح حقيبته في ذلك الوقت تمامًا. كانت هناك أدواته كلها، فضلًا عن ثلاث ساعات رائعة الجمال، ولكنها متوقّفة، بلا أدنى شك.

- وكيف لكَ أن تشرحَ لنا هذا، يا سيّد ويتشر؟

- لعلّها الرطوبة.

- الرطوبة؟

- أقصد ... الجوّ هنا جافّ جدًّا، في هذه البلدة، جافّ فِعْلاً، وأظنّ أنها الريح أو ....

- الريح؟

- هذا ممكن.

- إنها مُجرّد ريح، يا سيّد وتشر، متى تسبّبت الريح بتوقّف الساعات؟

يبتسم ويتشر.

- لا أظنّ أن بوسعكما إقناعي، فتوقُّف الساعة شيء، وتوقُّف الزمن شيء آخر.

نَهَضَتْ جولي دولفن، دَنَتْ من الغريب، دَنَتْ كثيرًا، ثمّ نَظَرَتْ في عينَيْه مباشرة، وقالت:

- أرجوكَ أن تُصدّقني: هنا في كلوزينغ تاون، توقُّف الساعة وتوقُّف الزمن هما الشيء ذاته.

- ماذا تقصدين، يا آنسة؟

ماذا تقصدين، يا شيتزي؟ كنّا نسألها. أحيانًا نجتمع خمس نساء أو ستّ، للاستماع إلى حكاياتها. في الحقيقة كانت هي تحكيها لي أنا، ولكنْ،

لم يكنْ يضايقني أن يسمعنها الأخريات أيضًا. كنّ يأتينَ إلى غرفتي، فنملأُ الغرفة، بعضهنّ يجلبنَ الحلوى معهنّ، ونجلس للاستماع إليها.

ماذا تقصدين، يا شيتزي؟

سأخبركم غدًا، تقول، غدًا.

لماذا؟

قالت غدًا، يعني غدًا.

غدًا؟

غدًا.

المرّة الأولى التي التقيتُ فيها شيتزي، كنتُ في صالة القراءة. جاءتْ هي، وجلستْ قربي، ثمّ قالت:

- أكل شيء على ما يرام؟

لا أعرف لماذا، ولكني ظننتُها جيسيكا، وكانت طالبة في الجامعة، تأتي عندنا في دورة تطبيقية. أذكر أنها كانت لديها مشكلة مع جدّتها، كأن تكون جدّتها مريضة. فسألتُها عن الجدّة. فأجابتني هي، ثمّ جعلنا نتبادل أطراف الكلام. ولكنْ، بعد أن أمعنتُ النَّظر جيّدًا، أدركتُ أنها لم تكنْ جيسيكا. لم تكنْ أبدًا جيسيكا.

- مَنْ أنتِ؟

- أنا شيتزي شيل، شيتزي شيل.

- هل التقينا من قبل؟

- لا.

- آه، مرحبًا بكِ، إذنْ، أنا اسمي روث.

- مرحبًا.

- هل أنتِ هنا للتطبيق الجامعي؟

- كلا.

- لعلّكِ ممرّضة؟

- كلا.

- ما هو عملكِ في الحياة، إذنْ؟

استغرقتْ بعض الوقت في التفكير، ثمّ قالت:

- أكتب الويسترن.

- الويسترن؟

لم أكنْ واثقة من أنني أذكر ماذا يمكن أن يكونَ هذا الشيء.

- أجل، ويسترن.

لا بد أنه شيء ما يتعلّق بالمسدّسات.

- وكم ويسترن تكتبين؟

- واحدًا.

- هل هو جميل؟

-إنه يعجبني.

- هلا حكيتِهِ لي.

هكذا تمامًا بدأت القصّة، بالصدفة.

يبتسم ويتشر.

- لا أظنّ أن بوسعكما إقناعي، فتوقُّف الساعة شيء وتوقُّف الزمن شيء آخر.

نَهَضَتْ جولي دولفن، دَنَتْ من الغريب، دَنَتْ كثيرًا، ثمّ نَظَرَتْ في عينَيْه مباشرة، وقالت:

- أرجوكَ أن تُصدِّقني: هنا في كلوزينغ تاون، توقُّف الساعة وتوقُّف الزمن هما الشيء ذاته.

- ماذا تقصدين، يا آنسة؟

عندئذٍ جعلت جولي تحكي له.

- لكَ أن تُصدِّق أو لا تُصدِّق، ولكن أحدًا ما مزّق الوقت في كلوزينغ تاون، منذ أربعة وثلاثين عامًا، وشهرَيْن وستّة عشر يومًا. هبّتْ ريح قوية، فتوقّفت فجأةً ساعات البلدة كلها. حاولنا أن نصلّحها، لكننا عجزنا عن ذلك. هناك ساعة عظيمة الحجم، رَفَعَها أخونا فوق برج من الخشب، في مركز ماين ستريت بالضبط، تحت خزّان الماء. كان فخورًا بها، يذهب لشَحنها كل يوم بنفسه. لم تكنْ هناك ساعة أكبر منها في الغرب الأمريكي

كله، وكانوا يُلقّبونها بـ "العجوز" لأنها تتحرّك ببطء، وتبدو عليها الحكمة. توقّفت هي أيضًا ذلك اليوم، ولم تتحرّك بعدها قطّ. كانت العقارب متسمّرة على الساعة ١٢ و٣٧ دقيقة، لذا تبدو كأنها عين عمياء، لا تكفّ عن النَّظَر إليكَ. قرّروا - في النهاية - أن يغطّوها بقطع من الخشب، على الأقلّ، تكفّ عن التجسّس على الآخرين. أما الآن، فتبدو كأنها مخزن صغير، تحت المخزن الكبير. ولكنْ، في هذا المخزن تقبع الساعة، متوقّفة. إذا كنتَ تظنّ أن ما رويناه مُجرّد أساطير، فاسمعْ هذه القصّة، إذنْ. قدم عمّال سكك الحديد إلى البلدة قبل أحد عشر عامًا، قالوا إنهم سيمرّرون سكّة الحديد من هنا، لكي يربطوا خطّ الجنوب بمنطقة المراعي الكبرى. اشتروا قِطَعَ الأراضي، وغرسوا فيها الأوتاد، ثمّ انتبهوا فجأةً أن ساعاتهم كانت متوقّفة عن العمل. حاولوا أن يسألوا عن الوقت، فروى لهم السكّانُ القصّة. أرسلوا بطلَب خبير من العاصمة، فجاء رجلٌ صغيرٌ بثيابٍ سوداء، قليل الكلام. بقي تسعة أيّام في البلدة، كانت لديه أدوات غريبة، قضى الوقت كله في تركيب الساعات وتفكيكها، وفي الأثناء، كان يقيس كل شيء، كالضوء والرطوبة، وتفحَّص السماء أيضًا، خلال الليل. طبعًا وتفحَّص الريح أيضًا. في النهاية، قال: إن الساعات تقوم بما عليها، المشكلة تكمن في عدم وجود الزمن في هذه البلدة. أظنّ أن الرجل أصاب، لقد فَهِمَ ما كان يجري. في الحقيقة، الزمن موجود هنا، لم يختفِ قطّ، سوى أنه يختلف عمّا هو عليه في بقية العالم. الوقت هنا إمّا متقدّم أكثر أو متأخّر، مَنْ يدري؟! الشيء المؤكّد هو أن الوقت هنا يجري في مكان ما، لا تستطيع الساعات أن تراه. فكّر عمّال سكّة الحديد بالأمر، ثمّ قالوا إنه من غير المُثمر مَدُّ سكّة حديد في أرض، لا زمن فيها. ربّما تخيّلوا أن القطارات إذا مرّت هنا، ستختفي في العَدَم، ولن ترجعَ أبدًا. باعوا الأراضي التي اشتروها، ثمّ

مَدّوا سكّة الحديد في الجانب الغربي. لم يحزن أحدٌ هنا على ما جرى. مَنْ كان معتادًا على العيش بلا مصير، بوسعه العيش دون سكّة حديد. لم يحدث بعد ذلك شيء. أعني أن الريح استمرّت بهبوبها الدائم، وبقيت الساعات كما هي، متوقّفة عن العمل. قد تستمرّ الحياة هنا هكذا، وإلى الأبد، أيًّا كان معنى الأبد، في أرض مزّقوا فيها الزمن. ولكنْ، هذا صعب للغاية. من الممكن العيش دون ساعات، ولكنْ، لا يمكن العيش بلا مصير، وعلى كاهلكَ حياة بلا مواعيد. نحن مدينة من المَنفيين، أناسٌ غائبين عن أنفسهم. أظنّ أن ليس أمامنا سوى خيارَيْن: إمّا أن نخيطَ الزمن، بطريقة ما، أو أن نغادرَ البلدة، كلنا. نحن الاثنَتانْ نريد أن نموتَ هنا، في يوم بلا ريح، لذلك أرسلنا في طَلَبكَ.

بقي ويتشر صامتًا.

- دعنا نموت في الوقت المناسب، دون هذا الغبار في العيون، أيها الفتى.

يبتسم ويتشر.

يخطر في ذهنه أن العالم مليء بالمجانين.

يمرّ في ذهنه الرجل الصغير بثيابه السوداء، فلا يتخيّله إلا وهو ثملٌ، يجلس في الصالون، ويهذر بالحماقات.

يفكّر بالعجوز، ويتساءل إذا ما كانت فِعْلًا أكبر ساعة في الغرب الأمريكي.

يتذكّر ساعاته الرائعة، أحدها على توقيت لندن، والثانية على توقيت سان فرنسيس، والأخيرة على توقيت بوستن. كلها متوقّفة عن العمل.

ينظر إلى هاتَيْن العجوزَيْن، إلى بيتهما المرتّب بعناية، وهما على قناعة تامّة أنهما في زمن، ليس زمنهما.

ثمّ تنحنح، وقال:

- حسنًا. ماذا عليّ أن أفعل؟

تبتسم جولي دولفن.

- صَلِّح الساعة.

- أيّ ساعة؟

- العجوز.

- ولمَ العجوز بالذات؟

- إذا تحرّكت العجوز، فإن الأخريات ستتبعنها.

- إنها مُجرّد ساعة، لن تعيدَ إليكم أيَّ شيء.

- قمْ أنتَ بتصليحها، ولنرَ ماذا سيحصل.

يطرف ويتشر مفكّرًا.

يهزّ رأسه:

- الأمر برمّته جنوني.

- ماذا حصل، يا فتى، أتتبوّل على نفسكَ من الخوف؟

- إن أختي تتساءل إذا ما كنتَ غير واثق من قدراتك في ...

- أنا لا أتبوّل على نفسي خوفًا، ما أقوله فقط هو أن الأمر جنوني فِعْلًا.

- أتظنّ أننا دفعنا لكَ هذا المال كله، لنوكلَ إليكَ عملًا معقولًا؟

- أختي تقصد أننا لم ندفعْ لكَ المالَ، لتقول إن الأمر جنوني. كل ما يجب عليكَ فِعْله هو تصليح الساعة.

ينهض ويتشر.

- أحسبها حماقة كبرى، ولكني سأفعل ذلك.

تبتسم جولي دولفن.

- كنتُ واثقة من ذلك، يا سيّد ويتشر، أنا حقًّا مَدينة لكَ.

تبتسم ميليسا دولفن.

- حطِّمْ رأس هذه العجوز العاهرة، لا تأخذكَ بها شفقة.

ينظر ويتشر إليها.

- إنها ليست مبارزة.

- بل هي كذلك.

موسيقى.

-٣٠-

كانت الساعة العجوز كبيرة جدًّا، حتّى إن بالإمكان الدخول فيها، كما لو كانت بيتًا. تفتح الباب، تصعد بعض الدرجات التي تؤدّي بكَ إلى قلب الساعة. بشكل ما، تبدو كأنكَ برغوث يلجُ في ساعة جيب. كان ويتشر مندهشًا من عجيب ما رآه. كانت الأتراس كلها من الخشب والحبال والشمع. وكان جهاز الشحن الميكانيكي يعمل على الماء، مستغلاً المخزن الذي ينتصب فوق الساعة. فقط العقارب كانت من الحديد. وكانت الأرقام على لوحة الساعة مرسومة بالألوان، إلا أنها لم تكن أرقامًا عادية، بل كانت من أوراق اللعب. كلها من شكل الدايمن، من ورقة (A) حتّى ورقة (Q)، والتي كانت في مكان الثانية عشرة. بينما كانت ورقة (K) وسط لوحة الساعة، حيث تُوضَع - عادة- علامة الشركة.

إنها بلدة مجانين، يقول ويتشر في نفسه.

يقضي الوقت صعودًا ونزولاً في تلك الشبكة المتداخلة من العجلات المسنّنة، والسكك، والكلاليب، والحبال، والأثقال.

كلها متوقّفة.

لو أن صرير هذه الريح بين أعمدة الجدران يتوقّف فقط! يقول ويتشر في نفسه.

قضى ثلاثة أيّام في داخلها، علّق القناديل في كل مكان، ورسم ألف مخطّط لها. ثمّ جلس في غرفته، يدرسها بتأنٍّ. توجّه - ذات مساء - إلى بيت الأختَيْن دولفن.

- ماذا كان يعمل أخوكما؟ سأل.

- لم ندفعْ لكَ المال، لكي تُوجِّه لنا الأسئلة، أيها الفتى - تجيب ميليسا دولفن.

- هل تعني قبل مجيئه إلى الغرب الأمريكي؟ - سألتْه جولي دولفن.

- أقصد قبل أن يصنعَ العجوزَ.

- كان يخدع اللصوصَ - تجيب ميليسا دولفن.

- تقصد أنه كان يعمل في صناعة الخزائن - تجيب جولي دولفن.

- آه، الآن اتّضحتْ الأمور أكثر - يجيب ويتشر.

ثمّ يعود إلى غرفته، في الطابق الأول من الصالون. يدرس بدقّة المخطّطات كلها.

يُطرق بابه ذات ليلة. يفتح الباب، فيجد أمامه عجوزًا يرتدي ثياب المقاتلين، حتّى المسدّسات. مسدّسان مدسوسان في قرابيهما بشكل معكوس، فكان أخمص المسدّس بارزًا إلى الأمام.

- هل أنتَ الساعاتي؟ - يسأل بيرد.

- أجل.

- أتسمح لي؟

- بالطبع.

يدخل بيرد. يجد المخطّطات في كل مكان.

- تفضَّل بالجلوس - يقول ويتشر.

- أريد أن أقولَ لكَ شيئًا واحدًا، وبوسعي قوله وأنا واقف.

- تفضّلْ، إذنْ.

- أتبوّل دمًا، والألم يسرق منّي ليالي الراحة، حتّى العاهرات لا يرغبنَ بي، وأكاد أفقد بصري. عجِّلْ بتصليح الساعة، أنا بمساس الحاجة للموت.

يرفع ويتشر نَظَرَهُ نحو السماء.

- أرى أنكَ تؤمن بهذه الخرافة ...

- لا شيء آخر تؤمن به في هذه البلدة.

- لم لا تستقلّ عربة، إذنْ، وتنزل حيث لا توجد ريح، ثمّ تنتظر: إذا كنتَ تؤمن بهذه الخرافة حقًّا، فيكفي أن تنتظر قليلاً، ستجد حتمًا مَنْ يرديكَ صريعًا.

فجأةً وإذا بمسدّس بيرد مصوّب - بلمح البصر - إلى رأس ويتشر، وقد كان قبل لحظة في قرابه.

- كنْ حذرًا لما تقول، أيها الفتى، لا حاجة لي للرؤية من هذه المسافة.

يرفع ويتشر ذراعَيْه.

فجأةً وإذا بالمسدّس يعود إلى قرابه - بلمح البصر - وقد كان قبل لحظة مصوّبًا إلى رأس ويتشر.

- أخفضْ ذراعَيْكَ، أيها الأحمق، كيف لي أن أقتلَكَ، وأنا أريد أن أموتَ؟!

يرتمي ويتشر على الكرسي، يتناول بيرد من جيبه حزمة من الأوراق النقدية.

- هذا كل ما أملكُ من المال، كنتُ أحتفظ به لأحد الماريياتشي، ولكني أنتظر منذ سنين، ولم يمرّ أحد. يبدو أنه لا وجود لشعر في هذا العالم. صَلِّح الساعة، وسيكون هذا المال من نصيبكَ. يعيدُ بيرد النقود إلى جيبه.

ويتشر يهزّ رأسه.

- لا أريد النقود، لا حاجة لي بها، لقد ارتكبتُ خطأً فادحًا أن قبلتُ بهذا العمل، ولكني سأقوم به قدر المستطاع، فاتركوني أعمل بسلام، كل ما أرغب به هو مغادرة بلدة المجانين هذه. ولا أعرف كيف لم أغادرْها بعد، حقًّا. هلا قلتِ لي لمَ أنا هنا؟

- بسيطة: لا يمكن تَرْك منازلة قبل إنهائها.

- ولكن هذه ليست منازلة.

- بل هي كذلك.

قال بيرد هذا، ثمّ حيّا ويتشر بأن لمس قبّعته بأطراف أصابعه، ثمّ استدار واتّجه نحو الباب. وَقَفَ عند الباب، التفتَ نحو ويتشر قبل أن يفتحَهُ:

- أتعرف - أيها الفتى - أين يركّز المقاتل نظره في أثناء المبارزة؟

- أنا لستُ مقاتلاً.

- أما أنا، فنعم. يركّز المقاتل نَظَرَه في عينَي خصمه. في عينَيْه، يا فتى
- يلقي بيرد نظرة نحو المخطّطات المتناثرة على الطاولة:

- لا فائدة من تركيز النَّظَر على المسدّسات، لأنكَ إذا ما لمحتَ حركة ما، فسيكون الأوان قد فات.

يلتفت ويتشر، ينظر إلى مخطّطاته، فتصل إلى سمعه آخر جملة يقولها بيرد:

- ركِّز النَّظَرَ في عينَيْه، يا فتى، إن كنتَ ترغب بحَسْم النزاع لصالحكَ.

في اليوم التالي - تقول شيتزي - قام ويتشر برَفْع كل قِطَع الخشب التي تغطّي واجهة الساعة. كانت العقارب مسمّرة على الساعة ١٢ و٣٧ دقيقة. كانت الأختان دولفن على حقّ: تبدو كأنها عين عمياء تحدِّق فيكَ، بأوراقها الثلاثة عشر كلها. جلس ويتشر في غرفته، يدرسها لساعات طويلة، وَضَعَ الطاولة أمام النافذة، كان يعمل على المخطّطات، ثمّ يرفع نَظَرَهُ، ويحدّق بالعجوز. ينزل - أحيانًا - يجتاز الشارع، ثمّ يصعد إلى قلب الساعة، يتفحّص الآليات، يأخذ القياسات، ثمّ يعود إلى غرفته، يجلس على الطاولة، ويعاود دراسته للمخطّطات، وهو يحدِّق - من خلال الريح - في عين العجوز العمياء. استيقظ فجر صباح اليوم الرابع. فتح عينَيْه، وقال في نفسه:

- يا لي من أحمق.

ارتدى ثيابه، ونزل عند كارفر، سأله مَنْ هو الرجل الأكبر سنًّا في كلوزينغ تاون، فأشار كارفر إلى رجل هندي، يفترش الأرض وبيده قنّينة نصف فارغة من البراندي.

- أليس هناك من أحد عاقل في هذه البلدة؟

- الأختان دولفن.

- كلا، لا أريد هاتَيْن.

- إذنْ، عليكَ بالقاضي.

- وأين أجده؟

- تجده في سريره، يقع بيته وراء مخزن باتيرسون.

- ولماذا في السرير؟

- يقول إن العالم يُسبّب له الغثيان.

- ثمّ ماذا؟

- قال ذلك عشرة أعوام مَضَتْ، ومن يومها وهو لا ينزل من السرير سوى للتّبوّل والتّغوّط. يقول إنه عالم لا يستحقّ مشقّة العيش.

- شكرًا.

يخرج ويتشر من الصالون، يصل إلى بيت القاضي، يطرق الباب، ثمّ يفتحه، يدخل فيرى سريرًا كبيرًا في الظّلّ، يتمدّد فوقه رجل شبه عار وعظيم الهيئة.

- اسمي ڤيل ويتشر.

- اذهبْ إلى الجحيم.

- أنا الساعاتي الذي سيُصلِّح الساعة العجوز.

- حظًّا طيّبًا.

يسحب كرسيًا، يضعه قرب السرير، ويجلس.

- كيف كان الرجل الذي شيّد الساعة؟

- ماذا تريد أن تعرفَ عنه؟

- كل شيء.

- لماذا؟

- أودّ النَّظَر في عينَيْه.

-٣١-

في البداية، كانت شيتزي تأتي، تبقى معنا قليلاً، ثمّ تغادر. أحيانًا تمرّ أيّام، وهي لا تأتي. في تلك الفترة، كنتُ أمرّ بحالة صعبة، فلا يُسمَح لي بالخروج من المشفى. فكانت تمرّ أيّام دون أن أراها. ولا أعرف كيف، لكنها أصبحتْ تأتي هنا، وتبقى طويلاً، ثمّ قالتْ لي إنهم قبلوها للعمل هنا. لا أعرف، ربمّا لم يكنْ لديها عمل، على ما أظنّ. كانت بحاجة للعمل. لم تكنْ تعمل ممرّضة، فهي لم تدرس التمريض، ولكنها كانت تمارس أعمالًا مقاربة. تقضي الوقت مع المرضى، ولم يكن الجميع يعجبها، بالتأكيد لا، كانت لا تطيق بعضهم. وأذكر أنهم وجدوها - ذات يوم - وهي تبكي في إحدى زوايا المشفى. ولم تُفصح عن السبب. أحيانًا يكون المرضى مزعجين جدًّا. أحيانًا نكون مزعجين للغاية.

رائحة سيجار وغائط تملأان المكان، تنزل الستائر حتّى منتصف الشّبّاك، كانت الصُّحُف في كل مكان في الغرفة، صُحُف قديمة وقصاصات صُحُف، ووسط هذا السرير كله الذي يستلقي فوقه القاضي. كان ضخم الجثّة: أزرار بنطلونه مفتوحة، يضع حذاءً غريب الشكل، شعره ممشّط إلى الخلف، ولحيته صفراء اللون. يسحب - بين الحين والآخر - طستًا من تحت السرير، يبصق فيه بلغمًا بنّيًا، ثمّ يعيده إلى مكانه. وكان يتحدّث، وويتشر يستمع إليه.

- آرنيه دولفن. بوسعكَ أن تقول كل شيء عن هذا الرجل، ولكنّ أفضل ما كان يُحسنه هو الحديث. إذا استمعتَ إليه لبعض الوقت، فبوسعه إقناعكَ أنكَ كنتَ حصانًا، فيما مضى. قد تضحك منه، ولكنْ، حالما يتسنّى لكَ، تُلقي نظرة على نفسكَ في المرآة، فقط لتطمئنّ. أتخيّله في بلدته الأولى، وهو يحدِّثُ الآخرين عن الغرب الأمريكي. كانت لديه خريطة، وفي الخريطة وادٍ، يقع ما وراء جبال سوهونس: إنه جنّة، كان يقول لهم. أقنعَ ستّ عشرة عائلة، أصبحوا سبع عشرة مع عائلته التي تتكوّن من أختَيْن وأخ، اسمه ماثياس. نشرت الصُّحُف الأخبار، كانوا يسمّونها قافلة آرنيه دولفن. سارت القافلة لستّة أشهر، وَصَلَ حيث لم يصلْ أحدٌ من قبل. أضاعوا الطريق، وبعد أسابيع من ذلك، بلغوا هذه الأرض. لم يكنْ فيها شيء سوى الهنود، يسكنون الأخاديد، مختبئين في قراهم السّرّيّة. أوقفَ آرنيه دولفن القافلة تلك الليلة، لا أعرف أين كان ينوي الذهاب في اليوم التالي، إلا أنه لم يتركْ هذه الأرض. عاد أحدهم في الصباح، وقال إن هناك شيئًا لامعًا في النهر. ذَهَب. كانوا يبحثون عن الغابات، أو الأراضي، أو المراعي، إلا أنهم عثروا على الذَّهَب. قرّر آرنيه دولفن أن يُبقي الأمر سرًّا، ثمّ عقد اتفاقًا مع العائلات الأخرى: يعملون خمس سنين بعيدًا عن العالم، بعد ذلك، كلّ يقرّر طريقه في الحياة، بما سيحصل عليه من الذَّهَب. وافق الجميع. وهكذا نشأت كلوزينغ تاون: البلدة التي ليس لها وجود على أيّ خريطة في العالم.

عملوا بجدّ، وقد نجح آرنيه أن يُشرِكَ الهنودَ في الأمر. لا أعرف كيف فَعَلَ ذلك، ولكنه أقنعَهم، شيئًا فشيئًا، على العمل عنده. استهواه الهنود، فتعلّم لغتهم، ودَرَسَ أسرارَ حياتهم، فأصبح ذلك شَغَفه. كان يقضي ساعات طويلة يستفسر منهم عن كل شيء، يستمع لقصصهم، يتعلّم

تقاليدهم الغريبة. وكان الهنود يحترمونه، بل ومنحوه اسمًا من أسمائهم، لقد أصبح أخًا لهم. الهنود والبوكر والساعات، كانت هذه الأشياء الثلاثة هي شَغَفه في الحياة. وكان هو يعدّها كلها شيئًا واحد، ثلاثة وجوه للشيء نفسه. مَنْ يدري ماذا كان يعني ذلك؟ الهنود، البوكر والساعات. لم يشغلْه أمر النساء، لم يُدمن الخمر، ولم يعرْ كبير اهتمام للمال. كان يشعر أنه أبٌ للجميع، كأنه هو المؤسّس لكل شيء، وكان هذا الشعور يكفيه. يبدو أنه يشعر كما لو كان إلهًا. وليس ذلك شعورًا هيّنًا.

كان يصل البلدة - بين الحين والآخر - أحد الضائعين في الصحراء، أو عربة من المستعمرين الذين يُضيّعون الطريق، فكان آرنيه دولفن يستقبلهم، يُخبرهم عن أمر الذَّهَب، يشرح لهم القوانين المتّفق عليها، وإذا ما خالفوا الاتّفاق يقوم بقَتْلهم. لم تكنْ هناك محاكم أو شيء من ذلك، ولم يكنْ آرنيه دولفن المسؤول عن القوانين، بل كان هو نفسه القانون. أحيانًا يحاول أحد الوافدين الجدد الهربَ، أو نقل أخبار الذَّهَب إلى العالم الخارجي. فكان آرنيه دولفن يتبع الهاربين مع أخيه ماثياس، يعودان بعد بضعة أيّام، وقد علّقا رؤوس الهاربين إلى سروج خيولهم، وعادة ما يحرقون عيونهم، حتّى تكون الرسالة أشدّ وطأة. كان آرنيه رجلًا هادئًا، مبتهجًا وسفّاكًا.

لا أعرف إذا ما كان الآخرون يخافونه، ولكنْ، لم تكن ثمّة حاجة لذلك. فقد كان هو الرجل الذي ابتكر العالم الذي يعيشون فيه. ولم يشغلْهم التفكير بالخوف منه، لأنهم كانوا يحبّونه. كانوا مَدينين له بكل شيء، وكان هو يمثّل كل ما يحلم به أحدهم أن يكونَه. كانوا يثقون به ثقة عمياء، بل بوسعنا القول إنهم كانوا يؤمنون به. فمثلًا كانوا يُسلّمونه الذَّهَب كله الذي يعثرون عليه. كنْ واثقًا ممّا أقولُه لكَ. وكان هو يخبّئه في مكان آمن. مكان

لا يعرفه أحد سواه وأخاه. وكان ذلك لحفظ الذَّهَب، حتّى لا يخطرَ بذهن أحدٌ أن يهربَ قبل الموعد المحدّد، ويسرق كل ذَهَبَ الآخرين. وكان أيضًا نظامًا ناجحًا، ليحتموا من قطّاع الطُّرُق. كان الذَّهَب يصل عند آرنيه دولفن، ثمّ يختفي، وقد كان في كلوزينغ تاون ذَهَبٌ أكثر ممّا كانت تحتويه بنوك بوسطن كلها. ولكنكَ إذا قدمتَ إلى البلدة، وأنتَ لا تعرف بالأمر، فإنكَ لا تجد مثقالًا واحدًا، ولا حتّى ذرّة، لا تجد شيئًا مطلقًا. كان الجميع متّفقين على اقتسامه بعد خمس سنين، ولا أحد يرغب بمعرفة أين يوجد الذَّهَب قبل ذلك الموعد. كان يعرف مكانه آرنيه دولفن وأخوه ماثياس، وكان هذا يكفيهم. لم تكنْ كلوزينغ تاون مدينة، بل كانت خزنة ذَهَبٍ.

بعد ثلاث سنين أو ثلاث ونصف، خلا النهر من الذَّهَب. انتظروا بعض الوقت، لكن شيئًا لم يتغيّر. عندئذٍ أرسل آرنيه دولفن أخاه ماثياس وبعض الهنود، ليصعدوا حتّى منبع النهر. كانوا يظنّون أنهم سيجدون منبعَ الذَّهَب أو شيئًا من ذلك. عادوا بعد شهر، دون أن يعثروا على شيء. في تلك الليلة، حدثت في بيت دولفن بعض المشاكل. كان شيء أشبه بالنقاش بين الأخوَيْن، أو ربّما أكثر من ذلك. في اليوم التالي، اختفى آرنيه، ذَهَبَ ماثياس ليتفقّدَ مكان الذَّهَب، إلا أنه وَجَدَ المخزن فارغًا. لم يُصدِّق الناس ما جرى. اصطحب ماثياس خمسة رجال معه، امتطوا ظهور جيادهم دون أن يتفوّهوا بكلمة، واتّجهوا نحو الصحراء. بعد عدّة أيّام، شاهد الناس خيلهم تدخل البلدة، وهي تسير على مهل. وكانت رؤوسهم مُعلّقة إلى سروج الخيل، وقد أُحرقت عيونهم. كان الحصان الأخير حصان ماثياس، وآخر رأس كان رأسه. هذه الحكاية كلها، يا فتى. إذا سألتَ الناس، فستجد عند كل منهم نظريّته حول الطريقة التي قام بها آرنيه دولفن بسرقة الذَّهَب. ولكنْ، لا أحد يعرف الحقيقة فعلًا. لقد كان هذا الرجل عبقريًا، على طريقته

الخاصة. لم يره بعد ذلك أحدٌ. ولم يحدثْ شيء من يوم رحيله. ما هذه البلدة إلا بلدة أشباح. لقد ماتت منذ ذلك اليوم. آمين.

صَمَتَ ويتشر لحظات.

- متى حصل هذا كله؟

- منذ أربعة وثلاثين عامًا، وشهرَيْن وعشرين يومًا.

يصمت ويتشر، يفكّر.

- لمَ لمْ يبحثْ عنه أحد؟

- لقد فعلوا. استأجروا أفضل صائد جوائز، وأرسلوه للبحث عنه.

- وماذا كان من أمره؟

- تبعتُه لعشرين سنة، كدتُ أصل إليه ألف مرّة، لكني لم أرَ وجهه قطّ.

- أنت صائد الجوائز؟

- نعم، أنا.

- أولستَ قاضيًا؟

- ليس القضاة إلا رجال شرطة مُجهَدِين.

- ولكنْ، ببقائكَ هنا، لن تمُسكَ به أبدًا.

- أنتَ مُخطئ، يا فتى. إذا فقدتَ حصانًا، فأمامكَ أحد الخيارَيْن: إمّا أن تركضَ خلفه، أو تنتظره حيث يتوافر الماء، حتّى يأخذه العطش. وفي عمر كعمري هذا لا تجيد الركض، ولكنكَ تجيد الانتظار فوق كل تصوّر.

- تنتظره هنا! ولماذا قد يعود إلى هنا؟

- سيدفعه العطش، أيها الفتى.

- العطش؟

- أعرف هذا الرجل أكثر من عُضوي الذَّكَري. سيعود.

- لعلّه مات، وهو الآن يقبع تحت الأرض، منذ سنين طويلة.

يهزّ القاضي رأسه ويبتسم. يُومئ برأسه نحو الصُّحُف، كَمّ هائل من الصُّحُف تملأ الغرفة بالكلمات.

- هنود، بوكر وساعات. لعلّه يُغيّر اسمه، يُغيّر المدينة، يتغيّر وجهه، ولكنْ، ليس من الصعب التّعرّف عليه. فأسلوبه هو هو: مصاب بجنون العَظَمَة، هادئ، مبتهج وسفّاح. لا يحبّ الابتعاد عن الأضواء، قد يهرب، نعم، فهو ماهر في فِعْل ذلك، أما الابتعاد عن الأضواء ... ليس من طبعه. يكفي أن تُحسن قراءة الصُّحُف، تشعر وكأنكَ مُلتصق بذيل حصانه.

ينظر ويتشر إلى القاضي، كانت يداه ضخمتان، أظفاره طويلة ووسخة، وأصابعه ملطّخة بسواد الحبر. كانت عيناه جميلتَيْن، كعينَي صبيّ. تجولان في الغرفة، بلا هدف، وكأنهما تتابعان أشباحًا راقصة. يحدّق فيهما ويتشر، حتّى ينتبها لوجوده، فيصوبان نَظَرهما نحوه، عندئذٍ يقول:

- شكرًا.

ينهض، يعيدُ الكرسي حيث كان، يتّجه نحو الباب. يرى على الجدار لوحة لفتاة، تتظاهر بالقراءة. كان شَعرها مشدودًا عند أعلى العنق، وكانت

عنقُها رقيقة وطويلة. كان هناك شيء ما مكتوب على اللوحة، بالحبر الأزرق. يحاول ويتشر أن يقرأه، لكنها كانت بلغة، لا يعرفها. يتذكّر بيرد، وقصّته التي فحواها أنه قضى سنين طويلة وهو يحفظ قواميس اللغة الفرنسية، من الألف إلى الياء. لعلّه لم يكنْ أحمقًا، يفكّر وهو يحدّق في ذلك العنق كامل الجمال. وضع يَدَه على مقبض الباب، لكنه توقّف، التفتَ نحو القاضي:

- والساعة؟

- أيّ ساعة؟

- العجوز.

رَفَعَ القاضي كتفه:

- هذه من عادات آرنيه دولفن: كان يريد أن يُصمِّمَ الساعة الأكبر في الغرب الأمريكي. وقد حقّق ذلك. كان الهنود يعملون تحت إمرته، فَصَنَعَهَا.

مال القاضي، وبَصَقَ، ثمّ عاد لوضعيّته السابقة:

- في الحقيقة، أنا لم أرها تعملُ قطّ.

- تصوّرتُ ذلك.

- هل اكتشفتَ سبب عطلها؟

- إنها ليست مُعطّلة، بل هي متوقّفة عن العمل.

- وهل هناك فرق؟

أدار ويتشر مقبضَ الباب، فسمع قفزة لسان القفل:

- أجل - قال.

يخرج إلى الضوء الذي يتخلّل الغبار، في ريح منتصف النهار، تلك الريح التي تحمل الأفكار بعيدًا، تداعبها في الهواء، في تلك الأرض المحروقة بالشمس اللاهبة، تقول شيتزي، بل كأنها تغنّي هذا المقطع، كما لو أنه مقطع من رقصة باليه، وتضحك، أذكر جيّدًا أنها كانت تضحك. حتّى حينما بدأتُ أعود إلى البيت، كنتُ أراها مرَّتَيْن في الأسبوع، وأستمع إليها، حينما تكون لديها رغبة في الكلام. وكان بحوزتها جهاز تسجيل، تحمله معها دومًا، فإذا ما خَطَرَتْ في ذهنها أفكار جديدة، تُشغّله، وتُسجّلها فيه، كانت تلك طريقتها في حفْظ أفكارها. قلتُ في نفسي إنها فكرة جيّدة، ولعلّها طريقة ناجحة لترتيب الأشياء. تمنّيتُ أن أملكَ أنا أيضًا جهاز تسجيل، كذلك الذي في حوزتها، وأن بوسعي أن أسجّل فيه كل ما حصل وما لم يحصل، حينما أكون في كامل وعيي. ربّما كنتُ سأتمكّن من تفسير الأمور لنفسي. يا للأفكار الغريبة التي تخطر في ذهنكَ أحيانًا!

قالت لي شيتزي - ذات مرّة - إنها تعرّفتْ إلى ولدي.

كانت هناك إشاعات حولها في المشفى، يقال إنها كانت تضاجع الأطبّاء. لا أعرف، ولكنْ، لا أظنّ أن في الأمر سوءًا. كان ثمّة أطبّاء متزوّجين، وآخرين غير متزوّجين، ولكنْ، ماذا يعني ذلك؟ زوجي هيلي يقول إنها فتاة طيّبة. مَنْ يدري إذا ما كان زوجي قد خانني أم لا، حينما لم أكن بكامل وعيي، وكنتُ لا أتعرّف عليه إلا بصعوبة بالغة؟! قد يكون من اللطيف أنه فَعَلَ ذلك، سيكون بوسعنا أن نضحكَ من ذلك لسنين طويلة.

- ليس بقصد الضغط عليكَ، يا سيّد ويتشر، ولكنْ، نريد أن نعرفَ إذا

كنتَ وصلتَ إلى نتيجة ما، وعرفتَ سبب عطل العجوز - قالت جولي دولفن.

- ليس فيها أيّ عطل.

- أتهزأ بنا؟

- ليس فيها عطل، إنها متوقّفة عن العمل فقط.

- وهل هناك فرق؟

يتناول ويتشر قبّعته:

- أجل - يقول بينه وبين نفسه.

كان ولدي اسمه غولد.

-٣٢-

قضى ويتشر ذلك اليوم - بحَرّه الشديد وريحه العاتية - داخل العجوز. ساعة هيدروليكية، قال في نفسه، بينما هو يفتح صنبور الخزّان، ويتبع نزول الماء وتعرّجاته، حتّى يصل الجهاز الميكانيكي الشاحن. يعيدُ العملية عشرات المرّات، ولكنه لا يفهم سبب عدم اشتغال الساعة. يجلس، وقد أضناه التعب. يفكّر. ينهض، يتبع مسارًا، لا يعرفه أحد غيره، يقوده المسار في زوايا العجوز، من ترس إلى آخر، حتّى يصل إلى واجهة الساعة المطلية، بأوراقها الثلاث عشرة، يحدِّق فيها طويلاً.

تمرّ الساعات.

يدرك كل شيء.

أخيرًا أدرك كل شيء.

- يا ابن العاهرة!

يقول في نفسه.

- هذا عمل عبقري، يا ابن العاهرة.

ينزل من العجوز، وقد أفرغ التعبُ رأسَه. في فراغ الرأس ذاك تئزّ الأسئلة، واحدًا تلو الآخر، كلها تبدأ بـ : لماذا؟

لا يعود إلى غرفته، يتّجه مباشرة صوب بيت الأختَيْن دولفن. تغمر أنفه رائحة الخشب والخضار، يرى البندقيَّتَيْن معلّقَتَيْن فوق الموقد.

- ماذا حصل بين آرنيه وماثياس، في تلك الليلة؟

كانت الأختان تجلسان بصمت.

- أسألكما عمّا حصل في تلك الليلة!

تحدِّق جولي دولفن في يَدَيْها المسنَدَتَيْن إلى فخذَيْها.

- لقد دار نقاش بينهما.

- أيّ نقاش؟

- أنتَ ساعاتي، لا يجدر بكَ أن تعرف الأشياء التي لن تنفعكَ في شيء.

- ولكنْ، هذه ساعة غريبة جدًّا.

- تُعاوِدُ جولي دولفن التحديق في يَدَيْها المسنَدَتَيْن إلى فخذَيْها.

- أيّ نقاش؟ - سأل ويتشر. ترفع ميليسا دولفن رأسها.

- لم يعد النهر يجلب الذَّهَب، ولم يجدوا شيئًا في الجبل. خطّط ماثياس لشيء، واتّفق مع خمسة رجال لتحقيق خطّته. وكانت خطّته أن يأخذوا الذَّهَب - ليلًا - ويغادروا البلدة.

- يسرق الذَّهَب، ويهرب؟

- أجل.

- ثمّ ماذا حصل؟

- طَلَبَ ماثياس من آرنيه أن يشاركَهما الخطّة.

- وماذا فَعَلَ آرنيه؟

- قال آرنيه إنه لن يفعلَ ذلك. ثمّ قال لماثياس إنه والرجال الخمسة حقراء فِعْلاً، وإن كل مَنْ في هذا العالم حقراء. كان يبدو صادقًا فيما يقول، كان يجيد التمثيل، حينما يريد ذلك. قال إذا كانت هذه هي نهاية كلوزبنغ تاون، فهو لا يرغب برؤية نهاية كهذه. قال إن كل شيء قد انتهى بالنسبة له، في تلك اللحظة تمامًا. أذكر أنه تناول ساعته، وكانت ساعة جيب فضّيّة، ناولها ماثياس، وقال له: أترك المدينة لكَ. ثمّ جَمَعَ أغراضه، ورَحَلَ. قال إنه لن يعود أبدًا. ولم يعد قطّ.

يطرق ويتشر مفكّرًا.

- وماذا عن ماثياس؟

- كان ثملاً، فَجَعَلَ يحطّم كل شيء، ثمّ خَرَجَ، وقضى ساعات طويلة خارج البيت. عاد في الصباح. توجّه حيث كانا يخبّئان الذَّهَب، فلم يجدْ شيئًا، وأدرك أن آرنيه سَرَقَهُ. نادى على خمسة رجال، امتطوا ظهور جيادهم، وذهبوا للبحث عن آرنيه.

- كانوا الرجال الخمسة ذاتهم؟

- أجل، كانوا أصدقاءه.

- ماذا حصل بعد ذلك؟

- عادت خيلهم بعد أربعة أيّام. كانت رؤوسهم مُعلّقة إلى السروج، وقد أُحرقَت عيونهم.

يطرق ويتشر مفكّرًا.

- حسنًا. وفي أيّ ساعة عادت الخيل؟

- هذا سؤال غبيّ في بلدة كبلدتنا.

يهزّ ويتشر رأسه.

- حسنًا، أعادت في النهار أم في المساء؟

- في المساء.

- في المساء؟

- أجل.

ينهض ويتشر، يتّجه صوب النافذة، ينظر إلى الشارع، وإلى الغبار المتطاير أمام زجاج النوافذ. يتردّد قليلاً، لكنه - في النهاية - يسأل:

- أكان آرنيه هو مَن اغتال الزمن؟

صَمَتَت الأختان دولفن.

- أهو مَن اغتاله؟

كانت الأختان دولفن صامتَتَيْن، أخفضَتَا رأسَيْهما، وأسندَتَا يَدَيْهما إلى الفخذَيْن. لم يميّز ويتشر أيًا منهما تكلّمتْ:

- أجل. لقد حَمَلَ معه كل شيء، حينما غادر البلدة.

يتناول ويتشر معطفَه وقبّعتَه. الأختان دولفن جالستان في مكانهما، كأنهما في وضعية التقاط صورة.

- هل عثرتُما على تلك الساعة، الساعة الفضّيّة؟

- لا.

- ألم تكنْ مُعلّقةً إلى السرج، أو بين أغراض ماثياس؟

- كلا.

- كما تصوّرتُ - يقول ويتشر بصوت خفيض. ثمّ بصوت عالٍ:

ليلة سعيدة.

يخرج، يقطع المدينة، يدخل الصالون، كاد يصعد إلى غرفته، وإذا به يرى الهندي العجوز، ثملًا وجالسًا على الأرض، مستندًا إلى الجدار. يتوقّف، يدنو منه، يقرفص بالقرب منه. ينظر إليه، ويقول له:

- آرنيه دولفن، أيعني لكَ شيئًا هذا الاسم؟

تبدو عينا الهندي كَحَجَرَيْن مدسوسَيْن في قناع مليءٍ بالتجاعيد.

- أتسمعني؟ ... آرنيه دولفن، هذا الحقير العظيم، ابن العاهرة هذا.

ثمّ أضاف بصوت خفيض:

- هذا الذي اغتال الزمن.

لم ترمشْ عينا الهندي.

يبتسم ويتشر.

- لا بد أنكَ ستذكره، وقت الحاجة.

يُغمِض الهندي عينَيْه، ثمّ يفتحهما.

هل سيُصلح الساعة؟ اسأل شيتزي، بل الكل يسألها هذا السؤال. كانت هي تضحك. لعلّها هي أيضًا لا تعرف. لا أعرف كيف يُكتَب الويسترن، أقصد إن كنتَ تعرف منذ البداية كيف سينتهي، أم أنكَ ستكتشف ذلك شيئًا فشيئًا. لم أكتب ويسترن من قبل. لكنني أنجبتُ طفلاً، ذات مرّة. ولكنْ، هذه حكاية أخرى، وفي حكاية كهذه، لا يمكن أن تعرفَ منذ البدء إلى أين قد تؤول الأمور. يقول لي الطبيب إني حينما سأشفى، يجب عليّ أن أجلسَ، وأروي لنفسي - بصبر - كل شيء. ولكنْ، لا أعرف متى سيحدث ذلك. أذكر أن طفلي اسمه غولد، وفي ذهني الكثير من الذكريات، بعضها جميل، إلا أنها تُسبّب لي الألم، كلها. كان الشيء الوحيد الذي أكرهه في شيتزي هو أنها تُحدِّثني عن ذلك الطفل، عن طفلي، كما لو أن شيئًا لم يكنْ، وأنا لا أحتمل هذا، كنتُ أرغب ألا تتحدّث عنه، لا أعرف حتّى كيف لها أن تكونَ صديقَتَه، كانت تكبره بخمسة عشر عامًا، لم أكنْ أريد معرفة ما جرى بينهما، لا أريد أن أعرف، أبعدوا عنّي هذه الفتاة، لا أرغب في رؤيتها، اتركوني بسلام، أيها الدكتور، ماذا تفعل هذه الفتاة هنا؟ أبعدوها عنّي، أنا أكرهها، أبعدوها عنّي، وإلا قتلتُها. كانت تقول إن غولد لا ينقصه شيء، ولا حاجة له لأحد.

بقيتْ هنا ستّ سنوات، وذات يوم سافرتْ إلى لاس فيغاس، قالتْ إنها عثرتْ على عمل هناك، في سوبر ماركت. إلا أنها عادت بعد بضعة

أشهر. لم يرُقها أن المكان الذي تعمل فيه كان يقدِّم عروضًا خاصة. قالت إنها تقضي الوقت في إقناع الناس لاستهلاك ما يتجاوز حاجتهم، وهذه حماقة. فعادت إلى العمل في المشفى. أما هنا، فليست هناك عروض، وإذا ما تعرّضت لأزمة نَفْسية، فإنهم لا يمنحوكَ جلسة إضافية للمعالجة بالتخليج الكهربائي. كانت شيتزي تعيش وحدها، في سَكَن قريب. كنتُ أقول لها إنها يجب أن تتزوّج، فكانت تُجيبني: لقد فعلتُ. ولكني لا أذكر ما آل إليه الحوار، فيما بعد. الشيء الأكيد أنها كانت تعيش وحيدة. ولم أفهم هذا الشيء أبدًا: ما الذي كانت تفعله، لكي لا يعيش معها أحد. ثمّ ساءت أمورها هنا، في المشفى، بعد عملية السرقة التي قامت بها. قيل إنها سرقت بعض المال، من خزنة الصيدلية. أقصد أنه قيل إنها تمارس السرقة منذ أُشهر، وقد أنذروها، ولكنْ، لا فائدة، فقد استمرّت بالسرقة. أنا لم أصدِّق ما قيل عنها، كان هناك مَنْ يكرهها هنا، وأظنّهم قادرين على إلباسها التّهمة. وهكذا فقد قلتُ لها إني لا أصدِّق ما يقال، وإنه مُجرّد افتراء عليها. لم تُجبني بشيء. ثمّ جمعتْ أغراضها، وغادرتْ. وكان زوجي هيلي قد دبّر لها عملاً في سكرتارية جمعية تُعنى بأرامل الحروب. ورغم ذلك، فقد كان الأمر مسلّيًا، لقد كانت الأرامل تقوم بأشياء لا يمكن تصوّرها. كنتُ أذهب لزيارتها - بين الحين والآخر - وكان لها مكتبها الخاص، ولم يكن العمل شاقًا. كان لديها الكثير من الوقت للعمل على الويسترن.

ينهض ويتشر، يُلقي نظرة على الهندي العجوز، ثمّ يتّجه صوب السّلّم.

- كما لو أنكَ تعتصر دمًا من حصى. منذ سنين وهو لم يتفوّه بكلمة واحدة - يقول كارفر، بينما هو يشطف القدح كعادته.

- أتخيّل ذلك.

- ويسكي؟

- لعلّها فكرة حسنة.

- ويسكي، إذنْ.

يتّكئ ويتشر على الطاولة. يسكب له كارفر قدح ويسكي. يحاول ويتشر ألا يفكّر، لكنه يفكّر.

- كارفر.

- نعم.

- هل من أحدٍ في هذه المدينة اللعينة كان يكره آرنيه دولفن؟

- تقصد قبل رحيله؟

- لا بد أنهم الآن هم الطّيّبون.

- تمامًا.

- ولكنْ، قبل ذلك؟

يرفع كارفر كتفه.

- مَنْ ليس لديه عدوّ في هذا العالم؟!

يرتشف ويتشر من قدحه، ثمّ يضعه على الطاولة.

- كارفر.

- نعم.

- ماثياس، أخوه ماثياس، هل كان يكرهه؟

كارفر يتوقّف، يحدّق في وجه ويتشر.

- هل حصل أن كان لكَ أخ كأنه إله؟

- كلا.

- حسنًا، كنتَ ستكرهه كل يوم من حياتكَ، ربمّا في سرّكَ، ولكنْ، بكل ما تملك من قوّة.

كانت على مكتب شيتزي صورتان، واحدة لـ أيفا براون، والأخرى لـ والت ديزني.

-٣٣-

كان ويتشر مستندًا إلى جدار الصالون، في منتصف النهار، وقد أنزل القبّعة على عينَيْه، ورَفَعَ المنديل إلى فمه، ليحتمي من الغبار. كان يتأمّل واجهة الساعة، عقاربها وأوراق البوكر. يتمشّى قليلاً، يحبّ المشي والريح تدفعه من الخلف. لا تُحدث الريحُ ضجيجًا كضجيج العربة، وكان هو مَنْ يُحدِّد اتّجاه السير.

يقول في نفسه إن هذه حكاية عجائز، وإنه لا شأن له بها. يردّد في نفسه فرحًا أنه مُجرّد ساعاتي. قال لنفسه - بصوت مسموع - اذهبْ من هنا، هذا وقت المغادرة، يؤسفني جدًّا، ولكن هذا ليس عملي، أودّعكم جميعًا. يخطر في ذهنه أن ليس هناك أيّ مسوغٍ لبقائه، أو لتصليح هذه الساعة. يتوقّف فجأةً، ينظر أمامه، يرى ميليسا دولفن: كانت تكنس الشارع أمام البيت، تلفّها عاصفة الغبار، كانت تكنس بتأنّ، ولكنْ، دون فائدة. يتطاير شَعرها الأبيض، ينفر عن النسق الذي رتّبته به يدا العجوز بعناية، ذلك الصباح، ككل صباح. كانت تبدو كشبح هزيلٍ، صبور وعتيد، أنهكه الزمن.

تقول شيتزي إن ويتشر - في تلك اللحظة تمامًا - التفتَ، بَصَقَ على الأرض، ولمّا كانت الريح بوجهه، فقد بَصَقَ على بنطلونه، ثمّ قال في نفسه: ليذهب الجميع إلى الجحيم.

-٣٤-

يدخل ويتشر إلى بيت القاضي. تنتشر في الظّلّ رائحة غائط ودخان سيجار، الصُّحُف في كل مكان. يسحب الكرسي قرب السرير، ويجلس.

- هل ما تزال عند فكرتكَ، أن الحصان سيُقبِلُ ليستقي الماء؟

- كنْ واثقًا من ذلك، يا فتى.

- لا يبدو أنه يشعر بالظمأ.

- يومًا ما سيشعر بالظمأ، لستُ على عجلة من أمري.

- أما أنا، فإني على عجلة من أمري.

- ماذا تنوي أن تفعل، إذنْ؟

- إن لم يكنْ يشعر بالعطش بعد، فلنحمله على ذلك.

قال ويتشر ذلك وهو يمدّ للقاضي ورقة كُتِبَتْ بآلة كاتبة. ورد في النص: أن فيل ويتشر، من شركة ويتشر وأبنائه، سيقوم بتشغيل ساعة كلوزينغ تاون القديمة، الساعة الأكبر في الغرب الأمريكي، وسط حفل عظيم، يوم الأحد في تمام الساعة ١٢ و٢٧ دقيقة. سيُقدَّم الطعام والشراب، وستكون هناك مفاجأة ختامية.

يومئ ويتشر برأسه نحو الصُّحُف.

- لقد نشرتُ هذا الخبر، حتّى يتسنّى له قراءته. إذا كان هو يُرسِلُ رسائله اللا مباشرة منذ أربعة وثلاثين عامًا، فقد حان الوقت لنُجيبه.

يرفع القاضي رأسه من على الوسائد، يُنزِل قَدَمَيْه من على السرير، يقرأ الورقة بتركيز شديد.

- أتظنّ أن هذا العاهر سيأتي حقًّا؟

- سيأتي.

- ترهات.

- أتصدّقني إن قلتُ لكَ إنه حتمًا سيأتي؟

يحدِّق فيه القاضي، كما لو أنه طَرَحَ عليه عملية حسابية معقّدة.

- وكيف لكَ أن تكون واثقًا، أيها التافه؟ لعلّكَ دخلتَ في رأس آرنيه دولفن؟

- أنا أعرف أين هو الآن، وماذا يفعل، وماذا سيفعل غدًا. أعرف كل شيء عنه.

يتفجّر القاضي ضحكًا، فتفلتُ منه ضرطة برائحة قاتلة. يضحك كمجنون، لبضع دقائق. ضحكة يرنّ فيها البلغم وضجيج التّنفّس، وشيء أشبه برنين الفضّة، ثمّ تصطبغ ملامحه بالجدّيّة فجأةً، ويقول:

- حسنًا، أيها الساعاتي، لتنزل عليّ اللعنات كلها، إن أنا فهمتُ شيئًا ممّا تريد، ولكنْ، حسنًا.

يمدّ رقبته، ويُدني وجهه من وجه ويتشر:

- ولكنْ، قل لي، أحقًّا ستُشغّل هذه الساعة؟

- هذا شأنٌ يخصّني، لنتكلّم عمّا ستفعله أنتَ.

- بسيطة: حالما يدخل هذا العاهر إلى المدينة، سأثقب جبهته برصاصة.

- بوسع أي أحد في البلدة أن يفعل ذلك، لا تهدر قدراتكَ هكذا، لقد فكّرتُ لكَ بشيءٍ أرفع من ذلك.

- ماذا تعني؟

- واجبكَ هو ألا تجعل أحدًا يثقب جبهته برصاصة.

- أجننتَ؟

- إذا دخل هذا الرجل إلى البلدة، فهو ميت لا محالة. ولكنْ، أنا أريده حيًّا، هل لكَ أن تتكفّل بذلك؟

- ماذا يعني أنكَ تريده حيًّا؟

- اسمعْ، أيها القاضي: سأجلب لكَ هذا الرجل إلى هنا، عليكَ أن تجدَ طريقة ما لإجباره على الجلوس معي إلى طاولة حوار. فقط ما يكفي من الوقت لنتبادل بعض الكلام، ثمّ اصنعْ به ما شئتَ. ولكني أريد أن أتحدّثَ إليه، بلا شهود ولا رصاص يثقب الجبهة.

- لن يكونَ الأمر بهذه السهولة. إن هذا الرجل سفّاح كحيوان مفترس. إذا تركتَ له مُتنفَّسًا، فأنتَ ميت لا محالة.

- لقد قلتُ لكَ إنه عمل رفيع، ولا يليق إلا بشخص مثلكَ.

- هذه مهمّة معقّدة، وليست نزهة.

- بالطبع، لا، لذا فيا حبّذا لو وضعتَ حذاءً لائقًا.

يحدِّق القاضي بقَدَمَيْه:

-اذهبْ إلى الجحيم، أيها القذر.

- لا وقت لي لذلك، يجب أن أذهبَ للقاء بيرد.

وهكذا يتوجّه إلى بيرد.

- أتعرف، يا بيرد، كم كان آرنيه دولفن ماهرًا في استخدام المسدّس؟

- لم أعرفه قطّ.

- أعرف ذلك، ولكنْ، تعرف جيّدًا ما يقال عنه.

- يقال إنه بطيء في سحب المسدّس، لكنه لا يُخطئ الهدف مطلقًا. يبدو أنها موهبة موروثة. وقد قدّمت الأختان عرضًا باهرًا، في ما مضى من الزمان.

- تقصد حكاية ورقة جاك الكوبة؟

- أجل.

- وكيف تتمكّنان من فِعْل ذلك؟

- لا أعرف، ولكنْ، كلّما تعلّق الأمر بأوراق اللعب، فإنهما تصيبان الهدف. السلاح فقط لا يكذب أبدًا.

يقول ويتشر في نفسه إن هذا ليس صحيحًا.

- بيرد: إذا واجه رجل واحدٌ ستّة رجال، في أرض مفتوحة، فهل هناك احتمال أن يبقى على قيد الحياة؟

- يحتوي مسدّس كلوت على ستّ رصاصات. لذلك أظنّ أن هناك احتمال للنجاة.

- دعْ عنكَ هذا، يا بيرد، وقل لي: هل سيخرج حيًا من هذه المواجهة؟

يفكّر بيرد.

- أجل، إذا كان السّتّة عميًا.

يتبسم ويتشر.

- نحن العميان، يا بيرد. نرى تمامًا ما يُخيَّلُ إلينا، لا الحقيقة.

- دعْ عنكَ الفلسفةَ، يا فتى، وقل لي ماذا تريد منّي؟

- أما تزال راغبًا في الموت؟

- أجل، لذلك عليكَ أن تُعجِّل بإصلاح الساعة.

- هل لديكَ موعد ما يوم ٨ حزيران؟

- تقصد غير التّبوّل دمًا ورمي الكلاب بالحجارة؟

- نعم، غير هذه الأعمال، هل لديكَ موعد ما؟

- دعني أفكّر.

يُطرِق مُفكّرًا.

- لا أظنّ.

- جيّد. أنا بحاجة إليكَ في ذلك اليوم.

- بحاجة إليّ أم إلى مسدّساتي؟

- أما تزالون تعملون معًا؟

- فقط في المناسبات الكبرى.

- ستكون في ذلك اليوم مناسبة كبرى.

- ماذا تعني؟

- سأُشغّل هذه الساعة اللعينة.

خزّر بيرد عينَيْه، وحدّق في وجه ويتشر.

- أتهزأ بي؟

- بل أنا جادّ فيما أقول.

فجأةً وإذا بمسدّس بيرد مصوَّب - بلَمْح البصر - إلى رأس ويتشر، وقد كان قبل لحظة في قرابه.

- أتهزأ بي؟

- بل أنا جادّ فيما أقول.

فجأةً وإذا بالمسدّس يعود إلى قرابه - بلمح البصر - وقد كان قبل لحظة مصوّبًا إلى رأس ويتشر.

- اعتمدْ عليّ، إذنْ، يا فتى.

- أنا بحاجة إلى عينَيْك، يا بيرد.

- أمر سيّئ.

- كيف هو نظركَ؟

- يعتمد على قوّة الضوء.

- أيّ ورقة هذه؟

يخزّر بيرد عينَيْه، ينظر إلى الورقة التي أخرجها ويتشر من كُمّ القميص:

- ورقة سَنَك؟

يضربها ويتشر بأطراف أصابعه، ثمّ يرميها في الهواء. يسحب بيرد مسدّسه، يطلق ستّ رصاصات. تتقافز الورقة ستّ مرّات على ستّ رصاصات، كما لو أنها تتقافز على زجاج شفّاف. ثمّ تهوي كورقة ميتة.

- هل بمقدوركَ أن تصيبها على بُعْد ثلاثين مترًا؟

- لا.

- إذا ما كانت ثابتة في مكانها؟

- على بُعْد ثلاثين مترًا؟

- إذا وافقني الحظّ، فربّما بوسعي إصابتها.

- يجب أن تنجحَ في ذلك، يا بيرد.

- يجب أن يوافقني الحظّ.

- أليس من الأفضل لكَ أن تضعَ النظّارة؟

- اذهبْ إلى الجحيم، أيها الساعاتي.

- لا وقت لي لذلك، يجب أن أذهبَ للقاء الأختَيْن دولفن.

- بعد أحدَيْن من اليوم، في الساعة ١٢ و٣٧ دقيقة، سأُشغِّل الساعة العجوز.

نظرت الأختان دولفن إليه دون أن يُحرِّكا ساكنًا. شيء لا يُعقَل، فقد رأى ويتشر في عينَي ميليسا دولفن شيئًا يلمع، شيء أشبه بالدمع.

- ستحدث فوضىً عارمة، ولكن هذا ما أردتُماه أنتُما.

يُومِئان برأسَيْهما بالإيجاب.

- بودّي أن أطلبَ منكما عدم الخروج من البيت، حتّى ينتهي كل شيء، ولكنْ، أعلم أن هذا غير ممكن، لذلك فمن الأفضل أن تأتيا، وتشاركا في العملية. ولكنْ، لنتّفق على ألا تقوما بأيّ خطوة مفاجئة، يجب أن تلتزما الأوامر.

يُومئان برأسَيْهما بالإيجاب مجدّدًا.

حسنًا، سأبلّغكما بالأوامر عندما يحين الوقت. ليلة سعيدة.

يتناول معطفه وقبّعته.

- سيّد ويتشر ...

- نعم.

- بودّنا أن تعرفَ ...

- ماذا؟

- ليس من السهل العثور على الكلمات المناسبة، ولكنْ، بودّنا أن تعرف ...

- ماذا؟

ليس هناك أثر للدمع في عينَي ميليسا دولفن، حين تقول:

- لا أقصد الإهانة، ولكنْ، يكاد عُضوكَ أن يخرجَ من بنطلونكَ.

- عذرًا؟

- نودّ القول إنه ربمّا من الأفضل لكَ أن تزرّ بنطلونكَ، تحت الحزام، يا سيّد ويتشر.

ينظر ويتشر إلى بنطلونه، يزرّ الأزرار، ثمّ يرفع رأسه، وينظر إلى الأختَيْن دولفن.

ما الذنب الذي ارتكبتُه في حياتي؟ يقول في نفسه.

كان هذا - تقريبًا - آخر جزء من الويسترن أسمعه بصوت شيتزي. لا أدري إن كانت ثمّة أجزاء أخرى، على أيّ حال، أظنّها حملتها معها حينما رحلتْ. لقد رحلتْ بطريقة مريرة، وهذا - برأيي - ليس عدلًا، فأنا أظنّ أن

من العدل أن يختارَ كل منّا نهايته. يجب أن يكون حقًّا مشروعًا لكلّ منّا، أو على الأقل، يمُنَح للبعض، أولئك الذي يجيدون الحياة فِعْلاً. أقرّ بأنني كرهتُها، أقصد شيتزي، لأسباب مختلفة. لكنها كانت تجيد الحياة، إذا كنتُم تدركون ما معنى هذا. كانت في السّيّارة، مع أحد الأطبّاء، في الليل، وقد احتسيا الخمر، أو ربمّا دخّنا الحشيشة، لا أذكر. ارتطمت السّيّارة بعمود الجسر، في سان فيرناندز. كان الطبيب خلف المقود، فمات من ساعته، بينما شيتزي كانت لا تزال تتنفّس، حينما سحبوها من السّيّارة. نقلوها إلى المشفى، فعانت - طويلاً - آلام الاحتضار. انكسرت أشياء كثيرة في جسدها، حتّى عظم الرقبة، كما يقال. كانت مُسمَّرة على سرير المشفى، لا تقوى على تحريك شيء، سوى رأسها. كان دماغها سليمًا، فكانت تنظر وتسمع وتتحدّث. ولكنْ، كانت بقية أجزاء جسمها ميتة. كانت رؤيتها تُحطِّم القلب ألمًا. كانت شيتزي فتاة قوية، لا تستسلم أبدًا، وموهوبة فِعْلاً، وتجيد الحياة. التزمت الصمتَ لأيّام، مسمّرة فوق السرير. وذات يوم، ذَهَبَ زوجي هيلي لزيارتها، فقالت له: ارحمني، يا جنرال، لنُنهِ الأمر. هذا ما قالتْه بالضبط. ارحمني. ولكن زوجي، لا أعرف، لقد تعلّق بتلك الفتاة، كانت تمثّل شيئًا ما بالنسبة له، وما كان ليتركَها تتعذّب هكذا، ما كان ليسمحَ بذلك. فوجد حلاً للمشكلة: نقلها إلى المشفى العسكري، فهناك كان الأطبّاء معتادين على تلك الأشياء، وبالإمكان القيام بما لا يسمح به المشفى المَدَني. وكان الأمر لا يخلو من الهزل، فقد كان المشفى العسكري للرجال فقط، وكانت هي الفتاة الوحيدة هناك. بل حتّى هي كانت تجعل من ذلك مزاحًا. وقبل يوم من رحيلها، حينما ذهبتُ لأودّعها، إذا صحّ القول، طَلَبَتْ منّي أن أدنوَ منها، ثمّ هَمَسَتْ لي طالبةً أن أذهبَ للبحث عن شابٍّ لديه الرغبة في المجيء حيث كانت ترقد. وكانت

ترغب أن يكون فتىً لطيفًا، حاولتُ أن أفهمَ ماذا تقصد بلطيف، فقالت يكفي أن يكونَ جميل الشَّفَتَيْن. فنفّذتُ طَلَبَهَا، عدتُ ومعي شابٌ وسيم جدًّا، أسود الشعر جميل الوجه، قد ترغب فيه كل امرأة، حقًّا. كان اسمه صامويل. ما إن وَصَلَ عند سريرها حتّى قالت له: هلا قبّلتَني؟ فقام هو وقَبَّلَهَا، وكانت قُبلة حقيقية، كما في الأفلام، كتلك التي تستمرّ طويلاً. في اليوم التالي، قام الطبيب بما عليه فِعْله. أظنّها كانت حقنة ما، ولكنْ، لا أعرف بالضبط كيف كانت. فَرَحَلَتْ في لحظات.

قمنا بدفنها هنا، في توبيكا. وقد اختارت هي العبارة التي كُتِبَتْ على شاهد القبر، دون تاريخ. كُتِبَ فقط: شيتزي شيل، لا تربطها أيّ علاقة بالسّيّد شيل، تاجر البنزين الثري.

لا أثقلت عليكِ الأرض وطأتها، يا صغيرتي.

-٣٥-

تهبّ الريح تحت الشمس الحارقة، يعصف الغبار في شوارع كلوزينغ تاون، وكأن مداخن تحرق الأرض كلها. كانت البلدة خالية من أهلها، وكأن صحراءَ أتت من بعيد، وتوغّلت في كل شوارعها. لا ضجيج ولا صوت ولا بشر. كأنها مدينة مهجورة. تتطاير في الهواء بقايا اللا شيء، تتجوّل الكلاب صامتة، تبحث عن بعض الظّلّ، لتأوي إليه بجسدها النحيل.

كان يوم الأحد، ٨ حزيران، والشمس في كبد السماء.

من جهة الشرق، من خلال سحب الغبار، من الماضي البعيد، برز اثنا عشر مقاتلًا، يسيرون جنب بعض، انسدلتْ شعورهم على عيونهم، وغطّوا أفواههم بالمناديل. مسدّسات في الأقربة، وبنادق على الأكتاف.

يتقدّمون بروية، عكس اتّجاه الريح، تجري خيلهم على هواها. بدأت هيئتهم تتّضح ما إن بلغوا بيوت البلدة الأولى. أحد عشر منهم يرتدون معاطف صفراء، واحد فقط يرتدي معطفًا أسود. يتقدّمون ببطء، يد تمُسك بعنان الحصان، والأخرى تستند إلى البندقية. يتفحّصون بدقّة أجزاء المدينة كلها من حولهم، فلا يخفى عن عيونهم شيء. لا ينبسون ببنت شفة، يتقدّمون في صفّ واحد، بعضهم جنب بعض، وقد أغلقوا الشارع. كانوا أشبه بمشط أو محراث.

تمرّ الدقائق.

يتوقّف الرجل ذو المعطف الأسود.

يتوقّف الآخرون.

كان الصالون على يمينهم، والساعة العجوز على يسارهم. العقارب متوقّفة على الساعة ١٢ و٣٧ دقيقة.

الصمت يلفّ المكان.

يُفتَح باب الصالون. تخرج امرأة عجوز وخط الشعر الأبيض في رأسها، يتطاير حالما يلفحه الهواء.

تُصوَّب نحوها إحدى عشرة بندقية.

ترفع يَدَهَا لتقيَ عينَيْها من الشمس، تقطع رواق الصالون، تنزل ثلاث درجات، تدنو من الاثنَي عشر رجلًا، ثمّ تتوقّف أمام الرجل ذي المعطف الأسود. ما تزال فوهات البنادق تلاحقها.

- مرحبًا، يا آرنيه - تقول ميليسا دولفن.

الرجل لا يُجيبها.

- انصحْ رجالَكَ ألا يرفعوا مؤخّراتهم، وألا يُحرّكوا ساكنًا، هناك بنادق مصوّبة نحوهم أكثر من عدد السنين التي أحنتْ ظهري. لقد أحصيناها: ١٣٨، ليست السنين، بل البنادق.

رَفَعَ الرجلُ رأسَه، كانت فوهات البنادق تُحدِّق فيه من كل حدب وصوب.

- كما تعرف جيّدًا، فأنتَ لم تتركْ أثرًا طيّبًا في هذه البلدة.

نظر الأحد عشر رجلًا حولهم بعصبية، ثمّ أخفضوا بنادقهم. تستدير ميليسا دولفن، وتعود نحو الصالون، تصعد الدرجات، تمدّ يَدَهَا نحو رأسها، لتُرتِّبَ شَعرها، تفتح البابَ، وتغيبُ عن أنظارهم.

بقيت الـ ١٣٨ بندقية مصوّبة نحو الرجال، دون أن يفتحوا النار.

صمت.

يُومِئ الرجل ذو المعطف الأسود لرجاله. ينزل من على ظهر الحصان، يجذبه من العنان، حتّى يصلَ سياج الصالون. يربط الحصان إلى أحد الأعمدة الخشبية. يدسّ بندقيّته في جيب السرج، يُنزِل المنديلَ عن أنفه، فتظهر لحيته البيضاء الكثيفة. يستدير ويُلقي نظرة نحو الـ ١٣٨، لا أحد يصوّب البندقية نحوه، كلها مصوّبة نحو رجاله. يقطع الرواقَ، يمدّ إحدى يَدَيْه لفَتْح الباب، ويسند الأخرى إلى المسدّس. يفتح الباب ويدخل.

أول شيء يراه هو رجل هندي عجوز، جالس على الأرض، كأنه تمثال.

وثاني شيء يراه هو صالون فارغ تمامًا.

وثالث شيء يراه هو رجل يجلس إلى طاولة بعيدة، في الركن الأخير من الصالون.

يقطع الصالون حتّى يصلَ أمام الرجل، يرفع القبّعة، يضعها على الطاولة.

- هل أنتَ الساعاتي؟

- أجل، أنا - يقول ويتشر.

- بوجهكَ الطفولي هذا؟

- تخيَّل.

يبصق الرجل ذو المعطف الأسود على الأرض.

- ما شأنكَ وهذه الساعة؟ - يسأله.

- هذه ليست ساعة. إنها كنز.

يبتسم الرجل.

- كنز مليء - يضيف ويتشر.

يُصدِرُ الرجل ذو المعطف الأسود صوتًا بلسانه، ثمّ يقول:

- عظيم.

- فكرة عبقرية: تفتح صنبور الخزّان، يجب أن ينزلَ الماء، ويُشغِّل جهازَ الشحن الميكانيكي، ويجب أن تتحرَّك عقارب الساعة. ولكنْ، إذا ما حاول فِعْل ذلك، فإن الساعة لا تعمل. أتعرف لماذا؟

- أخبرني أنتَ لماذا.

- لأنه يعمل بصيغة معاكسة. تُدوِّر العقارب، فتعمل هي على تشغيل جهاز الشحن الميكانيكي، فيقوم الجهاز بسَحْب الماء، يصعد الماء، فتعمل ثلاث مكابس على فَتْح مخزن ماء تحت الأرض، فيتدفّق الماء من تحت الأرض: ماء مليء بالذَّهَب، يقبع هناك منذ أربعة وثلاثين سنة

وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا. تبدو من الخارج على أنها ساعة، ولكنه كنز. يا للعبقرية!

- تهانينا. لقد اكتشفتَ الكثير من الأشياء.

- أكثر ممّا تتصوّر، يا ماثياس.

كأن شحنة كهربائية سَرَتْ في الرجل. في اللحظة الأولى، ينهض الرجل ذو المعطف الأسود، يكاد يسحب مسدّسَيْه، ويفتح النار. في اللحظة الثانية، يسمع صوتًا يصرخ به:

- قفْ مكانكَ.

في اللحظة الثالثة يتوقّف، وفي اللحظة الرابعة، يجلس. يلتفتُ ببطءٍ في اللحظة الخامسة، وقد وضع يَدَيْه على الطاولة. كان القاضي يرتدي حذاء فرسانٍ جديدًا لامعًا، تُزيّنه نجوم ملوّنة وأشياء أخرى. مشّط شَعره بالعطر، وحَلَقَ للتوّ لحيته. يقف في الطرف الآخر من الصالون، يصوّب بندقيّته نحو الرجل ذي المعطف الأسود.

- لم أُنهِ كلامي بعد - يقول ويتشر.

يُحدِّق الرجل ذو المعطف الأسود في ويتشر.

- ماذا تريد منّي؟

- أريد أن أحكي لكَ حكاية.

- عجِّلْ بالأمر، إذنْ.

- هل لديك مواعيد أخرى؟

- أجل، أن أقتلَ هذا الرجل البدين خلفي، وأرحل عن هذه البلدة اللعينة بسلام.

- إنه صبور، سينتظرك.

- قلتُ لكَ، استعجلْ.

- حسنًا. قبل أربعة وثلاثين عامًا وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا، في المساء، عرضتَ على أخيكَ آرنيه أن تهربا - مع خمس عائلات أخرى - آخذين معكم الذَّهَبَ كله. رَفَضَ آرنيه ذلك. أدرك أن كل شيء قد انتهى، وأن حربًا توشك أن تندلعَ، بسبب الذَّهَب. يُقدِم على شيء لا يدركه أحد غيركَ: يهديكَ ساعته الفضّيّة. ثمّ يحزم أغراضه، ويرحل، في منتصف الليل. من الصعب أن تحتمل أخًا عادلًا هكذا، أليس كذلك، يا ماثياس؟ لم يرتكبْ خطأ في حياته، كأنه إله. كيف أمكنكَ العيش صغيرًا جنب عَظَمَته لسنين، عشرات السنين؟ إنه أمر يُثير الجنون فِعْلًا، أليس كذلك؟ إلا أنكَ لم تُصَبْ بالجنون، على العكس، كنتَ صبورًا. وقد حانت اللحظة المناسبة في تلك الليلة. وكأني أراكَ، يا ماثياس: تذهب إلى الساعة العجوز، تفتح الكنز، فتجده مليئًا بالذَّهَب، تأخذ منه ما تستطيع حمله في سرج الحصان. وفي الصباح، تخرج من البيت، تصرخ قائلًا إن آرنيه سَرَقَ الذَّهَبَ كله، وهرب، تنادي أصدقاءكَ الخمسة، وتلحقون به. كان آرنيه وحيدًا أمام ستّة رجال، ليس بوسعه النجاة. كم قَتَلَ منكم قبل أن تقتلوه، اثنَيْن، أو ربّما ثلاثة، يا ماثياس؟

- ...

- لا يهمّ. ستتكفّل أنتَ بمَنْ بقي منهم. لم يحسبوا حسابًا لذلك، كنتَ

صديقهم. تُطلق عليهم النارَ من الخلف، ربّما بينما كانوا يحزّون رأس أخيكَ، أكان كذلك؟ تحزّ رؤوسهم وتحرق عيونهم. تربط الرؤوس إلى سروج الخيل، ثمّ تربط رأس أخيكَ آرنيه إلى سرج حصانكَ. يا لكَ من ماكر! تصل الخيل إلى كلوزينغ تاون عند المساء، وكان قد حلّ الظلام، والرؤوس مشوَّهة، والحصان حصانكَ. ولكن الأهمّ من هذا كله هو: أن الناس ترى تمامًا ما يُخيَّلُ إليها، لا الحقيقة. أخ خاسر طوال حياته، لماذا كان سيفوز في هذه المرّة؟ كانوا ينتظرونكَ ميتًا، فرأوكَ ميتًا. ولو تكرّر ذلك مئة مرّة، لرأوا رأسكَ، في كل مرّة، مُعلّقًا إلى السرج. إلا أن ذلك الرأس كان رأس آرنيه.

لم يُحرّك الرجل ساكنًا.

يلقي ويتشر نظرة إلى الخارج، عبر النافذة، كان هناك أحد عشر رجلاً بمعاطف صفراء، تُصوَّب نحوهم ١٢٨ فوهة بندقية.

- أمّا ما بقي من الوقت، أربعة وثلاثون عامًا وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا، فقد كانت طريقتكَ في الانتقام. قضيتَ نصف حياتكَ تمثّل دور آرنيه دولفن، وتستلذّ بكُره البلدة له، كل يوم. فقد خانها أخيرًا، هذا اللّصّ الذي لم يتورّع عن قَتْل أخيه الطّيّب ماثياس، خطّط طوال سنين للاحتيال عليهم، هذا العاهر الذي يجول في المُدُن، يلعب البوكر، ويتمتّع بهواية جمع الساعات، بينما أهل المدينة يموتون ببطء في الريح العاتية. يا لكَ من عبقري، يا ماثياس! لقد تخلّيتَ عن هذا الذَّهَب كله، لتنالَ انتقامكَ.

لقد انتهت حكايتي.

يسأله ماثياس دولفن بصوت خفيض:

- مَنْ غيركَ يعرف هذه الحقيقة؟

- لا أحد. ولكنْ، إن أردتَ قَتْلي، فأنصحكَ ألا تفعلَ ذلك، هذا الرجل البدين ماهر في استخدام السلاح، وقد كان صائد جوائز، قبل أن تتمكّن منه السمنة، لذا فهو لا يتورّع عن إطلاق النار من الخلف.

يعصر ماثياس دولفن قبضَتَيْه.

- أوكي، ما ثمن سكوتكَ؟

- الساعة الفضّيّة، يا ماثياس.

ينظر ماثياس - غريزيًا - إلى الجيليه الجلدي الأسود، ثمّ يُحدِّق في عينَي ويتشر:

- إذا كنتَ بهذا الحذق، أيها الساعاتي، فلماذا أنتَ بحاجة إلى الرَّقْم السّرّيّ في الساعة الفضّيّة، لكي تفتحَ الكنز؟

- ليس فَتْح الكنز ما يهمّني، بل تشغيل العجوز. وأنا بحاجة إلى الرَّقْم السّرّيّ، لكي أُشغّلها من دون أن أُحطّم شيئًا.

- لا بد أنكَ مجنون.

- كلا، أنا ساعاتي.

يهزّ ماثياس دولفن رأسَه، تفلت منه ابتسامة. يزيل جانب المعطف برفق، يُخرِج الساعة الفضّيّة من جيبه، ثمّ يسحبها بقوّة، ويقطعها عن السلسة التي تربطها بالجيليه. يضعها على الطاولة.

يتناولها ويتشر، يرفع الغطاء:

- إنها متوقّفة، يا ماثياس.

- لستُ أنا الساعاتي.

- عندك حقّ.

يقوم ويتشر بتقريب الساعة من عينَيْه، يقرأ شيئًا ما في باطن الغطاء، ثمّ يعيد الساعة، مرفوعة الغطاء، على الطاولة.

- أربعة أوراق (Q) وورقة (K) ديناري.

- الآن بوسعكَ أن تُشغِّلَ العجوز، إذا كان هذا ما تودّ فِعْلًا.

- نعم، أنتَ محقّ.

- أظنّ أنها ستكون مفاجأة كبيرة للجميع، إذا ما شغّلتَ الساعة، أما أنا، فلا أرغب في الحضور. قلْ للرجل البدين أن يخفضَ البندقية، إذنْ، أرغب في المغادرة.

يُومئ ويتشر للقاضي، فيخفض بندقيّته، ينهض ماثياس دولفن ببطء.

- الوداع، يا ساعاتي.

يقول، ثمّ يلتفتُ، يُحدِّق في عينَي القاضي.

- هل التقينا من قبل، أم تراني واهمًا؟

- ربّما.

- كنتَ شابًّا حينها، وكنتَ تصل متأخّرًا دائمًا. هل كنتَ أنتَ ذلك الشّابّ؟

- ربّما.

- يا للغرابة: عادة ما يرتكب الشخص الخطأ ذاته، طوال حياته.

- وما هو؟

- أن تتأخّر دائمًا.

ثمّ يستلّ مسدّسه، ويُطلق النار على القاضي. ما إن يرفع القاضي البندقية، حتّى تخترق رصاصةٌ صدرَه، فيرتمي على الأرض، تحت الحائط. صوت تلك الرصاصة يُشعل الجحيم في الخارج. يثب ماثياس على ويتشر، يرميه أرضًا، ثمّ يُصوِّب المسدّس إلى رأسه.

- حسنًا، أيها الساعاتي، لقد جاء دوري الآن.

كانت قد نشبت في الخارج حرب جحيمية، ينهض ماثياس، يجذب ويتشر، كما لو كان خرقة، يقطع الصالون وهو يختبئ خلف ويتشر، ولا يبرز من جسده شيء أمام النافذة. يمرّان قرب القاضي، كان متكوِّرًا على الأرض وقد تناثر الدم على صدره، ولا يزال يمسك بالبندقية في يده. لا يقوى على الكلام، لكنه يُجهد نفسه:

- لقد قلتُ لكَ، يا فتى، يجب أن لا تتركَ له متنفّسًا.

يركله ماثياس في وجهه، فيرتمي ممدّدًا على الأرض.

- يا لكَ من حقير - يصرخ ويتشر.

- اصمتْ، عليكَ أن تصمتَ فقط، وتسير ببطء.

يدنوان من الباب، يمرّان قرب الهندي العجوز، وكان جالسًا على الأرض. ماثياس لا يعيره اهتمامًا حتّى بمُجرّد نظرة، يبقى مختبئًا خلف الباب.

يتوقّف تبادُل إطلاق النار فجأةً، وكأن العَدَم التَهَمَ ذلك الصخب كله.

تُسمَع رصاصات متفرّقة هنا وهناك.

ثمّ يطبقُ الصمتُ.

صمتٌ.

يقوم ماثياس بدَفْع ويتشر أمامَه، مسدّدًا فوهة البندقية إلى ظهره.

- افتح البابَ، أيها الساعاتي.

ويتشر يفتح الباب.

كان شارع كلوزينغ تاون الرئيس مقبرة خيل ورجال بمعاطف صفر. لا شيء سوى ريح وغبار وجثث. وكان هناك العشرات من الرجال، فوق أسطح البيوت، وفي كل جانب، بين أيديهم البنادق وفي وجوههم الصمت. كانوا يحدِّقون في الصالون.

- حسنًا، يا ساعاتي، لنرَ إن كان أهل هذه البلدة يحبّونكَ.

يدفعه خارج الصالون، ويخرج خلفه، في الضوء، والريح والغبار.

تتوجّه نحوهما أنظار الجميع. ماثياس يدفع ويتشر حتّى نهاية الرواق، ثمّ ينزلان إلى الشارع. يرى أن حصانه ما يزال مربوطًا إلى العمود. كان الحصان الوحيد على قيد الحياة. ينظر حوله، الجميع يحدِّق فيه، وقد أخفضوا بنادقهم.

- ماذا دهاهم، يا ساعاتي، هل فقدوا الرغبة في القتل؟

- إنهم يحسبونكَ آرنيه.

- ما هذا الهراء؟

- ما كانوا ليجرؤوا على قَتْل آرنيه مطلقًا.

- ما هذا الذي تقول؟

- يرغبون بذلك، لكنهم عاجزون، يتمنّون أن يقوم هو بذلك نيابة عنهم.

يُومِئ ويتشر برأسه نحو منتصف الطريق، ينظر ماثياس. يُقبِل رجل بقبّعة جديدة ومعطف فاتح اللون يصل حتّى قَدَمَيْه، يضع حذاء فرسان جديدًا، في حزامه مسدّسَان، مقبضاهما من الفضّة. يتقدّم وقد شَبَكَ ذراعَيْه، تلامس يَدَاه مقبضَي المسدّسَيْن. يبدو كأنه أسير أو مجنون، طير أطبق جناحَاه.

- مَنْ هذا اللعين؟

- إنه شخص أكثر براعة منكَ في إطلاق النار.

- قل له أن يتوقّف، وإلا فجّرتُ رأسكَ.

- ستفعل ذلك على أيّ حال، يا ماثياس.

- قل له أن يتوقّف.

ويتشر يتأمّل بيرد: أنتَ عظيم، يا بيرد، يقول في نفسه. ثمّ يصرخ:

- بيرد.

بيرد يتقدّم ببطء، خلفه الساعة العجوز، تشهد على ما يحدث بعيونها المتمثّلة في أوراق اللعب.

- توقّف، يا بيرد.

بيرد لا يتوقّف.

يضغط ماثياس بفوهة المسدّس على عنق ويتشر.

- إذا تقدّم أكثر من ثلاث خطوات، فسأُطلق النار عليكَ، يا فتى.

- بيرد!

يتقدّم بيرد ثلاث خطوات، ثمّ يتوقّف. كان على مسافة عشرين مترًا من الاثنَيْن. يتسمّر في مكانه.

يقول ويتشر في نفسه: يا لها من حكاية! ثمّ يصرخ في الريح:

- اترك الأمر، يا بيرد، لقد خسرنا اللعبة، ففي يده الأوراق الرابحة.

صمت.

- أربعة أوراق (Q) وورقة (K) ديناري.

عندئذٍ يشرع بيرد ذراعَيْه، يلتفتُ إلى الوراء، يرفرف معطفه مع الريح.

يرمي أربعة رصاصات سريعة نحو الساعة العجوز، فيصيب الأوراق:

Q Q Q Q

يصوب ماثيا مسدّسه نحو بيرد، ويفتح النار.

يطلق رصاصتَيْن في ظهره.

بيرد يهوي، وفي الأثناء، يُطلق الرصاصة الخامسة.

يصيب ورقة (K).

تصدر الساعة العجوز صوتًا ما.

من أحد نافذات الصالون، جولي دولفن توحّد خطّ النَّظَر بين المهداف والرجل، وتقول: الوداع، يا أخي، ثمّ تضغط على عقرب البندقية.

يتفجّر رأس ماثياس، يتناثر دمه ودماغه في الأنحاء.

يبدأ الهنديّ في الصالون بالغناء، بصوت خفيض، يفتح قبضة يَدَه، فيتساقط منها تراب محمّل بالذَّهَب.

تُتكْتِكُ الساعة الفضّيّة، فوق الطاولة.

ترتجف عقارب العجوز، ثمّ تتحرّك.

١٢ و٣٨ دقيقة.

كان ويتشر واقفًا وملطّخًا بالدم. كم أنا مُتعَبٌ! يقول في نفسه.

في الصمت المطبق، تهتزّ الساعة العجوز، يصدر عنها صوت كأنه هدير رعد، تحت الأرض.

سكاّن كلوزينغ تاون كلهم يُحدِّقون فيها.

هيا، أيتها العجوز. يقول ويتشر.

صمت.

ثمّ يحدث شيء كالانفجار.

تتفتّق الساعة العجوز.

ينبثق منها ماء نحو السماء. ماء يلمع تحت ضوء النهار، نهر لامع يجري في الهواء.

ماء وذَهَب.

يرفع سكّان كلوزينغ تاون كلهم أنظارَهم إلى الأعلى.

يخفض ويتشر رأسه، ينظر نحو الأرض، ينحني، يلتقط بعض التراب، يتركه يتسرّب من بين أصابعه.

لم تعدْ هناك ريح، يقول في نفسه.

يغمض بيرد عينَيْه.

آخر ما ينطق به هو:

- شكرًا.

بذراعَيْن متشابكَتَيْن دفنوا بيرد، وكانت يداه تلامسان المسدّسَيْن اللامعَيْن اللذَيْن دُفنا معه أيضًا. حمل الكثير من سكّان البلدة تابوته حتّى قمّة التّلّ، وكانوا يفكّرون في أنفسهم أنه لَشَرَف عظيم أن يقولَ أحدهم، ذات يوم : لقد رافقتُ جثمان بيرد، في ذلك اليوم، في رحلته إلى العالم الآخر. حفروا له قبرًا عريضًا وعميقًا، ووضعوا حجرًا أسود شاهدة للقبر، كتبوا اسمه عليها. أنزلوا التابوتَ في القبر، رفعوا قبّعاتهم إجلالًا له، ثمّ وجّهوا أنظارهم إلى الراهب، فقال الراهب إنه لم يُصَلِّ - من قبل - على قبر مقاتل سفّاح، لذا فهو لا يعرف ماذا يقول بحقّه. فسأل الحاضرين إذا ما كان الرجل قد أنجز عملًا صالحًا في حياته؟ سألهم إذا ما كان أحدهم يذكر شيئًا من ذلك، حتّى يستلهمَ منه خطبتَه الجنائزية؟ حينئذٍ تقدّم القاضي، وكانت قد أصابتْه رصاصة في عموده الفقري، ولكنه لم يأبه للأمر، وقال

إن بيرد أصاب أربعة أوراق (Q) وورقة (K) على مسافة ثلاثين مترًا، دون أن يسرفَ برصاصة واحدة. سأل إن كان هذا كافيًا. قال الراهب إن هذا لا يكفي. فُتِحَ نقاش إثر ذلك، وجعل كل منهم ينبش في ذاكرته بحثًا عن عمل صالح، قام به بيرد، عمل واحد فقط أنجزه في حياته. كان الأمر مثيرًا للضحك، لكنهم لم يتذكّروا سوى أعماله المشينة. أخيرًا، لم يجدوا عملًا جيّدًا قام به سوى دراسته للغة الفرنسية، وكان لا يبدو على ذلك القدر من الأهمّيّة، فسألوا الراهب إذا كان هذا كافيًا. فقال الراهب إن الحديث عن شيء كهذا أشبه بمحاولة صيد أسماك السلمون المرقّط في قدح ويسكي. تقدّم القاضي - عندئذٍ - وصوّب مسدّسه إلى رأس الراهب، وقال:

- اصطدْ، إذنْ.

وهكذا تحدّث الراهب عن الكثير من الأشياء الجليلة التي تساعد في غفران الذنوب المقترفة في الحياة، بفضل دراسة اللغات. وكان أداؤه لا بأس به. آمين، قال الجميع بعد أن انتهى الراهب من حديثه، وكانوا قانعين بما تحدّث به. حثوا التراب على التابوت، ثمّ عادوا إلى منازلهم.

ثمّ أرسلوا في طَلَب ماريانشي، بالمال الذي عثروا عليه في جيب بيرد، ورافقوه حتّى قمّة التّلّ، ثمّ سألوه: كم أغنيّة تغنّي بهذا المبلغ؟ فقال: ألف وثلاثمائة وخمسين أغنيّة. سلّموه المال، وطَلَبُوا منه أن يبدأ بالغناء، وليسدِّد دينه على مهل، فبيرد ليس على عجلة من أمره. فتناول هو غيتاره، وجعل يغنّي. كان يؤدّي أغانٍ تتحدّث كلها عن سوء الطالع، والغريب أن الناس كانت مبتهجة لسماعها. واصل الغناء لستّ ساعات، حتّى وَصَلَ أسماعه صوت الرصاص في البلدة، فأدرك أنهم ملُّوا من غنائه، ركب - عندئذٍ - بغله، ولاذ بالفرار. إلا أنه كان ماريانشي أمينًا، لم يكفّ عن الغناء حتّى اختفى في الأفق، وواصل الغناء لأيّام، وأشهر وسنين. لذلك فإن

الناس - في تلك البلدة - كانوا يرفعون كؤوسهم، كلّما سمعوا مارياتشي يغنّي، ويقولون: نخبكَ، يا بيرد.

لم تعدْ هناك ريح، وكانت الغروبات تتوالى، صافية حمراء، في أفق بلدة كلوزينغ تاون. يضع ويتشر قبّعته على رأسه، يركب حصانه، ينظر في البعيد أمامه، ثمّ يلتفت إلى الأختَيْن دولفن: كانتا واقفَتَيْن أمامه، بشعر أبيض مصفّف، لا تشوبه شائبة.

الصمت يسود المكان.

يُخفض الحصانُ رأسَه مرّتَيْن، ثمّ يرفع بوزَه، ويشمّ الهواء.

كانت عينا جولي دولفن مُبلَّلتَيْن بالدموع، وقد زمّتْ شَفَتَيْهَا. تُومِئ له بالتحية سريعًا، بالكاد يرى يَدَهَا، لكنها تبدو له حركة رائعة.

- انتبهْ لنفسكَ، واشحنْ مسدّسكَ بالرصاص، يا فتى - تقول ميليسا دولفن - أما الباقي، فهراء، لا فائدة منه.

يتبسم ويتشر.

- الحياة ليست مبارزة - يقول.

تُبحلق ميليسا دولفن عينَيْهَا.

- بل هي كذلك، أيها الأحمق.

موسيقى.

... انتهى ...

خاتمة

- كلا، الأمر مختلفٌ تمامًا.

- أتظنّ أن الأمر يتعلّق بالخبرة أم ... بالحكمة، إذا ما أردنا استخدام هذا المصطلح؟

- الحكمة؟ ... لا أعرف، أعتقد أنه ... لنقل إن هناك اختلافًا في طريقة استيعاب الألم.

- ماذا تعني؟

- أعني ... حينما يصيبكَ الألم في شبابكَ، يكون خارقًا مثل رصاصة ... تشعر أن أمركَ انتهى ... الألم مثل الرصاص، يرميكَ عاليًا في الهواء، كما لو كان انفجارًا ما ... يبدو لكَ أن لا شفاء منه، لا يمكنكَ الشفاء، مطلقًا ... لكن المصيبة هو أنكَ غافل، هذا هو جوهر المسألة، أنتَ في شبابكَ غافل عن الألم، فإذا به يفاجئكَ، وما يوجعكَ فِعْلًا هي الدهشة، أتفهم، الدهشة؟

- أجل.

- حينما تكبر ... أقصد مع مرور السنين ... فإن مسألة الدهشة تختفي، فلا يعود الألم يأخذكَ على حين غفلة ... قد تشعر به، هذا لا بد منه،

ولكنه شيء أشبه بجهد يتراكم فوق بعضه، ولا شيء يتفجّر، أتفهم؟ إنه شيء أشبه بإضافة بعض الوزن إلى الحمل الذي على كتفكَ ... أو كالسير بحذاء مليء بالوحل وثقيل. فتتوقّف فجأةً، وينتهي كل شيء. ولكنْ، ليس بوسعكَ أن تثبَ في الهواء، كما كنتَ تفعل في شبابكَ، ليس بوسعكَ القيام بذلك. لهذا يصبح بوسعكَ أن تواصلَ الملاكمة ما حييتَ، إذا ما أحببتَ ذلك. فهي لا تُسبِّب لكَ الأذى، برأيي أنها لا تُسبِّب لكَ أيّ أذى، بعد مرور بعض الوقت. ثمّ يأتي يوم تشعر فيه بالتعب، فتعتزلها. هذا كل ما في الأمر.

- وهل اعتزلتَ الملاكمة، لأنكَ شعرتَ بالتعب؟

- اعتقدتُ أني كنتُ أشعر بالتعب، هذا كل ما في الأمر.

- التعب من اللكمات؟

- لا ... لا أزال حتّى الآن أحبّ اللكمات، أن أَلكمَ وأُلكَم، أحبّ الملاكمة ... قد لا أحبّ الخسارة، طبيعي، ولكنْ، كان بوسعي أن أواصل الفوز لبعض الوقت ... لا أعرف ... في لحظة ما، اعتراني شعور أني لم أعدْ راغبًا في البقاء في الحلبة ... الجميع يحدِّق فيكَ وأنتَ ملاكم شهير، لا مفرّ من ذلك، فأنتَ أمام أنظار الجميع، حتّى إذا ما تبوّلتَ على نفسكَ، فهم يرونكَ، ليس بوسعكَ القيام بشيء لا يرونه، وقد شعرتُ بالتعب من ذلك ... أظنّ أن رغبة مفاجئة اعترتني - وبقوّة - في أن أكونَ في مكانٍ ما، لا يراني فيه أحد، وهكذا اعتزلتُ الملاكمة. هذا كل ما في الأمر.

- ولكن اعتزالكَ كان مُدوّيًا، وكان في خضمّ النزال على بطولة العالم ...

- أجل، في الجولة الرابعة، ضدّ الملاكم بوتلر ...

- نعم، لقد أحدثتَ جلبة كبيرة، والصور التي تؤرّخه اشتهرت جدًّا، في خضمّ النزال، وإذا بكَ تتوقّف فجأةً عن الملاكمة، تستدير، ثمّ ...

- أكره تلك الصور، تمثّلني كأني أحمق، في حين كان قصدي مغايرًا للانطباع العام... في الحقيقة، ليس بوسعكَ أن تختارَ اللحظات التي تُدركُ فيها القراراتِ الجوهريةَ في حياتكَ، أما أنا، فقد أدركتُ ذلك بينما كنتُ في الحلبة، في غمرة ذلك النزال، فجأةً وإذا الأمور بدتْ لي جلية بشكل بهيّ، وكانت واضحة للعيان حتّى إني لم أرَ بدًّا من النزول من الحلبة، ولا يعنيني أني كنتُ في اللحظة الحاسمة من النزال، انعدمت أهمّيّته تمامًا.

- لقد دار الحديث عن ذلك التّحدّي شهورًا طويلة ...

- أجل ...

- ... كانت بطولة العالم ...

- أجل، ولكنْ ... أوكي، كانت بطولة العالم، ماذا بوسعي أن أقولَ، كنتُ أعرف ما تعنيه بطولة العالم، لم أكنْ أحمقًا لهذه الدرجة ... لقد كان الوصول إلى بطولة العالم في ذهني منذ اللحظة الأولى التي دخلتُ فيها قاعة الألعاب الرياضية... قد يبدو مضحكًا ما أقول، ولكنْ، لم يكن يعنيني شيئًا من الملاكمة، كان همّي هو الوصول إلى الأعلى، إلى القمّة تمامًا، أن أكون بطلَ العالم. ثمّ تغيّرت الأشياء، ولكنْ، في البداية ... يا إلهي! كم من الطموحات، كم تحلم بأشياء في شبابكَ ... تؤمن بها حقًّا، ولعلّ الناس تكرهكَ لأنكَ متعجرف، أو تبدو كمجنون، أُصيب بداء العَظَمَة، وذلك كله صحيح، ولكنْ، في أعماقكَ ... يا إلهي! كم من القّوة في أعماقكَ، قوّة باهرة، تمثّل الحياة في أبهى صورها، ليس كأولئك الذي يحسبون

ألف حساب، ويُخبّئون أحلامهم في الوسائد، لعلّهم يمارسون أي شيء من أجل هزيمتكَ، تبدر منهم حتّى لكمات غير صحيحة ... أوه، كنتُ لا أُطاقُ، ولكنْ ... لذلك كان مونديني يبغضني، كان يمقتُني طوال الفترة معه ... ولكنْ ... لم أتعلّم الحياة إلا في ذلك الوقت. ثمّ يتملّككَ هذا الإحساس كالمرض الذي لا شفاء منه.

- مونديني، ماذا كان يعني لكَ مونديني؟

- تلك قصّة حزينة.

- أترغب أن تحكيها لنا، يا ليري؟

- لا أعرف. لقد ساءت الأمور، وربّما لم يكن من الممكن إصلاحها.

- لقد افترقتُما بعد نزالكَ مع بوريدا.

- أتذكر ذلك اللقاء، يا دان؟

- بالتأكيد.

- حسنًا، سأخبركَ بشيء ما، حصل قبل الجولة الرابعة، أتذكرها؟

- الأخيرة ...

- أجل، قبل الجولة الأخيرة، هناك في الزاوية، خلال دقيقة الاستراحة، مونديني لم يكنْ هناك، كان قد رحل ...

- لم يكنْ معكَ في الزاوية؟

- لا، لا أقصد هذا، لقد كان هناك، وقام بكل ما عليه فِعْله، الماء،

العلاجات، تلك الحماقات كلها ... لكنه لم يكنْ بالفعل هناك، لم يكنْ موندينـي الـذي أعرفه، لم يكن المعلّم، لقد تخلّى عنّي، أتفهم؟

- لقد قال بوريدا أكثر من مرّة إن موندينـي كان قد دفع له المال، من أجل أن يهزمكَ في ذلك اللقاء.

- دعْ عنكَ ما يقول بوريدا.

- ولكنه ...

- كلام بوريدا لا يساوي شيئًا.

- لقد أُقيم تحقيق في الأمر أيضًا ...

- ترهات. كل ما في الأمر أني قمتُ من المقعد في الزاوية، وكنتُ وحيدًا، هـذا ما يهمّ فِعْلًا.

- لقد كانت إحدى أعنف الجولات التي شاهدتُها في حياتي.

- لا أعرف، لا أذكر منه إلا القليـل، لم يكن ملاكمة حقًّا، كان فيـه كُره وعُنـف، ولم أكـنْ أنا مَـنْ يلاكـم، كان هنـاك شيء ما يدفعني إلى ذلك العُنف ...

- لقد غادر موندينـي قبل نهاية تلك الجولة بعشرين ثانية.

- لم يجدرْ به فِعْل ذلك.

- قال بعد ذلك، إنه لا يحبّ أن يرى تلاميذه يقاسون العنف.

- حماقات. اسمعْني جيّدًا، كان بوسعي أن أواصلَ النزال، كان بوسعي

أن أستمرّ لأيّام على ذلك الحال، كنتُ شابًّا، وكان بوريدا متقدّمًا في السّنّ، اسمعْني جيّدًا، لعلّي لا أذكر كل الجولة، ولكنْ، هناك شيء أذكره جيّدًا، إنه وجه بوريدا، كان يبدو عليه الألم حتّى الأعماق، كان عاجزًا تمامًا، وكان سيسقط قبلي حتمًا، أقسم لكَ. حينما أوقفَ الحَكَمُ المباراة، ورأيتُ المنشفةَ تطير وتسقط على أرضية الحلبة، خلتُها منشفة بوريدا، أقسم لكَ، ظننتُ أنهم رموها من زاويته، وأنهم يُعلنون فوزي أخيرًا، وقد رفعتُ يدي منتشيًا، ظنًّا أنني فزتُ. وإذا بالمنشفة كانت منشفتي. يا للغرابة!

- كانت لكمات بوريدا مُوجِعة، مونديني يعرف ذلك.

- ما كان يجدر بمونديني أن يتخلّى عنّي.

- لماذا فَعَلَ ذلك؟

- أظنّ أن السؤال يجب أن يُوجَّه إليه.

- كان دائمًا يقول إنه فَعَلَ ذلك لإنقاذكَ.

- مِنْ ماذا؟

- كان يقول إن ...

- يُنقذني مِنْ ماذا؟

- كان يقول ...

- دعنا نُغيّر الموضوع، هيا.

- ...

- يا إلهي، لقد مَضَتْ سنين طويلة، وما يزال الموضوع يثير أعصابي ... آسف، يا دان، هل بوسعنا أن نحذفَ هذا الجزء؟ أذلك ممكن؟

- لا تقلقْ بهذا الشأن، ليست هناك مشكلة ... بوسعنا ترتيب المقابلة كيفما شئنا.

- ... المسألة أنني لم أفهمْ قطّ هذه القضية، أقصد أنني فهمتُها أول الأمر، ولكنْ، فيما بعد ... لا أعرف، كلها حماقات.

- بعد ذلك، تحوّلتُ للتدريب تحت أيدي الأخوَيْن باتيستي.

- كان لا بد لي أن أتّخذ مدرّبًا، وكان لدى الأخوَيْن باتيستي ما يدفعهما ليصلا بي حتّى بطولة العالم ...

- هناك إشاعات كثيرة حول الأخوَيْن، بعضهم يدّعي أن ...

- هناك شيء لا تعرفه عن مونديني، دعني أخبركَ به، ولم أقلْهُ لأحد من قبل، ولكني أريد أن أبوحَ به إليكَ، في هذه المقابلة ... حسنًا، بعد أربع سنوات من ذلك اللقاء ... لم نكنْ قد التقينا قبل ذلك، ولا تحدّثْنا قطّ ... وكنتُ أنا حينها مع الأخوَيْن باتيستي، كنتُ أتهيّأ للنزال مع ميلّر، وكان الفائز منّا سيقابل بوتلر من أجل بطولة العالم، في تلك الفترة بالضبط ... كنتُ أقرأ - ذات يوم- جريدة ما، وكانت فيها مقابلة مع مونديني. ولم تكنْ تلك المرّة الأولى التي أقرأ فيها شيئًا عنه، كنتُ أقرأ - أحيانًا - بعض المقابلات معه، وكان دائمًا ما يقدح بي، حتّى ولو بجملة واحدة، لا يغفل عن ذلك قطّ، كل مرّة. كنتُ أقرأ، حتّى وَصَلْتُ إلى سؤال الصُّحُفي لموندينى، فيما إذا كانت لديّ حظوظ للفوز في نزالي ضدّ ميلّر. فأجاب هو: الآن وقد أصبح تحت جنح الأخوَيْن باتيستي، فمن الطبيعي أن تكونَ

له حظوظ في الفوز. فَطَلَبَ منه الصُّحُفيّ أن يُكرّرَ ما قال، لأنه لم يفهمْ قصده جيّدًا. فقال مونديني في الحوار: إن ليري لوير ليس سوى بالون منفوخ، كان يجيد الملاكمة في شبابه، أما الآن، فقد أفسده المال، إنه الآن ألعوبة بيد الأخوَيْن باتيستي، وسوف يصلان به حيث يشاءان، حتّى لبطولة العالم. ثمّ أضاف بعض الحماقات عن سيّارتي وعن مصاحبتي للنساء، لا أعرف، أظنّ أنه لا يعرف شيئًا عنّي، فنحن لم نلتقِ منذ سنين، من أين له أن يعرفَ عن مصاحبتي للنساء ... اللعنة، لقد اتّخذتُهُ معلّمًا لي، وكان يعرف جيّدًا أنني عظيم في الملاكمة، ويعرف جيّدًا طبيعتي، لم يجدرْ به أن ينسى ذلك كله فقط، بسبب صورة في صحيفة، أو بسبب مقالة، كَتَبَهَا أحدُهم، لقد رأى نزالاتي بنفسه، وكان يعرف أن لا حاجة لي لأيّ أحد، لا باتيستي ولا غيرهم، إنه خبير في الملاكمة، ولكن ذلك كله لم يكن سوى خبث منه، وحقد عليّ. وهكذا قمتُ بشيء غاية في الحماقة، توجّهتُ مباشرة إلى قاعته الرياضية، دنوتُ منه قبل أن يوقفَني أحد، وقلتُ له "اذهبْ إلى الجحيم، يا موندينى"، ثمّ جعلتُ أضربه، أعرف أنه أمرٌ قبيح، ولكنْ، هو أيضًا كان ملاكمًا، وكنتُ أعرف أن بوسعه الدفاع عن نفسه، وقد فَعَلَ ذلك، وكنتُ أنا أُسدِّد اللكمات من دون قفّازات، ضربتُهُ حتّى هوى أرضًا، ثمّ قلتُ له مجدّدًا "اذهبْ إلى الجحيم"، وكانت تلك آخر صورة في ذهني عنه، كان طريحَ الأرض، مَسَحَ وجهَهُ بيده، ثمّ نَظَرَ إليها، كانت ملطّخة بالدماء، كانت تلك آخر مرّة رأيتُه فيها. ولم أقرأ بعدها مقابلاته الصُّحُفية، لم أسعَ قطّ للاطّلاع على أخباره. فِعْل قبيح، أليس كذلك؟

- ألم تتّصلْ به بعد ذلك؟

- اللعنة، لقد كان الشخص الذي اتّخذتُهُ معلّمًا لي، هل كان لكَ معلّم يومًا ما، يا دان؟

- أنا؟

- نعم، أنتَ.

- ربّما ... أجل، ربّما، أحدٌ ما ...

- أظنّه من الصعب أن تصبح معلّمًا، لا أحد يجيد هذا الدور، أتعرف؟

- ربّما.

- لا بد أنه أمرٌ صعبٌ جدًّا.

- ...

- ...

- هل كان لكَ معلّم آخر؟

- لا. بعد مونديني لم يكنْ لي معلّم آخر. كانت رفقة الأخوَيْن باتيستي لي في زاوية الحلبة كرفقة مصلّح أنابيب الماء، أو كرفقة موظّف التأمين، لا يختلفان عن شيء كهذا. لقد كنتُ ألاكم وحيدًا طوال تلك السنين، وحيدًا.

- ألم تتعلّم منهم شيئًا؟

- ربّما تعلّمتُ طهو السباغيتي، كان هذا الشيء الوحيد.

- وماذا عن نزالكَ مع ميلر؟

- ميلر؟

- أجل.

- ميلّر رجل قاسى الجوع، قد يروق لموندينى. لا أعرف من أي ضاحية

فقيرة أتى، فقد كان يتحدّث طوال الوقت عن الطريق الصعبة التي سلكها، لذلك فهو لا يخشى شيئًا. كل ما يقوله ترهات، فالملاكمون كلهم يخافون.

- كلهم؟

- أجل، الكل ...

- وهل كنتَ تخاف أنتَ أيضًا؟

- أنا ... لقد كان أمرًا غريبًا ... في البداية لا، لم يكن لديّ أي خوف، ولكنْ، تغيّرت الأمور فيما بعد ... أتعرف، سأخبركَ بشيء لتفهمَ الأمر ... قبل كل لقاء تصعد على الحلبة، وفي لحظات ما قبل النزال يكون خصمكَ أمامكَ، في الزاوية الأخرى، فتبدأ بالقفز، تَلكمُ بعض اللكمات في الهواء، ذلك كله قبل النزال، أتفهم؟ الكثير من المدرّبين، في تلك اللحظات، يكونون أمام الملاكم، يقفون بينه وبين خصمه لكيلا يراه، يجب ألا يراه، ألا يملكَ الوقت للتفكير بالخوف، أتفهم؟ حسنًا، كان موندِيني حينها يتصرّف على العكس من ذلك تمامًا. كان يقف إلى جانبي، ينظر إلى الخصم، كما لو كان ينظر إلى منظر طبيعي من شرفة بيته. وكان هادئًا، يُعلّق ويضحك. في نزالي مع سوبيلو، مثلًا ... كان سوبيلو حليقَ الرأس، وفي قمّة رأسه وَشْمٌ ... أذكر أن موندِيني كان يكرّر هذه الجملة: قل لي، يا ليري، هل تغوّط أحدهم على رأس هذا؟ فكنتُ أقول له إنه وَشْمٌ، فيجيب: ما هذا الذي تقول؟ ثمّ يبحث عن النظّارات ليُمعن النَّظَر، ولكنه لا يعثر عليها ... لا أظنّ أنكَ تفكّر بالخوف في حالة كتلك. ثمّ تغيّرت الأمور، وكان الملاكمون مُختلفين أيضًا ... كانوا مُخيفين فِعْلًا ... كان ميلّر قد قَتَلَ اثنَيْن قبل أن ألتقي به، لعلّه كان سوء حظّهما، ولكنهما ماتا ... تلك كانت نزالات عنيفة،

وطالما أخبرني مونديني بذلك، كانت اللكمات مختلفة، فيها شيء غريب قد يُودي بحياتكَ ... يا للغرابة! ... الموت ... أتعرف ماذا قال لي بيرسون ذات مرّة؟ بيرسون العجوز، أتذكره؟ بطل العالم في الوزن المتوسط.

- بيل بيرسون؟

- نعم، هو. لقد أخبرني بشيء ذكي للغاية. قال لي: عليكَ أن تخشى خصمكَ، فهكذا لن يكونَ لديكَ الوقت للخوف من الموت. هذا ما قاله لي.

- جميل.

- أجل، جميل. وكان محقًّا فيما قال. وهكذا تعلّمتُ أن أخافَ خصمي. كان الخوف يشغل عقلي، فتقدّم أفضل ما لديكَ، كانت طريقة ناجحة.

- وهل كان ميلّر مرعبًا لهذه الدرجة؟

- كان عظيمًا، لكنه بطيء. لا يمكنكَ أن تكون بطيئًا في الملاكمة. وكان هو طبيعيًا حتّى الجولة الرابعة أو الخامسة، ثمّ تثقل ساقاه، ويصبح بطيئًا بالكامل. كانت الصعوبة في النزال معه تكمن في الصمود في هذه الجولات، تصبح بعدها المهمّة سهلة، إذا كانت سهلة هي الكلمة الملائمة.

- لقد سَقَطَ أرضًا أربع مرّات، قبل أن يُوقِفَه الحَكَم.

- أجل، كان قوي القلب، وكريم النَّفْس ... لعلّ الجوع يلعب دورًا في ذلك، لقد قاسى الفقر ... كان ملاكمًا رائعًا ... أعني أنه الشخص الملائم تمامًا للملاكمة، لقد قاسى الجوع، وكان عنيفًا وشرّيرًا و... طفوليًا بعض الشيء ... حَصَلَ ذات مرّة، قبل سنين مَضَتْ، أن دخلتُ في بار

ما، فوجدتُهُ هناك، كان جالسًا يحتسي الشراب، يرتدي ثيابًا أنيقة: سترة فضّيّة وربطة عنق زرقاء، شيء من هذا، وكان مُضحِكًا فِعْلًا، لكنْ، كان يظنّ نفسه أنيقًا جدًّا ... دعاني إلى الشراب، ثمّ جعل يتحدّث طويلًا، كان يقول إنه يفكّر بالعودة للملاكمة، لقد قُدِّم له عرض جيّد من كازينو رينو. كان مفتول العضلات، رغم أنه يتحدّث ببطء، كان يجرّ الكلام جرًّا، لكنه مشدود الجسم مفتول العضلات، ولكنه يقول إن مشكلته تكمن في ذراعه اليسرى، كانت ذراعه اليسرى هشّة، قد تنكسر ببساطة، فقلتُ له إن بوسعه الاستغناء عنها، إن الذراع اليمنى تكفي، وإني ما أزال أذكر لكماته اليمينية، أذكرها كلّما نهضتُ من السرير صباحًا ... فكان هو سعيدًا بذلك، يضحك ويشرب، ثمّ يضحك ... وفي لحظة ما، قال لي شيئًا، بقي عالقًا في ذهني، قال لي إنه، قبل أيّ لقاء، كان يلمس رأس طفلٍ بيده، كأن يداعبه مثلًا، شيء من هذا، وكان ذلك يجلب له الحظّ، ثمّ قال لي إنه في ذلك اليوم، يوم نزاله معي، كان قد خرج من غرفة تغيير الملابس، وتوجّه كالعادة نحو الحلبة مارًّا وسط الجماهير، وهو يبحث طوال الوقت عن طفل، ليداعبَ رأسَه، لكنه لم يرَ أيّ طفل هناك، وحينما وَصَلَ إلى الحلبة، وكان الجميع يصفِّق ويهتف، كان هو لا يفكّر سوى بذلك، أي أنه لم يجدْ طفلًا، ليداعبَ رأسه، وكان هناك، في الحلبة، قبل دقائق من بدء النزال وهو يبحث عن طفل في الصفوف الأمامية. قال كان هناك البالغون فقط، وكبار السّنّ. قال إنه أمر سيّئ جدًّا حينما تبحث عن طفلٍ، ولا تعثر عليه. هذا ما قاله بالضبط. أمر سيّئ أن تبحثَ عن طفلٍ، فلا تعثر عليه.

- وقد عاد إلى الملاكمة فِعْلًا، خاض نزالًا من عشر جولات مع برادفورد، كان مشهدًا عميق الحزن.

- أنتم الجالسون أمام الحلبة تسمّونه حزينًا ... أنتُم ... ولكنه ليس حزينًا ... ما شأن الحزن بذلك؟! ... ليس الأمر هكذا، أتعرف، يا دان؟ ليس حزينًا، بل هو جميل ... لعلّ مظهرهما وهما يلاكمان يثيرُ الشفقة، وأنتَ تذكرهما وقد كانا أرشقَ وأسرعَ، فتقول إنه كان حزينًا، ولكنْ ... إذا ما فكّرتَ في الأمر ... ما كانا يحاولان فِعْله هو فقط أن يسرقا بعض الحظّ من هذه الدنيا ... والحقّ معهما، إنهما أشبه بشخصَيْن يحبّان بعضهما بعد أن عاشا معًا سنين طويلة، لنفرض أنهما يعيشان معًا منذ عشرين عامًا، ويناماان معًا، يلتقيان كل مساء على السرير، ولعلّهما يُطفِئان الأضواء، وقد لا يكونان عاريَيْن تمامًا، ولكنهما لا يزالان يمارسان الحبّ في بعض الليالي، فهل تسمّي هذا حزنًا؟ فقط لأنها عجوزان؟ أما أنا، فيبدو لي الأمر عذبًا، لو كنتَ ملاكمًا، لبدا لكَ الأمر عذبًا، وقد رأيتُ ذلك النزال ... نزال ميلّر، يا إلهي! كم كان بدينًا ... ولكني قلتُ في نفسي: حسنًا، ليكنْ ذلك، ولكن اللكمات كانت حقيقية، فليس لديهما ما يخجلان منه، وإذا كانت لديهما الرغبة في فِعْل ذلك، فخيرًا فَعَلا، أرجو أنهم دفعوا لهما ما يستحقّان ...

- ولكنْ، أنتَ لم تعدْ إلى الملاكمة قطّ.

- كلا.

- ألم تعتريكَ - يومًا ما - رغبة في العودة؟

- يا إلهي! ... ليس بوسعي أن أنفيَ ذلك ... ولكنْ ... كلا، لم أفكّرْ جدّيًّا في العودة إلى الملاكمة.

- بعد انتصاركَ على ميلّر، وبعد خمس سنين من ممارسة الملاكمة بمِهَنِيّة، حقّقتَ فيها رَقْمًا قياسيًّا بفوزكَ في ٣٥ نزالًا، مقابل خسارة

واحدة فقط، تأهّلتَ لمنافسة بوتلر على بطولة كأس العالم، فماذا بقي في ذاكرتكَ من هذا كله؟

- يا لها من أوقات رائعة: كنتُ آكل جيّدًا، وكانت الساعات تمرّ على عَجَل. أتعرف مَنْ قال هذا؟ إنه درينك، مساعد مونديني ... لقد مارس الملاكمة لسَنَتَيْن، سَنَتَيْن فقط، حين كان شابًّا، وبقيت تلك السَّنَتَيْن - بالنسبة له - كأنها الجنّة ... أظنّهم أشبعوه ضربًا، في النزالات كلهم، ولكنه كان شابًّا، و... لا أعرف، على أي حال كانت تلك الفترة الوحيدة التي تستحقّ الذِّكْر في حياته، لذلك كان الجميع يسأله: كيف كانت تلك السَّنَتَان؟ فيجيب: يا لها من أوقات رائعة: كنتُ آكل جيّدًا، وكانت الساعات تمرّ على عجل.

يا له من شخص عجيب.

- دائمًا ما كنتَ تقول إنكَ شديد الإعجاب ببوتلر. أكنتَ خائفًا منه، قبل أن تنازِلَه للمرّة الأولى، في ڤينچيناتي؟

- كان بوتلر ملاكمًا ذكيًّا وفريدًا من نوعه. قد يخطر لكَ أنه يليق به أن يمارسَ لعبة البيلياردو أو شيئًا من ذلك ... شيء يحتاج لأعصابٍ باردة، لدقّةٍ وهدوء ... لا للعنف ... أتعرف ماذا كان يقول عنه مونديني، حينما كنّا نشاهد نزالاته؟ يقول: انظرْ وتعلّمْ، إنه يخطّط برأسه، أما اللكمات، فهي ليست سوى نتاج لذلك. وكنتُ أنا أنظر إليه، وأتعلّم منه. أذكر أن الكثيرين كانوا يقولون إن ملاكمته تبعث على الضجر، كانوا يدّعون أن النزال معه يثير الضجر، كالنَّظَر لشخص ما يقرأ كتابًا، هكذا كانوا يقولون. ولكن الحقيقة هي أنه كان يُلقِّن الآخرين الدروسَ، كلّ نزال له هو دَرْسٌ في الملاكمة. كان هو الشخص الوحيد الأقوى منّي.

- ذلك اليوم في چينچيناتي، كدتَ تنزع عنه لقبَ بطولة كأس العالم، بعد أن نلتَ منه قبل نهاية الجولة باثنَينْ وثلاثين ثانية.

- كانت الجولة الأحلى في حياتي، كانت الأنفاس كلها مُعلّقة، يا للروعة!

- قال بوتلر إنه - وفي لحظة ما - ودّ لو كان بوسعه النزول عن الحلبة، والجلوس للاستمتاع بالمشهد.

- كان بوتلر رجلاً نبيلاً فِعْلاً. أتعرف؟ لقد التقينا العام الماضي، في الماديسون، قبل نزال كوستنر ضدّ أفورياس، التقينا أنا وهو وأبطال ملاكمة قدماء، كان لقاء أبطال الملاكمة السابقين المعتاد، كما تعرف. وكنّا هناك، في الحلبة، والكلّ يُصفّق، واستمرّ ذلك طويلاً حتّى ظننتُه لن ينتهي، وفي لحظة ما التفتَ بوتلر نحوي، وكان واقفًا إلى جانبي، ثمّ قال لي: أتعرف ما هو أكثر ما يُرعِبُ الملاكمين؟ فقلتُ له: لا، لا أعرف ... كنتُ أظنّها دعابة، لذلك قلتُ لا، لا أعرف ... ولكنه كان جادًّا. فقال لي: أن يموتوا، وليس بحوزتهم مالٌ لمراسم الجنازة. لم يكنْ يمزح قطّ، كان جادًّا للغاية. أن يموتوا، وليس بحوزتهم مالٌ لمراسم الجنازة. ثمّ أدار وجه للناحية الأُخرى، ولم يتفوّه بعد بكلمة. لعلّ الأمر يبدو لكَ تافهًا، لكنني فكّرتُ طويلاً بذلك، وكانت تلك الحقيقة، أتعرف؟ كلّما فكّرتُ بالملاكمين الذين تحدّثتُ إليهم، تذكّرتُ أن هذه القضية كانت دائمًا ما تشغل أذهانهم، أي قضية دَفْنهم ومراسم الجنازة ... قد تبدو لكَ حماقات، ولكنْ، هذه هي الحقيقة، كما قال بوتلر تمامًا ... وطالما فكّرتُ في الأمر، ذلك أنني لم أفكّر قطّ بهذه القضية، لم يمرّ بذهني أبدًا كيف ستكون مراسم جنازتي، لا أعرف ... لم يكنْ ذلك من صنف الأفكار التي تدور في ذهني ... أتفهم؟ أنا لا ... حتّى

هذا يبدو أن لا شأن لي به، كما لو أن الحلبة وذلك كله، لم يكنْ عالمي ... أظنّ أنها كانت الفكرة التي خَطَرَتْ في ذهن مونديني، أنني لا شأن لي بذلك العالم، أي بعالم الملاكمة، لا يهمّ إن كانت لديّ المهارة أو أيّ شيء من ذلك، أنا بعيد عن ذلك كله، هذا كل ما في الأمر، أعتقد أن هذا هو السبب الذي لم يجعلْني موضع ثقة مونديني، لم يثقْ بي أبدًا، وأظنّ أن هذا هو السبب، كان واثقًا بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان، أما أنا، فلم أغيّر رأيي أبدًا ... أبدًا.

- بعد ثمانية أشهر من نزالكَ في چينچيناتي، منحتَ بوتلر إمكانية الفوز عليكَ، وهكذا كانت تلك خسارتكَ الثانية في مسيرتكَ كلها.

- بالضبط.

- أخبرني الكثيرون أنكَ كنتَ على أتمّ الاستعداد لذلك اللقاء، لكن أحدهم تحدّث عن اتّفاق مُسبَق، قيل إن الأخوَيْن باتيستي حدّدا الجولة الثالثة كنهاية للنزال، وكان هناك كَمّ هائل من المال ... قيل إنهم أجبروكَ على الخسارة ...

- لا أعرف ... كان كل شيء غريبًا في ذلك الوقت ... الأخوان لم يطلبا منّي شيئًا، أقسم لكَ ... لم يقولا لي شيئًا قطّ، ولكنْ ... لا أدري؟ كان كما لو أننا خطّطنا، في أعماقنا، واتّفقنا على الشيء الصحيح، أي أن نقرّر مَنْ هو الأقوى ... أعتقد أنني أنا أيضًا كنتُ أرغب بذلك الشيء، ولم تكنْ مسألة أموال، لم يكن المال مهمًا بالنسبة لي، ولكنْ ... كان يبدو الشيء الصحيح الذي عليّ فِعْله، لا أدري؟ كان يجب أن تجري الأمور بهذه الصورة. وهكذا فقد صعدتُ إلى الحلبة، ولم أكنْ أعرف ما كنتُ أرغب به ... أظنّ أنني كنتُ أريد أن أمارسَ الملاكمة ... أن أصنعَ مشهدًا ممتعًا ... ولو كان

هو خائفًا، لو أنه فكّر - ولو للحظة واحدة فقط - أنه قد يخسر ... لكان خسر المباراة بلا شك، ولانتهى كل شيء بالنسبة له ... لم أكنْ لأنسحبَ ... فقط إنني ... المسألة أنه صعد إلى الحلبة، وكانت في رأسه فكرة واحدة، فكرة واحدة فقط، دُقّت في رأسه كمسمار، وهي أن يزيحَني عن طريقه. وقد نَجَحَ في ذلك. كان يدرك كل شيء قبلي بلحظات، كان يعرف كيف كنتُ سأتحرّك، أين كنتُ سأتّجه، كما لو كان هو مَنْ يفكّر بلكماتي، قبل أن أفكّر بها أنا. وفي الوقت ذاته، كان يُسدِّد لكماته. وفي لحظة ما، أدركتُ أنني سأخسر ذلك النزال حتمًا، ولكني أخذتُ على نفسي عهدًا، أن أقاومَ حتّى النهاية، لقد أقسمتُ على ذلك، بينما كنتُ جالسًا في الزاوية، وكان باتيستي يثرثر بحماقات، لم أدركْها، ولم أستمعْ لها، ثمّ قلتُ لنفسي: سحقًا، يا ليري، يجب أن تنهيَ هذا النزال بكرامة، حتّى لو كان آخر ما تقوم به. ثمّ دقّ جرس بداية الجولة، كانت لا تزال أمامي أربع جولات حتّى تنتهي المباراة، قرّرتُ أن أضعَ كل قوّتي في ساقي، وأن أقدّم عرض رقص، لم يرَه بوتلر في حياته قطّ. لم أفكّر مطلقًا بتحمُّل اللكمات، بل فكّرتُ بتحاشيها، نعم، تحاشيها. وكنتُ أظنّ أن بوسعي فِعْل ذلك، لأربع جولات. وهكذا جعلتُ أرقص، وأراقص بوتلر معي، وَقَعَ هو في الخدعة لدقيقة واحدة، ربّما أكثر بقليل. ثمّ رأيتُه يتبسم ويهزّ رأسه، اتّخذ موقعه وسط الحلبة، وتركني أقدّم عرض الرقص. كان يُسدِّد لكمات مناورة بين حين وآخر، ولكنه في الحقيقة كان ينتظر اللحظة المناسبة. فجأةً وإذا به يداهمني بالمستقيمة، لم أر قبضته حين انطلقت، شعرتُ فقط بأن ساقَيَّ لا تقويان على حملي، وكيف لي أن أرقصَ بلا ساقَيْن ...

- هل تعرف؟ لقد قال الكثيرون إنها كانت لكمة غير حقيقية، وإنكَ أنتَ مَنْ رمى بنفسه.

- عادة يرى الناس ما يحلو لهم، وقد ظنّوا يومها أنني بعتُ ذلك النزال، إلخ ... ولكنّ اللكمة كانت حقيقية، صَدِّقني ...

- هل بعتَ نزالًا ما، يا ليري؟

- أيّ سؤال هذا، يا دان؟ ... إننا نتحدّث على الهواء ... لا يمكن أن تُوجِّه لي سؤالًا كهذا ...

- كنتُ أتساءل فقط إذا ما حدث - ذات مرّة - وبعتَ نزالًا ما ... لقد مرّ زمن طويل ...

- هيا، يا دان ... أيّ سؤال هذا؟ ... لماذا قد أبيع نزالًا ما؟ ... ما لكَ وهذا الأمر الآن؟ ...

- حسنًا، انسَ الأمر.

- تعرف جيّدًا كيف تجري الأمور، أليس كذلك؟ ثمّ تسألني، أنت بالذات، هذا السؤال ...

- أوكي، اسمعْ، إذنْ، لقد اعتزلتَ الملاكمة و... والآن أنتَ تعيش حياةً مختلفة تمامًا ... أودّ أن أعرفَ إذا ما كنتَ تشتاق للحلبة، للجمهور، لاسمكَ وهو يحتلّ عناوين الصُّحُف، أو لقاعة الألعاب الرياضية، أتشتاق لهذا العالم؟ لهذه الأشياء كلها؟

- إذا ما كنتُ أشتاق لهذا كله؟ ... يا إلهي! ... إنه ... إنه من الصعب عليّ أن أجزمَ بالأمر، ولكنْ، لقد انقضى ذاك الزمن، وكل تلك ... قد لا أفكّر كل يوم بذلك الزمان ... ولكنْ، إذا ما كنتُ أفتقده! طبعًا، أفتقد بعض الأشياء، وأظنّ أنه من العدل أن أشتاقَ لها ... كانت هناك أشياء

عذبة، إن الملاكمة تجعلكَ تقضي أوقاتًا فريدة من نوعها، فليس أروع من أن .... على أي حال، إنها لحظات فريدة، حقًّا ... وقد حدث مرّات عدّة ... يحدث أن أكونَ سعيدًا، لقد مَنَحَتْني الكثيرَ من السعادة، وبطُرُق غريبة أحيانًا، ليس سهلاً شرح ذلك، ولكنْ ... كيف لي أن أقولَ ... كانت ... تجعل منكَ رجلاً سعيدًا، هذا كل ما في الأمر، مثلاً أذكر ذات مرّة، في سان ساباستيانو، لا أذكر الآن مَنْ كنتُ سأنازل، وكنتُ أعاني من زيادة في الوزن، أيقظَني مونديني في الساعة الخامسة فجرًا، وكان الظلام يخيّم على المكان ... ارتديتُ البذلة الرياضية، ووضعتُ المعطفَ، كانت الفكرة أن أقفزَ على الحبل لساعة حتّى أتعرّق كحصان، على أي حال، كان هذا ما نقوم به عادة، إنها الطريقة الأسرع لتخفيف الوزن في وقت قصير ... المشكلة أننا كنّا في الفندق، فقال مونديني إنه لا يودّ أن أقفزَ على الحبل في الغرفة، لأنني كنتُ سأُوقِظُ الجميع، وهكذا نزلنا للبحث عن مكانٍ ما، أي مكان، ولكنْ، لم يكنْ هناك أحدٌ في الفندق، ليُرشدنا، فَفَتَحْنا بعض الأبواب لا على التعيين، وانتهى بنا الحال في صالة كبيرة، كتلك الصالات التي تُستخدَم لحفلات الأعراس، وكانت هناك طاولة ممتدّة جدًّا، ومنصّة صغيرة للأوركسترا، ونوافذ عظيمة تطلّ على المدينة. ما أزال أذكر حتّى الآن أن الكراسي كانت كلها مقلوبة على الطاولة، وعلى المنصّة طقم طبول، غُطّيت بالشراشف، شراشف وردية، تخيّل! أطفأ مونديني النور، وقال لي: ابدأ بالقفز، ولا تتوقّف حتّى تبدأ بتمييز ألوان السّيّارات التي تمرّ في الشارع. ثمّ غادر. فبقيتُ وحيدًا هناك، يلفّني المعطف وغطاء الرأس على رأسي، وبدأتُ بالقفز على الحبل، لا يرافقني سوى جلبة قَدَمَي على الأرضية الخشبية، وغطاء الرأس على رأسي، وعينَيّ اللتَيْن تحدّقان أمامي و... الحَرّ الذي بدأتُ أشعر به، ثمّ أقبل الصباح - شيئًا فشيئًا - من

النوافذ العظيمة، ولكنه أقبل ببطء ورقّة، يا إلهي، كان كما لو أنكَ ... لا أعرف، كان غاية في الروعة، أذكر أني كنتُ أقفز، وتنتظم أفكاري على وقع قَدَمَيّ، وما كنتُ أفكّر به هو أنني لا أُهزَم، كنتُ أشعر أني بأمان، هذا بالضبط ما كنتُ أشعر به، أنني بأمان، كنتُ أقفز على الحبل، وأفكّر بأني بأمان ... دون أي سبب.

- ...

- أظنّ أن هذا تمامًا هو الشعور بالسعادة.

- أظنّكَ محقّ.

- أظنّ ذلك.

- كيف هي حياتكَ الآن، ليري؟

- حياتي؟

- نعم، أعني كيف تمضي حياتكَ؟

- إنه سؤال شخصي، يا دان، هذا سؤال لا يُطرَح في الراديو.

- في الحقيقة، كانت رغبة شخصية، لأعرف كيف تمضي حياتكَ الآن ...

- حسنًا، ولكنْ، عليكَ أن تُوقِفَ التسجيل، فلا شأن للمستمعين بذلك ...

- لعلّ المستمعين أيضًا يودّون أن يعرفوا ...

- هيا، يا دان، لا تتفوّه بالحماقات، أوقِف التسجيل ...

- أوكي، أوكي ...

- ستُشغّله بعد أن ننتهي، أليس كذلك؟

- طبعًا، إذا كنتَ ترغب ...

أطفأ غولد الأضواء في الحمّام، رَفَعَ رأسه نحو الساعة، كانت الساعة السابعة إلا عشر دقائق. فَتَحَ خزانة الملابس، نَزَعَ قميص العمل الأبيض، وعلّقه على الشمّاعة البلاستيكية. التقطَ من على الطاولة بطاقة، كُتب عليها شكرًا، ووَضَعَهَا على رفّ عالٍ. ثمّ نَظَرَ إلى الآنية الزجاجية الصفراء التي كان فيها البقشيش. لقد اتّبع نظامًا، يمكنه من معرفة مقدار النقود قبل أن يحصيها: كان النظام يجمع عدّة معطيات، من بينها الطقس وأيّام الأسبوع، وكذلك نسبة الأطفال الذين يستخدمون المرحاض. فجعل يتبع نظامه في الحساب هذه المرّة أيضًا، حتّى وَصَلَ إلى المبلغ المفترَض. أفرغ الآنية الزجاجية على الطاولة، وجعل يحسب المال. عادة ما تكون نسبة خطئه في التقدير هي ١٨ بالمائة. في ذلك اليوم، كاد أن يُقدّر المبلغ، وكانت نسبة الخطأ ٧ بالمائة فقط. كان يبدي تحسّنًا ملحوظًا في التقدير. جَمَعَ العملات النقدية، ووَضَعَهَا في كيس نايلون، أقفله، ووَضَعَهُ في حافظة الورق. ألقى نظرة من حوله، اطمأنّ بأن كل شيء على ما يرام، ثمّ تناول المعطف من خزانة الملابس، وارتداه. وكان في خزانة الملابس زوج من الأحذية المطّاطية، كتاب الأطلس الجغرافي، وبعض الأشياء الأخرى. وكانت هناك ثلاث صور معلّقة في باب الخزانة: صورة والت ديزني، وصورة لأيفا براون. ثمّ كانت هناك صورة أخرى.

أغلق غولد الخزانة، دَفَعَ الكرسي تحت الطاولة، تناول حافظة الأوراق، واتّجه نحو الباب، التفتَ مرّة أخرى، ألقى نظرة أخيرة، ثمّ أطفأ النور. خرج، أغلق الباب، وصَعَدَ السّلّم. كان السوبر ماركت، الواقع فوق المراحيض،

يُغلِق أبوابَه. كانت الصناديق شبه فارغة، والعاملون يدفعون سِرْبًا طويلاً من عربات التّسوّق. تَرَكَ المفاتيح عند الحارس بارت، في غرفة الحراسة.

- هل كل شيء على ما يرام، يا غولد؟

- على أفضل ما يرام.

- اعتنِ بنفسكَ.

- إلى اللقاء.

خَرَجَ من السوبر ماركت. كان الظلام قد خيّم على المدينة، ورياح باردة تهبّ في الطُّرُقات. لكنها كانت رياح نظيفة، أشبه بزجاج نظيف. غطّى رأسه بقبّعة المعطف، واجتاز الشارع. كان ديزل وبوميرينغ ينتظرانه، مُتّكئِيْن على حاوية النفايات.

- كيف كان الخراء اليوم؟

- بكمّيّات جيّدة.

- إنه الموسم، فالتّغوّط في الشتاء مُريحٌ جدًّا - "لم" يقل بوميرينغ.

دسّوا أيديهم في جيوبهم، فقد كانوا يكرهون القفّازات. وإذا ما فكّرتَ في الأمر، فستدرك بأن الأشياء الجميلة كلها التي بوسعكَ القيام بها بيدكَ، لا يمكنكَ أن تقوم بها وأنت تضعَ القفّازات.

- هل نذهب؟

- لنذهب.

ملاحظة الكاتب

أتقدّم بالشكر للمعلّم سيلفانو مودينا، إيفان مالفاتّو، وكل الرياضيين في أكاديمية الملاكمة روديجينا.

أشكر إيمانويلا أوديزيو، برونو فورنارا، إريانّا مونتورسي، مارينا نونّو، قاعة الألعاب دوريا في ميلانو، جورجو ساراكّو، المعلّم تاتسي، ورينو تومازي.

أشكر لاغ وإيلينا تيستا.

وأخيرًا، أتقدّم بالشكر إلى جاك لاموتا، والذي استعرتُ منه نكتتَيْن: الأولى في الصفحة رَقْم ٩٩ والثانية في الصفحة رَقْم ٢٩٧ إنه لا شك شخص موهوب، بمزاجيّته تلك. إلا أن نكتَتَهُ الأجمل هي: "كنّا فقراء جدًّا، حتّى إن أبي يخرج، حين يُقبل عيد الميلاد، يُطلِقُ رصاصة في الهواء من مسدّسه، ثمّ يعود إلى البيت، ويقول: آسف، لقد انتحرَ بابا نويل".

من الكتاب:

حينما كانوا يغسلون المقطورة - بين حين وآخر - كان الأستاذ موندريان كيلوري يحضر لمساعدتهم. بعد حادثة فانكور، أصبح هو وغولد صَديقَيْن. وكان الأستاذ يحبّ الآخرين أيضًا، شيتزي والعملاق والأبكم. وكانوا يتبادلون أطراف الحديث، بينما هم يغسلون المقطورة. وكان "بحث حول المصداقية الفكرية" أحد تلك المواضيع التي تسلب لُبّهم.

١. إن لدى الناس أفكارًا.

يقول الأستاذ موندريان كيلوري إن الأفكار أشبه بمجرّات إدراكية صغيرة، ويدّعي أنها فوضوية ومتغيّرة باستمرار، ولا يمكن استخدامها فِعْليًا في الواقع. إنها جميلة، هذا كلّ ما في الأمر، هي جميلة جدًّا. ولكنها عبارة عن فوضى عارمة. الأفكار، في شكلها العذري، فوضى عارمة حقًّا. إنها إيحاءات مفاجئة، تفضي إلى اللا نهاية. هكذا يقول. أمّا الأفكار "الجلية وواضحة المعالم"، يضيف، فهي من اختراع ديكارت، وهي ليست إلا خدعة، لا توجد أفكار واضحة، الأفكار بطبيعة حالها معتمة، أما إذا كانت لديكَ فكرة واضحة، فلا شك بأنها ليست فكرة.

- ما هي، إذنْ؟

المتوسط

ألِسَّاندرو باريكُّو: الكاتب الأكثر شعبية في إيطاليا بلا منازع، هو أيضاً مخرج ومؤدي. تُرجمت رواياته إلى عدد كبير من اللغات العالمية، مثل أراضي الزجاج، وحرير، والبحر المحيط، ومدينة، وبلا دماء. وتم تحويل مونولوجه المسرحي ١٩٠٠ إلى فيلم سينمائي حقق نجاحاً وشهرة كبيرتين، الفيلم هو أسطورة ١٩٠٠.

منشورات المتوسط

"كُتبت الرواية بأسلوب حيوي، يمكن مقارنته بأسلوب جوليان بارنس، أو دوغلاس آدمز، أو حتى أومبرتو أيكو. وقد أصبحت قراءة الكتاب في ايطاليا أشبه بطقس مقدس"

ألفريد هيكلينغ (ذي غارديان)

«المدينة» هي رواية بثلاث حكايات، تتداخل فيما بينها، بدون حواجز أو فواصل، وتنساب كثلاثة أنهر متوازية، وتتشعب منها حكايات أخرى وشخصيات عديدة. الحكاية الرئيسة الأولى هي حكاية غولد ومدبرة منزله شيتزي شيل. غولد طفل عبقري هجره والداه، يعيش برفقة شيتزي شيل وصديقين من صنع خياله، أحدهما عملاق لا تسعه سيارة والآخر أبكم «يتحدث». تنساب من خيال غولد حكاية الملاكم ليري غورمان ومدربه مونديني، حكاية تولد وتتطور أحداثها فقط حينما يكون غولد جالساً في المرحاض. أما من خيال شيتزي شيل فتنساب حكاية الويسترن في الغرب الأمريكي، وتحكي قصة مدينة مزقت الريحُ فيها الزمن، وضاعت أقدار الناس ومصائرهم في غبارها.

بينما القارئ يطالع «المدينة» ويتنقل فيها من حكاية إلى أخرى، يشعر وكأنه سائح في أرجاء مدينة ما، ينتقل من حي إلى آخر، ومن شارع إلى آخر، حيث الأحياء قصص والشوارع شخوصها.

ISBN 978-88-99687-74-8

9 788899 687748

المتوسط